شؤون فلسطينية

٧٠

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٧

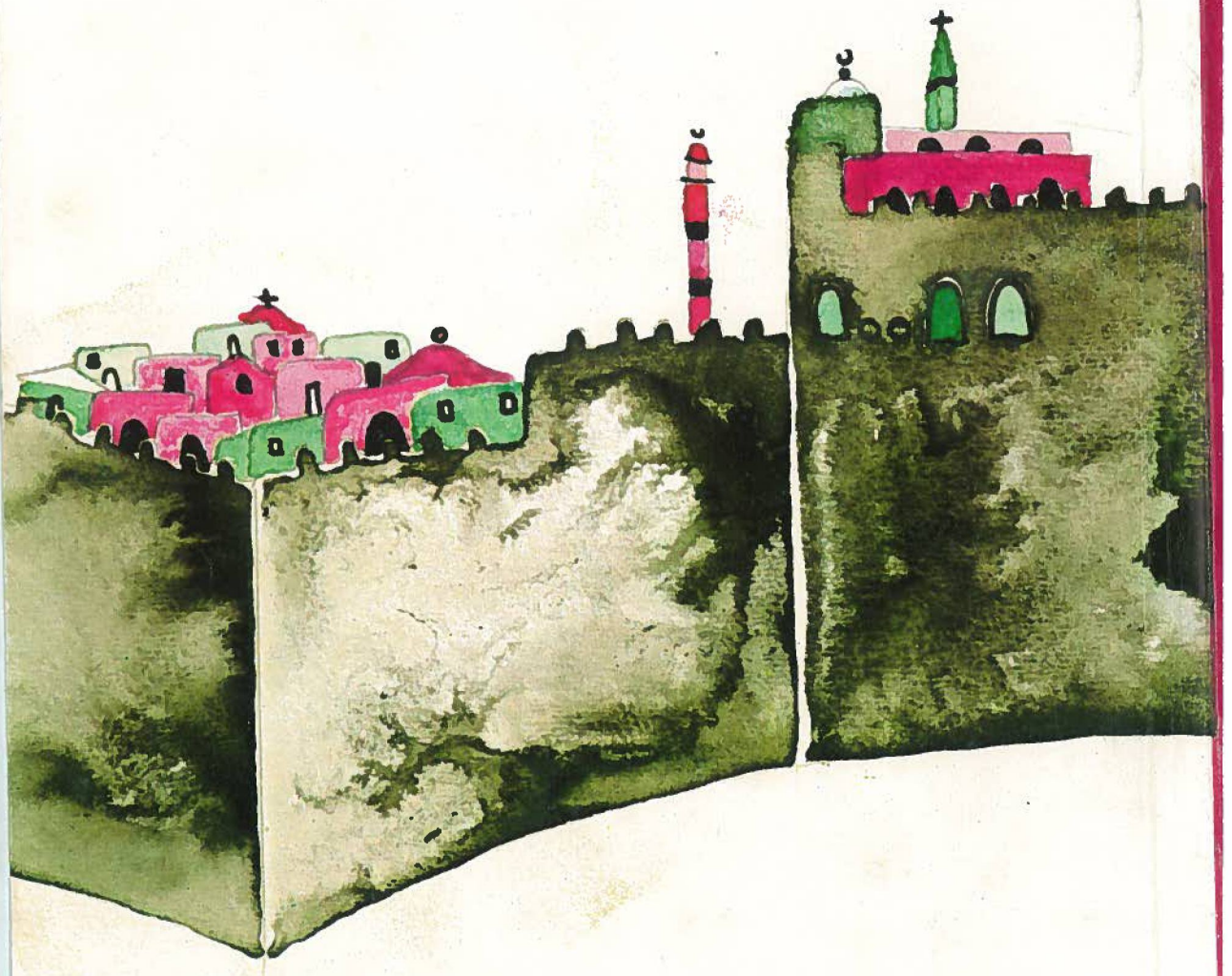

شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش
سكرتير التحرير : الياس خوري

٧٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٧

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت — لبنان ؛ ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

مدير التوزيع : غازي دانيال

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل.ل. في سائر الاقطار العربية، ١٠٠ ل.ل. في اوروبا ، ١٢٥ ل.ل. في بقية بلدان العالم .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف بريشة
جمانه الحسيني

□ ارتفعت تكاليف الطباعة والكتابة والحبر والورق والبريد ، الى درجة لم تعد معها « شؤون فلسطينية » قادرة على الاستمرار في تلافي التعامل مع موجة الغلاء الكاسحة ٠

□ واشتدت وتنوعت اشكال الحصار على الكتابة الفلسطينية ، فصار حرص « شؤون فلسطينية » على مواجهة القضايا الفكرية والسياسية مواجهة ثورية سببا لمنعها من الوصول الى القراء في بعض البلدان ، فكان الحجب وتعريض امكانياتها المادية الضئيلة الى مزيد من الضعف ٠٠

□ وازدادت متطلبات تطوير « شؤون فلسطينية » ، وتوسيع اطار اهتماماتها لتشمل

المحتويات

الصفحة ٤ : **سيحرق هذا المسرح**

٧ محمود درويش : **ايها النسيان انك تليق بكل الاسماء ولكنك لن لن تكون تل الزعتر ٠**

١٢ محمود سويد : **الجنوب : الانفصالية الجديدة ٠**

١٨ د٠ الياس شوفاني : **الانتخابات الاسرائيلية التاسعة : ترميم اسوار الغيتو ٠**

٣٢ سمير كرم : **الثابت والمتغير فيمبادىء السياسة الاميركية٠**

٥٢ نزيه ابو نضال : **الوجه الآخر للتسوية ٠**

٥٨ كلوفيس مقصود : **عن الديمقراطية والوحدة ٠**

٦٦ معين بسيسو : **دفاتر فلسطينية ٠**

٨٦ ادونيس : **قصيدة بابل ٠**

١٠٢ يحيى رباح : **الى اللقاء في الموت القادم ٠**

كل جوانب الحياة الفلسطينية ، ومنها الحياة الادبية ٠

لذلك ، قررت ادارة مركز الابحاث وهيئة تحرير شؤون فلسطينية ، بالتعاون مع الكثيرين من الادباء الفلسطينيين والعرب ، اصدار ملحق ادبي بعنوان « شؤون ادبية » ابتداء من شهر اكتوبر (تشرين اول) القادم ٠ ونحن نطمح الى ان يشكل هذا الملحق اطارا واسعا للكتابة الفلسطينية العربية ، وامكانية لبلورتها في مسار طليعي ثوري ٠ اننا ننادي اجمل الاقلام الثورية للمساهمة في تحقيق هذه الامكانية ٠

☐ ومن الطبيعي ان يجبرنا تطوير « شؤون فلسطينية » في مناخ الغلاء الكاسح ، على رفع سعر المجلة الى خمس ليرات لبنانية ، ابتداء من هذا العدد ٠

الصفحة ١١٢ خليل بركات : **اتفاق شتورة وتحديات الوضع في الجنوب** ٠

١١٩ ماهـر الشريف : **قضية فلسطين ومناقشات المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية** ٠

١٤٤ شهادات : **انت متهم ٠٠ قل ما تعرفه** ٠

١٧٤ رسـائل : **رسالة جيبوتي** : خير الدين عبد الرحمن ٠ **رسالة واشنطن** : نبيل حاتم ٠ **رسالة لندن** : مصطفى كركوتي ٠ **رسالة باريس** ٠٠٠

١٩٣ مراجعـات : **الحرب في ارض السلام** : محمود عزمي ٠ **مؤتمر جنيف واحتمالات السلام** : عبد العال الباقوري ٠ **الصبار** : يحيى يخلف ٠

٢٠٨ شهريات : ١ ـ **المقاومة الفلسطينية** : بلال الحسن ٠ ٢ ـ **المناطق المحتلة** : عبد الحفيظ محارب ٠ ٣ ـ **اسرائيليات** : توفيق فياض ٠

٢٣٦ مروان حميد : **جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية ١ـ٦ـ١٩٧٧ ـ ٢٨ـ٧ـ١٩٧٧** ٠

سَيُحرَق هٰذا المسْرح

لا زرقاء اليمامة ولا الانبياء الغاضبون هم الـذين ينذرون بالانهيارات القادمة · ان ما ينهار ينهار · المسرح يعـج بالمثلين العاجزين عن مواصلة النص ، والنص دموي ، والجمهور المقيد بالمقاعد يحاول ان يحرر ايديه ليحرق المسرح ، ويستولي على دوره التاريخي · البديل يتكون تحت الرمل والقهر · والرؤيا ملك الجميع ، لان الانهيارات ساطعة ·

عرق كثير ، وخيبات · دم غزير وانفجارات · أرض تصغر وجراح تكبر · اوطان ذات قابلية لاعادة النظر · واميركا تدخن الغليون ورئيسها يبتسم · الشاي في موعده المحدد ولا وقت للوطن · العبيد يتظاهرون بالانحناء · وكان للرغيف شكل فلسطين ووجه الفلاح · ذكريات وانهيـارات · صمت يخبيء براكين · ويفاجأ المثلون العاجزون بأن المسرحية تقترب من النهاية ، والغزاة يجلسـون على حافة المسرح · تنتشر الفضيحة · تعجز البلاغة عن التبرير · يقتـرب المثلون قليلا من الامة : في هذه اللحظة الحاسمة من التاريخ عجزنا عن تحرير الارض ، ونجحنا في حماية الحكم · لا احد يصفق · يقال وعد آخر : ما زال الحل في يد اميركا ، ولكن اميركا مشغولة بانتخابات الرئاسة الجديدة ·

وحزيران يتجدد ويتمدد ، يثار من تشرين السريع · تبنى سجون جديدة · تخاض حروب اخرى بعيدا عن الاوطان المحتلة · فيواصل الغزاة السباحة فـي مياه جلودنا · يزداد انتشار الكوكاكولا والادب المنحط · تبتكر وسائل جديدة للتعذيب العربي · يمنع الطلبة من تقاليد الهتاف للخبز والحرية · يرتفع الحجاب على وجوه النساء · فيعلق بعض الادباء : ان الحجاب اكثر اثـارة · يـزداد الاقبال على قارئات الفناجين · وتعقد الوزارات جلسات طارئة لتحضير الارواح· يعاد الايمان الى الامة بقرار جمهوري · وتعم الخرافة ·

ولكن ما ينهار سينهار ·

ماذا لم يقدم عرب اميركا الى اميركا ؟ حتى التصوف قدموه مقابل مديح زائل · تصير شعارات الجيل نكتة ممجوجة · التضامن ، الوحدة ، الاشتراكية ، العروبة ، العدالة الاجتماعية ، فلسطين ، الثورة ، ذكريـات ·· ذكريـات ·

الاسرائيليون او العبرانيون او سكان فلسطين الجدد ، ولا يقال الصهيونيون ، يعتنون ببيوتهم الجديدة في المستعمرات الجديدة على أرض عربية جديدة • ياتون الى الاسواق العربية ليشتروا الديكور والتحف والهدايا : السيوف العربيـــة المرصعة بماء الذهب او بماء الفضة او بماء الوجه • ويتعلم الباعة كلمات عبرية تنفعهم في وقت الانفراج • اليس هذا هو السلام ؟ وفي الارض متسع للجميع • يستولون على منابع المياه والاحتمالات ، ويقتربون من منابع النفط • وفي وسع الحجاج العرب ان يزوروا القدس • اليس هذا هو السلام ؟• فالذين يستطيعون ان يفرضوا الحرب التي يريدون ، يستطيعون ان يفرضوا السلام الذي يريدون • ولكن ما ينهار سينهار •

يخرج سكان الارض المحتلة الى الشوارع • يبحثون عن سلاحهم الوحيد : حجارة وفخـــار واغصـــان زنزلخت • يشتبكون مع الدبابات وينشدون لاعيـــاد قديمة • تعلن حالة الطوارىء في الاذاعات العربية • الصمود الصمود • يتدخل الشعراء ليحسموا المسألة لمصلحة القصيدة • وتشن حرب اخـرى عـلى مواقـــع الثورة • النشاز الفلسطيني يتصاعد ، فيتصاعد الحرص العربي الرسمي علـى تامين شروط التسوية ، بضرب الشروط الفلسطينية والاجساد الفلسطينية • يتدخل الرئيس الاميركي مرة اخرى ليترجم ايمانه بالله الى عدل • يطلب تعميق قبول قرار ٢٤٢ • نقول : عدل • يعدل تصريحاته ، ويعدل عن ايمانه • نلتمس قرارات جديدة • نذهب الى مجلس الامن • نأخذ فيتو اميركيا جديدا • نذهب الى الجمعية العامة • نحصل على قرار جديد • يكبر ملف العدالة والاعتراف بالحقوق • ناتي الى ساحة الصراع الاصلية • ميزان القوى مختل • العدالة من دون قوة • والقرارات في سلة المهملات •

ولكن ما ينهار سينهار •

ميدان المعركة لا يستطيع ان يظل بعيدا عـن مناخ البيت • التفكك ، التمزق الطائفية ، الاقليمية ، الفساد ، الرشوة ، انبعاث القديم ، الردة ، الاستهلاك • تخلى الممثلون عـــن سلاحهم وذهبوا الـى العـراء • ولكنهـم يحتفظون بســلاح

استراتيجي ثقيل : وعد جميل قد يقدمه رئيس اميركي مؤمن · الامل محاصر من الوريد الى الوريد · الثروة ضد الثورة · الفقراء يزدادون فقرا · الانعزالية القادمة من جنوب المعركة الجنوبية تترسخ في جنوب لبنان · لم تعد الصهيونية نموذجا يحارب ، بل مثالا يحتذى · ندخل في الحروب والمذابح · يتقزز المثقفون من تخلف الامة · الشر من طبيعة الانسان · وماذا يستطيع النظام ان يفعل ؟ الكاس والمراة هما الحقيقتان الوحيدتان والباقي باطل الاباطيل · لا احد يسمي الازمة · لا احد يقول ان الطبقة اياهاتوغلت في طبيعتها التاريخية ·· خانت · يدرك الممثلون ان اميركا لا تنقذ الاوطان · ولكنها لن تتخلى عن الاخوان · تخذلهم مرة اخرى · يتقدم ضابط وسيم من الاذاعة · يتسلق حائط المبكى والانقلابات ـ فلسطين · فتلك مقدمة حتمية للبلاغ رقم ١ · يعيد العلاقة العربية ـ السوفياتية الى خطها التاكتيكي · يستبدل السجناء · ينذر اميركا ويعطيها مهلة للضغط على اسرائيل · ينتظر معركة انتخابات الرئاسة الاميركية ثم انتخابات الكنيست الاسرائيلي · لا شيء ، لا شيء · يغضب · يسحب سفيره من واشنطن ويبقى الملحق التجاري لتصريف الاعمال · لا يضحك الجمهور ولا يبكي · يختلف وزيران اسرائيليان على سيدة او رشوة · يكتشف الباحثون مصادر ضعف الكيان الصهيوني من الداخل · يعلن عمال مطار اللد الاضراب ساعتين عن العمل · يتحمس الباحثّون في الشؤون الاسرائيلية ويضعون خطة لتعميق الانهيار الصهيوني · تاتي انتخابات جديدة · ينتصر المتطرفون : لا انسحاب ، ولا ارض ، ولا سلام ، ولا حقوق · لا نغضب كثيرا ، فتلك مسالة عابرة · ننتظر · ننتظر · ولا تتمكن المحامية الاسرائيلية التقدمية من تقديم البديل ·

المسرح يعج بالممثلين العاجزين عن مواصلة النص ، والنص دموي · والجمهور المقيد بالمقاعد يحرر ايديه · يحرق المسرح · يستولي على دوره التاريخي · ويجد البديل · لان ما ينهار ينهار ·

محمود درويش

محمود درويش

ايها النسيان ، إنك تليق بكل الاسماء ، ولكنك لن تكون تل الزعتر

يفلت منا تل الزعتر · وهذه اللغة للتفاصيل · كيف نحمي النص من الانفجار . واسئلة اخرى · ويتكرر سوء التفاهم الذي لا ينتهي بين البطولة وعناصرها · البطل هو آخر من يعرف انه بطل · وتل الزعتر لا يعرف تل الزعتر · ولا نعرف، في هذا الخضم ، كيف نسمي · سنجتهد كالمعتاد ، واسئلة اخرى · ولكن الذي اتيح له ان يحدث الحدث لا يستطيع ان يشهد حدود دمه · والذين ساروا في الحنين الى ما هو آخر لن يروا في صفوف الكلمات المنهالة عليهم الا مجموعات غريبة من الحشرات · بعضهم ذهب الى الصمت الاخير ، وبعضهم يذهب الى الحياة بشروط محكمة · ويفلت منا تل الزعتر · وليس كل من جاء من هناك كان هناك · وسنقول الان : تل الزعتر تراكمات بساطة ، وثقافة علاقة بالمعجزة في اشد مقوماتها الفة · تل الزعتر معجزة الماء · اختيار الذين يختارون والذين لا يختارون · استدراج البشر الى سر التاريخ ، وترويض الدهشة . فيصير كل شيء عظيم في متناول اليد · تل الزعتر شمول لا يكبر حبة العدس، وقارة من الفوارق بين الانفجار والانتحار · تل الزعتر اسماء كثيرة لا اسم لها · حالة ترهق حاملها وقاتلها · من يضبط هذه الصيغة بعد الان ، واسئلة اخرى · وهو لذلك يفلت منا ومن ذاته · تل الزعتر اكبر من تل الزعتر ·

·· وسنقول كلاما كثيرا · سيقال كل شيء ولا شيء · وستمر الايام الاخرى

★ مقدمة كتاب « طريق تل الزعتر » الذي سيصدر هذا الشهر عن مركز الابحاث ·

على هذه المدينة ـ بيروت ـ التي لا يقيم فيها الا الذين ماتوا والذين سيموتون بشظية طائشة او باقتحام ، ويعقبهم فرح · ومع ذلك ، يظل حزنها من الخارج اكبر · لا ادري الى اين تقودني هذه الملاحظة ، ولكنني ركبت كيس طحين ومشيت على الماء الليلي من قبرص الى صيدا ، لاقترب من انفجارات اللحظة التي حبلت بها مئات السنين من تاريخ امة · على سطح السفينة شباب غادروا الكتب والسفر في طريقهم الى بيروت ليدافعوا عن الحلم · كنت في اسبانيا قبل ايام ، ولكن اسبانيا لم تكن اسبانيا الا على ظهر هذه السفينة · ان الذين يحلمون يشبهون بعضهم البعض ولهم وطن واحد ، وفي بيروت ايام مشابهة : بالامس تركيب المولدات والمحركات الكهربائية ، واقامة الخطوط الحديدية في الصحراء / بالامس المحاضرة العلمية عن اصل الانسان / اما اليوم فالصراع / بالامس الايمان بالقيمة المطلقة ، للاغريقية / وانسدال الستار على موت البطل / بالامس الصلاة للشمس في الغروب / اما اليوم فالصراع · / غدا اعادة كشف الحب الرومانسي / وتصوير الغربان وكل البهجة / في ظل «الحرية» السائد / غدا ساعة قائد العرض ولاعب الموسيقى / غدا للفتية الشعراء يتفجرون كالقنابل / والتمشي على حافة البحيرة / غدا سباق الدراجات / اما اليوم فالصراع · (اودن) ·

اليوم تل الزعتر · وتل الزعتر يستجمع بؤسه ويقف على قمة تفاصيله التي يخفيها ، فيحفظه الذين يعرفون والذين لا يعرفون والذين لا يريدون ان يعرفوا · اليوم يسمون شرق المتوسط تل الزعتر · في نيويورك ولندن وباريس وروما : سقط · لم يسقط · سيسقط · لن يسقط · اجتهادات صحافة ، واعداء ، واحلام جيل آخر · لم يعد ذلك مهما · العالم كله تحول الى انعكاس لوهج الزعتر · تل الزعتر يفلت من الاحتمالات · ينزلق من الصواب والخطأ · انه يحول الكرة الارضية الى مخيم · تل الزعتر يستولي على الوقت ·

لا رحمة · لا رحمة · قال لي صديق مشغول بملاحظة انظلم الاوروبي : تعبت منهم هؤلاء الذين لا يكفون عن سؤالي كيف تهجي اسمك · وتفاخر : هؤلاء لا يسألونك كيف تهجي تل الزعتر ! اخرس ! فليس ذلك دليلا على علاقة المتناقضات التي تجمل ، فليس لاحدٍ شأن في الالم الذي يصيب انسانا تشد ساقه اليمنى سيارة في اتجاه ، وتشد ساقه اليسرى سيارة في اتجاه آخر · لا · ذلك عادي ·· عادي لانه من تل الزعتر · لا · لا · هل فكرت هذه الضحية بان ما يرفعها الى هذا الوجع يرفعها الى الشهرة ؟ هل تعيدها الى الحياة او الى فلسطين شفقة جنتلمان انجليزي ؟ ايها العالم ، اني ارفضك · وماذا نستطيعون ان تقدموا لنا ! سؤال يواجهه الفلسطيني على شاطىء الباسفيك من غاضب على القهر الاجتماعي · وانت تجيب وتحاول ان تلم في صدرك اشلاء طفلة من تل الزعتر · وفي مجلس الامن يرفع المندوب الاميركي

يده ليقول في ادب : لا ـ لحق الفلسطينيين في عودة او وطن ·· او في اي شيء خارج الموت · ولكن تل الزعتر يقاوم · وفي كندا يتلذذ رجـــال الامن والجمارك بتفتيش مسام جلودنا ، لانهم يخافون على دورة الاولمبيك · وتنهمر الاخبار : سقط · لم يسقط · سيسقط · لن يسقط · تل الزعتـــر يقاوم · وفي فانكوفر تقول الصحافة ان الفيلم الفلسطيني هو اجمل افلام العالم في هـــذا المؤتمر · وفي اليوم التالي كانت سيدة فلسطينية تسأل رجل الامن الكندي : هل تفتشون الجميع كما تفعلون بنا ؟ قال في حسم : لا · فلماذا تخبره اذن انهم ذبحوا اباها وامها واختها دفعة واحدة ؟· ان الذين يرفضون حقنا في ان نكون عاديين هم الذين يستدرجون نومهم باقراص تحولهم الـــى حراس · ان مبتكرات كثيرة قد انجزت من اجل مراقبة الطريقـــة التي يتنفس بهـــا الطفل الفلسطيني · ان علما باكمله قد جند لترويض هذا الدم · كانت ادوات الحجب اكبر من ان تحجب · وفي خمس دقائق زعتريـــة توقف العـــالم عن الرقص والاهمال · وتحولت انظاره الى هذه المباراة ·· في خمس دقائق · قادم من هناك · ذاهب الى هناك · نحب او نمشي · سيموتون · لن يموتوا · لا يريدون لهذه الدورة ان تنتهي لان الضحية تلعب باتقان · وما زالت الافلام الاميركية تجيد صناعة الابادة السهلة · وفي جنوب شرق آسيا ، وحين صار دمهم شريكا في اللعبة ، ارادوا لها ان تتوقف ، وارادوا للكاميرا ان تلجم ذكاءها · اما في تل الزعتر ، فقد طالت اكثر مما وعدوهم ، والدم ليس دمهم · فلتستمر رياضة الموت · تصفيق تصفيق ·· وكتابة ·

كل السفن بطيئة · ولكن هذه السفينة السائرة على الماء الليلي من قبرص لا تجد صيدا · ولا ترى الا اضواء القراصنة القادمين من ميناء حيفا · يحتلون البحر ايضا · حوالي مائة طالب غادروا سنواتهم الجامعية الاخيـرة لينتموا الى الحلم · منذ فترة طويلة لم نسمع هذه الاغاني · والسفينة لا تصـــل · يدفعونها بالهتاف والاناشيد · ولم يتدربوا على حمل السلاح · وعلى طريق تل الزعتر تقف المرأة اياها ذات السواد · تختار اجمل الاطفـــال وتذبح تذبح وتنتشي · تنتشي وتعود الى البيت لتنام · وعلى طريق آخر يقف العملاق العاجز ويختار العذراء · يضاجعها بسكين المطبخ الكبيـرة ، في هـــدوء في هدوء · المشاهدون لا يتحركون · الصليب الاحمر · التضامن العربي · الله· الوطن · العائلة · النساء الانيقات · ثم يمسح السكين بالبنطلون الابيض · يزدان بعلامات فحولة السكين · العذراء ترشح دما · العملاق العاجز يرتاح·

كل السفن بطيئة · ولكن هذه السفينة ابطأ · كانوا مائة · سيعود منهم عشرون ·

تل الزعتر · اسماء كثيرة لا اسم لها · لا احد يحب كالاخر · لا احد يموت

كالاخر · ثلاثة الاف قتيل ليسوا رقما · سيرة البشرية تقتحم طريقة الفهم الشائعة ، تنقض على التاريخ : انك تكذب · لايسمعهم التاريخ ، يعطيهم رقما ولا يجمع الاشلاء · لا يرى كيف التقطوا دماءهم ، قطرة قطرة ، من بين عشرات السنين ومساحات الرمل · يضعهم في جملة واحدة : ثلاثة الاف قتيل ماتوا في معركة · ولكن ·· لا احد يموت كالاخر · والكتابة ، كالتاريخ ، تكذب · نحن هنا نرتكب اكثر من مخالفة · نروي عنهم ونخفي بعض ما قالوا وما يقولون لننقذ اللحظة السياسية العابرة من الحرج · لا وصية لهم ولا قبر · رسونا على دمهم وكان الارض · وفي اوج الكتابة كانوا يموتون بدلا منا · كانوا هم الذين يكتبون · وظلت الكتابة تكذب · وفي ساعات الدم الكبرى ·· في ساعاتهم نتساءل عن جدوى الكتابة ، ونمضي في السؤال لنسأل عن جدوى الحياة ذاتها · نعم ، سنشك في كل شيء ، سنشك في الحياة من فرط ما ماتوا · وسنسأل : الى متى نرسم المواعيد ونسقط ؟ وسيعيدون اسئلتنا الى التوازن · سيعيدون لنا الحياة ذاتها · سنؤمن ونتابعهم · هؤلاء الذين لا جدران تكفي لصورهم ، ولا اسم لاسمائهم ، ولا حبر لا حبر يكفي لتقليد دمهم · انهم مرميون على الارصفة والساحات والبذور ، مرميون على الشمس وفي الظلال ، مرميون في الحنان والظهيرة ، مرميون في الذاكرة والنسيان · وما علينا الا ان نشهر الاقلام ونغمسها في الايقاع الدموي الجاهز وفي الصور المجانية ، فيصير الكذاب فينا مخلصا والركيك متينا ويزدهر الادب الفلسطيني على دماء تل الزعتر · وتنهال باقات الورد ويمنع النقد ، لاننا نكتب عن تل الزعتر · ان بطولتهم شيء ، والكلام عن هذه البطولة شيء آخر · فلينصرف الذين يقيمون من اشلائهم متاريس الى هواياتهم الحقيقية · وليتحدث تل الزعتر عن تل الزعتر · لهم ، وحدهم، حق الكلام · هذا الكلام لهم · وسنجد في كلامهم كتابة تنفي الكتابة · سنرى في هذه الصفحات العفوية الخارجة من المذبحة والبطولة سقوط الكتابة وازدهار لكتابة · لنتعلم ابجدية الصدق والفن من هذه البساطة · ان لغتهم هي التي تغير · اشعر وانا خارج من هذا النص انني قادم لتوي الى الحياة· اي كاتب يستطيع العودة الى تقاليده بعد قراءة هذا النص الدموي ، ولا يكون كاذبا او قاتلا · سأتوقف عن الكتابة · سأتوقف عن الكتابة الى ان يهدأ دمي واجد كتابة اخرى ·

ان تل الزعتر اخطر حادث بطولة في تاريخ العرب · واسأل نفسي كثيرا: هل يكون الوطن وحشيا الى هذا الحد ؟ نعم ، وقبيح ايضا ومقدس حين يكون رئة الحياة · لم يقتل وطن ابناءه كما يفعل الوطن الفلسطيني ، ولم يبدع شغيلة وطنا كهذا الحلم الذي يغير عصرا · وحين يكون الحصار هو الحصار الاخير ، وحين يكون الخندق هو الخندق الاخير تصبح مساحة الصفيح الصغيرة هي الكون ، ويكون سقوط هذه البقعة سقوط الكرة الارضية في

فراغ لا ينتهي · من علمهم ذلك ؟ القيد والثورة · ومن ايضا ؟ وجدوا انفسهم يموتون فماتوا تماما كما يجد المرء نفسه حيا فيحيا · وكانوا اكثر حرية من الحرية ذاتها حين انصهروا فى الموت وهم يعرفون ان موتهم ليس شعرا كما لم تكن الحياة شعرا · لا جمال لهذا الموت ·· لا جمال لا جمال الا هم · كانوا يدافعون عن كوب الماء وعن قابلية الجرح للشفاء ، ولا يهمنا ان نعرف ان كانوا يعرفون انهم كانوا يدافعون عن القارة العربية المهددة بالتخلي عن احلامها · لا شروط للبطولة الا شروطها ذاتها حين ترمينا الحياة الى لحظة لا نستطيع فيها الا ان نبدع البطولة دون ان ندري · كانوا يحولون الملايين المنتشرة على ارض خائفة الى قبضة يد تتحفز لتغيير مسار المرحلة · كانوا يعطون للفعل الفلسطيني معناه العلني المتكامل الممتد الى كل الحدود وميزان المدفوعات والنفط والطبقات والشعر والامية والكبت الجنسي والخيانة · كانوا يفضحون السر الفلسطيني ويزيلون عن البيان الفلسطيني غشاء المجاملة · وكانوا يقولون للامة انها ليست هي المهزومة ، وان كل موقع فيها يحمل شروط تل الزعتر · ولذلك ، قاتلوا حتى جرعة الماء الاخيرة وبرزت وجوه اعدائهم الكثيرة · خرجوا من اللحظة المرائجة الى زمن آخر · واخرجوا الوطن الفلسطيني من حواجز البحر الابيض والبحر الاحمر والبحر الميت ونهر الاردن والصحراء ·

وحين خرجوا الينا من بوابات جراحهم الواسعة لم ندخل معهم في عناق متكافىء · كان المستقبل مرميا على الطرقات · وكنا نغطي وجوهنا بافراح سرية · كان السكون يغطي المدينة ، وكانت السفينة البطيئة تفرغ اكياس الطحين وتحمل الجرحى وبقايا الطلبة والاعراس · وكانت اسبانيا تمر تحت قوس الظلال · ندخل مرة اخرى في وعي البدايات · سنواصل الرحلة ونصدق احلامنا · تل الزعتر · سقط · لم يسقط · لن يسقط · كانت قوافل الجراح تصب في المدينة الرياضية وتصفيقنا وتلون فلسطين والمدن العربية الخائفة · وكانت ظواهر الاشياء تعود الى سياقها الطبيعي : فصل اخر ينتهي وتنزل البطولة الى تفاصيل اخرى ·

لا ، لن يسدل الستار على نهاية بطل ، لانه يزرع الارض الان بدايات ، واسئلة اخرى · يرحل تل الزعتر عن الارض ليدخل المحيط الكبير في دورة التدريب · ويعرف الثائر انه لن يستطيع ان يكون الا ثائرا · ولان فلسطين ليست زانية ، ولانها لا تقيم في حجرة ، فلن تكون حبيبة الجميع · انها صراع الجميع · ويصير اسم صغير مثل تل الزعتر مفترق طرق لكل الجهات · ومن طريق تل الزعتر ، من طريق الثورة نصل الى فلسطين واخواتها · والطريق الاخر يؤدي الى طريق اخر ·· الى سيطرة الكاز على الدم ·

ايها النسيان ! انك تليق بكل الاسماء ، ولكنك لن تكون ·· تل الزعتر ·

محمود سويد

الجنوب : الانفصالية الجديدة

ما ابعد بيروت عن الجنوب !

ما أبعد العالم العربي كله عن الجنوب ! ذلك انه كلما تجسدت القضايا القومية في مهمات نضالية محددة ، كلما ابتعد العالم العربي عنها · فالوحدة القياسية العربية الآن هي الكلفة · والكلفة ، في زمن النفط العربي ، اسمها بالعربي الفصيح : البترو ـ دولار · الكل يزكي عن نفسه وماله : البعض يدفع راضيا ـ فتسمى زكاة ، والبعض الاخر يدفع الزكاة كرها وخوفا ، فهي في الحقيقة جزية ·

وفي كل الاحوال ، تلف عباءة البترو ـ دولار ، الشعب العربي ، من المحيط الى الخليج ، تشد على عنقه من فوق ، ثم تسترسل وتسترخي وتترهل في الوسط ، لتضيق وتضيق عند القدمين ·

من هنا تبدو مسألة الجنوب بعيدة كل البعد عن العالم العربي ، وان كانت بالفعل اقرب اليه ، واكثر التصاقا به مما يبدو في الاسم ، فاطلاق اسم المسألة على الجنوب ، فقط لانها تدور على ارضه ، ولان سكانه اول ضحاياها ، أمر فيه الكثير من الافتراء وعدم الدقة · ولا بد ان تحمل هذه المسألة يوما اسمها الحقيقي ، فيقال مثلا : مسألة نشوء اسرائيل ثانية ، أو الصلة الجغرافية ـ البشرية بين اسرائيل والكيان العنصري الطائفي الجديد ، او غير ذلك من الاسماء التي يبدو ان المواطن العربي لن يتحسس خطورتها ، الا بعد ان تمتد نارها الى دياره ، بيتا بيتا ، وتشعل فيها الحرائق ·

ولكن ، ما هي المسألة الجنوبية التي يتجاوز حجمها اسمها ؟

□

قبل اسرائيل ، كانت فلسطين تحتضن الجنوب ، حتى ليكاد يصعب عليك ان تميز بين الارض والناس ٠

وبعد اسرائيل بين ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ، تحولت الصلة الجغرافية والسكانية بين لبنان وفلسطين ، الى عازل بين اسرائيل ولبنان ، كغيرها من خطوط وقف النار الاخرى مع العدو ٠

وبين ١٩٦٨ و ١٩٧٥ ، تحول الجنوب الى مزيج من الادوار ، اختلطت فيها الوقائع بالمطامح ، والحقائق بالاحلام ٠

عاد الجنوب من جديد ، واكثر من اي وقت سابق ، الصلة التي تربط لبنان بفلسطين ، ارضا واناسا وقضية ومصيرا ٠ تحول الى ارض تحبل بالثورة٠، وتعد بها ٠٠٠ ثورة يمتد طموحها ليشمل كل الحالمين بالثورة في دنيا العرب ٠ بل تطلعت ارض الجنوب الى دور اكبر بكثير ٠ فتوسد صخورها، وعانق سفوحها ثوار من كل تورات العالم ، تدربوا على السلاح : سلاح النار ، وسلاح النظرية ، وسلاح الافكار المتوثبة ٠ ومن ارض الجنوب ـ فلسطين ، عادوا الى ثوراتهم وهم اكفا واغنى ٠

كان الجنوب ، في طموح الثورة الفلسطينية والوطنيين اللبنانيين ، البؤرة التي تمتد منها نار القتال الى الجبهات العربية الاخرى ٠ النموذج الطموح لاراءة القتال ، ولما يزخر به هذا العالم العربي من امكانات ٠

وكان الجنوب والثورة الفلسطينية ، في اقل الحسابات ، الجذوة التي تبقي نار القضية مشتعلة ، بينما انصرف اخرون ، الى مزاحمة اسرائيل على دور كلب الحراسة للمصالح الامبريالية ٠

وكان للتجربة التي اخذت تنمو وتكبر في الجنوب اعداء كثر ٠ وكانت اسرائيل اشدهم قلقا ، ليس فقط لان الجنوب استمر الجبهة الوحيدة الساخنة على طول الشريط الممتد عبر قارتين : من شرم الشيخ الى شبعا في اقاصي العرقوب ٠ بل ايضا ، والاهم من ذلك ، هو ان في الجنوب نما البديل ٠ كبر وكبرت معه الحقيقة الفلسطينية ، حتى ملأت سمع العالم وبصره٠ وأصبح الوطن الفلسطيني امرا واقعا اعترف به الجميع ، سلبا او ايجابا ، باستثناء اسرائيل، لانه ينفيها ٠

بالنسبة الى اسرائيل ، يمكن التساهل مع اي خطر ، الا ذلك الذي يتجسد

في وطن اسمه فلسطين · يمكن التفاوض على سيناء · يمكن التفاوض على الجولان · هذه وغيرها من الاراضي العربية المحتلة ، اوراق مساومة وضغط لتحقيق المكاسب · اما فلسطين ، كما يقول بيغن ، فهي ترجمة بتصرف لمصطلح « ارض اسرائيل » (معاريف ٢٠ـ٥ـ٧٧) هذا هو اسمها ، وتغيير الاسم ، هو بالضبط هذا الصراع التاريخي الذي لا نزال في اول مراحله ·

« علينا ان نرفض رفضا باتا فكرة اقامة دولة فلسطينية ـ في جزء من الضفة الغربية او في كل الضفة ، مع تعديلات او بدون تعديلات ، مع غزة او بدون غزة ـ ولا يجوز لاسرائيل ان تسير نحو ذلك في أي حال من الاحوال » ·

« ان دولة فلسطينية هي ، في اساسها ، نقيض لدولة اسرائيل · فالتاريخ لا يرحم ، وقد طرح بديلين ·· عندما قامت دولة اسرائيل ، فانها قامت مكان ، وعلى حساب مناطق فلسطينية ، او سكان فلسطينيين ··· قامت ساريد مكان خنيفس ، وشاعر ـ هعماكيم مكان خرطية ، ونهلال مكان معلول[1] ، وتل ـ حنان مكان بلد الشيخ · في الشيخ مونس تقوم الآن جامعة تل ابيب · ووادي الحوارث هو عيمك حيفر · ومكان بدو العزازمة والهزيل وغيرهم في النقب ، اقيمت مستوطنتا نيريم ، ونيريم يتسحاق · واليوم ، ولو سرنا في هذا الطريق، وقلنا ان للفلسطينيين الحق في ان تكون لهم دولة مستقلة ـ لانهم ابناء البلد نفسه ، ولهم الحقوق نفسها ، فان ذلك لن ينتهي في الضفة الغربية ·

« ··· ان اقامة دولة فلسطينية ستكون بمثابة وضع حجر الاساس لشيء اخر ··· والقول ان للعرب الفلسطينيين الحق في دولة فلسطينية ، وان للاجئين الذين تركوا دولة اسرائيل خلال حرب ١٩٤٨ ، حقوقا شرعية في العودة الى ديارهم واراضيهم ـ كل هذا يناقض تماما صميم وجود دولة اسرائيل · فاما دولة اسرائيل ، واما دولة فلسطينية » (موشيه دايان ـ هآرتس ١٩ـ١٢ـ٧٥ـ نشرة م·د·ف· ص ٥٤ ـ ٥٥ سنة ١٩٧٦) ·

هذا هو منطق الغزوة الاستيطانية الصهيونية ، التي داهمتها يقظة الشعب الفلسطيني ، قبل ان تذهب جذورها بعيدا في عمق الارض الفلسطينية ·

ففي جنوبي لبنان ، اخذت تكتمل خصائص الشعب المستحق للوطن · والى ذلك ، اخذت تتأكد ، بالملموس ، حقيقة ان الطريق الى فلسطين ، هي نفسها الثورة العربية الاشتراكية الديمقراطية العلمانية (وما احوج العالم العربي كله الى الديمقراطية والعلمانية) ، ذلك ان دحر الغزوة الصهيونية ، والقضاء على المعقل الرئيسي للامبريالية في المنطقة ، يعني اولا فك عقال الجماهير العربية واطلاق امكاناتها ، وتنظيمها وتسليحها بالفكر الثوري والبندقية ، ويعني ثانيا، وتلقائيا ، هزيمة الحلفاء والعملاء الكبار والصغار ، العلنيين والمقنعين ،المبتذلين و « المجترمين » ·

وفي مواجهة هذه النواة التي بدأت تتشكل في جنوبي لبنـــان ، التقـــى اسرائيليون وعرب · الاولون يريدون قتل البديل ، قتل فلسطين قبل ان تنتقـــل من القوة الى الفعل · والاخرون يريدون قتل بذور الثورة ، قتل الحريـــة والديمقراطية والعلمانية ، قبل ان تتحول الى نظام عربي ينفي سواه ويقـــوم على انقاضه ·

وظنت الحركة الانفصالية في لبنان ان هذه فرصتها التاريخيـة للافـــادة من شبكة معقدة من التناقضات : التحالف الاستراتيجي مع اسرائيل التي طالما حلمت بمشروع تقسيم المنطقة الى دويلات طائفية عنصرية وسعت الى تحقيقه ، واستغلال خلافات ومخاوف الانظمة العربية ، في آن معـا ·

ومن الثورة الواعدة الموعودة الى المؤامرة : سنتان من حرب الانفصـــال ، التي بدأت برفع شعار التقسيم ، ثم تحولت ، بعد ان لاحت لها اسباب النجاح، الى مشروع انفصالي ، يطمح الى السيطرة على كل لبنان ، او معظمه ، ويحوله بمساعدة اسرائيل الى كيان طائفـــي عنصري ، ويشكلان معا ، قوة دفـــع لمشاريع مماثلة في العالم العربي ، تزيده تفككا وتناحرا وانقساما ·

والجنوب هو الساحة التي يولد عليها الكيان العنصري الطائفي الجديد ، او يلقى حتفه · وهذا هو سر انتقال زخم الحرب اللبنانية كلها الى الجنوب ، حيث يتبلور حلف المصالح العنصرية الطائفية ، ويحمي المحاولة الانفصاليـة الاخطر، في تاريـخ العرب الحديث · فلقد قرر الاسرائيليون ، منذ ما قبل ١٩٤٨ ، انه لا أمل للكيان الجديد ـ اذا قام ـ بالحياة والاستمرار ، دون ان تتأمن له صلـــة جغرافية ـ بشرية باسرائيل · والجنوب هو هذه الصلة ، هو البوابة التـــي لا بد ان تتدفق منها وسائل الدعم والحماية ·

ولقد اقتنع قادة المحاولة الانفصالية اللبنانية ، بصوابية النظرة الاسرائيلية، خصوصا خلال حرب السنتين في لبنان ، اذ تأكد لهم ، ان المشروع ، ضمـــن الظروف الدولية الراهنة ، يكون اسرائيليا او لا يكون ، فدفع بعصبهم الرهان الى نهايتـــه ·

في الاشهر القليلة الماضية ، التي شهدت وقف القتال في مختلف المناطـــق اللبنانية ، كان الجنوب مسرحاً يتم اعداده لاداء الدور الجديد ، عبر الخطوات التاليـــة :

★ التعاون اللامحدود ، ضمن الاستراتيجية والخطة المشتركة ، بين القوات الاسرائيلية ، و « القوات اللبنانية » بقيادة « الميجر » (كما تسميه اجهـــزة الاعلام الاسرائيلية) سعد حداد · ويتم تجهيز قوات الرائد حداد ، تدريبـــا وتسليحا ، من اسرائيل · وتتحرك هذه القوات ، جنبا الى جنب مع القـــوات

الاسرائيلية ، بين اسرائيل والمناطق اللبنانية التي تسيطر عليها ٠

★ الجسور المفتوحة التي تم عبرها نسج علاقات متشعبة : اقتصادية تجارية ، عمل وعمال ، زيارات ، خبرات زراعية وتربوية ، نشاط سياحي ورياضي الخ ٠٠٠

★ التفريغ السكاني الذي بلغ حتى الآن نسبة تزيد على ٨٠٪ ، وشمل المراكز الكبيرة المكتظة ، كبنت جبيل والنبطية والخيام وغيرها ٠ ولعل التركيز الملحوظ على افراغ المنطقة من سكانها ، يهدف الى اسكانها بعنصر بشري آخر ، تأمينا للصلة الجغرافية ـ البشرية ، المشار اليها سابقا ، اذا سار مشروع الكيان العنصري الطائفي على طريق الانجاز ٠

ولقد استطاعت قيادة الحركة الانفصالية ان تعطل مسيرة الحل في لبنان (الوفاق السياسي ، بناء الجيش ، توحيد اجهزة الدولة ومؤسساتها ، حل مشكلة المهجرين الخ ٠٠٠) بانتظار استكمال الاستعداد في الجنوب ،وبانتظار الانقضاض الاسرائيلي ، لتنقض هي ايضا ، في ظله وبمساعدته ، لتحقيق مشروعها ٠

وفي سياق هذه العملية ـ استكمال الصلة الديمغرافية بمركز الكيان العنصري الطائفي الجديد ـ يمكن ادراج محاولة تحطيم الصخرة الوطنية الصلبة التي تشكلها منطقة الشوف في طريق تنفيذ المشروع ، بقتل الزعيم الوطني كمال جنبلاط ، تمهيدا لتفتيت وحدة منطقة الشوف وتماسكها بقيادة زعامة وطنية قادرة ٠ وفي سياق هذه العملية يمكن ايضا ، فهم الدور الذي يعده زعماء الحركة الانفصالية لبلدة الدامور في وضعها الجديد (الربط الجغرافي البشري « جزين ـ دير القمر ـ الدامور) ٠

أما اسرائيل ، فهي الرابحة في كل الاحوال ٠ كانت تريد من الجنوب ثلاثة أمور : انهاء الوجود الفلسطيني ، حزام امن ، المشاركة في الثروة المائية ٠ الا ان الامكانات التي اتاحتها الحرب اللبنانية تبدو اكبر ٠ ومن هنا ، اصبحت اهدافها تتراوح بين : المشروع الانفصالي ، من جهة ، والمحافظة على مكسبته في الحرب اللبنانية ، من الجهة الاخرى ، وبينهما الهدف الثابت ، الاول بين الاولويات : القضاء على الوجود الفلسطيني المتمثل في حركة المقاومة ٠

على حافة هذه اللحظة التاريخية ، يقف الجنوب اليوم ، يتأرجح مدا وجزرا. يقاتل ويصمد ، ينزح ويعود ٠ ولكنه يشعر بانه متروك ليواجه قدره وحيدا ، في وقت يحتاج فيه الى ان يفهمه الآخرون ويحبوه ويساعدوه ٠

الجنوب الذي لم يكن في لبنان من هو اكثر منه توقا الى الوطن الديمقراطي العلماني العادل ، لانه مسحوق ومقهور ومعذب ، قوميا وسياسيا واجتماعيا ،

يريدونه جسرا تعبره المؤامرة ، الى مرحلتها الاخيرة ٠

ولان الجنوب يرفض ان تعبر المؤامرة على جسده ، ولان كل الذين كـــان عليها ان يخوضوا مع الجنوب معركته ـ معركتهم ، وان يدعمـــوا صموده ، غابوا وتركوه وحيدا محاصرا من كل الجهات ، تركوا لفلاحيه البائسين المعدمين ان يتخذوا بالنيابة عن الامة العربية كلها ، بشعوبها وقادتها وجيوشها ، القرارات التاريخية والمصيريـــة ٠

ولان الجنوبي يتذكر الآن كل ما كان يجب ان يكون ولم يكن ٠ يمارس النقـد والنقد الذاتي (مقاومة فلسطينية ووطنيين جنوبيين) في أحلك ساعـــــات التراجع : التدريب ، التسليح ، التنظيم ، التحصينات ، الملاجىء ، العلاقـات الثوريـــة الخ ٠

لهذا كله ، ينزف الجنوب اليوم ، ويرحل ٠٠٠ يلملم جروحه واحلامه وقهره وعذابه ، ويرحل ٠٠٠ يحتضن الذكريات والتجارب والمحاولات ، كأغلى مـــا يملك ٠٠٠ ويرحل ٠

ولكن الجنوب لا ينوي ان يحول هذه الذكيات والتجارب والمحاولات الـــى

ولكن الجنوب لا ينوي ان يحول هذه الذكريات والتجارب والمحاولات الى

تراث ٠٠٠ يكير على التراث ! انها عدة ابنائه وسلاحهم على طـريق العودة ٠ فالجنوبي يرحل ، ولكنه لا يلبث ان يعود ٠

يعود ليصمد في ارضه ، فليس بين الخيارات التي يواجهها ـ وهي ليسـت خيارات ـ اسوأ من النزوح ٠

يعود الجنوب ، بشعبه المناضل ، شمالا لفلسطين ، وجنوبا للبنان ٠ ممتـدا هناك حتى الجليل ، وغارزا هنا حضوره في كل بيروت ، وفي كل لبنان ٠ ذلك ان اهل الجنوب محاصرون بكل اشكال القهر ، محاصرون حتى الثـورة ٠ لا خيار لهم فيها ، ولا فكاك لهم منها ٠ فالعدو القومي يمعن في اذلالهم ، والعدو الطبقي يمعن في اضطهادهم ٠

وبقدر ما تلتحم الحقيقتان الفلسطينية واللبنانية في الجنوب وتصمدان ، بقدر ما تتوهج الحقيقة العربية وتتألق ، وسط هذا الليل العربي البالغ الظلمـــــة والظلـــم ٠

د . اليـاس شـوفـاني

الانتخابات الاسـرائيـليـة التـاسعَـة :
تـرميـم اسـوار الغـيتـو

يقول عالم الاجتماع اليهودي ، جورج تمارين ، الذي هاجر الى اسرائيل ثم هجرها هربا من اجواء الغيتو الخانقة ، المهيمنة على الحياة في ذلك الكيان كما رآه ، وذلك في كتابه **المأزق الاسرائيلي ، مقالات عن دولة الحرب** ، ما يلي : « ولكي نفهم سلوك الحكم وممارساته ، فلا بد لنا من الاخذ بالاعتبار بعض الاتجاهات الايديولوجية في التاريخ اليهودي ، وكذلك البروفيل النفسي ـ الاجتماعي للطبقة الحاكمة · واما بالنسبة الى مسألة التقاليد التاريخية ، فلا فلا يمكننا غض النظر عن حقيقة ان الكره للاغيار كان منذ القدم ، احد الاتجاهات المهيمنة على اليهودية في المجالين ـ الاجتماعي والروحي ··· ولا يمكن فهم الواقع الاسرائيلي وردود فعل القادة فيه ، دون الاخذ بالاعتبار حقيقة انهم ، دون استثناء تقريبا ، قد ترعرعوا في مدن اوروبا الشرقية الصغيرة ، حيث ظلت الغيتوات قائمة عمليا الى نهاية القرن التاسع عشر ، في حين كان اليهود ، ليس فقط في الدول الديمقراطية ، وانما ايضا في المدن الكبرى من اوروبا الشرقية ذاتها ، يعيشون في مجتمعات منفتحة ومستنيرة منذ اكثر من جيل واحد » · (تمارين ص ١٣ ، ١٦) ·

وفي الانتخابات العامة للكنيست التاسع ، لم يدع المستوطنون في الكيان الصهيوني مجالا للشك في ان الاغلبية الكبيرة منهم امينة على عهدها ـ عهد الانعزالية الغيتوية · فحين يدلي هؤلاء باصواتهم ، في انتخابات حرة ، لم يطعن احد في صحة تعبيرها عن واقع الاجواء المخيمة على التجمع الاستيطاني

في فلسطين المحتلة ، ويرفعون الارهابي العتيق ، مناحم بيغن الى سدة الحكم ، فانهم بذلك انما يرممون اسوار الغيتو ، التي بدا وكانها بدأت تنهار ، ويزيدونها ارتفاعا ، علها تحجب عن انظارهم ما يدور في العالم الكبير خارج حدود الغيتو الضيقة · فهم ، بكل صوت اعطوه الى الفاشية الصهيونية التقليدية ، انما اضافوا لبنة اخرى الى اسوار الغيتو ، تزيدها سماكة وعلوا ، علها تقيهم شر الارواح التي تخنق في الخارج · وحين يسلم هؤلاء مقاليد الحكم في كيانهم

الى مناحم بيغن ، وذلك بعد حرب تشرين وما تلاها من مسارات سياسية ، وكلام عن التسوية ، وخطوات على طريقها ، فانهم بذلك انما يثبتون مرة اخرى ، صحة القول المأثور للكاتب الامريكي الاسود ، جيمس بولدوين : « لا علاج للغيتو الا في محو معالمه » ·

ولسنا هنا بصدد تحليل سوسيولوجي شامل لنتائج الانتخابات للكنيست التاسع ، او محاولة دراسة مفصلة للتطورات الاقتصادية والداخلية التي حدت بالناخب الاسرائيلي الى العزوف عن حزب العمل والالتفاف حول راية منافسيه ، ليكود والقائمة الديمقراطية للتغيير والاحزاب الدينية ، ممن رفعوا شعارات اكثر جنوحا الى اليمين من تلك التي تستر وراءها ، على استحياء ، حزب العمل « الاشتراكي » · وعلى اي حال ، فقد سبقنا الى تناول الموضوع بعض اصدقائنا ، (انظر شؤون فلسطينية ، عدد ٦٧) ، كما اننا على ثقة من انه ستكون هناك عودة واخرى الى معالجة الامر · وانما نسوق هنا بعض الملاحظات العامة عن الاسباب التي ادت في رأينا الى هذا الانقلاب داخل المؤسسة الحاكمة في اسرائيل ، وما قد يترتب عليه من نتائج ، خاصة ما يتعلق منها بالتسوية السياسية المطروحة ، التي ما زالت تدب في رمال متحركة منذ ان تم الاتفاق على وقف اطلاق النار في حرب تشرين ·

سقوط المعراخ وصعود ليكود

فاجأت الانتخابات الاسرائيلية للكنيست التاسع بنتائجها معظم المراقبين السياسيين · وحتى ليكود نفسه لم يكن يأمل ، ولا في احلامه الوردية جدا ، ان يقفز الى الحكم بهذه القوة · وكان المتوقع ان يخسر المعراخ حوالي العشرة مقاعد ، ولكن فقدان ضعف هذا العدد فاق كل التخمينات ، فهبط بذلك الى المرتبة الثانية بعد ليكود · وهذا الاخير ، بكسبه اربعة مقاعد جديدة ، لم يكتسح الساحة السياسية ، ولكنه قلب التوقعات التي قالت بفقدانه مثل هذا العدد او اكثر · اما « الحركة الديمقراطية للتغيير » (داش) ، فقد بقيت قريبة من التقديرات العامة ، الا انها ، كما يبدو، سحبت اكثرية اصواتها من حزب العمل،

في حين كانت تخطط للقضم من طرفيها ، عن اليمين من ليوكد ، وعن اليسار من المعراخ · وحافظت الاحزاب الدينية على قوتها تقريبا · ويبدو ان راكاح ، الذي خاض الانتخابات بالتحالف مع قوى اخرى ، كونت « الجبهة الديمقراطية » ، لم يحصل على اصوات يهودية كثيرة ، رغم انضمام احدى فصائل « الفهود السود » ، جناح شارلي بيطون ، الى الجبهة · ومع ذلك ، فان كسب الجبهة مقعدا اضافيا هو انجاز لا يستهان به ، ازاء المد اليميني الذي اجتاح الكيان ، وبالمقارنة مع قوائم اخرى خاضت الانتخابات بشعارات يسارية ، فكان نصيبها الطحن · وليس اكثر دلالة على هذا المد اليميني من ان يحصل الافاق ، فلاطو شارون ، اليهودي الفرنسي الفار من العدالة واللاجىء لتوه الى اسرائيل ، على نسبة من الاصوات (٢٪) تفوق ما حصلت عليه قائمة « شلي » (٦ر١٪) ، وهي قائمة الياف وباعيل وبيليه ، من مجلس السلام الاسرائيلي ـ الفلسطيني ·

والكلام عن المد اليميني وحده لا يكفي لتفسير خسارة المعراخ وبروز ليكود · فالمعراخ عموما ، بزعامة شمعون بيرس ، لم يكن يتميز بمواقفه اليسارية بالذات · بل كان في مجالات عدة ، داخلية وخارجية ، لا يكاد يختلف عن خصومه السياسيين ·وقد خاض المعراخ الانتخابات ، وعلى رأس قائمة مرشحيه سلسلة طويلة من الاشخاص الذين لم يرتبط اسمهم بحركة العمال في اسرائيل · واكثر من ذلك ، اذ لم يبق في تلك القائمة احد من رموز الحركة العمالية البارزين · وعلى صعيد التسوية ، كانت مواقف بيرس الصقرية معروفة جدا · وبالنسبة الى الفلسطينيين لم يكن يختلف عن بيغن الا في اسلوب الطرح · وكذلك فلا يصح في تقديرنا عزو نتائج هذه الانتخابات الى عوامل داخلية ، اقتصادية واجتماعية ، وحسب · وليس ادل على ذلك من ان المعراخ حصل في الانتخابات للهستدروت ، الذي يهيمن على الحياة الاقتصادية في الكيان ، على ضعفي عدد الاصوات التي نالها ليكود واكثر · وهذا يشير الى تمسك المستوطنين بالنظام الاقتصادي الذي بناه المعراخ · الا انه لا يجوز الغاء هذا العامل تماما · فلا شك في ان الاوضاع الاقتصادية في الكيان ، من تضخم وارتفاع في الاسعار ، وكذلك علاقات العمل المتدهورة بدليل ازدياد الاضرابات ، قد أثرت في الانتخابات ، غير انها لم تكن العامل الحاسم · وطبيعي ان يقع الحزب الحاكم ضحية موجة التضخم العالمية ، والتي لم تفلت منها اسرائيل · وكذلك فلا يمكن الغاء عامل المعاقبة من اسباب فشل المعراخ · فهذا الاخير ما زال في الحكم منذ قيام الكيان وقد استشرى فيه الفساد، وكثر داخله الشقاق ، ولم يعد بمقدوره التخلص من الشوائب التي علقت به اثناء حكمه الطويل · فعمد كثيرون الى ازاحته عن الحكم على هذا الاساس ·

في تعليله لاسباب فشل حزبه في الانتخابات العامة ، اشار زعيم المعراخ

ومرشحه لرئاسة الحكومة ، شمعون بيرس ، الى سببين رئيسيين ، كلاهما ليس من صنع حكومة العمال ، الا انها سددت الفواتير لحسابهما · وذكر بيرس موجة التضخم العالمية ، وما ترتب عليها من زيادة في الاسعار ، وخاصة في المواد الاستهلاكية في العالم اجمع ، بما فيه اسرائيل · فكان ان دفع ذلك الناخب الاسرائيلي الى معاقبة الحكومة العمالية على اثم لم ترتكبه · واشار بيرس ، وكأنه يعاتب الناخبين على عقوقهم ونكرانهم لجميل حكومته ، الى الجهود التي بذلتها الحكومة ، بقيادة حزب العمل ، لاحراز عمالة كاملة ، مما ادى بطبيعة الحال ، الى هبوط قيمة الليرة الاسرائيلية وارتفاع الاسعار بنسبة عالية · واما السبب الثاني ، فقد رآه بيرس في رياح التقلبات السياسية التي بدأت تهب في الفترة الاخيرة من البيت الابيض الاميركي · وكان بيرس يعني بذلك تصريحات الرئيس الاميركي الجديد ، كارتر ، سواء بالنسبة الى العلاقات الثنائية بين البلدين ، او الى التسوية السياسية في المنطقة · وقال بيرس : « لقد تلقى المعراخ ضربة قاسية ، ولا جدوى من محاولة اخفاء ذلك · ولكن المعراخ حركة كبيرة وباستطاعتها ان تنهض ثانية ··· وهناك مكان لاجراء محاسبة للنفس » · (نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، المجلد السابع ، ص ٣٤٩ـ٣٥٠) ·

وعقب رئيس حكومة اسرائيل السابق ، يتسحاق رابين ، الذي استقال من منصبه عشية الانتخابات ، وبعد زيارته الاخيرة الى واشنطن لاجراء محادثات مع الرئيس الاميركي الجديد ، كارتر ، فقال : « ما حصل في الانتخابات لم يكن متوقعا ، والامر لا يرتبط بهذا الشخص او ذاك في حزب العمل · ان ما حصل هو عملية تصويت احتجاجية ، عاطفية في اساسها وعقلانية في جزء منها ، ذلك ان الهدف كان احداث تغيير · وفي دولة ديمقراطية يجب القبول بحكم الناخب »· واكد رابين ان سبب الضربة القاسية جدا التي انزلت بحزب العمل ليس حدثا واحدا ، بل نتيجة تضافر عدة عوامل على امتداد سنين طويلة ، ومن ضمنها الاحداث في السنوات والاشهر الاخيرة · (ن·م·د·ف· ، مجلد ٧ ص ٣٤٩) · وتجدر هنا الاشارة الى تأكيد زعماء حزب العمل ، وخاصة اولئك الذين كانوا في مواقع صنع القرار السياسي ، على احداث السنوات الاخيرة ، والاكيد انهم يقصدون الحدث الاكبر والاهم ــ حرب تشرين وذيولها ·

وبالمقابل ، ولا يحمد السوق الا من كسب ، راح الفائزون في الانتخابات يعللون فوزهم بعودة الناخب الاسرائيلي الى رشده ، ولو بعد زمن طويل ، وبوعيه « للمصلحة الوطنية » المتمثلة في مواقفهم من القضايا السياسية المطروحة ، على الصعيدين ــ الداخلي والخارجي · ورأى هؤلاء في نتائج الانتخابات اتجاها واضحا لدى المستوطنين لتغيير الجهاز الحاكم · وادعوا ان تلك النتائج تشير بوضوح الى ان الجمهور الاسرائيلي يثق باحزاب اليمين وبقدرتها على

قيادة السفينة الى شاطىء النجاة ، بعد ان كادت القيادات العمالية تؤدي بها الى الغرق في خضم الانواء السياسية العاتية ٠

وعلق بيغن على نتائج الانتخابات ، فاشار الى ان « الشعب قد لبى دعوته لاعلاء الليكود الى مرتبة الحزب الاول ، وبذلك اثبتت الجماهير ان اسرائيل دولة ديمقراطية وحرة » ٠ (ن٠م٠د٠ف٠ ، مجلد ٧ ، ص ٣٥٠) ٠ وقال بيغن : « لقد حصل اليوم تحول في تاريخ الشعب اليهودي والحركة الصهيونية لا مثيل له منذ ٤٦ سنة ، اي منذ المؤتمر الصهيوني السابع عشر في عام ١٩٣١ ، عندما اقترح زئيف جابوتنسكي تحديد هدف الصهيونية باقامة دولة يهودية في عصرنا » ٠ (معاريف ١٨ـ٥ـ١٩٧٧) ٠ وكلام بيغن عن التحول في « تاريخ الشعب اليهودي » ، وعن تحديد اهداف الصهيونية ، وكذلك الاشارة الى زئيف جابوتنسكي ، انما يحملان دلالة واضحة الى الاصول الفكرية لزعيم اسرائيل الجديد ، والى التوجهات السياسية المتوقعة منه ٠ واذا اخذنا هذا الكلام على عواهنه فانما يعني العزم على الاقلاع في مسار جديد ، يكون ملهمه « المعلم » جابوتنسكي ، مؤسس الصهيونية التنقيحية ، ومنظر الفاشية في تلك الحركة الاستيطانية ٠ وهذ ينطوي على نبذ البراغماتية السياسية التي تميز بها العمل الصهيوني بقيادة الاحزاب العمالية ، ونبش الشعارات التنقيحية التي طرحها جابوتنسكي في حينه واحيائها ٠ وفي مقدمة ذلك شعار « تكامل الارض ووحدة الشعب » ، والانتماء العضوي الى « العالم الحر » ٠

واذا لم يكن مستهجنا من بيغن افتتاحه عهده في الحكم بهذا اللون من التصريحات ، لما عرف به من شوفينية متأصلة ، وليس غريبا عليه ان يطلق مثل هذه الشعارات ، فرحا بفوزه بعد ثماني محاولات فاشلة ، علما بما تزخر به خطاباته في كل مناسبة سياسية من كلام مماثل ، فان ما يحتاج الى بعض التفسير هو التأييد الواسع الذي منحه اياه المستوطنون في الكيان ، ومن ثم الاوساط الصهيونية في شتاتها ، مما اوصله الى تحقيق حلمه الكبير في السلطة ، وفي هذا الظرف بالذات ٠ ولعل في تعليق زعيمة « حركة حقوق المواطن » شولاميت الوني ، تعقيبا على نتائج الانتخابات غداة اعلانها ، ما يفسر ذلك ٠ وقالت الوني : « ان هذا الشعب قد اصبح اقل عقلانية واكثر شوفينية وغيبية ، ولم يعد يحكمه العقل السوي ، واصبح يتأثر كثيرا بالمال » ٠ (هآرتس ١٨ـ٥ـ١٩٧٧) ٠

الواقع ان التجمع الاستيطاني ، الذي تسميه الوني تجاوزا « الشعب » ، لم يكن في اي وقت مضى اكثر عقلانية ، او اقل شوفينية وغيبية ٠ فالفكر الصهيوني التقليدي يتميز عن نظائره ببعد اضافي من العنصرية والغيبية ، بل ويمتاز عنها جميعا بظاهرة التغيب التي واكبت تنفيذ المشروع الصهيوني منذ البداية ٠ فقد

غيبت الصهيونية الشعب الفلسطيني ماديا في البداية ، عندما انكرت وجوده الفعلي على ارضه · ولما لم يعد ذلك ممكنا ، بفعل النضال الفلسطيني ذاتـه ، عمدت الصهيونية الى تغييب الفلسطينيين حضاريا ، فجردتهم من كل مظاهـر التمدن وعزت لنفسها كل ما تم على ارض فلسطين من عمران · هذا ومازال المستوطنون الصهاينة يمعنون في تغييب الفلسطينيين سياسيا الـى يومنـا الحاضر ، رغم اعتراف العالم اجمع بهم وبحقهم في تقرير المصير · ناهيك عن الطعن بالحركة الوطنية الفلسطينية وبشرعية تمثيل منظمة التحرير للشعـب الفلسطيني · ويبدو ان الوني لم تكن تعي هذه الظاهرة الفريدة فـي العمـل الصهيوني ، ولم تكتشف اللاعقلانية والشوفينية بين اترابها من المستوطنين ، الا عندما رفعوا بيغن الى سدة الحكم · ولكنها ، والحق يقال ، صادقة فـي تعبيرها عن الاجواء السائدة بين هؤلاء المستوطنين ، وفي جزعها من كونهـم قد خلعوا القناع عن وجههم البشع ، وكشفوا عوراتهم بشكل لم يعد بالامكان التستر عليه او اخفاؤه بالنمارق والالفاظ · وبهذا ، على حد قولها ، لم يحكموا عقلهم السوي ·

ولخص يهودا بن مئير (المفدال) هذا الانقـلاب في توجـه المستوطنيـن السياسي ، فقال : « الجمهور يريد التغيير ، وهناك توجه قومي لا لبس فيـه · وهذا الامر يجسد ارادة الشعب في الصمود ، فالشعب لا يريد التنـازل » · (ن·م·د·ف· ، مجلد ٧ ، ص ٣٥٠) · وتلخيص بن مئير لاسبـاب هـذا الانقلاب ، بغض النظر عن حكمنا على طبيعته ونتائجه ، صحيح الى حد كبير · وهذا ما وصفته الوني بالشوفينية واللاعقلانية ، وهو وصف دقيق · وعلق عليه موشيه دايان بقوله : « لا شك في ان هذا هو بمثابة هزة ارضية اصابت البنيـة السياسية في اسرائيل وربما الشعب اليهودي كافة · ولكن الامر لا يعتبـر كارثة ولا هو الخلاص » · (المصدر نفسه ، ص ٣٥٠) · اما اريه اليـاف (شلي) ، من مجلس السلام الاسرائيلي ـ الفلسطيني ، فقال : « نحن قلقـون وجزعون مما حصل اليوم في البلاد ، لقد اتهمنا حزب العمل والمعراخ ، طوال سنين ، بأنهما يجران انفسهما وهذا الشعب نحو اليمين ، وبأنهما ينتحران كحركة قائدة · لقد اشعلنا الضوء الاحمر في كل مكان ، واليوم يحصد حزب العمـل والمعراخ العاصفة التي زرعاها · (المصدر نفسه ، ص ٣٥٠) ·

لم يحصل ، على حد علمنا ، ان جرى الكلام عن نتائج انتخابات سابقة فـي اسرائيل بمصطلحات « الهزة الارضية » او « العاصفة » · كما لم يوصـف اقتراح الناخبين فيها بانه « توجه قومي ، يجسد ارادة الشعب في الصمود » · ولم تذهب ، كما نذكر ، شخصية سياسية هناك ، وعضو في البرلمان ، الى حد اتهام « الشعب » باللاعقلانية والشوفينية والغيبية وفقدان الصواب ، من قبل · ولربما بدا لنا هذا الكلام مبالغا فيه للوهلة الاولى · اذ بالنسبة الينا ، لا يغير في الامر كثيرا سقوط رابين وصعود بيغن ، او ذهاب بيرس ومجيء دايان ، وما

الى ذلك · خاصة والموقف الصهيوني العام من جوهر الصراع في المنطقة وطبيعته ، موحد تقريبا · وهذا التبديل في قيادة المؤسسة الحاكمة في الكيان ، لا ينطوي على انقلاب في النظرة الى لب النزاع ـ القضية الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطيني · ومن المؤكد انه لا يحمل في ثناياه توجها جديدا نحو منظمة التحرير ، باهدافها وبرامجها المرحلية · الا ان ذلك كله لا يلغي قطعا ما لهذا التبديل من اثر على المسارات السياسية الجارية في المنطقة · والاهمية الفعلية له تكمن في المسلك الذي ستتخذه السياسة الاسرائيلية ازاء المشاريع المطروحة ، في المرحلة القادمة · وعلى هذا الصعيد ، لا شك في ان حقبة جديدة ، ومختلفة جدا ، قد بدأت بتولي بيغن السلطة في الكيان · وقد أخذت بوادر الاتجاهات الجديدة تبرز ، مع ما يترتب عليها من ردود فعل ·

وفي تقديرنا ان نتائج الانتخابات للكنيست التاسع كانت رد المستوطنين الحقيقي والصادق على حرب تشرين وذيولها · ففي المرة السابقة ، التي اعقبت الحرب مباشرة ، لم يكن هؤلاء قد صحوا بعد من الهزة العنيفة التي انتابتهم ، ولم يجرؤوا حينئذ على الاغراق في التغيير خوفا على مصير الكيان نفسه ، وجزعا من الاقدام على فتح الباب لمزيد من عدم الاستقرار والارباك ، هم في اشد الحاجة للابتعاد عنه كي يتمكنوا من لملمة اوضاعهم المتدهورة ، ومنذ ذلك الحين الى الان ، استطاعت القيادة الاسرائيلية ان تعيد الثقة الى نفوس المستوطنين وتزيل عنهم كابوس القلق على قيام الكيان · وقد لعب المسار الذي اتخذته التسوية السياسية دورا اساسيا في تمكين المؤسسة الصهيونية الحاكمة من انجاز تلك المهمة الصعبة · ولكن الخوض في مفاوضات التسوية ، وما دار حولها من كلام وطرح فيها من مواقف مع ذكر الاسباب التي ادت الى اتخاذها ، والتبريرات التي دعت اليها ، خلقت لدى المستوطنين اجواء سياسية ونفسية جديدة ، وفتحت اعينهم على جوانب اساسية من وجودهم لم يكونوا يعونها جيدا · وكذلك كانت اعادة بناء الجيش الاسرائيلي ، والمعلومات التي نشرها قادته على قوته ازاء الجيوش العربية في دول المواجهة مجتمعة ، حافزا لاولئك المستوطنين للتمسك بمكتسبات حرب حزيران واعتبارها جزءا اساسيا من مقومات الكيان · وهكذا امحت الاثار الايجابية لحرب تشرين ، وحلت محلها الاثار السلبية لمسار التسوية ، التي اوصلت بيغن الى الحكم · كشف مسار التسوية للمستوطنين مدى تعلق كيانهم بالدعم ، الاقتصادي والسياسي والعسكري ، للولايات المتحدة الاميركية ، وخاصة منذ حرب تشرين · وراعهم ما خبروه من ضيق هامش استقلاليتهم وحريتهم في التحرك ذاتيا واتخاذ القرارات السياسية · فعزوا ذلك الى ضعف حكومة العمال ، وعجز رابين عن التعامل مع المتغيرات السياسية · وقد ساعد الشقاق داخل حكومة رابين على تفشي هذه النظرة اليها بين المستوطنين · وفتحت مزايدات بيرس ، في

رفض الرضوخ للاملاءات الاميركية ، وبناء القاعدة المحلية اللازمة لتصليب الموقف الاسرائيلي وجعله قادرا على الصمود في وجه الضغوط التي تمارسها واشنطن على اسرائيل ، المجال واسعا امام المستوطنين لبناء الاوهام الكبيرة حول طاقة الكيان الذاتية · فكان سلوك بيرس تصديقا لادعاءات ليكود · وقد جاء ذلك على خلفية الغيبية المتأصلة في فكر المستوطنين ، والقائمة على الوعي الزائف في جمهورهم الواسع ، مما غرسته فيهم وتعهدته بالعناية المؤسسة الصهيونية الحاكمة · وتحت اوهام الاستقلالية والقدرات الذاتية ، تمرد المستوطنون على ما اكتشفوه من واقع التبعية · وهالهم امكان انقلابهم من شريك صغير للامبريالية الاميركية ، كما تصوروا انفسهم ، الى محمية ضعيفة تعيش بضمانات الدول الكبرى ، وتبقى رهن التقلبات في موازين القوى الدولية · فثاروا على الوضع وجعلوا من حزب العمل كبش المحرقة ، اذ حملوه مسؤولية ذلك · وكأنهم بتنصيب بيغن رئيسا لحكومتهم ينتقمون لانفسهم من ولي نعمتهم ، ظنا منهم أن اكثر ما تخشاه واشنطن هو صعود بيغن الى الحكم في اسرائيل · ولطالما ابتزت قيادة المعراخ واشنطن بالاشارة الى مواقف بيغن المتصلبة والى امكان وصوله الى السلطة ·

وفي بداية مسار التسوية برعاية مهندس المؤامرات البارع ، كيسنجر ، تنحت غولدا مئير عن الحكم ، وقفز اليه رجل امريكا الجديد ، يتسحاق رابين · واستطاع كيسنجر ان يعزل الاتحاد السوفياتي ويبعده عن المشاركة الفعلية في تحديد معالم ذلك المسار · وكذلك جمع كيسنجر الاطراف المعنية على القبول باسلوب الخطوة ـ خطوة ، نحو حل شامل للنزاع في الشرق الاوسط ، كما ادعى · ولكن ذلك المسار تعرقل لاسباب تعود ظاهرا في اكثرها الى عجز القيادة الاسرائيلية ، بزعامة رابين ، عن اتخاذ القرار السياسي الحاسم · وبذلك تمكنت منظمة التحرير الفلسطينية من تحقيق انجازات سياسية هامة ، على الصعيدين ـ العربي والدولي ، خلال العامين ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ · وهذا ما جعل الحرب في لبنان امرا محتوما من اجل الاطاحة بتلك الانجازات · ولكن الثورة الفلسطينية افلتت من الحبل الذي اريد الشد على عنقها · ثم جاءت الانتخابات الاميركية وتغيرت الادارة التي راهن عليها رابين في واشنطن ، وسقط هو نفسه عشية الانتخابات العامة للكنيست التاسع · (راجع شؤون فلسطينية ، « استقالة رابين » ، عدد ٦٧ ، ص ٢٠) ·

واثبت مسار التسوية السياسية ، على مدى اربع سنوات تقريبا · ان الكيان الصهيوني غير مهيأ في المرحلة الحالية لانجاز التسوية المطروحة عربيا ، كما أن الدول العربية المعنية لا يسعها القبول بالمشاريع الاسرائيلية · واسرائيل في وضعها الراهن تنقصها المرونة اللازمة للتعامل ، ولو تكتيكيا ، مع المشاريع المطروحة دوليا ، حتى الاميركية منها · فالكيان الذي قام منذ حوالي ثلاثين عاما،

في ظروف دولية معينة ، لم يستكمل نموه ويحقق ذاته بحيث يصبح مؤهلا في الظروف الراهنة لاتخاذ القرار الحاسم والنهائي بشأن حدوده البشرية والجغرافية ، وكذلك بالنسبة الى طبيعة علاقاته مع شعوب المنطقة ودول العالم · ولذا عمدت القيادة الصهيونية الى التهرب من سلوك طريق التسوية ، والى المناورة لكسب الوقت ، على امل نشوء اوضاع جديدة ، تكون اكثر ملاءمة لانجاز تسوية بشروط افضل لصالحها · ولكن الوقت لم يعمل دائما لصالح اسرائيل فحسب ، اذ ان منظمة التحرير الفلسطينية ايضا ، احرزت نجاحات سياسية هامة · وهنا وقعت تلك القيادة في مأزق عامل الزمن ودخلت معه في حلقة مفرغة · وقد حمل كثيرون حكومة رابين مسؤولية بروز منظمة التحرير الفلسطينية كالممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني · وبدا للكثيرين ان القيادة الاسرائيلية مرتبكة في تعاملها مع الموضوع الفلسطيني · فلا هي قادرة على شطبه من المعادلة السياسية ، وبالتالي من الخريطة الجغرافية ، ولا هي اثبتت جديتها في قطع الطريق على منظمة التحرير بالتوصل الى حل مع الاردن · وفي نفس الوقت لم تعمل على ايجاد قيادات بديلة في الضفة والقطاع ورعايتها · هذا ولا تنفك تعلن رفضها الاعتراف بمنظمة التحرير والدخول معها في مفاوضات للتسوية · ومقابل الارتباك في مواقف المعراخ من هذا الموضوع ، اذ لم يكن له موقف موحد ، وانما مجموعة مشاريع تمثل اراء شخصيات وكتل داخل الحزب ، وكثيرا ما كانت متضاربة ، كان ليكود واضحا وحازما في رفضه للاعتراف باي حق للفلسطينيين · وبهذا كان يمثل ميول الاكثرية من المستوطنين · فصوت الى جانبه على هذا الاساس من لم يقتنع برفض صقور المعراخ · وهذا لا يعني ان ليكود يمثل جبهة الرفض الاسرائيلية وحده ، فتلك الجبهة اكبر من ليكود بكثير ، ولا بد لها ان تتبلور على هذا الاساس خلال مسيرة التسوية ·

وخلال المفاوضات على التسوية ، برزت عدة تساؤلات حول ماهية السلام الذي يدور الكلام عنه ، والشروط التي يطلبها الطرف الاخر ، ومدى استعداد القيادة العمالية تقديم « تنازلات » ، تلبية لمطالبه · ولم يستطع المعراخ ، كونه الحزب الحاكم ، تقديم اجوبة واضحة وصريحة ، او على الاقل مقنعة ، على تلك التساؤلات التي واجهها المستوطن العادي داخل الكيان في حياته اليومية · وفقد المعراخ كذلك الكثير من مصداقيته ، بسبب مواقف رابين المترددة ، والخلافات داخل النخبة فيه حول مشاريع التسوية وشروطها وطبيعتها · وفي الاتفاقات التي تم انجازها ، جرى الانسحاب من مناطق كان يعتبرها كثيرون حيوية لاسرائيل ، ولا يجوز التنازل عنها قبل توقيع سلام شامل ، مثل ابو رديس والممرات · واستغل ليكود ذلك لصالحه في الانتخابات ، خاصة وان الخطوات الاولى للتسوية ، حيث قدمت هذه التنازلات المادية ، لم تفتح الباب واسعا امام

« مسيرة السلام » ، التي كثر الكلام عنها · وبدا للكثيرين ان اسرائيل قد غرر بها بقيادة حزب العمل ، وانها كانت الطرف الذي يعطي بينما الاخر يأخذ ، دونما التزام بتوقيع معاهدة سلام كامل ·

ولربما تحملت ادارة كارتر القسط الاوفر في افشال المعراخ وسقوطه · والاكيد ان حكومة رابين وقيادة حزب العمل قد سددتا فواتير تصريحات كارتر عن ازمة الشرق الاوسط وتصوراته لحلها ، منذ توليه الحكم في واشنطن · ولا شك في ان الحظر الاميركي على تصدير طائرات « كفير » الى الاكوادور ، والخلافات التي برزت بين واشنطن واسرائيل اثناء محادثات رابين في زيارته الاخيرة للبيت الابيض ، وعجز حكومة رابين عن تسوية تلك الخلافات ، وما تلا ذلك من تصريحات اميركية حول التسوية والوطن الفلسطيني ، قد عصفت برابين من رئاسة الحكومة اولا ، وبالتالي بحزبه من الحكم في الانتخابات ، ولعبت دورا هاما ، ربما خلافا لما كان متوقعا منها ، في رفع ليكود الى المرتبة الاولى في الكنيست · (راجع شؤون فلسطينية ، عدد ٦٧ ، « استقالة رابين » ، ص ٢٠) ·

وازاء هذه المتغيرات السياسية ،النابعة اصلا من حرب تشرين وما تلاها من مفاوضات للتسوية ، لم يكن الكيان مهيئا لها ، عمد المستوطنون هناك ، باعداد كبيرة ، الى التهرب من مواجهة الواقع بمشاكله المعقدة ، ولجأوا الى الاحتماء بالرفض المتمثل ظاهرا فيما يعلنه ليكود من مواقف ·

بيغن في السلطة

لربما كان الكلام عن بيغن في السلطة سابقا لاوانه ، فقد تولاها لتوه ، وما زال في بداية طريقه هناك · ومع ذلك فالكتابة عن عهده واضحة على الحائط ، وبحروف جلية ·

كان طبيعيا ان يعهد رئيس الدولة في الكيان الى بيغن بتشكيل الحكومة ، بعد فوز حزبه في الانتخابات · وهكذا جرى ، ووصل بيغن الى تحقيق الحلم الذي منى به نفسه لسنين طويلة · وما ان اتضح انه سيكون المرشح الاول حتى راح يتصرف وكأنه رئيس لحكومة قائمة ، ويرى بنفسه المخلص المنتظر لـ « شعب الله المختار » · ولم يهجع الى السكينة في ليلة فرحه ، قبل الاعلان عن نيته تشكيل حكومة « تجمع قومي » ، على غرار تلك التي شارك بها في حرب حزيران ١٩٦٧ ، ولم يستطع تحقيق احلامه منها · ودعا الاحزاب الاخرى ، وخاصة المعراخ للدخول في مفاوضات ائتلافية من اجل تشكيل مثل تلك الحكومة فورا · ولكن سرعان ما جاء رد حزب العمل برفض المشاركة في حكومته برئاسة بيغن · ولم يبق امامه الا تشكيل حكومة ائتلاف مقلص ، تتمتع باغلبية ضئيلة

في الكنيست ، بالاشتراك مع الاحزاب الدينية ، على امل ان يسعفه الحظ بدخول « داش » الى الائتلاف ، لكي تصبح حكومته تستند الى قاعدة متينة في الكنيست · ولكن « داش » بعد مفاوضات طويلة ، قررت البقاء في المعارضة · ولدى تقديمها الى الكنيست لنيل الثقة ، خصلت حكومة بيغن على ٦٣ صوتا ، من اصل ١٢٠ ، وما زالت الى الان عند حدها ذلك ·

ويتكهن البعض بان بيغن لن يعمر طويلا في السلطة ، وانه اذا لم يعتزل الحياة السياسية لاسباب صحية ، فسيضطر الى التخلي عنها بضغط الظروف الموضوعية · ولقد عبر عن ذلك سكرتير الهستدروت السابق ، واحد زعماء « احدوت هعفودا » البارزين ، يتسحاق بن اهرون ، بقوله : « ان الاقتراع شرعي ولكنني لا احترم دوافع الغضب ولا يتسم بالحكمة · وفي هذا الوضع فان الدولة ستواجه اخطارا شديدة · فاما ان تضطر حكومة اليمين الى خيانة برنامجها ، واما ان يسقطها الشعب بسرعة · انا لا اتوقع هزات اجتماعية اصطناعية ولكن البلاد لن تهدأ · فاليمين لا يملك ردودا شافية على المشاكل الاساسية » · (ن·م·د·ف· مجلد ٧ ، ص ٣٥١) ·

وقد يكون بن اهرون صادقا في تقريره لمستقبل حكومة بيغن ، الا انه من المستبعد جدا ان تتحقق افكاره في الواقع الاسرائيلي بانقلاب الكيان الى الدولة الاشتراكية التي ظل ينادي بها منذ زمن طويل · وبن اهرون اختبر قوته السياسية في صراعه داخل حزب العمل ، خاصة في ايام غولدا مئير ، واكتشف عجزه عن احداث التغييرات التي ارادها ، وانكفأ على نفسه بعد ابعاده عن سكرتارية الهستدروت ، وفي الانتخابات الاخيرة اقصي عن عضويته في الكنيست · وبن اهرون يعلم جيدا ضعف الجناح الليبرالي من الصهيونية العمالية ، الذي ينتمي اليه ، بحيث لا أمل له بالوصول الى السلطة وتولي الدفة في الكيان · فامكان ان يصل الون او ايبن الى رئاسة الحكومة ، في المستقبل المنظور ، ضئيل جدا ، وحزب مباي المعهود لم يعد قائما ، وقد افل نجم وريثه ، حزب العمل · وعلى العكس ، فالظاهر ان القوة الصاعدة في الكيان تتمثل في التيار الرأسمالي ، المحلي والمرتبط ، والذي لم يتبلور بعد في حزب واحد وانما لا يزال منتشرا في احزاب عدة ، بفعل التطور التاريخي للاحزاب الصهيونية · وهو موجود بقوة في الليكود ، ومن رموزه هناك عيزر وايزمن ، الرجل القوي في حيروت ، والذي تولى وزارة الدفاع في حكومة بيغن · وفي حزب العمل ، حمل ممثل التكنوقراط ، شمعون بيرس ، الى مركز القيادة · واذا لم تطرأ هزات عنيفة على الكيان ،و خلا المجال لهذا التيار بالتبلور فانه سيتحول الى حزب رأسمالي ، يدفع باسرائيل الصهيونية في اتجاه مشروع استيطاني على غرار روديسيا او جنوب افريقيا · وقد تكون « داش » ، قائمة يدين ، بداية

تبلور مثل هذا الحزب · في حين يبقى النقيض السياسي التيار الصهيوني التقليدي بشقيه ، الديني والقومي « الحضاري » اليوم هو مناحم بيغن ، وهو من البقية الباقية · واما الجناح الليبرالي من هذا الشق فهو عبارة عن مجموعات مفتتة ، لا تملك قاعدة صلبة في جمهور المستوطنين ، من امثال « شلي » و « حقوق المواطن » ، وشخصيات مثل آلون وايبن وهاوزنر وغيرهم ·

ورب قائل ان بيغن في السلطة ، سيجنح الى الاعتدال ، بفعل وجوده في موقع المسؤولية ، خلافا لما كان عليه في المعارضة سابقا · وبهذا سينهج بيغن نفس السبيل الذي سلكه امثاله من قبله ، وهم كثيرون · ولكن كلام بيغن وتصرفه منذ توليه السلطة لا يشيران الى مثل هذا الاتجاه · وعلى العكس فان ما قاله بعد فوزه في الانتخابات ، عن التحول في التاريخ اليهودي وتحديد اهداف الصهيونية من جديد ، واختياره لهذه المناسبة بالذات ، وهو على عتبة الحكم ، للتذكير بمواقفه المعروفة والتأكيد عليها ، انما يحملان دلالة واضحة الى انه بذلك يجدد العهد لناخبيه بالوفاء لشعاراته القديمة والالتزام بها · وفي تقديرنا، ولاسباب موضوعية وذاتية ،لا يسع بيغن التراجع عن خطه التقليدي·ولم التراجع عن ذلك الخط اصلا ، وهو الذي اوصله الى تحقيق امنيته · وانطلاقا من التركيب الفكري والايديولوجي للرجل ، واستنادا الى تصرفاته السابقة في العمل السياسي نقدر ان الانتحار السياسي اسهل على بيغن من خيانة المبادىء التي نادى بها على الدوام ، وبدأب لا يعرف الكلل ، شأنه في ذلك شأن اقرانه من الفاشيين السابقين ·

وعلى اي حال ، فقد شكل بيغن حكومته من ليكود والاحزاب الدينية ، وانضم اليها موشيه دايان كوزير للخارجية بعد انشقاقه عن حزب العمل ، واريك شارون كوزير للزراعة ، بعد ان دمج قائمته (شلومتسيون) في ليكود ، وحظيت الحكومة بتأييد فلاطو شارون · وفي جلسة الثقة في الكنيست ، طرح بيغن الخطوط الاساسية لسياسة حكومته · فأكد على وحدة الشعب اليهودي ومصيره، وكذلك عن حقه التاريخي في « ارض اسرائيل » ، الكاملة طبعا ، وشدد على اهمية الهجرة ، خاصة من الاتحاد السوفياتي ، و « الضرورة الحيوية » لتوسيع شبكة الاستيطان في المناطق المحتلة ، التي اسماها « مناطق محررة » · وانتقل بيغن في بيانه الى الكلام عن السلام ، وقال : « ستضع الحكومة مهمة التطلع نحو السلام على رأس اهتماماتها ، وستسعى بشكل فعال وباستمرار لتحقيق سلام دائم في المنطقة » · (نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، مجلد ٧ ، ص ٣٨٧) · وعرض بيغن مشروعه الخاص للسير نحو ذلك « السلام المنشود » فقال : « ستدعو الحكومة جميع جارات اسرائيل ، وكل واحدة على حدة ، مباشرة او بواسطة حكومة صديقة ، لاجراء محادثات مباشرة من اجل التوقيع

على معاهدة سلام بينهما ، دون شروط مسبقة من اي جانب ، ودون اية صيغة حل ابتدعت في الخارج · وتعلن الحكومة استعدادها للمشاركة في مؤتمر جنيف ، في حال دعوته الى الانعقاد من قبل الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي على اساس القرارين ٢٤٢ ، ٣٣٨ · ولمناسبة انعقاد مؤتمر جنيف واجراء مفاوضات مباشرة ، تعلن الحكومة استعداد اسرائيل لاجراء المفاوضات من اجل التوصل الى سلام حقيقي ، تعاقدي ، عملي ، يؤدي الى عودة الحياة في المنطقة الى طبيعتها · وفي غياب معاهدات سلام ، تكون الاطراف ملزمة بالاتفاقات التي وقعتها الحكومات السابقة · ولقد خول الكنيست الحكومة بموجب قانون ان تطبق قضاء دولة اسرائيل وانظمتها اوادارتها على كل جزء من ارض ـ اسرائيل بواسطة مرسوم يحدد ذلك · وهذه الصلاحية القانونية والبرلمانية هي ضمن اعتبارات الحكومة ، ولن يتم تطبيقها ما دامت هناك مفاوضات على معاهدات سلام بين اسرائيل وجاراتها · وسيكون الامر مرتبطا باختيار التوقيت الملائم وبالاعتبارات السياسية للحكومة ، وبمناقشة خاصة في الكنيست ، وباقرار منه » · (المصدر السابق ص ٣٨٨) ·

وعلق ارييه الياف على بيان بيغن حول الخطوط الاساسية لحكومته ، فاشار الى ان سياسة الليكود ستؤدي الى صدام مع جميع الاطراف : العرب والاميركيين ومعظم بلاد العالم ، كما انها ستؤدي الى قيام دولة مزدوجة القومية · وخاطب الياف بيغن قائلا : « انكم تحولون الصهيونية الى مسخ غير معروف المعالم · وفي المعسكر العربي الان من نتحدث معه · انهم قلة ، ولكن ثمة بداية واضحة ، وقد تحدثت معهم · والان بالذات يأتي الليكود، ويزداد خطر نشوب حرب اخرى » · (ن·م·د·ف· ، مجلد ٧ ، ص ٣٩٠) · واعقبه مئير فلنر (راكح) فذكر انه بمجرد شطب الغيبيات والعبارات المنمقة في خطاب بيغن ، تبقى فقط الخطوط العامة المؤدية الى الحرب المقبلة · واضاف ان بيغن سيعرض اسرائيل الى كارثة برفضه الانسحاب « شبرا واحدا » · (المصدر نفسه ، ص ٣٩١) ·

ولاشتراك دايان في حكومة بيغن ، كوزير للخارجية ، دلالة واضحة الى المنحى الذي ستتخذه تلك الحكومة بقيادة الثلاثي الجديد،بيغن،دايان،وايزمن،على صعيد التسوية ، والذي يمكن تلخيصه بنقطتين رئيسيتين : أ) فك الاشتباك مع العرب · ب) شطب منظمة التحرير من المعادلة السياسية في المنطقة · وفور توليه منصبه الجديد ، دعا دايان الى « انشاء جبهة موحدة ضد مشروع الادارة الاميركية الخطر ، لدفعنا الى العودة الى حدود ١٩٦٧ مع تعديلات طفيفة ، واقامة دولة فلسطينية في المناطق التي سيتم الجلاء عنها » · واضاف دايان : « اننا متفقون في الرأي ضد مشروع روجرز القديم الذي اخرج الان مرة اخرى من الثلاجة · وستكون امامنا مهلة للانشقاق ، عندما يقترح الاميركيون او العرب علينا مشروعا عمليا اخر ، قد يقبله المعراخ وداش ، ولا يقبله الليكود ··· » (ن·م·د·ف· ، مجلد ٧ ، ص ٣٩٠) ·

وتجدر الاشارة الى ان دايان يتكلم عن مشروع اميركي على اساس مشروع روجرز المعهود ، في حين ان ما يتناقل من اخبار عن ذلك المشروع ، اذا كان هناك فعلا شيء من ذلك ٠ فانه منبثق في جوهره من « وثيقة بروكنغز » ٠ واذا افترضنا حسن النية ، واخذنا كلام كارتر على ظاهره ، تبينت لنا خطوط مشروع كارتر العريضة كالتالي : ١) اتفاق سلام شامل، يكون في ماهيته متفقا مع المفهوم الاسرائيلي للسلام ٠ ٢) تكون شروط هذا الاتفاق اقرب الى المواقف العربية المطروحة ٠ ٣) كيان فلسطيني ما ٠ وهذا لا يتطابق مع المشروع الذي حمله بيغن معه الى واشنطن ، والذي اعده موشيه دايان ، ونشرت بعض التفاصيل عنه ، ويمكن تصوره كالتالي : ١) الاحتفاظ بالضفة الغربية كاملة ٠ ٢) انسحاب كبير في سيناء ، قد يصل الى وادي العريش شرقا ، ويسير جنوبا بخط يصل الى شرم الشيخ ٠ ٣) وربما طرحت فكرة نقل القاعدة الاميركية الحالية في « ام خشيبة » الى شرم الشيخ على البحر الاحمر ٠ ٤) انسحاب من جنوب هضبة الجولان ، مع الاحتفاظ بالتلال الواقعة غربي القنيطرة والمنطقة المحيطة بمنابع نهر بانياس والمؤدية الى جبل الشيخ ٠ ٥) دعوة لبنان للاشتراك في مؤتمر جنيف لحسم قضية الجنوب ، خاصة مسألة الوجود الفلسطيني فيه ، ومسألة مياهه ٠ ٦) رفض اشراك منظمة التحرير الفلسطينية في مفاوضات التسوية ٠ ٧) حل القضية الفلسطينية بالتفاوض مع الاردن ومن خلاله ٠

وعشية سفر بيغن الى واشنطن لاجراء محادثات مع الرئيس الاميركي ، تكهن العديد من المراقبين السياسيين بتفجر الخلاف بين الطرفين وفشل المحادثات ٠ وقد سبق تلك الزيارة نشاط صهيوني مكثف بين واشنطن وتل ابيب ، يبدو انه اثمر بتلافي تفجير الخلاف بين الطرفين والتعايش معه ٠ وقد يكون ذلك ما حصل فعلا ٠ ولكن اذا افترضنا صحة ما تقوله اطراف التسوية العربية عن الموقف الاميركي ، وقبلنا اعلان بيغن عن نجاح زيارته الى واشنطن ، وعن انه قد توصل الى اتفاق مع الادارة الاميركية على التعايش مع الخلافات القائمة بين الطرفين ، دون السماح لها بالتأثير على العلاقات الثنائية بين البلدين ، وعن قبول واشنطن اقتراح بيغن عقد مؤتمر جنيف دون شروط مسبقة ، اي دون الاعداد الاميركي لما سيتم التوقيع عليه في جنيف ، فان ذلك يعني بالضرورة تراجع كارتر عن مواقفه السابقة ٠ والسؤال الذي يطرح نفسه عندئذ هو عن طبيعة ذلك التراجع ، اهو استراتيجي ، مع كل ما ينطوي عليه ذلك من مضاعفات ، ام انه تكتيكي يهدف الى ترويض اطراف التسوية ، للوصول بها الى قبول المشروع الاميركي ٠ وهذا ما ستكشفه الفترة القريبة القادمة ٠

واخيرا لا بد من الاشارة الى ان فترة الترويض ، اذا كانت هذه نية كارتر ، قد تطول ، وقد تكتنفها بعض المفاجآت ، ولا يستثنى في هذا المجال تصعيد التوتر العسكري ، الذي قد يؤدي الى صدام مسلح على نطاق واسع ٠

سمير كرم

الثابت والمتغير في مبادئ السياسة الاميركية

اليوم اكثر من اي وقت مضى يتردد بالحاح القول بأن ثمة تغيرا قد طرأ على السياسة الخارجية للولايات المتحدة الاميركية ٠

وفي اطار الالحاح على هذه المقولة تختلف الاتجاهات ـ افقيا ورأسيا ـ في مدى هذا التغيير الذي طرأ على السياسة الخارجية الاميركية وعمقه ٠

● اتجاه يذهب الى ان هذا التغيير اساسي يتناول جوهر السياسة الخارجية الاميركية ، اي يسجل تحولا في اهدافها الاستراتيجية العالمية ، او مخططها الاستراتيجي العالمي Global Strategy

واصحاب هذا الاتجاه يذهبون الى ان الولايات المتحدة بصدد مرحلة عودة الى سياسة العزلة Isolationism ، تتخلى فيها عن أهداف الهيمنة الامبريالية ، وتكتفي بحماية مصالحها داخليا ، بعد ان وصلت الى درجة من القوة العسكرية تردع غيرها عن مهاجمتها ٠ ودرجة من القوة الاقتصادية تجعلها قادرة على التطوير الذاتي دون حاجة الى التوسع الخارجي بشقيه ، سواء بحثا عن اسواق شراء المواد الخام الضرورية ، او بحثا عن اسواق بيع السلع الصناعية التي تنتجها ٠ وهذا يعني ـ بالضرورة ـ المشاركة بدور ايجابي في صراعات القوة الدولية ٠

● اتجاه يقصر هذا التغيير على أساليب الولايات المتحدة الاميركية في ممارسة سياستها الخارجية ، ومعالجة قضايا علاقاتها الدولية ٠ اي انه اتجاه

يعترف بالتغيير في « التكتيكات » ، ويذهب الى ان الولايات المتحدة الاميركية تتجه ـ على نطاق العالم كله ـ نحو التخلي عن أسلوب استخدام « القوة » لتحقيق اهداف سياستها الخارجية ، وان تكن هذه الاهداف تفسها لم تتغير ٠

وهذا يعني ان الولايات المتحدة بصدد مرحلة جديدة تقدم نفسها فيها الى العالم الخارجي دولة كبرى مؤمنة بالمنافسة السلمية ، او « التعايش السلمي »، غير مستعدة للعودة الى اساليب التدخل العسكري ـ المباشر او غير المباشر ـ التي مارستها طوال القرن الماضي لتحقيق اهداف استراتيجيتها العالمية ٠

ويستدل على وجود هذا الاتجاه بعدة قرارات (قد لا تكون قد دخلت حيز التنفيذ حتى الان) منها خفض الوجود العسكري الاميركي في الخارج ، واغلاق العديد من القواعد العسكرية ـ البرية والبحرية والجوية ـ الاميركية فيما وراء البحار ٠ كما يستدل عليه بامتناع الولايات المتحدة الفعلي عن التدخل المباشر في الصراعات الاقليمية التي نشبت في مرحلة ما بعد الانسحاب الاميركي من فيتنام ، مثل انغولا وزائير والقرن الافريقي وحتى في كوريا وفي الشرق الاوسط ٠ وهي صراعات اتخذت ابعادا كانت كافية بالمفاييس السابقة لتبرير تدخل اميركي عسكري ٠

● اتجاه يذهب الى ان التغيير الذي طرأ على السياسة الخارجية الاميركية ليس تغييرا كليا وشاملا ، انما هو تغيير يقتصر على مناطق جغرافية محددة على خريطة العالم ٠

وهذا الاتجاه بدوره ينقسم الى تيارين : احدهما يذهب الى ان ثمة تغييرا استراتيجيا في السياسة الخارجية الاميركية ازاء مناطق معينة ، وثانيهما يعتبر ان هذا التغيير ، وان اقتصر على مناطق جغرافية محددة ، الا انه يقتصر على اساليب المعالجة ، اي على « التكتيكات » دون « الاستراتيجية » ٠

وينطبق هذا الاتجاه في تفسيره لهذا التغيير الاميركي اكثر ما ينطبق على سياسة الولايات المتحدة الاميركية ازاء الشرق الاوسط ، اي الموقف الاميركي تجاه الصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠

ومن الواضح ان قوى في الشرق الاوسط تتبنى الرأي القائل بأن تغييرا فعليا قد طرأ على سياسة الولايات المتحدة ازاء الصراع ، وانها ترتب على اقتناعها بهذا التغيير تغييرا في سياساتها ومواقفها ازاء الولايات المتحدة يختلف بمقدار تقييمها للتغيير الاول ، اي لمدى التغيير الاميركي الذي تراه ٠ فان بعض القوى ذهب الى حد وضع الثقة كاملة في السياسة الخارجية الاميركية والالقاء في سلتها بكل الثمرات انتظارا لنتائج التغيير ، الذي يراه كاملا واستراتيجيا وحاسما ٠ بينما اخذ بعض الدول موقفا اكثر حذرا ، معتبرا انه

وان كان هناك تغيير اميركي في الموقف من الصراع العربي ـ الاسرائيلي الا انه تغيير جزئي يحتاج لممارسات سياسية تهدف الى دفعه في اتجاه الاتساع والعمق ، سواء باسترضاء الولايات المتحدة والاعتراف بمصالحها وامتداح دورها « المتغير » ، او بالضغط عليها في اتجاه ادراك حاجتها لتعميق هذا التغيير في سياستها في الشرق الاوسط ٠

واصحاب هذا الاتجاه هم بالتحديد الذين يعتبرون ان حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ هي صاحبة الفضل في ادخال هذا التغيير على السياسة الاميركية ازاء الشرق الاوسط ٠ باعتبار ان الاداء العسكري العربي في تلك الحرب كان بمثابة المنبه ـ ان لم يكن الصدمة ـ الذي ايقظ صانعي السياسة الخارجية الامريكية على « متغيرات » المنطقة ، وجعل هذا « التغيير » ضرورة اميركية ٠

وينطوي هذا الاتجاه على افتراض ، قابل للجدل ، بان الولايات المتحدة لم تكن بحاجة الا لادراك معطيات الصراع في الشرق الاوسط لكي تسرع فورا الى تغيير سياستها ومواقفها في المنطقة ٠ ويذهب بعض اصحاب هذا الاتجاه بهذا المنطق الذاتي والاحادي الجانب الى حد نسبة هذا « التغيير » في السياسة الخارجية الاميركية ، او على الاقل نسبة بعض ملامح هذا التغيير الى اخلاقيات شخصية لدى هذا الرئيس الاميركي او وزير الخارجية الاميركي ذاك ٠٠ مثل « التدين » و « الانتماء الريفي » او «الاخلاص للكلمة » او ٠٠الخ٠

وعلى وجه الاجمال فان هذه الاتجاهات التي يجعلها الاقتناع بمقولة وجود « تغيير » في السياسة الخارجية الاميركية ، ايا كان مداه وعمقه ـ تؤسس على مشاهدات جزئية ، لفترة زمنية محددة ، هي في الحقيقة الفترة القصيرة التي انقضت منذ نهاية الدور العسكري الاميركي في الهند الصينية (اي نهاية عام ١٩٧٣) ٠ وهي ـ كانت ـ الفترة نفسها منذ وقوع وانتهاء الحرب العربية ـ الاسرائيلية الرابعة ٠ ولهذا السبب صار من الممكن الوقوع في خطأ نسبة بعض الاعراض الناتجة عن الهزيمة الاميركية (او على الاقل هزيمة الدور الاميركي) في فيتنام والهند الصينية الى نشوب حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ونتائجها الايجابية (مع تنحية غير موضوعية في معظم الاحيان لدلالات وآثار نتائجها السلبية) ٠

لا يعني هذا ـ بطبيعة الحال ـ نفي أية آثار احدثتها حرب تشرين العربية ـ الاسرائيلية على الطرف الاميركي عسكريا وسياسيا ٠ فلقد كانت لتلك الحرب ـ بالتأكيد اثارها التي تحتاج الى دراسات مستفيضة ومدققة ، على السياسة الخارجية (بل والدفاعية) الاميركية ٠

الايديولوجيا ٠٠ والاستراتيجية

ولكن لكي يكون فهمنا موضوعيا ودقيقا لطبيعة « التغيير » الذي طرأ على السياسة الخارجية الاميركية ، وما اذا كان استراتيجيا او تكتيكيا ، حقيقيا او زائفا ، مؤقتا او طويل الامد ، لا بد ان نميز ما هو حادث منه نتيجة لاحداث الشرق الاوسط ، وما هو حادث نتيجة لاحداث الشرق الاقصى ٠ فلقد كان الدور الاميركي في المنطقتين مختلفا عمقا واتساعا وطبيعة ، كما كانت نتائج صراع الشرق الاقصى (فيتنام وكمبوديا ولاوس) مختلفة جذريا ـ عمقا واتساعا وطبيعة ايضا ـ عن نتاج صراع الشرق الاوسط ، بصفة خاصة فيما يهم ويخص الولايات المتحدة الاميركية وسياستها في المنطقتين ٠

وعلى اي حال فانه لا يمكن المضي شوطا كبيرا في رحلة استكشاف «التغيير» في السياسة الخارجية الاميركية ـ عمقه ومداه ـ دون وجود خريطة نظرية بين ايدينا تبين الثوابت والمتغيرات فى تلك السياسة ، اي تميز بين العوامل والاعتبارات التي تبقي السياسة الخارجية الاميركية « اميركية » ، وبالتالي لا بد ان تبقى في حالة ثبات نسبي ، وتلك التي رغم تغيرها تبقى السياسة الخارجية الاميركية عند ثباتها النسبي ٠

وعند هذا الحد ينشأ عدد من الصعوبات او الاشكالات النظرية المجردة ، او بالاحرى المنهجية ٠

ان يمكن ان يكون « **الثابت** » في السياسة الخارجية للولايات المتحدة هو « **الايديولوجيا** » التي تتأسس عليها هذه السياسة ، تماما كما تأسست عليها سياسة الولايات المتحدة الداخلية ٠ فهل هناك « ايديولوجيا » للسياسة الخارجية الاميركية ؟ ونحن هنا نطرح السؤال افتراضيا فحسب ، لانه من المؤكد ان هناك « ايديولوجيا » اميركية ، سواء كانت محددة ومكتوبة او ممارسة بحذافيرها ، او كانت ضمنية وغائمة وغير ممارسة بحذافيرها ٠

كذلك يمكن ان يكون « **الثابت** » في السياسة الخارجية الاميركية « **استراتيجية** » ، وهو مفهوم ادنى في تعميمه وتجريده من مفهوم « الايديولوجيا » والاعتبارات الايديولوجية اوسع واعلى من الاعتبارات « الاستراتيجية » ٠ فضلا عن ان هناك حقيقة ملموسة هي ان ما نعرفه في الوطن العربي ـ وحتى في العالم الثالث كله ـ عن « ايديولوجيا » اميركية نادر للغاية ، ان لم يكن معدوما ، بينما ما يصل الى معارفنا عن « الاستراتيجية » الاميركية كثير الى درجة طوفانية ٠ سواء كان مصدره الادبيات السياسية الاميركية نفسها ، او الادبيات السياسية المناهضة للاستراتيجية الاميركية على اختلاف الوان تلك الادبيات السياسية وظلالها ٠

على ان الواقع الراهن للتطورات الدولية يفرض علينا اختيـــار الاهتمـــام بالايديولوجيا التي تشكل الخلفية العامة (الثابتة نسبيا) التي ترسم عليها السياسة الخارجية بتغيراتها المختلفة ٠٠٠ اكثر من الاهتمام بالاستراتيجيـــة الاميركية كعامل ثابت نسبيا في تلك السياسة ٠

فالمشاهد في الواقع الراهن هو عودة الكتاب النظريين والاستراتيجيين في الولايات المتحدة الاميركية نفسها الى اصطلاح « الايديولوجيا » ، وتراجـــع اصطلاح « الاستراتيجية » كثيرا عن مكانة الصدارة التي احتلتها منذ الحرب العالمية الاولى اي على مدى ستين عاما تقريبا ٠ ولم يكن هذا ليصلح سببا كافيا تدعي من اجله ان الواقع الراهن للتطورات الدولية يفرض علينا اختيـــار الاهتمام بالايديولوجيا ، لولا ان ذلك الاهتمام النظري في الولايات المتحدة نفسها قد ادى الى نتائج عملية هامة ، اكثرها ظهورا للعين المجردة انتخاب الرئيس الاميركي جيمي كارتر ٠

كيف ؟

لقد حفلت الفترة الواقعة بين سقوط الرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون ــ نتيجة للهزيمة الاميركية في فيتنام ، ونتيجة ــ اكثر دويا ــ لفضيحة ووترغيت ــ وانتخاب جيمي كارتر رئيسا للولايات المتحدة ، ازدهارا واضحا للافكار التـــي تتناول الحاجة الى تاكيد الاعتبارات «الايديولوجية » ــ بجوانبها السياسيـــة والاخلاقية والحضارية وحتى الدينية ــ في الحياة الاميركية ، وكتب الكثير في الصحافة الاميركية ــ حتى الاسبوعية واليومية ــ عن فقدان امريكا الـــروح والاخلاق والشعور بالهوية الحضارية والرسالة الانسانية التي كانت لها ٠٠ باعتبار كل ذلك من اسباب التورط (ثم الهزيمة) في فيتنام ، ومن اسبـــاب تفشي الفضائح من غرار « ووترغيت » ، ثم من اسباب فقدان الولايات المتحدة ثقتها بنفسها وثقة الاخرين بها ايضا ٠

وفي هذا الاطار دارت ــ خلال تلك الفترة ــ ولا تزال تدور مناقشات قيمـــة تختلف في توجهها وتركيزها على الجوانب المعيارية والاخلاقية عن كل المناقشات التي اتسمت بها الفترات الانتخابية او فترات الازمات الحادة السابقة ٠ وقـــد تمحورت هذه المناقشات في معظمها حول دور الولايات المتحدة في هذا العالم المتغير ٠ وكان السؤال الاساسي المطروح فيها : ماذا ينبغي ان يكون التوجـــه الاميركي في العلاقات الدولية بعد ان اتضح في التطورات الاخيرة هبـــوط النفوذ الاميركي على اثر « صدمة فيتنام » و « فضيحة ووترغيت » ؟ بينما كانت اكثر الاجابات وضوحا ــ او اجماعا ــ هي القائلة بان التغيرات الاساسيـــة للسياسة الاميركية عن استمرارية الاسس تتمثل في أمرين :

● **انخفاض حدة المخاوف الاميركية التي قامت على اساسها الحرب الباردة، وما يترتب على ذلك من فقدان سياسة « احتواء الشيوعية » لمبرراتها ، او على**

الاقل الكثير من مبرراتها ٠

● ارتفاع درجة اعتراف الاميركيين بانه لن يكون بامكانهم ان يشكلوا العالم ـ او يعيدوا تشكيله ـ على صورتهم ، اي على الصورة الاكثر ملاءمة للمصالح الاميركية ٠ (١)

وهذا يعني ان الاميركيين ، الذين ظلوا يبنون سياستهم الخارجية ، على الاقل منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وبداية حقبة الحرب الباردة ، على اساس ان العالم في حاجة الى « ايديولوجيا اقل » ٠ تحولوا الى ادراك بأنهم هم انفسهم في حاجة الى « ايديولوجيا اكثر » ، ان لم يكن الى ايديولوجيا جديدة اصلا ٠ وقد واكب ذلك ضعف الدور العالمي للولايات المتحدة ، وازدياد ادراكها بأن تغيرات الظروف الدولية قد فرضت مشكلات جديدة يستحيل مواجهتها بالاساليب القديمة نفسها ٠

وفي اعتقادنا انه لم يكن من قبيل الصدفة ان صعد الى رياسة الولايات المتحدة في بداية هذا العام (١٩٧٧) اكثر مرشحي الرياسة ترديدا للمقولات « الايديولوجية » ، وخاصة الاخلاقية والمعيارية ٠ وقد حدث ذلك بصورة اكدت عمق شعور الشعب الاميركي بأنه يعاني « فراغا روحيا » خطيرا ٠ ويمكن القول بأن مديري حملة كارتر الانتخابية ادركوا هذه المعاناة ولعبوا على اوتارها ٠ ولا يزال كارتر ـ بعد ان اصبح رئيسا ـ يلعب على الاوتار نفسها ليحافظ على صورة « الرئيس الروحي » ، بالاضافة الى دور « الرئيس التنفيذي » ٠

ولكن هل كانت الولايات المتحدة بدون « ايديولوجيا » خلال الفترة الماضية ؟ هل كانت السياسة الخارجية الاميركية تفتقر الى اساس ايديولوجي ؟ وبعبارة اخرى ، او صياغة ـ اوضح للسؤال نفسه هل كانت مكونات السياسة الخارجية الاميركية ـ طوال الفترة السابقة على العودة الى اكتشاف الحاجة الى « ايديولوجيا » ـ تتألف من متغيرات بلا ثوابت ؟

---

(١) يمكن الرجوع بشأن هذه المناقشات الى عدد كبير للغاية من الكتابات الاميركية اهمها :

Schlesinger, Arther, The Imperial Presidency London. 1974.

— Manning, Bayless, The conduct of Foreign Policy in the Nations Third Century, New York, 1976.

— Brzezinski, Zbignieu, A New Focus for U.S. Foreign Policy, Foreign Affairs, July 1973.

— Lerner, Max, America : Decline and Fall , Foreign Affairs, January 1974.

المرحلة التبشيرية

كما ذكرنا من قبل ، فانه لا سياسة بدون « ايديولوجيا » الا انه ينبغي ان نميز بين « ايديولوجيا » معلنة و « ايديولوجيا » كامنة او فعلية · فقد كانت للولايات المتحدة ايديولوجيتها المعلنة دائما دفاعا عن سياستها الخارجية وممارساتها في العلاقات الدولية · وكانت هذه « الايديولوجيا » هي التي تفسر وتبرر مسلك الولايات المتحدة الدولي بصورة تبدو وكأنها تتخطى المصالح العسكرية والاقتصادية المباشرة والضيقة · والولايات المتحدة في هذا لم تكن تختلف عن اية قوة دولية كبرى اخرى ـ في مرحلة التوسع بصفة خاصة · فشأن الولايات المتحدة شأن القوى الاستعمارية والامبريالية الاخرى ، كالبرتغال وهولندا وبريطانيا وفرنسا ـ كانت تستند الى فكرة تبشيرية تمتد عبر تاريخ التوسع الاميركي العالمي · بل لعل الفكرة التبشيرية الاميركية كانت اكثر طموحا من اي فكرة تبشيرية استندت اليها القوى التوسعية الاخرى ، بما فيها البرتغال التي اقنعت طابعا دينيا وحضاريا على تبريرها لاستعمارها في افريقيا · فعلى حين كان كل تبشير استعماري اخر اقليميا ، اي له حدوده الجغرافية ـ مهما اتسعت هذه الحدود ـ فان التبشير الاميركي كان ذا طابع عالمي Global ·

فالفكرة التبشيرية التي تمتد عبر التاريخ الاميركي هي ان على الامة الاميركية ان تمنح العالم نموذج مجتمع الرفاهية ، وان انتشار الحضارة الاميركية خارج القارة الاميركية هو المبرر الاسمى للتجربة السياسية الاميركية(٢) فكان من السهل ان تقال عبارات مثل العبارة التي قالها وليام هاريسون ـ حاكم ولاية انديانا الاميركية ـ في سنوات الاستقلال الاولى ـ في تبرير ابادة الهنود الحمر : « ان جزءا من اغنى اجزاء المعمورة لا يمكن ان يظل موطنا لبضعة متوحشين مساكين ، في حين يبدو ان الله قد كرسه لمعيشة عدد ضخم من السكان ، وليكون موطنا للحضارة والعلم والدين الحق » · (٣) ونمت في الاتجاه التبشيري ذاته الفكرة القائلة بان قدر اميركا الواضح ··· هو استخدام طاقاتها الفطرية لبعث الانسانية · (٤) فكان التدخل العسكري الاميركي في الفيلبين وفي كوبا وفي المغرب العربي (٥) في القرن الماضي ـ

---

(2) Barnet, Richard J. , Intervention and Revolution, London, 1972.

(٣) مذكورة في المصدر نفسه ·

(٤) المصدر نفسه ·

(٥) خلال الفترة من ١٨٠١ الى ١٨٠٥ شنت البحرية الاميركية حربا ضد طرابلس

وفقا للتبريرات الاميركية ـ « استجابة للضرورات الكبرى للانسانيـــة » ، وتحقيقا لواجب « تمدين الشعوب غير القادرة على حكم نفسها » ٠

قيادة العالم

وعندما خبت نار الروح التبشيرية في التبريرات الايديولوجية للتوســـع الاميركي الخارجي ظهرت الايديولوجية الاميركية في صورة مبدأ « **قيـــادة العالم**» او «ممارسة القيادة المعنوية» (تعبير الرئيس الاميركي وودرو ويلسون)٠ ومع مزيد من خفوت الطابع التبشيري المباشر اصبحت المبررات الايديولوجية تتمثل في التأكيد على ضرورة قيام الولايات المتحدة مع حلفائها ـ ثم منفـردة بعد ذلك ـ بدور **رجل البوليس الدولي**،الذي يحمي الحرية والديمقراطية فيارجاء **العالم** ٠وبدا عند نهاية الحرب العالمية الثانية ان النتيجة الاساسية لها هي ان مسؤولية قيادة العالم قد اصبحت ملقـــاة على عاتق الولايات المتحـدة دون غيرها ٠ كان من الضروري ان يصبح عدو الولايات المتحدة هو عدو العالم ٠ وان يصبح العالم الذي تقوده الولايات المتحدة هو « **العالم الحر** » ، وما عـــدا ذلك مناطق محتلة ، او ستاز حديدي ٠٠٠ الخ ٠ فعندما انتهت الحرب العالمية الثانية اعلنت الولايات المتحدة رسميا ـ على لسان رئيسها هاري ترومان ـ مفهومها الواضح لدورها ومسؤوليتها في العالم ٠ فهذا الدور يقوم على اساس ان قوة الولايات المتحدة انعسكرية ـ وعير العسكرية ـ هي الضمان الاساسي للسلام ٠ وفي هذا الصدد كتب جنرال جورج مارشال رئيس هيئة اركـــان الحرب الاميركية المشتركة في تقرير له عام ١٩٤٥ : « ان **علينا اذا اردنا تحقيق من نجرؤ عليه من الآمال في السلم ، ان نفرض بالقوة ارادتنا في السلام** » ٠ وكتب جيمس فورستال وزير الدفاع الاميركي آنذاك : « **ان حجر الاساس في اية خطة ترمي لتخليصنا من لغة الحرب هو بالضرورة الجبروت العسكري للولايات المتحدة** » ٠ **(٦)** وكان الدبلوماسي الاميركي آفريل هاريمان اوضح تعبيرا عـن عنفوان ايديولوجية العداء للشيوعية حين قال في العام نفسه (١٩٤٥) : « **ربما يتعين علينا ان نواجه حربا ايديولوجية شبيهـــة في خطرها وحدتها**

الغرب ومراكش وتونس حاصر فيها الاسطول الاميركي المدن الثـــلاث لغرض منـــح امتيازات خاصة للاميركيين في المنافسة بينهم وبين التجار الاوروبيين المنافسين ٠ وقد تضمن الجزء الاول من النشيد الرسمي للبحرية الاميركية اشارة الى تلك الحملة علـــى المغرب العربي ، حيث تقول سطوره الاولى « من هضاب مونتيسوما الى سواحل طرابلس، في الجو والبر والبحر ، خضنا معارك الوطن » ٠

بمواجهة النازية والفاشية » ٠ (٧) ٠

وقد تناول هذا المعنى نفسه بالتطوير ، دبلوماسي اميركي اخر شهير من دبلوماسيي بدايات حقبة الحرب الباردة هو جورج كينان ، الذ يكتب في مقاله الشهير في مجلة Foreign Affairs الاميركية (ربيع ١٩٤٧) ٠ تحت عنوان « مصادر السلوك السوفياتي » (وبتوقيع مجهول « × » :

« ان امامنا قوة سياسية ملتزمة التزاما اعمى بالاعتقاد باستحالة اقامة اسلوب حياة مع الولايات المتحدة ٠ وان من المرغوب ومن الضروري ان يجري تخريب الانسجام الداخلي لمجتمعنا وتدمير طريقة حياتنا التقليدية وهدم النفوذ العالمي لدولتنا ، كي تصبح السلطة السوفياتية في امان » ٠

صوت العقل

وكان من الطبيعي ان تفرخ « سياسة القوة » التي انتهجت الولايات المتحدة على مدى السنوات منذ منتصف خمسينات القرن التاسع عشر نقيضا لها ، اتخذ صورة معارضة قوية ــ نظرية في معظم الاحيان ــ ضد هذه السياسة ٠ فظهرت افكار جون كوينسي ــ آدامز الذي ناهضه استخدام السياسة الخارجية الاميركية كأداة لتطوير الاخرين ، وكان من رأيه ان محاولة « تصدير الحرية » الى البلدان الاخرى ستؤدي الى ان تصبح القوة لا الحرية هي اساس سياسة الولايات المتحدة ٠ وهذه قد تتحول بسياسة القوة الى « دكتاتورة للعالم » ولكنها عندئذ ستكف عن ان تكون قائدة لروحها هي ذاتها ، وعليها من ثم ان تكتفي بأن تكون « بطلة نفسها وحامية ذاتها » ٠

وعلى مدى القرن من منتصف التاسع عشر الى منتصف العشرين لم يخفت ولم يضع وسط قعقعة اسلحة الحروب الاميركية العديدة ــ صوت المعارضين لسياسة القوة الرافضين للتبريرات الايديولوجية التبشيرية لدور اميركا العالمي٠ وظهرت محاولات عديدة (شبيهة في أوجه كثيرة منها بالمحاولات الجارية الان) للحديث عن « القيم الاميركية » بدلا من « القوة الاميركية » ، وللعودة الى « **الوثائق الاصلية** » مثل وثيقة « **اعلان الاستقلال** » **ووثيقة « الدستور »** ، بهدف كشف مدى مطابقة الممارسة للنصوص ٠ وكثر الحديث ــ في مواجهة تصعيد التوسع الاميركي العسكري بقوة السلاح خارج القارة الاميركية ــ عن « **قيم الآباء** » و « **مبادىء الاجداد** » و « **آمال جيل المؤسسين** » ٠ (ومن

---

(6) Rogow, Arnold : James Forrestal, New York, 1963.

(٧) المصدر نفسه ٠

الامور الملفتة للنظر كثيرا ان هذه الاحاديث والمناقشات النظرية دارت اكثر مـا دارت حول السياسة الخارجية الاميركية · ولم تكد تتناول قضية هامة مـن قضايا الداخل ، مثل القضية العنصرية) ·

الاخلاقية الدولية

وجاءت فترات قويت فيها فرص القوى الرافضة ، للتأثير على مسـار السياسة الخارجية الاميركية · وخاصة بعد ان امتد نفوذها الى « الكونغرس » واحيانا الى الكنيسة ، وشكلت تحالفات سياسية قوية من الرافضين لسياسـة القوة مثل حلف كيلوغ ـ بريان لتحريم الحرب الذي ظهر في فتـرة ما بيـن الحربين العالميتين الاولى والثانية · وابان الازمة الاقتصادية الطاحنة التـي داهمت الغرب في اوائل الثلاثينات كان من ابرز التفسيرات التي قدمت لها انها ليست سوى ميراث تراجيدي ورثته الولايات المتحدة عن سياسة « الحرب لانهاء الحرب » · وظهرت معلومات مذهلة عن تحقيقات برلمانية وبحوث اكاديمية في تلك الفترة حول « **تجارة الموت** » ودور شركات الصناعة الحربية في دفع السياسة الخارجية الاميركية نحو سياسة الحرب وممارسة سياسة القوة · وبدا من العسير في تلك الفترة اظهار الدور العسكري الاميركي في الخارج بأنـه يقوم على اسس من « المقدسات الاخلاقية »· وازداد عدد رجال الدين المتحمسين لشن الحملات في مواعظهم ضد سياسة القوة والحرب ، وظهرت بينهم فلسفة اللاعنف كأقوى ما تكون تعبيرا عن معارضة السياسة الخارجية الاميركية كما كانت تمارس في تلك الحقبة ·

وبالفعل اتت هذه الموجة المعارضة بالرئيس الاميركي فرانكلين روزفلـت رافعا شعار دعم قوى « الاخلاقية الدولية » (وهو تعبير يكاد يطابق التعبيرات التي يستخدمها الرئيس الاميركي الحالي كارتر) · وكان التيار المؤيد لروزفلت يطالب بالابتعاد عن دور البوليس الدولي الذي ارهق الولايات المتحدة ، وانتهاج سياسة « اميركا اولا » · وذهب روزفلت الى حد التعهد بان الشباب الاميركـي لن يذهبوا مرة اخرى ليحاربوا في اوروبـا ، و « ان الامة الاميركيـة حيث تواجه الاختيار بين ارباح التسليح والحرب ، فانها ستجيب ، ويتعين عليها ان نجيب : نختار السلام » ·

مع ذلك فان التطورات اللاحقة ـ ولفترة طويلة امتدت حتى اوائل السبعينات. بل لعلها ممتدة الى الان ـ كانت سلبا لهذه المقولات كليا ··· ابتداء مـن الحرب العالمية الثانية · الى حرب كوريا ، الى حرب فيتنام وكل الهنـد الصينية ، حتى التدخل في لبنان عام ١٩٥٨ ، وفي جمهورية الدومينكـان

فى عام ١٩٦٥ ، وقبلها غزو « خليج الخنازير » في كوبا عام ١٩٦١ ٠٠٠

مع ذلك من أكثر مسائل السياسة الخارجيـــة اثارة للخلافات السياسيـــة والدستورية ــ وحتى الفكرية ــ داخل الولايات المتحدة هي مسألة سلطة دخول الحرب وارسال القوات الاميركية المسلحة الى خارج الاراضي الاميركية ٠ لقد ظلت هذه المسألة في حالة اشتعال مستمر ٠ لم تخب ابدا وانما خفتت احيانا والتهبت احيانا اخرى ــ وقامت في فترة الحرب الفيتنامية التي دامت اكثـــر من عشر سنوات ٠ وخلال ذلك كانت هناك اصوات ــ ابرزها وليام فولبرايت وستيوارت سايمنغتون ومايك مانسفيلد من رجال الكونغرس ، ووالت ويتمان وآرثر شليزنغر من رجال الصحافة والفكر ــ اتخذت مواقف صريحة ليس فقط ضد الحرب ، وانما بالدرجة الاولى ضد الوضع اللاديمقراطي الذي يعطي رئيس الولايات المتحدة حق ارسال القوات المسلحة الى خارج الاراضي الاميركية ، مدعما بالاعتمادات العسكرية الضخمة ٠ وفيما كانت حرب اميركا في فيتنـــام تشيع الدمار والمآسي وتستنزف دماء الفيتناميين والاميركيين على السواء ، كان هناك خطان متصارعان في السياسة الاميركية :

● خط يؤيد سلطة الرئاسة (البيت الابيض) على اساس مبادىء السلطـــة المتفوقة ، السرية ، سرعة القرار ، سيادة رئيس الولايات المتحدة على شئـــون السياسة الخارجية بالكامل ٠

● خط يطالب بالحاح بالحد من سلطة الرئيس ، وبضـــرورة اخـــذ رأي الكونغرس في قرارات السياسة الخارجية ، وخاصة منها ما يتعلق بالحرب ٠ ويرى ان التجربة اثبتت ان الاعتماد على السلطة المتفوقة للرئيس ادى فـــي مرات عديدة الى سوء التقدير وسوء الحكم ٠ وكانت حرب فيتنام اشد الادلة وضوحا بين ايدي اصحاب هذا الخط ٠

وقد وصل النزاع الدستوري حول سلطة الرئيس وسلطة الكونغرس فيمـــا يتعلق بقرار الحرب الى الحصار الاميركي حتى عند نقاط تفصيلية من تطورات حرب الهند الصينية ٠ وفي بعض الحالات اصدر القضاء احكاما ضد قرارات البيت الابيض ، مثلما حدث في صيف عام ١٩٧٣ عندما قيد القضاء الاعتمادات التي يطلبها الرئيس نيكسون لمواصلة الغارات الاميركية الجوية على كمبوديا ، واعتبرها غير دستورية ٠

وفي الواقع فان جذور المشكلة ــ وكذلك جذور المناقشة النظرية لها ــ لم تكن ذات طبيعة دستورية ، وانما كانت متعلقة بالاساس بطبيعة واتجاه السياســـة الخارجية الاميركية ٠ « لقد نشأت الازمة في اساسها الاول عن الاعتقاد بـــان الولايات المتحدة لا بد ان تقوم بدور الحارس على الحرية في كل مكان على كوكب

الارض· كانت السياسة ذات النزعة العالمية Globalist تدعو لاساس زاخر بالرسالة الايديولوجية ، باستعداد للتدخل انفراديا في شؤون الدول الاخرى ، ومقدرة على ارسال قوات مسلحة وفقا للمشيئة الى اركان المعمورة النائية · ومن ثم كانت تدعو الى تركيز السلطة ، والى سرية وسرعة وحرية تصرف الرئيس » (٨) ·

لقد عبر فولبرايت عن هذا المعنى للازمة حين قال ان الاميركيين يحاولون ان يقوموا بانفسهم بكل الاشياء التي كان ويلسون وروزفلت يأملون تحقيقها عن طريق السلطة الجماعية لمنظمة عالمية ولم يتصوروا ابدا قيام الولايات المتحدة بها وحدها· ولم يكن يمكن ان يؤدي هذا الا الى تجاوزات خارجية لاتهامه لها · والى حروب مزمنة، ونفقات باهظة واضفاء طابع عسكري على الحياة الاميركية· ولم يتوقف فولبرايت عند هذا الحد ، بل مضى الى اعلان تحذيره من ان الولايات المتحدة آخذة في التحول الى « دكتاتورية انتخابية » ، تمارس بوجه خاص في السياسة الخارجية وفي المجالات الداخلية التي تعتمد بدرجة او بأخرى على المؤسسة العسكرية ·

هزيمتان ··

الا ان الاصوات المعارضة لسياسة القوة والحروب والتدخل العسكري لم تكن تكفي وحدها لتحويل اتجاه السياسة الخارجية الاميركية عن هذا المسار· فقد كان بامكان السلطة الاميركية دائما ـ مدعومة بالقوى الطبقية ذات المصالح الرأسمالية الهائلة المتعلقة بالحروب والصناعات الحربية ، والباحثة دوما عن اسواق جديدة ومجالات متعاظمة للاستثمار الخارجي ـ ان تجد الثغرات الدستورية والسياسية التي تستطيع ان تنفذ منها الى مواصلة تلك السياسة ، وان تجد السبيل الى اغراق الرأي العام الاميركي في طوفان من الدعاية عن حماية مصالح الولايات المتحدة في الخارج ، ان لم يكن الدفاع عن مبادىء الحرية والديمقراطية وحقوق الانسان · كان لا بد ان تصطدم « سياسة القوة » اصطداما مباشرا بالفشل على ارض معاركها ، لكي تحدث هزة حقيقية في المجتمع الاميركي تتجاوز حدود المعارضة الليبرالية او الليبرالية المعارضة الى نطاق التغيير الحقيقي الذي يجبر مخططي ومنفذي هذه السياسة على التراجع عن مواقع القيادة وعن سلطة اتخاذ القرار ·

---

(8) Schlesinger, Arther, The Imperial Presidency, London, 1974. Pan American Union.

فقد تبين ـ موضوعيا ـ ان سياسة القوة لم تساعد على تأكيد امن الولايات المتحدة ، ولم تساعد على زيادة نفوذها وهيبتها في العالم ، وانما جرتها الى حروب بعيدة لم تقتصر نفقاتها الباهظة على التكاليف المادية ، بل تجاوزتها الى النفقات المعنوية من صميم ثقة الولايات المتحدة بنفسها وثقة العالم الخارجي بها · وعندما جاءت هزيمة اميركا في فيتنام لم يكن من قبيل المصادفة انها تزامنت مع افتضاح التفسخ الداخلي لنظام الديمقراطية الاميركية · وشاركت الهزيمة والفضيحة معا في الحاق عار لا نظير له بـ « اقوى دولة في العالم »·

كانت الآثار المباشرة لهزيمة السياسة الخارجية (فيتنام) وهزيمة السياسة الداخلية (ووترغيت) متمثلة في الدعوة الى « اعادة تعريف المصالح الاميركية في الخارج » من ناحية ، والعمل على العودة الى الاصول الدستورية في توزيع السلطات في الداخل · وادى هذان الجانبان بدورهما الى سلسلة من عمليات اعادة النظر : في دور وكالة الاستخبارات الاميركية ـ في توزيع القوات المسلحة ـ والقواعد العسكرية الاميركية في الخارج ـ في دور الكونغرس ودور الرئيس في رسم السياسة الخارجية ـ في حجم ومدى التأييد الاميركي للنظم الحليفة ، وخاصة الدكتاتوريات ··· الخ ·

وما كانت تلك الا التفصيلات الجزئية للدعوة الاكثر تجريدا وشمولا الى « ايديوليوجيا » جديدة او على الاقل الى عودته الى « القيم الاميركية » ، وتحت ستار هذه الدعوة ظهرت المحاولات العديدة في السنوات التالية للهزيمتين لوضع تفصيلات « نقطة محورية جديدة للسياسة الخارجية الاميركية » (كان هذا عنوان لدراسته التي نشرها زبغنيو برجنسكي في مجلة « الشؤون الخارجية » الاميركية ، والتي قربته كثيرا الى جيمي كارتر ، الذي استعان به في تحديد ملامح سياسته الخارجية وهو مرشح للرئاسة ، ثم عينه مستشارا لشؤون الامن القومي بعد ان فاز بالرئاسة) ·

على ان من الخطأ الاعتقاد بأن السياسة الاميركية دخلت منعطفا جديدا بصورة فجائية خلال السنوات القليلة التي اعقبت نهاية حرب فيتنام وانكشاف فضيحة « ووترغيت » · انما كان الصراع الايديولوجي حول مسائل السياسة الخارجية يتعرض لتقلبات كبيرة على مدى السنوات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بسبب تعاظم قوة العالم الاشتراكي الاستراتيجية والاقتصادية · وبروز دوره في مناوأة الهيمنة الاميركية التي كانت تحل تدريجيا محل الهيمنة الاستعمارية القديمة البريطانية والفرنسية والهولندية والبجليكية ··· الخ ·

على مدى تلك السنوات ، ومن قبلها ، اضطرت الايديولوجيا الاميركية للتلون بصور مختلفة كأساس للسياسة الخارجية · ولهذا ظهرت « مبادىء » كثيرة حملت اسماء عديد من رؤساء الولايات المتحدة المتعاقبين · وكان كل من هذه «المبادىء» يعبر ـ ليس فقط عن تبرير سلوك معين في سياسة اميركا

الخارجية ـ وانما كان يعبر ايضا عن مرحلة بأكملها في تطور دور اميركا العالمي ، بين القوة والضعف ، بين العدوانية والانسحابية ، بين العالمية والانعزالية ٠

ولعل الولايات المتحدة تنفرد عن باقي القوى الكبرى في العالم في انها قدمت عددا كبيرا من « المبادىء » لسياستها الخارجية كانت بمثابة علامات على « تحولات » معينة ٠ ولهذا فانه يمكن من خلال تلك « المبادىء » فهم ثوابت ومتغيرات السياسة الخارجية الاميركية ٠

« مبدأ مونرو »

وكان اول « مبدأ » في تاريخ السياسة الخارجية الاميركية هو « مبدأ مونرو» الذي أصدره الرئيس الاميركي جيمس مونرو في رسالة الى الكونغرس يوم ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٢٣ ٠ وقد احتوى هذا « المبدأ » على اربعة عناصر رئيسية : (١) ان القارة الاميركية لن تعود في المستقبل مجالا لقيام مستعمرات اوروبية ، (٢) ان يقوم في القارة الاميركية نظام سياسي يختلف جوهريا عن النظام السياسي القائم في اوروبا : (٣) ان الولايات المتحدة تعتبر اي محاولة من جانب الدول الاوروبية لمد نفوذها في الاميركيتين خطرا على سلامها وامنها ٠ (٤) ان الولايات المتحدة لن تتدخل في المستعمرات الاوروبية القائمة . ولن تشارك في اية حروب اوروبية محضة ٠

ويلاحظ ان هذا المبدأ ظل اساسا للسياسة الخارجية الاميركية لمدة تربو على قرن ، فلم يظهر « مبدأ » جديد يحمل اسم رئيس اميركي اخر الا في عام ١٩٤٧ عندما اعلن « مبدأ ترومان » ٠ ويرجع هذا الى ان ذلك القرن بأكمله كان بالنسبة للولايات المتحدة قرن الاهتمام الاميركي اساسا ، وانه لم تكن هناك قوة تعد مناوئة للولايات المتحدة على نطاق عالمي على النحو الذي صارت الاحوال عليه بعد قيام الدولة السوفياتية والمعسكر الاشتراكي ٠ وعلى اساس « مبدأ مونرو » خاضت الولايات المتحدة عدة حروب وصراعات في « نصف الكرة الغربي » ٠ بل ان « مبدأ مونرو » ظل نافذ المفعول الى ما بعد ظهور « مبادىء » اخرى وحددت تغيرات عالمية واسعة النطاق ٠ فقد اعادت الولايات المتحدة تأكيده في « اعلان ليما » الذي صدر في عام ١٩٤٢ بتأسيس « اتحاد عموم اميركا » Pan American Union ، ثم عند توقيع معاهدة « ريو دي جانيرو» في عام ١٩٤٢ التي نصت على ان اي هجوم على واحدة من الدول الاميركية سيعتبر هجوما ضدها جميعا ٠

وتأكد مبدأ مونرو في عام ١٩٥٤ عندما اعلن وزير الخارجية الاميركي جون فوستر دالاس في مؤتمر الدول الاميركية في « كاراكاس » ان من بين اهم

اساسيات السياسة الخارجية الاميركية اعتراض الولايات المتحدة على وجود حكومات شيوعية او مؤيدة للشيوعية في القارة الاميركية . باعتبار ان ذلك يشكل انتهاكا لمبدأ مونرو · واكدت الولايات المتحدة ـ عمليا ـ تمسكها بمبدأ مونرو في تبريرها لمحاولة الغزو الفاشلة ضد كوبا عام ١٩٦١ · ثم تبرير تدخلها العسكري ضد الثورة التقدمية في جمهورية الدومنيكان عام ١٩٦٥ · ومن المؤكد ـ بالمثل ـ ان « مبدأ مونرو » كان له حضور خاص في « ازمة الصواريخ الكوبية » التي نشأت بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي عام ١٩٦٢ ·

لقد كان هذا المبدأ تعبيرا عن مرحلة طويلة من سياسة التوسع · وسندا رئيسيا لسياسة القوة التي مارستها الولايات المتحدة في فترات شهدت تغيرات عديدة حتى في السياسة الخارجية الاميركية نفسها ، ولكن ازاء مناطق اخرى من العالم غير نصف الكرة الغربي · ولم يخفت زخم مبدأ مونرو في السياسة الاميركية الا بعد فشل غزو كوبا ، وبعد حصول الاتحاد السوفياتي ـ نتيجة لازمة الصواريخ ـ على تعهد اميركي بعدم التعرض للنظام الاشتراكي في كوبا بالهجوم او التهديد · ويمكننا ان نلاحظ انه حتى عندما تدخلت الولايات المتحدة في عام ١٩٧٣ لاسقاط حكومة الرئيس سلفادور الليندي الاشتراكية في تشيلي ، عن طريق وسائل المخابرات المركزي ، فانها لم تلجأ الى تبرير هذا التدخل بالتذكير بمبدأ مونرو · فقد بلغ الوضع في معظم بلدان القارة الاميركية حدا لا تستطيع الولايات المتحدة معه ـ في السبعينات ـ ان تتحدث بأسلوب صاحب الوصاية على هذه الدول ، مهما كان حجم النفوذ السياسي والاقتصادي الاميركي فيها ·

« مبدأ ترومان »

وعندما اعلن « مبدأ ترومان » في عام ١٩٤٧ كان ذلك اول تقنين للتدخل الاميركي في الشؤون الداخلية في دول عالم نصف الكرة الشرقي · كانت احداث الحرب الاهلية في **اليونان** بين الملكيين والانصار (بقيادة الشيوعيين) قد بلغت حدا من التعقيد من شأنه ان يطال منطقة البلقان كلها وتركيا ، واهم من ذلك على الشرق الاوسط ، وبتعيين كلارك كليفورد وكيل وزارة الخارجية آنذاك « **موقع اليونان الاستراتيجي والمصادر الطبيعية العظيمة في الشرق الاوسط** » · وكانت الحرب الباردة قد بلغت في السنتين التاليتين مباشرة لانتهاء الحرب العالمية الثانية حدا يقربها كثيرا من الحرب الساخنة · وفي ذلك المناخ تحركت جماعات الضغط الصناعية والعسكرية وتقدمت فعلا بعدة اقتراحات لاصدار « مبدأ » جديد يخول للولايات المتحدة معه التدخل لتأكيد مقدرتها على القيام بدور رجل البوليس الدولي ضد « الارهاب » و « الفوضى » وضد « التدخل

الخارجي » ـ ولم تكن هذه الا مرادفـــات في القاموس السياســي الاميركي للشيوعية ٠

وانتهى ترومان ـ من وسط الصيغ العديدة للمبدأ الجديد التي اقترحت عليه ـ الى الصيغة القائلة :

« في هذه اللحظة من تاريخ العالم يجب على كل امة ان تختار بين طريقتين مختلفتين في الحياة ، وكثيرا ما يحدث ان لا يكون هذا الاختيار حرا ٠

« تعتمد احدى طريقتي الحياة على ارادة الاغلبية ، وتتميز بمؤسسات حرة ، وحكومات تمثلها وانتخابات حرة وضمانات للحرية الفردية ، ولحرية الكلام والديانة ، والتحرر من الاضطهاد السياسي ، وتعتمد الطريقة الاخرى على فرض ارادة الاقلية بالقوة على الاغلبية ، بالارهاب والاضطهاد والسيطرة على الصحافة والاذاعة ، وعلى تزوير الانتخابات والغاء الحريات الشخصية ٠

اعتقد ان من واجبات الولايات المتحدة ان تتخذ سياسة دعم الشعوب التـي تقاوم محاولات الاخضاع من قبل الاقليات المسلحة او الضغوط الخارجية » ٠

ولم يكن خافيا من هذا النص رغم الحذر الشديد الذي التزم في أختيار عباراته ان الولايات المتحدة تعطي لنفسها دورا قياديا اول في العالم ، وتقدم لهذا تبريرات « اخلاقية » و « ديمقراطية » ٠ وقتها قالت صحيفة « واشنطن بوست » ان ترومان « يطلب من اميركا ان تكون اطلس (الذي يحمـل الكرة الارضية على كتفيه) ويعرض على الامة ان يقودها في لعب هذا الدور العظيم » وكانت « نيويورك تايمز » اكثر وضوحا وصراحة في تفسير « مبدأ ترومان » حيث قالت : « لقد انتهى عصر العزلة والتدخلات العابرة ، ويحل محله الان عهد المسؤولية الاميركية » ٠

وبالفعل فان تطبيق « مبدأ ترومان » في اليونان اعطى المثل الاول لسلسلة تدخلات عسكرية اميركية في الخارج ـ في نصف الكرة الشرقي والغربي ـ وقد اغرى اميركا نجاحها في التدخل الاول ، الذي ادى الى اجهاض حركـة الانصار ومحاصرة التيار الثوري الذي كانت تمثله ثم خنقه داخل اليونان ، بأن تعاود التدخل بالاسلوب نفسه ، مستخدمة المبررات نفسها ٠ وهكذا عاش « مبدأ ترومان » لفترة طويلة برغم تنوع تجارب النجاح والفشل في تطبيقه ٠

ولم يكن من قبيل المصادفات ان قامت الولايات المتحدة بالدور « التاريخي » الذي قامت به في زرع اسرائيل « الديمقراطية » في ارض الوطن العربي في العام نفسه الذي اعلن فيه « مبدأ ترومان » ٠ وكان هذا « المبدأ » في الواقع ماثلا في تبريرات تأييد ترومان شبه المطلق لاقامة « دولة اسرائيل » والاعتراف الفوري

بها ، ثم اعتبارها « قلعة للحرية والتقدم » في الشرق الاوسط ، وتقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية لها ، على الاسس نفسها التي قدمت بها لليونان وتركيا استنادا الى هذا « المبدأ » ٠

« مبدأ ايزنهاور »

ومع ذلك فان السياسة الخارجية الاميركية ـ رغم استمرارية اهدافها واستراتيجيتها واساليبها ـ وجدت نفسها في عام ١٩٥٧ في حاجة الى اصدار «مبدأ » جديد يتيح المبررات الاستراتيجية السياسية لمرحلة جديدة من التوسع الاميركي في منطقة الشرق الاوسط كان قد تم التمهيد لها بخنق التيار الثوري في اليونان وبخلق قاعدة **اسرائيل** على ارض **فلسطين** ٠

كانت « حرب السويس » عام ١٩٥٦ قد خلقت وضعا جديدا في المنطقة ايقظ روح القومية العربية وثقة العرب بأنفسهم وقدراتهم ، واعطت هزيمة العدوان الثلاثي نموذجا ليس لاقطار الامة العربية وحدها ، بل لكل الاقطار الصغيرة التي تشكل العالم النامي ولحركة التحرر الوطني ٠ ولم يكن باستطاعة الولايات المتحدة ان تقبل هذا الوضع ، رغم معارضتها ـ غير المباشرة ـ للعدوان الثلاثي على مصر لاهداف تتعلق برغبتها في ان تحل في الشرق الاوسط محل القوى الاستعمارية القديمة المتمثلة في بريطانيا وفرنسا ٠ وكان « مبدأ ايزنهاور » الذي اعلن بدوره في رسالة الرئيس الاميركي السنوية الى الكونغرس في بداية العام ١٩٥٧ تعبيرا صريحا عن هذا المعنى ٠

فقد اكد « مبدأ ايزنهاور » : (١) «ان الفراغ الحالي في الشرق الاوسط لا بد ان يتم شغله من جانب الولايات المتحدة قبل ان يتم شغله من جانب الاتحاد السوفياتي ٠ (٢) ان حالة عدم الاستقرار في الشرق الاوسط تزيد منها وتستغلها احيانا الشيوعية العالمية ٠ (٣) ضرورة زيادة المساعدات الاقتصادية والعسكرية لدول المنطقة لتمكينها من الوقوف بوجه محاولات السيطرة الشيوعية ، (٤) منح الرئيس الاميركي سلطة شاملة « لاستخدام القوات المسلحة الاميركية لضمان وحماية الاستقلال السياسي وحقوق السيادة للدول التي تطلب هذا العون ضد العدوان المسلح الصريح من قبل اية دولة تسيطر عليها الشيوعية العالمية » ٠

وهكذا كان « مبدأ ايزنهاور » بمثابة مد نطاق ـ رسميا ـ لمبدأ ترومان ، من جنوب اوروبا الى الشرق الاوسط بالتحديد ، وكما كان « مبدأ مونرو » تمهيدا لحروب تدخل عسكري اميركي في الاميركتين (في نصف الكرة الغربي)، وكان « مبدأ ترومان » تمهيدا لتدخل عسكري في اليونان ، كان « مبدأ ايزنهاور » التمهيد الذي اعدته السياسة الخارجية الاميركية للتدخل العسكري

في لبنان (البلد الوحيد في المنطقة الذي ايد وقتذاك هذا « المبدأ ») وكذلك في الاردن ٠

مبدأ نيكسون

على مدى السنوات من ١٩٥٨ الى ١٩٧١ ــ اي منذ صدور « مبدأ ايزنهاور » الى ما قبل صدور « مبدأ نيكسون » ــ تعددت عمليات التدخل العسكري وغير العسكري ــ المباشر وغير المباشر ــ من جانب الولايات المتحدة في نصف الكرة٠ فلم تجد الولايات المتحدة نفسها امام « متغير » يحتاج الى اصدار مبدأ جديد يرسم الخط التبريري للسياسة الخارجية الاميركية ٠ فقد كانت تلك فترة الذروة بالنسبة لتطبيق « سياسة القوة » دون مداورة ٠ وعندما دخلت الولايات المتحدة حرب فيتنام لحسابها الخاص ــ بعد انتهاء تدخلهـــا لحســـاب فرنسا في الخمسينات ــ لم تصدر « مبدأ » جديدا ، اذ كانت « سياسة القوة » في حالة استمرارية في اطار استراتيجية « **الحروب المحدودة** » او « الحروب الاقليمية » ٠ وكانت هذه السياسة تطبق في مناطق النفوذ الاميركي.في خط متواز مع سياسة « توازن القوى » التي كانت بمثابة استراتيجية اميركية ثابتة ايضا في مواجهة القوة العظمى الاخرى في العالم : الاتحاد السوفياتي ٠

ولهذا فان اعلان « مبدأ نيكسون » كان استجابة لمتغير واضح في السياسة الاميركية ، نتيجة لتغير واضح في الوضع الاميركي ٠ وفيما كانت « المبادىء » السابقة للرؤساء من مونرو الى ايزنهاور ذات صبغة اقتحامية وعدوانية ٠٠ فان « مبدأ نيكسون » جاء على العكس من ذلك ذا صبغة انسحابية ودفاعية ، اذ لم يكن يمهد لدخول حرب ، بل يمهد للخـــروج من حـــرب ، هي الحرب الفيتنامية ٠

ففي تقرير الرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون الى الكونغرس عن « الوضع العالمي » في بداية عام ١٩٧١ اعلن انه (١) يجب على الاسيويين ان يقرروا مستقبل آسيا ! (٢) ينبغي تقوية النظم المؤيدة للولايات المتحدة لتأخذ على عاتقها دورا رئيسيا في قمع المتمردين ، وتخفيف العبء المنوط بالولايات المتحدة ٠ (٣) ينبغي ان تحافظ الولايات المتحدة على جميع التزاماتها بموجب المعاهدات ، (٤) يجب ان يتم تزويد الدولة الحليفة للولايات المتحدة بدرع واق ٠ (٥) في الحالات التي تنطوي على انماط اخرى من العدوان ، ينبغي تقديم مساعـدات عسكرية واقتصادية حين تطلب من اميركا وفقا لالتزامات المعاهدات ٠

وقد عرف « مبدأ نيكسون » بعد ذلك ـ ونتيجة لمضمونه ـ باسم « **سياسة الفتنمة** » · وكان الهدف منه احتفاظ الولايات المتحدة على الدور الرئيسي في آسيا ، ولكن باقل تكلفة في الارواح والدولارات الاميركية · ومع ذلك فقد كان هذا « المبدأ » بداية ادراك الولايات المتحدة لحتمية هزيمة سياستها الخارجية في آسيا · كانت اميركا قد بدأت تستشعر رغم استمرارها في دورها العسكري الى عام ١٩٧٣ ـ انها تسير في طريق الهزيمة ، وكان لا بد من غطاء سياسي لهذه الهزيمة يخفي اكبر جانب منها ، ان لم يستطيع اخفاءها بالكامل · وهكذا كان « مبدأ نيكسون » الاقصر عمرا بين « مبادىء » الرؤساء الاميركيين ، ليس فقط لانه كان « مفصلا » على جسم الدور الاميركي في الحرب الفيتنامية ، الذي قتلته الهزيمة العسكرية ، بل ايضا لانه جاء في نهاية حقبة سياسة القوة التي استطاعت ان تحقق ثباتا في وجه متغيرات كثيرة شهدتها الستينات ·· ثم انهارت امام متغير كبير اعترف به الصانع الاول للسياسة الخارجية الاميركية في عهد تبلور هذا التغير (هنري كيسنجر) وهو « **ميزان القوى** » الذي اوجدته الحرب العالمية الثانية ، لصالح الولايات المتحدة لم يعد له وجود ، وحل محله « **توازن** » جديد للقوى تتعدد فيه مراكز القوى الرئيسية العالمية ·

ومع ذلك فان « مبدأ نيكسون » لم يكن يسجل تغيرا في الايديولوجية الاميركية التي املت المبادىء السابقة ، الا في الشكل فقط · فانه لم يكن يقلص التزامات الولايات المتحدة التي تخدم اهداف سياستها الخارجية ، انما كان يرمي الى تحقيق الاهداف نفسها بأرخص الاسعار · انه يضاعف التزامات الولايات المتحدة ضد الاعداء انفسهم الذين توجهت جهود اميركا وسياستها الخارجية كلها ضدهم ، وهم كل من يقف ضد دور مهيمن لاميركا في العالم على الاصعدة الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية والثقافية ·

نظريات جديدة ·· قديمة

وقد نفاجأ اذا لمسنا اليوم ـ بعد هزيمتي اميركا (فيتنام ووترغيت) وبعد علو اصوات المطالبين بالعودة الى القيم الاخلاقية الاميركية ـ التي تمكنت من حمل كارتر الى الرئاسة ـ ودلائل عـودة الاهتمام بوجود « ايديولوجيات » اميركية ·· قد نفاجأ اذا لمسنا بعد هذا كله ان مخططي السياسة الاميركيـــة الجديدة لم يستطيعوا ان يخرجوا في نظرياتهم ، التي تحمل في كل عناوينها لفظة « جديدة » ـ سواء لوصف « الايديولوجيا » او « المفاهيم » او « السياسة » او « الاخلاق » ـ عن الاطار العام لمبدأ نيكسون الذي سقط سقوطا كاملا فـي آسيا ·

واذا كانت اهم الوثائق النظرية الجديدة للسياسة الخارجية الاميركية تتمثل

في كتابات زبغنيو برجنسكي (كيسنجر عهد كارتر) فانها لا تخرج عن الدعوة الى خدمة الهيمنة الاميركية عن طريق جهود الاخرين ، عن طريق تجميع طاقات حلفاء اميركا وجمع « اشتراكاتهم » لتنفيذ الاستراتيجية الاميركية ٠

فهذا هو المعنى الكامن وراء دعوة اللجنة الثلاثية : الولايات المتحدة واوروبا الغربية واليابان ، وتكوين امانة عامة دائمة للتخطيط السياسي المشترك ٠ ثم تنشيط « مشاورات عريضة الاطار تضم دولا خارج حدود مناطق التعـــاون الثلاثي » ٠ ولا يخرج الحديث هنا ايضا عن قيام هذه المشاركة الثلاثية « على اساس رابطة الاهتمامات الامنية » (٩) ٠

هذا الحلف الثلاثي من البلدان الرأسمالية المتقدمة اقتصاديا وتكنولوجيا ليس الا بديلا عن التحالفات الثنائية التي سبق ان ارهقت الولايات المتحدة في آسيا عندما ورطتها في الحروب ، وارهقتها ايضا بما حصلت عليه من مساعـدات خارجية باهظة ٠ فان باستطاعة اوروبا الغربية واليابان المشاركة في تحمل الاعباء مع الولايات المتحدة وعنها لتحقيق اهداف الولايات المتحدة نفسها ٠

وهكذا نتبين عدم صحة القول بأن حاجة اميركا الى « الايديولوجيا » اخذت صورة انعطاف الى الداخل او عودة الى الدعوة لسياسة العزلة Isolationism وهو قول يفترض حدوث « تغير » اساسي في السياسة الخارجية الاميركيـــة يتناول اهدافها لا أساليبها ٠ صحيح ان مدى وتر حركة الولايات المتحدة على ميزان العلاقات الدولية اصبحت أقل ، ولكنها في كل « متغير » تحاول ان تكيف اساليبها بما يتفق مع هدف « ثابت » ٠ وحينما يتحدث صانعو السياســـة الخارجية الاميركية اليوم عن « تغيير » من وضع التأييد لحكومات دكتاتورية لمجرد انها معادية للاتحاد السوفياتي والشيوعية (مثل كوريا الجنوبية وتايوان، وفيتنام الجنوبية وتشيلي) الى وضع تأييد الجزر الديمقراطية القليلة الباقية في العالم (مثل اليابان وايطاليا واسرائيل) (١٠) ، فان هذا التغير لا يتناول شيئا من ثوابت السياسة الخارجية الاميركيـــة ، التي أكدتهـــا ايديولوجيتهـــا التبشيرية ، و« مبادىء » رؤسائها ، والنظريات الجديدة التي يستعان فيهـــا باساتذة العلوم السياسية (كيسنجر وبرجنسكي) بل وبالاجهزة الحاســـبة الالكترونية (الكومبيوترز) ٠

(9; Brzezinski, Z , A New Focus for U.S. Foreign Policy, Foreign Affairs, July 1973.

(10) Glazer, Nathan : American Values & American Foreign Policy, Commentary, July 1976.

نـــزيـــه أبـــو نضـــال

الوجـــه الآخـــر للتســـويـــة

يرتبط مفهوم التسوية * في اذهان الكثيرين بصيغة حقوقية يتم ابرامهـــا والتوقيع عليها من قبل الاطراف المعنية بما يسمى بمشكلة الشرق الاوسط ، وعبر هذا المفهوم تحتل « جنيف » وضعا في غاية الخطورة والاهمية ، بحيث يبـــدو كل ما عدا « جنيف » هامشيا لا يعبر عن اية اخطار فعلية ٠

ان التعامل مع التسوية باعتبارها صيغة حقوقية وخوض الصراع ضدها على هذا الاساس يفتح ثغرة خطيرة لتمرير التسوية بكل ابعادها ودلالاتها ونتائجها ٠

من هنا فان علينا ان نميز بحسم بين التسوية كاجراء تفاوضي حقوقـــي (جنيف) وبين التسوية بمعناها الحقيقي ، اي بتوفير الشروط المادية الواقعية والعملية التي تشكل الشرط الموضوعي لتسوية قد انجزت وتنتظـــر مراسيـــم التوقيع ٠

ان خوض الصراع ضد التسوية كحلقات متتابعة يجري تنفيذها كل يوم على ارض الواقع هو الصراع الوحيد المجدي للتصدي للتسوية ككل ، اما الصراع ضد « جنيف » التفاوض والتوقيع فلا يعني سوى القفز من فوق التسوية الفعليـــة نحو الفراغ واللاجدوى ٠

---

* ان التسوية الوحيدة المطروحة وفي ظل موازين القوى الراهنـــة هـــي التســـوية الاميركية وعلى هذا الاساس نبني تحليلنا ٠

وانطلاقا من هذا المفهوم فاننا نرى ان التسوية قد قطعت بالفعل اشواطا واسعة وتم تنفيذ حلقات اساسية فيها ، ونحن الآن في مواجهة يومية لتنفيذ مزيد من هذه الحلقات · ويسهم النشاط السياسي والدبلوماسي المكثف الذي تقوم به اوساط عربية ودولية متعددة ومن مواقع مختلفة بالتأكيد بشد الانظار بعيدا الى الامام : « جنيف » بينما التسوية تنفذ على الارض مباشرة وفي هذه الايام بالذات · ان توجيه زاوية الرؤية والاهتمام والتصدي لوقائع التسوية العملية هي المهمة الملحة الآن لمن اراد بالفعل ان يتصدى للتسوية لا ان يناطح طواحين الهواء ·

ان التصور الخاطىء لمسألة التسوية ينبع اساسا من التقدير بأن التوقيع الحقوقي على وثيقة التسوية هو الذي سيفتح المجال لتنفيذ الخطوات العملية الخطيرة التي تمثلها عملية التسوية ·· بينما نعتقد نحن بأن الخطوات العملية التي نفذت ويجري تنفيذها الآن هي التي تفتح المجال للمراسيم الاجرائية المتعلقة بالصلح والاعتراف الخ ··

ولتأكيد هذه الحقيقة ما علينا سوى ان نجري مقارنة سريعة بين النتائج العملية التي ستعقب التوقيع وبين الحلقات التي تم ويتم تنفيذها فعلا · وقبل اجراء هذه المقارنة لنتأمل هذه المواقف والمقدمات : « ان تعبر الجرارات الاسرائيلية الحدود العربية بدلا من الدبابات ·· هذه هي التسوية » ··

« التسوية في نظري هي ان اذهب لاتسوق من الموسكي والحميدية دون ان يبدو ذلك امرا مستغربا » · هذا ما اعلنته جولدا مائير في مناسبات سابقة اعقبت حرب حزيران ·· ويؤكد موشي ديان رفضه « عقد اي صلح مع زعيم عربي قد ينقضه غدا ضابط مغامر » ·

وبعد حرب تشرين راقبت جولدا مائير بفرح حركة البناء والعمران الجارية في مدن السويس ، واعتبرت ذلك خطوات عملية هامة وذات دلالات كبيرة للتمهيد للتسوية ، وهي بنظرها اهم من عشرات المواثيق والعهود ··

وفي منتصف نيسان من العام الحالي ، مجلس الوزراء الاسرائيلي يراقب بكثير من التقدير الدور المصري في زائير وافريقيا ·

ان مجموع هذه المواقف الاسرائيلية وعشرات غيرها تكشف بوضوح تام جوهر الاستراتيجية الاسرائيلية الثابتة المتعلقة بمفهوم التسوية ، كما تكشف حقيقة المهدات المادية المطلوبة قبل الوصول الى الصيغ الحقوقية والقانونية ·

ان قطع العلاقات الاقتصادية والسياسية مع المعسكر الاشتراكي واعادة ربطها مع السوق الرأسمالية الامبريالية ، وما يتطلبه ذلك من تغييرات في مواقع القوى الطبيعية والسياسية في كل قطر عربي ، يمثل المهد الرئيسي ماديا

وعمليا ، لصيغة قانونية لتسوية قد تمت بالفعل

وتحت هذا العنوان العريض تندرج العديد من التفصيلات الهامة :

* ضرب حركة التحرر العربي بفصائلها المسلحة والتقدمية والوطنية·

* ضرب المنجزات الديمقراطية التي تحققت في ربع القرن الاخير ، اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا ·

* الهجمة الامبريالية الصهيونية على المنطقة العربية بما يمثله من موقع استراتيجي واسواق ومواد اولية وايد عاملة ·

* **ان تقوم بعض الانظمة العربية ومن على ارضية التسوية هذه ومن مواقع التبعية الاقتصادية والسياسية بلعب دور الاداة للامبريالية ومخططاتها في** المجالين الافريقي والعربي ·

ان نظرة سريعة لوقائع التسوية وتفصيلاتها تكشف لنا بوضوح ما تم انجازه من حلقات التسوية كما تكشف امكانية تنفيذ ما تبقى من حلقات ما لم يواجه بفعل مضاد على كافة جبهات التسوية وضد كافة حلقاتها التي تمت والتي لم تتم بعد ·

مما تقدم يبدو واضحا ان امام التسوية كصيغة حقوقية اشواطا طويلة لم تقطعها بعد ، وهذا ما يفسر مهلة الثماني سنوات التي اعطاها الرئيس كارتر قبل ابرام العقد النهائي للتسوية ومن اجل التمهيد لها · وهذا ينسجم مع الاستراتيجية الاميركية في عهد كارتر والتي تحتاج لوقفة قصيرة ·

التسوية الاميركية في عهد كارتر

اذا كنا نقول ان التسوية الوحيدة المطروحة عمليا هي التسوية الاميركية فان علينا الآن ان نكشف خطوط هذه التسوية في عهد الادارة الاميركية الجديدة والتي لا تختلف في اهدافها وجوهرها عن المخطط الاميركي السابق وان اختلفت في خطوطها وتفاصيلها واساليبها ·

ان اكتشاف السياسة الاميركية الجديدة مرتبط بكشف الطريقة التي جاء بها كارتر الى السلطة وعلاقة ذلك « باللجنة الثلاثية » الاميركية الاوروبية اليابانية · فاذا كان روكفلر هو الذي اسس هذه اللجنة ، واذا كان كيسنجر واحد من ابرز عناصرها المائتين ، فان كارتر وبرجنسكي وفانس بالاضافة الى ستة عشر آخرين من ابرز عناصر الادارة الاميركية الحالية هم اعضاء رئيسيين في هذه اللجنة ، كما نلاحظ ان ابرز اولئك الذين قادوا حملة كارتر

الانتخابية هم بدورهم اعضاء في اللجنة الثلاثية ٠

لقد مثلت قضية الطاقة (النفط اساسا) المحور الرئيسي لعمل هذه اللجنة وكان برجنسكي رئيسا للجنة الطاقة بالاضافة الى كونه رئيسا للجنة الثلاثية ٠

الكارتل العسكري الاميركي بدوره كان ممثلا بقوة في هذه اللجنة ٠ وهذا الكارتل كما هو معروف ، ضد سياسة التعايش والانفتاح ومع الاتجاهات التي تدفع نحو الحرب والعنف في العالم ، وهذا يفسر ما حدث لاحقا من فشل مفاوضات الحد من الاسلحة الاستراتيجية مع الاتحاد السوفياتي ٠ ويلتقي هذا الاتجاه كذلك مع اتجاه الحزب الديمقراطي الاميركي الذي قاد طوال العهود الماضية كل العمليات الحربية الاميركية سواء في كوريا او فيتنام او كوبا او جواتيمالا ٠

ان اهتمام اللجنة الثلاثية بمسألة الطاقة والنفط اساسا باعتباره عصب الاقتصاد العالمي دفع كيسنجر مهندس التعايش والوفاق الى التهديد عام ١٩٧٤ باحتلال منابع النفط ، فماذا عن سياسة كارتر وادارته الجديدة وحزبه الديمقراطي ؟

لقد حددت اولويات السياسة الاميركية مع مجيء الادارة الجديدة على الشكل التالي :

اولا : الاقتصاد الدولي

ثانيا : الامن الدولي

ثالثا : التسوية في الشرق الاوسط

ثم فجأة نجد ان الشرق الاوسط قفز الى المرتبة الاولى من سلم الاهتمامات الاميركية ٠ فهل معنى ذلك ان الولايات المتحدة جادة فعلا في تنفيذ التسوية في المنطقة حتى لو كانت تسويتها هي ؟ وهل الاهتمام الاميركي بحقيقته هو باتجاه التسوية في الشرق الاوسط ام هو اهتمام بالشرق الاوسط نفسه لعلاقاته بأولويات الاهتمام الاميركي : الامن الدولي والاقتصاد الدولي وفي مقدمته الطاقة (النفط) والموقع الاستراتيجي ؟

اذن فالاهتمام الاميركي المستجد مرتبط بالشرق الاوسط لعلاقته بالامن والطاقة وليس لارتباطه بالتسوية ٠ الا ان هذا الاهتمام نفسه سيعالج بالتأكيد مسألة التسوية ولكن فقط على ضوء المخطط الاميركي الاسرائيلي وبما يتصل من هذه المسألة بقضيتي الامن والاقتصاد الدوليين ، وتحديدا بالسعي لبسط النفوذ الاميركي في المنطقة وللسيطرة على منابع النفط سواء عبر الوجود المباشر او غير المباشر او بمحاولة تحريك ادواته في المنطقة باتجاه مواقع النفط

الخارجة عن نفوذه ٠

هذه في تقديرنا هي الاتجاهات الرئيسية لمسار السياسة الاميركية الحالية وعلاقتها بالشرق الاوسط وموضوع التسوية ، وهي بدورها تشكل اهم المهدات المادية المطلوبة قبل التوقيع النهائي ٠

من هنا فان كافة الحلول المطروحة ومشاريع التسويات والمواقف والتصريحات المختلفة لا تستهدف في حقيقتها ترتيب الامور وتقريب وجهات النظر لاعداد صيغة التسوية حقوقيا ، لكنها تستهدف التعامل اليومي مع حلقات التسوية لتنفيذها عمليا ، وبعد استكمال كافة الشروط المادية المطلوبة فقط ، ومن على ارضية التسوية الفعلية ستطرح الصيغ القانونية النهائية للتسوية وبما يتفق مع جوهر الاستراتيجية الاميركية ـ الاسرائيلية التي سبق لنا الحديث عنها ٠

هل معنى ذلك اننا نستبعد عقد مؤتمر جنيف ؟

نعم ٠٠٠ اذا كانت جنيف تعني اقرار الصيغة الحقوقية والقانونية للتسوية ٠
اما ان يعقد مؤتمر جنيف لتهيئة المناخ لتنفيذ حلقات او خطوات جديدة من التسوية فهذا محتمل الا ان جنيف هنا ستساوي الخيمة (١٠١) فقط وهذه على اية حال جنيف اخرى ٠

□

ان متابعة التحركات السياسية عبر مساراتها المتشعبة والمتداخلة والمتعارضة من قبل مختلف الاطراف تمكننا من اكتشاف نقاط تقاطع خطيرة تمثل في تقديرنا مراكز مواجهة اساسية لضرب مفصلية حركة التسوية ونقاط ارتكازها الفعلية ٠

دور مصر الافريقي

اذا كنا ننطلق في تقديراتنا من ان التسوية قد تمت وتتم على حلقات (الخطوة خطوة ٠٠ الحلول الجزئية ٠٠ الاتفاقات الثنائية الخ ٠٠) فان الوصول الى شروط الحد الادنى لدى مختلف الاطراف يعني امكانية تنفيذ حلقة من حلقات التسوية وهذا ما اسميناه بنقطة التقاطع ٠

وفي هذا المجال فاننا نكتشف نقطة تقاطع على الجبهة المصرية ٠

« الارض مقابل السلام » ٠٠

هذه هي مقايضة « شيلوك » الذي يرتدي الآن الزي الرسمي للقيادة

الاسرائيلية ٠

والارض هي في مقابل السلام فقط عندما لا تكون الارض تعني شيئا خاصا في البرنامج الاسرائيلي ٠

ارض الضفة الغربية هامة جدا ، والحكومة الاسرائيلية السابقة لا تستطيع المقايضة عليها حتى في مقابل السلام الا بعد استفتاء شعبي ٠

والجولان ايضا خارج لعبة المقايضة والسلام هذه بسبب الحدود الآمنة ، والموانع المحتملة على الهضبة السورية ٠ اما صحراء سيناء التي هي خارج كافة برامج التوسع والحدود الآمنة والعلاقة التاريخية الخ ٠٠ فيمكن عندها فقط الحديث عن الارض والسلام ٠

هذه الامكانية الاسرائيلية لعقد صفقة جديدة (حلقة) على الجبهة المصرية ، تتفق مع الرغبة الاميركية بدعم النظام المصري في وجه حالة التذمر فى اوساط الجيش والشعب ٠ فاذا كان مطلوبا من الجيش المصري ان يلعب دورا افريقيا في وجه (التغلغل الشيوعي) فلا بد من اجراء عملية تنفيس في اوساط الجيش الذي سيتساءل عن معنى القتال في زائير ٠ والارض المصرية لا زالت محتلة !؟ « السادات اعلن اشراك الطيران المصري في زائير بعد كتابة هذا التحليل » ٠

مجلس الوزراء الاسرائيلي يقدر تماما هذا الحرج الذي سيصيب النظام المصري ولهذا يبحث هذه المسألة كبند رقم واحد على جدول اعمال اجتماعه الوزاري ٠٠ وهكذا يتقاطع الموقف الاميركي ـ الاسرائيلي مع الاتجاه العام للسياسة المصرية على ارضية التسوية المادية التي تحدثنا عنها ٠ والثمن كما اشار السادات هو اعلان انهاء حالة الحرب ٠

هنا بالضبط يبدو واضحا معنى التسوية والسلام الاسرائيلي بأن يدير الجيش المصري ظهره للعدو الصهيوني متجها نحو الغرب والجنوب لمواجهة الكفر والالحاد والشيوعية ٠ ان اخراج مصر من المعركة على هذه الشاكلة سيعني غياب امكانيات التشدد على الجبهات الاخرى ، مما سيفسح المجال واسعا لانجاز حلقات اخرى على طريق التسوية الكاملة والنهائية ٠

ان حديثنا عن حلقات التسوية وامكانياتها لا يعني للحظة واحدة افتراضنا بنجاح هذه الحلقات ٠٠ ذلك ان قطار التسوية لا يسير في الفراغ وبدون مجابهات مضادة ٠٠ اردنا فقط ان نشير الى النقاط الارتكازية التي تعتمدها حلقات التسوية التالية ولنعرف من اين يأتي الخطر الفعلي والى اين يجب ان تصوب النيران ٠

كلوفيس مقصود

عن الديمقراطيّة والوحدة

نحن الان في مرحلة من تاريخنا بالغة الخطورة · ولعل هذا القول فيه الكثير من الاجترار لان كل مرحلة من تاريخنا المعاصر جعلتنا نكرر مثل هذا الوصف لطبيعة ما كنا عليه وما نحن عليه · نقول هذا لانه من كثرة ما وصفنا الحقبات الزمنية التي مررنا بها بأنها خطيرة فقدت كلمة « خطورة » او « خطر » معناها الحقيقي وما يجب ان تفرضه الخطورة من مسؤوليات واعباء لا بد من تحملها· ان النفاذ الى هذا الشك الكامن هو نوع من استجداء الكلمة من اجل ان تعود اليها وظيفتها ، بوصفها تختزن الحقائق وتنير سبل الوصول اليها بعد ان تعهرت الكلمة من كثرة سوء الاستعمال ، او من جعلها مطواعة للمآرب الآنية لطبقة حاكمة او مهيمنة ·

ان تقريرنا بان المرحلة التي نمر بها بالغة الخطورة ينطوي على قراءة للتحديات الراهنة التي تواجه الامة العربية ، كون هذه التحديات تستوجب منا ردودا وتجاوبا اوضح واشمل واسلم · الازمة اذا تكمن في الفجوة بين طبيعة التحديات التي تجابه مصيرنا ومستوى التجاوب · انها الفارق بين ما هو كائن وبين ما يمكن ان يكون · هذا ما نعرف به الازمة · الا ان ما هو اخطر في واقعنا الراهن هو ان الازمة ليست عادية بل هي ازمة بالغة الخطورة ، بمعنى ان الازمة ليست فقط الفارق بين ما هو كائن وما يمكن ان يكون ، بل ايضا بين ما هو كائن وما يجب ان يكون ·

لذلك لا بد لنا ان ندرك طبيعة الازمة وخطورتها وعناصرها · فاذا نحن

ادركنا ما نحن فيه من ازمة ووعينا ابعادها ، كان هذا هو المدخل لبدء حلهـــا وتجاوزها · من هنا فالتشخيص في هذا المضمار هو مفتاح المعالجة ·

اين نحن والى اين نسير ؟

لا بد من اكتشاف اجوبة على اسئلتنا ، لان السؤال بدون جـواب يجعـــل المخاض الذي نحن فيه بدون هدف ، ويجعل الحركة بدون امل صيرورة ·

وحتى يطرح مثل هذين السؤالين فيعني ان ما كنا عليه وما نحن فيه جعلنا في حالة من الضياع تستوجب منا عدم الاستسلام الى التيه ، بل تفرض علينـا ضرورة التوجه الى اكتشاف مواقع انطلاقنا حتى نتمكن من ان نسير بخطـوات مدروسة نحو تحقيق اهدافنا ·

نقول هذا لانه في الساحة العربية اليوم لا توجد بالقدر الكافي ـ وفي بعض الاحيان لا توجد ـ مقومات الوصول الى القرارات التي من شانها ان تستوعب حصيلة مشاركة الشعوب في تقرير المصير · لان قضايا المصيـــر تستوجـــب المشاركة على اوسع نطاق حتى يكون القرار الذي نتخذه مستوفيا الشـــروط التي تؤمن جدواه وفعاليته ·

هذا يعني ان كل قرار يجب ان يسبقه منهج يجيز لاصحاب الراي الاخـــر الاعتراض على الطروحات · فكل نهج يحول دون المخالفة او حـــق المعارضة يشجع عند صاحب الرأي او التحليل الارتهان لاخضاع الحقائق من اجل تثبيت القناعات المسبقة عند صانع القرار · في حين ان المنهج الذي يتيـــح تعرض صانعي القرارات ـ لمختلف البدائل والاحتمالات بحيث تطرح دون رقابة ذاتية او رسمية ، عندها يجيء القرار مستوعبا لنقائضه ، التحليل الذي اعتمد محصلة لهذه الحقائق ، لا مجرد تقييميه للاراء المسبقة او لمزاجية القائد او القيادة ·

نقول هذا لان الالتزام غير المسلح بالحقائق والتفاصيل ، اي الالتزام المنسلخ عن المنهج الديمقراطي يرشح الفكر الثوري والعمل الثوري لانتكاسات وهزائم يمكن تجنبها والتقليل من احتمالاتها ·

★★★

ان كثيرا من انتكاساتنا القومية لم تكن وليـدة فقـدان الالتـزام المبدئي ولا ضالة الاستعداد للانضباط والعمل عند الجماهير والطلائع ، بل كانت نتيجـــة محتومة للتفويض غير المشروط الذي تمكنت ان تنتزعه معظم القيادات القومية والثورية في الوطن العربي · فبمقدار ما كانت تندفع الجماهير في العطـــاء والبذل ، كانت القيادات تحجب عنها فرص المشاركة الحقيقية ، فينتج عن ذلـك

ان تكون لدى الجماهير طموحات كبيرة وخيبات كبيرة · هذا التأرجح بين الزخم في الاندفاع والتقلص في المشاركة ارهق الجماهير لدرجة كادت ان تفقد ثقلها في الاحداث وان تشكل باستمرار الاداة الضامنة للعلائق الوحدوية في الوطن العربي ، مما اتاح للتيارات الانعزالية الاقليمية والطائفية والعرقية ان تتجرأ على الجماهير وحركتها وان يبهت المناخ القومي الذي هو في نهاية الامر القيمة الحقيقية للعرب دوليا وانسانيا ·

★★★

اننا اذ نستحضر هذا الواقع المتردي بشتى سلبياته ، انما نفعل ذلك ليس من اجل زرع اليأس ، بل من اجل التحريض · وعندما يكون هدفنا التحريض فهذا يؤكد وجود طاقات تريد ان تعيد الى حيز الفصل ما ارادت الامبريالية والصهيونية والرجعية ابطال مفعوله · ولعلنا في الوطن العربي احوج ما نكون الى تجديد التوجه نحو الجماهير ، واعادة نشر المناخ القومي العربي حتى نتمكن جميعا من تجاوز العوامل التي تقوقعنا في الافاق الضيقة والتي تضعنا في الاطر المحصورة والمحاصرة في نفس الوقت ·

قد نتساءل، ما هي علاقة منهج التحليل واشاعة المناخ القومي بما نحن مقبلين عليه في الايامو‌الاسابيع القليلة القادمة ؟ اليست خطورة المرحلة القادمة ، تطرح من المشكلات ما يكفي ، خاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية فلماذا الفرق في مشاكل جديدة وصياغة هذا الربط بقضايا قد تكون مهمة جدا غير انها لا تبدو ذات علاقة مباشرة او عضوية بما نحن مهتمين به آنيا ومرحليا ·

ان هذا التشكيك بجدوى ربط المرحلة بخلفياتها ومستقبلياتها يسقط قدراتنا على فهم حقيقة المرحلة · فالمرحلة القريبة القادمة بالغة الخطورة لانها تمس مستقبلنا بشكل مباشر ، فالقوى الضالعة في المؤامرة على قضايانا المصيرية وعلى امتنا العربية تراهن على مساهمتنا في ان يجيء الحسم في المرحلة القادمة وطاقات الامة هي في حالة من التشتت والتبعثر بحيث ترسو المعادلات المستقبلية في المنطقة على اساس موازين القوى الراهنة ، وليس على اساس ما تختزنه الامة العربية من طاقات تغيير لهذه الموازين لصالح حقوقها القومية والوطنية المشروعة ·

اذا كيف نتعامل مع المرحلة القادمة ضمن الاوضاع القائمة ؟ اننا لا نتمكن من احداث التغيير الجذري المطلوب قبل ان تداهمنا تحديات المرحلة القادمة · من هنا الخطورة البالغة التي اشرنا اليها مرارا · هل يعني هذا ان نتيح لما هو

حاصل في المنطقة ان يستنفد ذاته او هل نتعامل مع هذه المرحلة بهدف تقليل الخسائر او حتى انجاز بعض المكاسب · اسوأ الخيارات هو الغياب المقصود ، لكن الخيارات المتوفرة تتيح امكانيات محدودة · لذلك علينا ان ندخل المرحلة القادمة وأعين الثورة مفتوحة لان المرحلة القادمة لن تنجز مطلقا الحد الادنى مما قد تقبله · الا ان دورها هو انه تفوت على اعدائها فرصة انجاز حتى الحد الادنى مما ترفضه ·

ماذا يعني هذا ؟

يعني ان على الثورة الفلسطينية ان تعبر عن الطاقات الثورية الكامنة في الامة العربية · بمعنى اخر ان الثورة الفلسطينية مطالبة بان تتعامل مع المرحلة القادمة من واقع تداخلها مع الطاقات الجماهيرية لا من واقع تعاملها مع الانظمة العربية · هذا لا يعني بالطبع ان تكف الثورة عن التعامل بل بالعكس فان المرحلة القادمة تستوجب منها تكثيفا في التعامل مع الانظمة شرط ان لا تقع في مأزق التصرف كاحد هذه الانظمة ·

هذا من شأنه ان يقوي المركز التفاوضي للانظمة بحيث تنضبط في الالتزام بالمطالب والمصالح القومية ويضعف من نزوعها نحو التفرد او الانجذاب الى مسالك تمعن في تمزيق وحدة الامة ومصيرها ·

لذلك فالثورة الفلسطينية اذ تنسق مع هذه الانظمة فانها في الواقع تشكل اللحمة الحائلة دون ان يحسم مصير المنطقة بما يكرس واقع التردي بدلا من ان تجيء اية تسوية وموازين القوى الجديدة تعبر عن طاقات العرب لا عن واقعهم الراهن :

يتبين لنا اذا ان المرحلة القادمة ليست فقط بالغة الخطورة بل هي ايضا بالغة التعقيد · فمن جهة عرب المواجهة لا بد ان يتحقق المفهوم القومي بحيث تنتظم كل الاقطار العربية في اطار المجابهة · فمجابهة اسرائيل لا يمكن ان تكون مسؤولية القيام بها محصورة في الاقطار المواجهة لها · قد تكون هذه الاقطار هي المعرضة مباشرة لكنها ليست وحدها المعنية مباشرة ·· ان تصنيف العرب الى عرب مواجهة وعرب مساندة هو احدى الاخطاء الجسيمة التي افرزها انتشار النهج التقسيمي · ان المناخ القومي الذي ندعو اليه من شأنه تعزيز العوامل التي تجعل العرب ـ كل العرب ـ مشدودين لواقع المجابهة المصيرية · ان دور الثورة الفلسطينية في هذا المضمار ، كان ويجب ان يبقى ـ في ان الثورة تصورت نفسها طليعة للطاقات العربية الشاملة وليس كونها ثورة ذاتية · من هنا تصبح المسؤوليات المتوقعة من الاقطار العربية في عملية المجابهة والتصدي مسؤوليات عضوية لا مجرد مسؤوليات تضامنية · فدور الثورة الفلسطينية ،

هو في تحويل العلاقات بين الاقطار العربية من محاورها المتنافسة والمتناقضة الى علاقات قومية مؤسسة ومتهيكلة ٠

عندما تتحقق خطوات جادة في هذا المضمار ، يستعيد العرب التزامهم بأولوية القضية الفلسطينية بحيث يصبح سلوكهم مبنيا على كون اسرائيل هي العدو الاول وليست كما هي الحال الان ، اذ يتصرف معظم العرب ضد بعضهم وكأن اسرائيل هي العدو الثاني ٠ لعل هذا الوعي لضرورة تنظيم العلاقات العربية واستقامتها هو الذي دفع بقيادة الثورة ان تنشط في وساطاتها بين الدول العربية ـ مثلما حصل بين مصر وليبيا ـ فقد ادركت قيادة الثورة الفلسطينية ان كل تناقض عربي يؤدي الى تصادم هو في نهاية الامر نزيف في قدرة العرب على المجابهات المصيرية ٠ من هنا فان الثورة الفلسطينية تصبح بوصلة الوحدة القومية للعرب اذ انها تدرك ان قضيتها اكثر القضايا تضررا نتيجة التردي في الواقع القومي واكثر القضايا انتفاعا في حال انتظام الواقع القومي واستقامته٠

اذا تمكنت الثورة الفلسطينية في المرحلة القادمة ان تنجز للعرب اعادتهم الى المناخ القومي ، فلا بد ان يشهد الواقع العربي تغييرا ان لم يكن في بنيته فعلى الاقل في توجهه العام ٠ بمعنى اخر فاللحمة التي تشكلها الثورة الفلسطينية في الواقع العربي تحمل في طياتها تنظيم الثورة القومية بحيث تصبح اداة اسراع في عملية الثورة التغييرية في الوطن العربي بأسره ٠

فالمناخ القومي الذي اشرنا اليه يعيد الى القناعة العربية كون الثروة المتواجدة في عدد من الاقطار ليست مقصورة على هذه الاقطار ٠ ان مناخ التجزئة في الوطن العربي اوجد في العلاقات بين الاقطار العربية اوضاعا شاذة بحيث ان ملكية الثروة لم تعد للوطن العربي بأسره بل للاقطار المتواجدة فيها ٠ ينطبق هذا بشكل خاص على الدول النفطية العربية التي نتيجة هذا المفهوم القطري الاضيق للثروة ابعدت هذه الاقطار عن العلاقات الاقتصادية الافقية بين العرب وغلبت عليها العلاقات الثنائية العمودية مع الدول الصناعية٠

ان المرحلة القادمة تستوجب ترجيحا لمزيد من العلاقات الافقية بين الثروة ومقتضيات الثورة ان لم يكن الحسم في هذا الاتجاه ٠ ان التحدي الاسرائيلي في المرحلة القادمة يكمن في مركزية موقع قراراته في حين ان تعددية مواقع التوجيه والقرار في الوطن العربي تؤدي الى المفارقة الخطيرة التالية : ان اسرائيل اقل في امكانياتها على الحركة واكثر قدرة عليها في حين ان العرب اكثر امكانية على الحركة واقل قدرة عليها ٠ وهذا يعود الى فقدان التنسيق الملزم الذي يوجده المناخ الوحدوي ٠ من هذا المنظور نستطيع ان نكشف حقيقة موازين القوى في المنطقة بحيث ان التفوق العربي ديمغرافيا تتضاءل فعاليته

بمقدار التفسخ في الارضية التي يتبلور عليها القرار العربي · في حين ان تماسك الجسم السياسي في الكيان الصهيوني يمكنه من تعويض ما يفوته كما ·

يتضح لنا اذا ان اي دخول عربي في المرحلة القادمة البالغة الخطورة يجب ان يتواقت ويتلازم مع خطوات تنسيقية ملزمة تستهدف الوحدة في مراحل لاحقة ·لذلك باستطاعتنا القول ان المرحلة القادمة انتقالية اكثر مما هي حاسمة· وهكذا يجب ان تكون لان اي حسم في المرحلة القادمة دون ان نكون قد استكملنا شروط المناخ القومي ومعطيات العمل العربي الموحد **يعني الزامنا بما هو دون الحد الادنى من التزاماتنا** ·

يستتبع هذا ان خطورة المرحلة القادمة تتضاءل بمقدار ما نسعى الى جعلها مرحلة انتقالية ، وتزداد بمقدار ما ينشأ تساهل عربي في قبول المرحلة بانها قادرة على الحسم لصالح الموازين والمعادلات الراهنة في المنطقة ·

ما هي اذا استراتيجية العرب في المرحلة القادمة ؟ هل هي مجرد تراكم ردود فعل على مسلسل الاستفزازات الاسرائيلية المتزايدة في صفاقتها ؟ ام هي حصيلة معالم ادراك عربي مستجد لضرورة ردع التمادي الاسرائيلي من خلال تنامي توحد العرب وانتظامهم في جبهة متماسكة ، الى جانب متابعة الرد في كل المجالات على ما تقوم به اسرائيل من تحد وخرق للشرعية الدولية وان نقطة انطلاق اية استراتيجية عربية يجب ان تنطوي على نفاذ الى ان الحكم الراهن في اسرائيل **يختلف** نوعا عن الطغمة الحاكمة في الماضي، بل هو النتيجة المنطقية الواضحة للالتزام الصهيوني · الفرق يكمن في قراءة بيغن للعرب بحيث يتصور ان استعجال تحقيق الهدف الصهيوني ـ توسعا وعدوانا واستيطانا ـ من شانه ان يمعن في تلاشي معالم الوحدة بدلا من دفعها نحو مزيد من الترسخ والتاكيد · في هذا المضمار يعمل بيغن على اقناع حليفته الوحيدة الولايات المتحدة (من موقعه الاستعلائي العنصري) بأن التردي العربي ليس ظرفيا او استثنائيا بل هو نمط مستمر وعادي · لذا فان استراتيجية عربية للمرحلة القادمة تستوجب توجها ذاتيا نحو مستوى جديد من التعبئة القومية تغلب على اثرها المعادلات القائمة بحيث يكون توجهنا الذاتي ضامنا لمناعتنا المتزايدة، وبحيث يكون باستطاعتنا اعادة فتح ملف القضية الفلسطينية باسره · هذا بدوره يعني ان طبيعة المجابهة في المرحلة القادمة تشمل مجابهات على مستويات ذاتية ـ بالمعنى القومي ـ **ودبلوماسية** بمعنى احكام طوق العزلة على اسرائيل **وعقائدية** بمعنى ان توصل الى مختلف قطاعات العالم ان سلوك اسرائيل الراهن تمليه معطيات الفكر العنصري والفاشي · من هذا المنطلق لا تعود اسرائيل قادرة على الاستمرار في عملية الابتزاز التي اصبحت مدمنة عليها

بحيث تنتزع من المجتمع الدولي ـ وخاصة الاميركي والغـــربي ـ معاملـة استثنائية (لم تعد تلقاها الانظمة العنصرية والفاشية الباقية على قيد الحياة) · تضعها خارج الحساب والعقاب ·

الا ان امكانياتنا في اعادة فتح ملف القضية الفلسطينية متوفرة في مـــدى ما نستطيع ان نخطو خطوات جدية وحدوية شاملة · ولعل اولى مهمات الثورة الفلسطينية في المرحلة الراهنة هي في التصدي المباشر لما تطالب به الولايـــات المتحدة من تعديل في ميثاق منظمة التحرير · ان المطلوب هو تخلي اسرائيل عن قانون العودة بحيث ان النتيجة المنطقية لهذا القانون هو مثابرة التهويد والاستيطان على حساب الخرق المتواصل لحقوق الشعب الفلسطيني في العودة وفي تقرير المصير · واذا كان الميثاق قد حدد هدف الثورة قيام دولة ديمقراطية علمانيـــة في الوطن الفلسطيني فانه لم يستثن اليهود المتواجدين في هذا الوطن · الا ان قانون العودة الصهيوني حصر هذا (الحق) باليهود مكرسا شرعة التمييـــز العنصري بشكل لا سابقة له الا في بعض اوجه التجربة النازية · واذا كان هناك ثمة اعتراض على بنود وردت في الميثاق الوطني الفلسطيني حول اي من اليهود لهم احقية في الوجود الفلسطيني ، فهذا تقرير لواقع تاريخي بحيث ان الذيـــن استوطنوا وجاؤوا معمرين لا يستمد انتماؤهم من حق اساسي · الا ان الميثاق من حيث المواد الاجرائية فيه تجاوز هذا التحديد بالدعوة لقيام النظام العلماني الديمقراطي من هنا فالتصدي العقائدي مطلوب ، لان السلوك الذرائعي المحض الذي يسقط مثل هذا التصدي يتيح لاسرائيل الصهيونية ان تعمل ـ كما تعمل ـ وكأننا عوائق بشرية امام صيرورتها بدلا من ان تكون حركة تحرير لشعبنا العربي من مؤسسات عنصريتها ·

لكن الموقف العقائدي لا بد ان يكون موقفا عربيا متكاملا لان عروبة مثـــل هذا الموقف تمكننا من تزويج الموجبات العقائدية مـــع الضرورات الواقعيـــة الراهنة وما يفرضه المنهج الذرائعي · اذا لم يتم هذا التزاوج بين مقومـــات التصدي العقائدي والسلوك الذرائعي عندئذ يدخل الشرخ الذي يقيم تناقضـــا بين الذرائعية والعقائدية ·

المطلوب فورا هو مؤتمر قمة للاقطار العربية تتحدد من خلالـــــه معالـــــم استراتيجية المرحلة القادمة وينشأ عنه صيغة تنسيق ملزم لمجابهة العدو الاول ـ اسرائيل · اما اذا اختلفت نظرتنا الى ما هي الاولويات التي تجابهنا ، فان عوامل التجزئة سوف تستمر في التجرؤ على قضايانا المصيرية · ونكـــــون قد فوتنا على انفسنا فرصة متوفرة لنا لردع اسرائيل والحد من غطرستهـــا ودفعها نحو التآكل الذاتي · اما اذا لم نتمكن من انجاز هذه المهمة البديهيـــة تكون المرحلة القادمة بالغة الخطورة بكل معنى الكلمة ·

وحيث ان الثورة الفلسطينية بابعادها العربية الشاملة لن تتخلى عن التزاماتها التاريخية ، فانها ستعمل جاهدة مع جماهير الامة العربية على التقليل من الخسائر ريثما تستعيد الامة العربية انفاسها الوحدوية من واقع التردي الراهن · **ان التقليل من الخسائر قد يكون واجبا مكتوبا على الثوار الحقيقيين في مراحل التردي لكنه بالتأكيد ليس تعبيرا عن طموحاتهم ·**

يصدر لهذا الشهر عن مركز الابحاث

طريق تل الزعتر

اعداد : هاني مندس

الاعداد الفني : منى السعودي

« أي كاتب يستطيع العودة الى تقاليده بعد قراءة هذا النص الدموي ، ولا يكون كاذبا او قاتلا ؟ »

محمود درويش
« من مقدمة الكتاب »

معـــين بســـيسو

دفـــاتـــر فلسطينيـــة

[... على عشرة دفاتر من ورق لف السجائر كتبت هذه اليوميات ، وتم تهريبها بواسطة احد السجانين من معتقل الواحات الخارجة ٠
وهذه اليوميات تتوقف في مارس ١٩٦٣ ، حيث تم الافراج عن اخر دفعة من المعتقلين الفلسطينيين ، وعددهم سبعة ، من السجن الحربي ...]

بيروت ـ اغسطس ـ ١٩٧٧

النزول الى الماء

علمتني الزنزانة السفر لمسافات بعيدة ، وعلمتني ايضا الكتابة لمسافـــات بعيدة ٠ فالسجين دائما يسافر بيده في الماء ويحاول الكتابة بصوته ٠ ثلاثـــة اشهر لم نر فيها لا جريدة ولا كتابا ٠ احد المعتقلين لتخفيف هول العذاب ، طلب القرآن فأحضروا له التوراة ؟ قالوا : ان الزنزانة نجسة ، والقرآن لا يدخـــل الزنزانة ٠ هكذا فرضوا علينا نحن المعتقلين الفلسطينيين في السجن الحربـي آلهة اسرائيل ٠ وهكذا عاد شمشون الاسرائيلي من جديد ٠ لقد تركناه في غزة كومة من الحجارة فوقها قبة صغيرة ما تزال حتى الان الى جوار المدرسة الوطنية فأعادوه لنا الان سجانا في السجن الحربي ٠

□

على حائط الزنزانة يكتب المسجونون اسماءهم ، يحفرونها بزر قميص او بمسمار · اول ما يفعله السجين هو ان يكتب اسمه على حائط الزنزانة · انه دائما يكتب اسمه وتاريخ دخوله السجن والوطن الذي جاء منه ، وكبشارة للسجين الذي سيأتي للزنزانة بعده فالسجين دائما قبل خروجه يكتب تاريخ الافراج عنه كأنه يريد ان يقول لابنه او لحفيده السجين القادم :

ـ ما سجن انبنى على سجين

ولا مستشفى انبنت على مريض ···

□

عليك ان تسافر فباب الزنزانة في السجن الحربي يفتح ثلاثة مرات في اليوم · مرة في السادسة صباحا حينما تمد يدك وتتناول (القروانة) وفوقها الرغيف وبعدها تخرج جردل البول · فمسافة العشرين مترا الى دورة المياه كان ممنوعا على السجين ان يمشيها · فهم لا يريدون ان تتذكر ابدا انك كنت تمشي ذات يوم · انهم في حرب مستمرة ضد ذاكرة القدم · ويفتح باب الزنزانة في الواحدة بعد الظهر على القروانة نفسها وفوقها الرغيف · الكلب البوليسي (لاكي) كان قد أكل قطعة اللحم في حجم رأس الدجاجة · في الشهر الرابع كان (لاكي) يمضغ قطعة اللحم فقط ويبصقها الى جوار القروانة ، وعليك ان تمد يدك وتتناولها وتأكلها امام السجان · كان (لاكي) هدية من (المانيا الغربية) ، ضمن برنامج المساعدة الاقتصادية وفي الواقع فقد أكل من اللحم وشرب من المرق أكثر بكثير من الذي قدمته المانيا الغربية لانعاش الفلاحين المصريين · وكما ان الكتابة تجيء في خطوط مستقيمة ، هكذا تعلمنا الكتابة · غير ان الزنزانة تعلمك كتابة جديدة · والزنزانة تفتح للمرة الثالثة قبيل الغروب · القروانة نفسها وفوقها الرغيف ويغلق باب الزنزانة بعدها حتى السادسة صباحا ·

□

الجاويش (حسن المشرف) في سجن مصر العمومي والمشرف على المعتقلين الفلسطينيين في الدور الارضي ، كان يقشر الموز امام باب كل زنزانة ويبتلعه اصبعا بعد اخر وهو يقول :

ـ هذا موز تعلموا ايها الجواميس ·

اما الجواميس فقد كانت اريحا على خريطة وطنهم ، واوراق الموز كانت

أقماطهم حينما يولدون · ولكن الجاويش (حسن) لا يعرف الجغرافيا · وبدل ان يعلموه كيف يقرأ ويكتب ، علموه كيف يضرب · هذا التعس الذي وضعوا الكرباج في يده ، كان له ولد في الجامعة في يده قلم · وحينما تم ترحيلنا من سجن مصر العمومي الى سجن القناطر الخيرية ، بكى الجاويش حسن وقال :

ـ لقد اخبرني ولدي انه يوجد في بلادكم موز ·

□

على حائط كل زنزانة يحاول السجين ان يرسم سفينة او طائرا · فالسفينة في السجن هي دائما هدية السجين القديم للسجين الجديد :

ـ لن يتمكنوا من قتلك ما دمت تسافر ·

انها وصية السجن الخالدة · والسجان (الجوهري) كان يريد ان يسافر هو الاخر خارج اسوار السجن الحربي · فالسجان يعتبر نفسه سجينا ، وهو سجين بالفعل فطول نهاره وليله في السجن · ولان وصية السجن الخالدة تنطبق عليه ، فلقد كان السجان (الجوهري) يسافر بصوته · في الليل كان يغني لنا ، كان يغني للمعتقلين الفلسطينيين الذين ضربهم وجعل الكلب (لاكي) يعضهم · كان (لاكي) يعضك في صدرك وفي ظهرك ، في كتفيك وفي فخذيك دون ان تسيل قطرة من الدم ، كأنه كان يضع قفازات في أنيابه ، هكذا علموه كيف يعض حتى لا يتمكن السجين من النوم لا على صدره ولا على ظهره ·

ـ انت واقف يا ابن الكلب اقعد ·

ويقعد المعتقل الفلسطيني الذي تعود القعود خارج ارضه ·

ـ انت قاعد يا ابن الكلب قف ·

ويقف المعتقل الفلسطيني الذي تعود الوقوف خارج ارضه ·

هكذا كنا نقعد ونقف طول النهار وجزءا كبيرا من الليل · والسفر كان مستمرا ايضا طول النهار وطول الليل ايضا · مرة واحدة في الاسبوع كانوا يقدمون لنا بيضة عند الفطور · فجأة تتذكر انه يمكن ان يخرج من البيضة شيء ما ، فاذا كنت لا تستطيع ان تحطم قشرة الزنزانة وتخرج ، فهنالك شيء ما يمكن ان يحطم قشرة البيضة ويخرج · لم اكل البيضة ، وكنت اتصور طول الوقت ان منقارا صغيرا سيضرب القشرة ذات يوم · ولقد طال انتظاري ·

في الزنزانة انت لا تريد ديكا يصيح ، ولكنك تريد سفينة تسافر · والسجان

(الجوهري) كان يريد ان يسافر في الليل ، ففي النهار كان عليه ان يضربنا لحساب الاخرين ، وفي الليل كان عليه ان يغني لحسابه الخاص · كان السجان يحب ·

قالوا انك تكتب الاغاني ·

تحس بالفرح ، فحينما يتذكر سجانك ان قلما كان ذات يوم في يدك فلعله ينسى الكرباج ولو لدقائق في يده ·

اعطاني اول سيجارة في اليوم الخمسين وقال لي :

ـ اكتب ·

ـ اكتب ماذا ؟؟

ـ اكتب اغنية لي ·

وكتبت اول اغنية مقابل سيجارة · في الاسبوع الثاني حمل السجان اول رسائلي ، فلقد اعطاني قلما وورقة ، وكتبت الرسالة الاولى وارسلتها معه ، وكانت الى خطيبتي (انتصار) ، وكانت اول مشروع عروس فلسطينية ومصرية تدخل السجن الحربي ·

هكذا تحول السجان الى ساعي بريد في السجن الحربي ·

ـ ايها الكذابون لا يوجد معتقل فلسطيني واحد في مصر ؟؟

كان الصوت صوت (احمد سعيد) ، وكان يرتفع من اذاعة صوت العرب ،

وكنا نسمعه جميعا في الزنزانة فلقد تمكنا من تهريب راديو ترانزيستور ، كان (احمد سعيد) هو الماركة المفضلة للراديو العربي في ذلك الوقت ، وكان يوجه صوته لهواء ثورة ١٤ تموز في العراق في ذلك الوقت ايضا ·

« خليل عويضة » المشرف العام على التعليم في مدارس اللاجئين في قطاع غزه والمعتقل ايضا لانه رفض ان يعترف بحذاء الشرطي سمكة في بحر غزه ، ودافع عن اصبع الطباشير في يد الطفل الفلسطيني ، صاح وهو يصغي الى صوت احمد سعيد :

ـ انه يكذب ··· يكذب فنحن في السجن الحربي ·

في ذلك الوقت كانت المطبعة تكذب وكان الهواء يكذب ايضا ، ورغم ذلك فلقد أنقذنا الهواء القادم من راديو ثورة ١٤ تموز ·

□

تسافر ٠

يعوم صوتك في الماء ٠

وانا في السابعة اراد عمي (احمد) ان يعلمني السباحة ٠ كان يملك زورقا صغيرا ووضعني في الزورق وراح يجدف ٠ وفي وسط البحر امسك بي والقاني في الماء ، وشربت الملح وعرفت للمرة الاولى كيف اقاتل بذراعي وحينما اوشكت على الغرق ، اعادني الى الزورق لكي يلقي بي مرة ثانية الى الماء ٠ وهكذا تعلمت السباحة وانا في السابعة من عمري ٠ كان عمي يعلمني وهو لا يدري كتابة الشعر وانا مدين له حتى الان ، بهذه النيران ، التي تندلع طول الوقت من بين اصابعي ، علمني كيف اقاتل ضد الماء وانا في السابعة من عمري ، والان وانا اقاتل معركة الورق والحبر اعرف ما قد فعل بي ٠ انهم يحتقرون الثعالب ولكنهم يشترون فراءها ، ويكابدون كثيرا في سبيل اصطيادها ، يحتقرون القصائد ولكنهم يشترون الشعراء ٠

□

في العاشرة من عمري اخذتني امي الى العرافة (ام حسن) لكي تطرد الشياطين التي تسكنني ٠ بعد ان وضعت يدها فوق رأسي وحدقت في عيني ، صاحت:

ـ لا خوف عليه منها فهي شياطين طيبة ٠

□

صعود الجبل لا يتم في خط مستقيم وكذلك السفر داخل الزنزانة ٠ فحينما تسافر في مركب لاول مرة فعليك ان تتعلم اخطاء الموانىء واخطاء الجغرافيا ٠

كان سيد درويش هو القصيدة التي قاتلت بها وانا صغير واقاتل بها حتى الان ضد محمد عبد الوهاب ٠ عبثا حاول الدكتور « لويس عوض » ان يقنعني ان (احمد شوقي) كان اعظم من (المتنبي) ٠

اول من نشر لي قصيدة في مصر كان شاعرا مصريا اسمه : عبد الرحمن الخميسي ٠ واول من دافع عن ديوان شعري الاول كان صحفيا مصريا يكتب الشعر اسمه : كامل الشناوي ٠ كان « كامل الشناوي » هو اول من قدمني الى توفيق الحكيم عام ١٩٥٢ في مبنى الاهرام القديم ٠

اخرج كامل الشناوي ديوان « المعركة » من درج مكتبه وقدمه لتوفيق الحكيم وقال :

ـ اسمع ٠

وراح يقرأ قصائد ديوان « المعركة » :

ـ انا ان سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في الكفاح ٠

كانت القصيدة عن « عباس الاعسر » اول شهيد لحركة انصار السلام المصرية في قناة السويس عام ١٩٥١ ٠ في مطبعة (اورفند) تم طبع ديوان « المعركة » وظهر في السابع والعشرين من يناير ١٩٥٢ ، ظهر بعد حريق القاهرة بيوم واحد ، كان كل شيء يحترق وخرج الديوان يسجل رفضه للدخان ٠

لقد رسمته مجموعة من الرسامين المصريين : حسن التلمساني ، حامد ندا ، فريد كامل ، صلاح جاهين وصدر الديوان عن « دار الفن الحديث » التي كان يشرف عليها : ابراهيم عبد الحليم ٠

بعد ان قرأ توفيق الحكيم الديوان، طلب توقيعي عليه ، كان يتصور انني احمل مسدسا ولكنني كنت لا املك قلما ٠

كنت طالبا في الجامعة الاميركية في القاهرة حينما ظهر ديوان « المعركة » وكتبت عنه « بنت الشاطىء » مقالة في جريدة الاهرام ـ لا ادري كيف ـ ٠ من جريدة الاهرام شقت قصائد الديوان طريقها الى مجلة « الرسالة » ٠ كان « احمد حسن الزيات » يضعها بعد الافتتاحية ، وحينما اغراني عبد الرحمن الخميسي بالذهاب الى مجلة الرسالة لقبض المكافأة ، اصر « احمد حسن الزيات » على ان يرى الشاعر الذي كتب هذه القصائد ٠ كان يظن انني جئت اليه دكتورا من السوربون ، فاذا بي ذلك الطالب في الجامعة الاميركية ٠

ليرحم الله كثيرا الدكتور « زكي مبارك » ـ من يذكره الان في مصر ـ ؟ كان يخلط العرق بالكوكاكولا في بار التوفيقية ويصيح :

ـ لن يهلك الشاعر ما دامت الدموع في عينيه ٠

كنت ابكي كثيرا كلما ذبحوا دجاجة في بيتنا ، وكنت أصرخ :

ـ لن ترتكب غلطة اخرى ٠

المؤذن « خليل » كان يصعد بي الى المئذنة وانا في الثامنة من عمري ، لاول مرة ارتفع فيها عن الارض ٠ يائيل دايان الكاتبة الاسرائيلية وابنة الجنرال « موشي دايان » تعتقد ان الارتفاع عن الارض لا يتم الا بواسطة قاذفة قنابل ٠

□

في بيت جدي لابي كانت صورة جدي تحتل صدر الدار ، وكنت اظن طول الوقت انه هو الله · وعرفت فيما بعد ان الله لم يصوره احد بعد ، فصورته ممنوعة من التداول · الذي صوروه كان دائما شخصا معلقا فوق حائط · كنت أحس دائما انه يريد أن يضع قدميه على الارض ويمشي ، لقد تعب من التعليق فوق الحيطان وفوق الاعمدة ، ويدل الشمعدان كنت احس انه يريد حذاء · لقد بدأ الفلسطيني يعرف ان الله الذي رسموه فوق الحائط لا يريد شمعدانا ولكنه يريد حذاء ·

□

المطر هو اعظم اصدقائي ، وحينما كان يسقط المطر كان يتسرب الى قفل الزنزانة ويفتحها فتخرج · والسفينة دائما تقف امام باب الزنزانة في انتظارك · تسافر الان في القمح ·

حينما تخلط لونين يخرج لون ثالث ، فماذا كان يحدث حينما كان السجان يخلط بكرباجه مائة صرخة لمعتقل ؟ ·

العذاب دائما يأتي من خارج الزنزانة ، فحينما يبدأون في تعذيب جارك في الزنزانة المجاورة ، يبدأ العذاب بالنسبة لك ، انك تنتظر دورك وهم يعرفون كيف يطيلون عذابك في الانتظار ، فقد لا يأتي دورك في هذه الليلة ولكن السنة النيران قد بدأت تشتعل في عظمك · كل صرخة تأتي اليك من خارج الزنزانة لسان نار · دخان النيران يتسرب من جسد جارك المعتقل · انهم يذبحونه بالنار ويخنقونك بالدخان ·

□

الدخان يتسرب الى الزنزانة ابرا ومسامير · انهم يدقون الدخان ابرا ومسامير في عظامك · لقد ادخلوك في التجربة ويجب ان تتذكر شيئا ما لكي تتمكن من المقاومة · تدخل كل الاصوات الى زنزانتك مختلطة كأنها صراخ البط البري حينما يسقط في الشرك ·

ـ محمد مهدي الجواهري ، لماذا يحوم كل هذا الذباب الازرق فوق اصابع يديه الان ؟ لقد دخل مصر بدعوة شخصية من الدكتور طه حسين حينما كان وزيرا للمعارف في عهد الوفد المصري · الدخان يتحول الى ذباب · صدقي باشا يدخل البرلمان المصري وفي يده ديوان « اصرار » للشاعر المصري كمال عبد الحليم ، وهو يصرخ :

ـ الشيوعيون في شوارع القاهرة ؟

في ذلك الوقت كانت القصائد في شوارع القاهرة ٠

كانت امي تخبىء قطعة كبيرة من اللحم لفؤاد نصار ، عندما كان يأتي في منتصف الليل ٠

ـ انه يتعب كثيرا ٠

ولقد كان فؤاد نصار يتعب كثيرا ، كان اول من وضعني امام الميكروفون في اول اجتماع جماهيري لعصبة التحرر الوطني في سينما السامر في غزه وعرفني على اميل توما واميل حبيبي وقال لي :

ـ تكلم ٠

كانت المرة الاولى التي ارى فيها الشاعر عبد الرحيم محمود ، وجهه كان يشبه التفاحة ٠ كان فلاحا فلسطينيا يكتب بالمحراث ٠ هذا المحراث الفلسطيني ترك لنا جسده لكي نلقي فيه ببعض البذور ٠ ومن الشبابيك المفتوحة دائما في يد عبد الرحيم محمود تعرفت على شاعر العصر الفلسطيني عام ١٩٤٦ : « ابو سلمى » ٠

□

ـ ان امك تموت ٠

ألقي بالدفاتر واركض الى البيت ، كانت امي ممددة فوق السرير والى جوارها كان ابي وعمي احمد عاصم وخالاتي الثلاث والطبيب والتصقت بها ورفضت ان اترك الفراش ٠ كانت في حاجة الى شيء ما وكنت احس ان في استطاعتي أن اقدم لها هذا الشيء ٠

في الثامنة من عمري تبعت « ثلجة وعبد الرحيم » كانا غجريين يمشيان على الحبل ، ولقد ارضعتني هذه الغجرية التي كانت تمشي على الحبل ، كانت ترضع طفلها وكنت عطشان فلاحظت عيني فأرضعتني ٠ من يومها علمتني وهي لا تدري كيف امشي فوق حبل من النار ٠

في الصباح حدثت المعجزة وعاشت أمي ٠ كان عليها أن تقاوم من اجل شيء ما فقاومت من اجلي وعاشت ٠

السجان يمسح كفه في حائط زنزانتي ، كان على اصابعه دم « فريد ابو ردة » ٠

حمزة البسيوني قائد السجن الحربي يأتي الان ، يأتي في اللحظة المناسبة ، فالصراخ يأتي من الخارج وهو يصرخ من الداخل :

ـ اكتب فقط انك لست شيوعيا ٠

انهم يعطونك القلم الان ، اولئك الذين كسروا اصابعك ، يعطونك الورقة الان اولئك الذين جردوك من ثيابك ٠ اولئك الذين لا يعترفون الا بانياب الكلاب البوليسية اقلاما لهم ٠ كانوا يريدون منك ان تكتب ٠ تتذكر عيني امك ٠ بحر غزه التي تعلمت فيه السباحة وانت في السابعة من عمرك ٠ انك ترى بوضوح وجه « فخري مرقه » ٠ كان يعمل جاويشا في مركز بوليس المجدل فوضع كل بنادق مركز البوليس في صندوق سيارة وهرب وانضم الى فصيل « الشيخ حسن سلامة » ٠

وانا صبي زرت فخري مرقة في سجن عكا ، كان محكوما عليه بالاعدام ثم حكموا عليه بالسجن المؤبد وهرب من السجن وجاء الى غزه عام ١٩٥٧ واحببته كثيرا وكان دائما يقول لي :

ـ الاغنياء لهم الله والبوليس ٠٠٠

والفقراء لهم النجوم والشعراء ٠

ـ اذا كنت لا تريد ان تكتب فتكلم ٠ قل فقط انك لست شيوعيا وسوف تخرج ٠

ولكن كل العالم كان سيسمعني لو قلت هذه الكلمات ٠

مخلص عمرو كان رئيس تحرير مجلة الغد وكانت صوت رابطة المثقفين العرب ٠

عاش اجمل ايامه شيوعيا ، وحينما كان شيوعيا علمني الكثير ٠

حمزة البسيوني يدق صوته كالمسمار في اصابعي ويصيح :

ـ قل انك لست شيوعيا وستخرج ٠

الزنزانة تمتلىء الان بالوجوه ٠ انك لست وحدك ٠ انهم يريدون ان يكسروا صوتك لكي يكسروا عظمك ٠ ويخرج حمزة البسيوني يتبعه الكلب لاكي والكلبة غولدا ٠ لقد اطلقوا عليها اسما اسرائيليا ، اما انيابها فقد كانت انيابا عربية اصيلة مسنونة من المحيط الى الخليج ٠

ـ قل انك لست شيوعيا وستخرج ٠

تتذكر الجريدة التي لفوا بها الباذنجان والفلافل ، ومن هول العطش لقراءة

اي شيء مكتوب ، تقرأ الجريدة الملطخة بالزيت ، وتستطيع ان ترى صورة الشاعر السوري شوقي بغدادي والقصيدة التي كتبها واخرجته من السجن :

ـ قد كنت ابنا ضال

يا عصبة الاوحال

وخالد الدجال ...

□

المطر يسقط والدخان الذي كان يتسرب من اصوات المعتقلين ومن عظامهم قد اخذ يتلاشى في الماء ٠

وتبدأ السفينة تنزل الى الماء ٠ بذرة الخشب التي هي نطفة الشجرة تلقح الماء الان ويتمدد البرق كالجسد فوق سطح البحر والمعتقل الذي لا يملك منديلا يصنع بصوته اشرعة تكفي لكي تصنع قميصا لكل البحار ، يصبح الان هو القبطان الذي اخذ يستقر فوق الماء ٠

ـ الشعراء عينهم على القمر ويدهم على الرغيف وفمهم مع السفينة ٠

وينزل الفم الى الماء ، تنزل السفينة ويبدأ السجين يسافر ٠ يبدأ المطر يسقط ٠ الجراد الذي لا يستطيع ان يقضم الماء يحلم بالسمك ٠

ـ لقد نزل الفم الى البحر واصبح سفينة ٠

الدفتر الاول

ولدت في بيت جدي لابي في حي الشجاعية في غزه ٠ كان جدي من اجل مهابته يفرض على اولاده الثلاثة ان يسكنوا معه ، يتباهى بأنه ارسل ابناءه الثلاثة الى جامعة استانبول ٠ اما حينما كان يغضب على عمي الاكبر عاصم ، فقد كان يصرخ :

ـ ارسلتك الى استانبول لتعود بشهادة فعدت بحبل مشنقة ٠

عمي عاصم اول ما وصل استانبول اشترك في اصدار مجلة المنتدى العربي ٠ كان الطلاب العرب يتعلمون لغة السلطان التركي لكي يتآمروا باللغة العربية ضد الاتراك ٠

وألقي القبض على عمي عاصم وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالاعدام ٠ أية عائلة ٠

امي كانت تهرب الاسلحة عام ١٩٣٧ ٠ وابي ذهب الى المخاضه في نهر الاردن ليعود بعبد القادر الحسيني وهو جريح في سيارته عام ١٩٣٨ ٠ والعم محكـوم عليه بالموت شنقا ٠

يفلت عمي من حبل المشنقة بمعجزة ٠ من يومها احببته ٠ ـ فيما بعد ـ حينما كان الحاكم الاداري العام في قطاع غزه ـ اللواء عبد الله رفعت ـ يستدعيـه لمكتبه لكي ينذره بأنه سيعتقلني اذا لم أكف عن نشاطي ، كان يعود الى البيت ويصرخ :

ـ انك تحطمنا ٠

كانت زوجته ـ اخت امي ـ تقف دائما الى جانبي وتصرخ :

ـ لم يحكموا عليه بالاعدام مثلما حكموا عليك ٠

دائما حينما كان يسمع هذه الجملة كانت عيناه تلمعان ويهمس في اذني :

ـ الشيوعية شيء خطر ٠

وبالفعل كانت الشيوعية تشكل خطرا دائما وستبقى بالنسبة الى كل اولئـك الذين كانوا وما زالوا يحاولون ان يفتحوا بيت فلسطين بالمفتاح الوحيد الذي يملكونه :

ـ الكرباج ٠

□

في رمضان كانوا يحضرون شاعرا لكي يغني لهم سيرة (ابو زيد الهلالي) ٠ كنت اجلس تحت النافذة واصغي للشاعر حتى خيوط الفجر الاولى ٠ وما اكثر ما كنت امي تجرني ممددا تحت النافذة ٠ من يومها احببت الشاعر واحببـت ربابته ٠ فيما كنت أهرب الى المقهى وانا في الثالثة عشرة من عمري لاستمـع الى الشعراء الجوالين ٠ هذه المخلوقات العجيبة التي كانت تتقمص شخصيات السلاطين والجن والابطال ٠ في اخر الليل كانت الكراسي ترتفع والزجاجـات تتطاير ٠ لان (ابو زيد) سجين وانصاره في المقهى لن يتركوه سجينا ويمضون الى بيوتهم ٠ وما اكثر ما ارغموا الشاعر بربابته على اطلاق سراح (ابـو زيد) ٠

من يومها احببت الشعراء الجوالين الذين كانوا يعتقلون الجن والملـــوك والابطال ويطلقون سراحهم ايضا ٠

□

كان ابي يأخذني معه دائما في موسم الحصاد وفوق كومة من سنابل القمـــح كان يضع فروة خروف ويغطيني بفروة اخرى وهكذا كنت انام وتحت رأسي سنبلة وفوق رأسي نجمة ٠

في ايام الحصاد كان والدي يدعو اصدقاءه ، يذبح خروفا لهـم ويأكلون ويشربون ويغنون حتى الفجر ٠

كل اصدقاء ابي كانوا من الصيادين وكان يحبهم كثيرا ، وهو اول من وضع البندقية في يدي وانا في الخامسة عشرة من عمري وعلمني على الزنـــاد ٠ واصطدت حجرا وهرب الطائر ٠ ولماذا يقتل الشعراء الطيور ؟ على الشعـراء ان يقتلوا الاسمنت ٠

كان ابي دائما يقول لي وانا امضي اوزع الطيور التي اصطادها علـــى الجيران :

ـ كيس الصياد ليس له ، انه يصطاد لجميع الناس ٠

في وادي (الشريعة) قناة صغيرة من الماء تفصل غزه عن بئر السبع ٠ كان يأخذني ابي معه الى الصيد وعلمني كيف احب الماء الذي تخرج منه الطيور ٠

□

في نادي غزه الرياضي كانت بداية علاقتي بعصبة التحرر الوطني : محمـد خاص ، علي عاشور ، فتحي شراب ، فهمي السلفيتي ٠

اما فتحي شراب فقد اصبح يحمل الجنسية البريطانية فيما بعد ، وعصبـة التحرر الوطني التي ارسلته الى ـ براغ ـ عام ١٩٤٩ لكي يدرس فقد عـــاد يهاجم عمال براغ الذين قدموا له الرغيف والكتاب ٠

فهمي السلفيتي كان مسؤولا عن العمال الفلسطينيين في المعسكرات البريطانية في لواء غزه ، رغم انه كان يركب دراجة ويتكلم كثيرا عن العمال ، كانـــت قدماه تكذبان بالنسبة لي ، وحينما تكذب القدمان تكذب اليدان ويتحول الفم الى لص ٠

علي عاشور عضو اللجنة المركزية لحزب (راكاح) كان اول مسؤول لي في منطقة الرمال في غزة · اعتقله المصريون ثم جاء الاسرائيليون واخذوه معهم في احدى غاراتهم واصبح في حيفا ·

فائق وراد المدرس في كلية غزه كان يشبه دائما قطرة المطر ، وحينما يتحول الفلاح الى مدرس تتحول الاشجار كلها الى اصابع طباشير ·

حينما اصبح عبد العزيز العطي عضوا في عصبة التحرر الوطني كانت فرحتي الكبرى · كان ابن فلاح يمتلك بضعة امتار من الارض في قرية يازور · وحينما اصبح شيوعيا اصبح يمتلك الكرة الارضية ·

فؤاد نصار كان يأتي كل اسبوع الى غزه ، وفي مقر جمعية العمال العرب كنا نجتمع اليه على كراسي القش الصغيرة · كان يقول لنا دائما :

ـ العمال هم الوطن ·

وحينما كان فؤاد نصار يتكلم عن العمال الذين هم الوطن ، كان يعلمنا ان قيامة الارض تقوم حينما يقوم الفلاح · وبدأت رحلة عصبة التحرر الوطني في فلسطين من اجل قيامة الارض ·

كان فؤاد نصار اول من قدم لي « ابو ذر الغفاري » وقدم لي بعده « عبد الله بن علي » صاحب ثورة الزنج وعلمني كيف احب « ابو سلمى » شاعر ثورة ١٩٣٦ وشاعر الحركة الوطنية الفلسطينية · ورغم مشاكل العمال الذين هم الوطن ، ورغم مشاكل الفلاحين الذين هم القيامة كان يجد متسعا من الوقت ليكلمني عن المتنبي · ابدا كان يرتبط بالشعر ، وحينما ارسلت مرة قصيدة لجريدة الاتحاد وكان فؤاد نصار يشرف عليها في ذلك الوقت ، نشرها المحرر الادبي في بريد القراء ، وهرعت لفؤاد نصار والجريدة في يدي ، والقيت الجريدة فوق الطاولة وانا اصيح :

ـ انظر ماذا فعلوا بي ؟؟

بعد ذلك بعامين في العشرين من ايار ١٩٤٨ كانت عصبة التحرر الوطني بقرار من فؤاد نصار توزع قصيدتي التي كان عقوبتها السجن المؤبد :

احد يمر كذبت لا احد يمر فلا حدود
انا لن ابدل حبل مشنقتي ولا زرد الحديد
لكنه مر الرصاص ، وخلفه مر الجنود
عصبوا عيونهم فما لمحوا القنال ولا الوحوش ···
كم دنشواي على مخالبهم ممزقة تعيش ···

ورفعت صوتك صارخا ، سدوا الطريق على الجيوش
فلاحنا اشحذتها هذي الشراشر للحصاد ...
قد اقبلوا واستبشر الملاك خيرا بالجراد ...
وسيذبحونك بالشراشر فوق اكوام الحصاد ...
كذابة هذي المدافع ... لا تصدق ما تقول ...
لم تحش بالزيتون او بالبرتقال ... او النخيل ...
بل بالحجارة والخيام وبالجبال ... وبالسيول ...
انا لست اقرأ كفك العطشى لاعرف ما المصير
بصمات الاستعمار فوق وجوههم وعلى الظهور
وعلى بنادقهم ، عرفت بها الخيانة والمصير
« اسدود » خندقه الاخير ، وليس خندقه الاخير
قد باع غزة قبل « اسدود » الاجير الى الاجير
ان عشت تبصرهم جيوشا ، من ظهور لا صدور
وانا وانت وكيف اجرؤ ان اقول ...
لولاهم لفرشت بيتك بالزنابق يا « نهيل »

ولشب توفيق الصغير ومع « راشيل » ومع « راحيل » .

□

في اكتوبر ١٩٤٨ ذهبت الى قسم الاداب في الجامعة الاميركية في القاهرة ، والقاهرة في ذلك الوقت كانت بالنسبة لي هي عبد الرحمن الخميسي ومجلة الرسالة التي كان نشر قصيدة واحدة فيها يجعل لك اسما في الشعر .

حينما وصلت القاهرة كان عبد الرحمن الخميسي مشغولا بكتابة « الف ليلة وليلة الجديدة » . وبعد ذلك شغلته القصص عن الفدائيين المصريين في قناة السويس .

ذات مرة اعطيته قصيدة لنشرها في جريدة المصري ، ولسوء حظ القصيدة غضب مني لانني قلت له انني افضل الف ليلة وليلة القديمة .

في الصباح وفي الصفحة الادبية التي كان يشرف عليها الخميسي ظهر اعلان عن احذية « باتا » ، وقد حل مكان القصيدة . ولكنني في مصر تعرفت على الكاتب المصري « ابراهيم عبد الحليم » وعلى اخيه الشاعر « كمال عبد الحليم » وعلى « صلاح حافظ » وعلى الرسامين « زهدي ، وحسن فؤاد ، وحسن التلمساني ، واحمد طوغان » وعلى شاعر الشعب « فؤاد حداد » وعلى نائب البرلمان الشاعر عزيز فهمي الذي كان صوته المع الاصوات التي ارتفعت

ضد مشروع تقييد حرية الصحافة والذي كان فؤاد سراج الدين باشا يريد تقديمه خلال النائب « اسطفان باسيلي » ٠

وجدت نفسي في جريدة « الملايين » الاسبوعية ، كان رئيس التحرير « احمد صادق عزام » وكانت « الملايين » صوت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني ٠

اول من قدم لي الشاعرين الفرنسيين « اراغون وايلوار » كان الشاعر فؤاد حداد ٠ حسن فؤاد وزهدي الرسامان المصريان قدما لي بيكاسو ٠ وصلاح جاهين قدم لي فونتمارا والخبز والنبيذ لاغنازيو سالوني ٠ هؤلاء الذين قدموا لي كل الشعر وكل هذا اللون قدموني لمصر ٠ ولولا عمال مطبعة اورفند الذين دافعوا عن مطبعتهم في وجه المحرقة لما ظهر ديواني الاول « المعركة » ٠

وانا سأظل مدينا لعمال المطابع في مصر الى الابد ٠ ودائما كنت اقول للرفاق :

ـ كان عمال مطبعة اورفند يدافعون عن قصائدي ٠

وسواء كان يدافع عمال المطبعة عن قصائدي ضد حريق ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، فالعمال كما كان يقول فؤاد نصار :

ـ هم الوطن ٠

وانا اضيف :

ـ والوطن هو الشعر ٠

□

بعد حريق القاهرة اخذ الدخان شكل الحجارة ، وبدأت غارات البوليس ٠ كنت في السنة الدراسية الاخيرة في الجامعة الاميركية في القاهرة ، ولقد بدأ البوليس يبحث عني ٠ لم يكن يتصور ان شاعر ديوان المعركة هو طالب في الجامعة الاميركية ، وهو الذي يردد شعره كل ليلة في مكتبه في جريدة الاهرام: كامل الشناوي ٠ وهو الذي يجوع الان في حجرة فوق مقهى « ايزافيتش » ٠

عشت على البطاطا المسلوقة لمدة اسبوع ، صلاح جاهين اغراني بطلب مقابلة « الحاج امين الحسيني » ، كان يقول لي :

ـ سوف يساعدنا ٠

لقد اصبح المطارد صلاح جاهين فلسطينيا هو الاخر ٠

واشترى الحاج امين مائة نسخة من ديوان المعركة ٠

وهكذا في اول عشاء مع صلاح جاهين صرخ :

ـ لقد اكلنا عشر نسخ من الديوان ٠

وتبدد ثمن المائة نسخة من ديوان المعركة على مائدة في مقهى شهريار في الجيزة حيث كان يجلس : زكريا الحجاوي ، وبكر الشرقاوي وعبد الرحمن الخميسي والرسام احمد طوغان ٠

□

حينما كنا نجوع كنا نذهب الى الشاعر المصري « محمد علي ماهر » ، كان يعمل باشكاتبا في مستشفى الاطفال ٠ كان محمد علي ماهر يجمع كل كبد الدجاج ، يقليه في السمن ويقدمه لي ولعبد الرحمن الخميسي ولعبد المنعم عبد العزيز ٠

بعد الشبع ، كان عبد المنعم عبد العزيز يصيح في وجه محمد علي ماهر :

ـ يا سارق اكباد الاطفال ؟

□

كان الرفاق من الشيوعيين المصريين يحاولون الاتصال بي طيلة عام ، وحينما عثروا علي تناقشنا حول قضية واحدة وكانت القضية تدور حول مستقبل اول لجنة لانصار السلم تؤلف في مدينة غزة ٠

وحملت الرسالة الصعبة الى غزة ٠ في النادي القومي في غزة تم اول لقاء بالمناضل الشيوعي : فايز الوحيدي ٠ لجنة السلام الفلسطينية في ذلك الوقت كانت سيئة الحظ ، فلقد تم القاء القبض على الخلية الشيوعية الرئيسية في غزة : عصبة التحرر الوطني ٠

الضابط فخر ـ بسيسو ـ جاء ليقول لي ـ :

ـ كن حذرا هذه الليلة ٠

ومضيت لكي احذر رفيقين من عصبة التحرر الوطني ٠ (م٠خ٠ب) (ع٠س٠) قابلت الاول فوق قضبان سكة الحديد ، وكان يعمل محاسبا في شركة تجارية ، وقابلت الثاني بين القبور ٠ وهرب الاثنان ٠

□

كان علي ان اعمل شيئا ما فأصبحت مدرسا في مدرسة الحكومة في

الشجاعية · امام تلك المدرسة بيارة جدي لابي · كنت احس انهم ينشرون لحمي كلما كانوا يقطعون اشجار الزيتون لكي يزرعوا بدلا منها شتلات البرتقال · اصبحت مدرسا للغة الانجليزية ، وكان مدرس اللغة العربية يحاول ان يجامل المدرسين المصريين ويقول لهم :

ـ احمد شوقي شاعر كل العصور ·

وحينما شتم ذلك المدرس المتنبي ذات يوم بصقت في وجهه ، وقدم تقريرا ضدي الى « احمد اسماعيل » ، وكان المشرف في ذلك الوقت على التربية في قطاع غزه ·

ـ ما دام يبصق على احمد شوقي فلا بد ان يكون شيوعيا ·

هكذا قالوا · ولكنني كنت ادافع عن الشعر ·

لم يعد لي خبز في تلك المدرسة التي كانت حولها طفولتي ، تجري مرة كجدول ومرة اخرى تأخذ شكل الرغيف ، ومرة ثالثة تأخذ شكل نواة المشمش التي كنا نجففها ونلعب بها ·

□

سافرت الى بغداد وكان في جيبي عقد مدرس · اول ليلة سهرت فيها في بغداد كانت مع ناظم حكمت · وبالدينار الوحيد الذي كان معي اشتريت زجاجة نبيذ وتفاحا وديوان شعر ناظم حكمت · في الصباح سافر معي ناظم حكمت الى الديوانية ومنها الى قرية الشامية ، ولقد ظل يسافر معي ·

اكثر من يحترم المدرسين هم الفلاحون · كانت المشكلة اين اقيم ، وناظر المدرسة لم يكن يعرف ماذا سوف يفعل بي ·

تطوع احد المدرسين العراقيين واستضافني تلك الليلة · وحمل البواب حقيبتي الوحيدة ·

دعاني ناظر المدرسة لتناول العشاء معه وبعد العشاء قادني الى البيت الذي قبلني كضيف فيه ·

حينما فتحت الحقيبة وجدت ان شيئا ما قد حدث ونظرت الى المدرسين الثلاثة فكانوا يبتسمون ·

لقد تم تفتيش الحقيبة · « عباس العادلي » يتقدم مني فاتحا ذراعيه وهو يلوح بديوان المعركة :

ـ اهلا بك في العراق ·

كان ديوان المعركة الذي حملته معي من غزة الى بغداد هو اوراق اعتمادي كفلسطيني الى الشيوعيين العراقيين · لم يرتبط حزب شيوعي بالشعر مثلما ارتبط الحزب الشيوعي العراقي · لقد كان الحزب رئة من الشعر ·

في مدرسة الشامية كنت ادرس باللغة الانجليزية · يطحنون سعف النخل ويعجنونه ويصنعون منه اقراصا يجففونها تحت الشمس ويأكلونها · هؤلاء كانوا تلاميذي ·

لبعضهم كنت اعطي دروسا مجانية خاصة ، وحينما ارسل احد الاقطاعيين ، « الشيخ رايح عطية » احد رجاله ليضربني ، كان ابا لتلميذ كنت اعلمه بالمجان ·

وسقطت الهراوة من يد الاب · كان عامل مضخة للمياه ، وكان اول من قدمت للحزب الشيوعي العراقي · في ذلك الوقت من بداية عام ١٩٥٣ كان الحزب يقاتل ضد الانقسام وضد نوري السعيد ، من اجل وطن حر وشعب سعيد ·

واتصل بي الحزب بعد ثلاثة اشهر من وجودي في الشامية · ولقد تعلمت الكثير من اليد السرية لذلك الحزب ·

□

كنا نحن المدرسين الاربعة كل مدرسة الشامية الثانوية للبنين والبنات · كانت مدرسة مختلطة وفي قرية في العراق عام ١٩٥٣ · كنت أدرس اللغة الانجليزية وعباس العادلي يدرس الرياضيات وكاظم الشمرتي يدرس اللغة العربية ومدرس رابع نسيت اسمه كان يدرس الجغرافيا والتاريخ ·

وبدأت الايام تمشي في قرية الشامية ، كنا نقدم الدروس المجانية للطلاب وفي المساء كنا نقوم بتصحيح الدفاتر وتحضير الدروس لليوم القادم ، ثم تمتد المناقشة حول ما حدث في فلسطين وحول ما يحدث الان في العراق · حادث لن انساه في حياتي فحينما بدأت مؤامرة نوري السعيد بطرد اليهود من العراق ، كان من بين الـ ـد المطرودين شيوعية يهودية عراقية رفضت ركوب الطائرة فضربها عسكر نوري السعيد حتى سقطت فوق سلم الطائرة وجروها فوق وجهها الى داخل الطائرة وهي تصرخ :

ـ هذا وطني ·

ومثلما الطائر تمتلىء حوصلته بالقمح ، يمتلىء صدرك بنسيم الاساطير القادمة من يد الحزب ·

مرة قرأنا قصيدة للجواهري في مديح ولي العهد وكانت صدمة كبيرة بالنسبة

لنا نحن الذين قرأنا الجواهري ، فقررنا في خلية الشامية وبالاجماع : حـــرق محمد مهدي الجواهري ٠

كومنا دواوينه واشعلنا فيها النار ، وفي التقرير الشهري للحزب كان اول ما كتبته هو قرار اشعال النيران في قصائد الجواهري ٠ وجاء رد الحزب في صورة منشور خاص بالجواهري كان عنوانه « محمد مهدي الجواهري شاعر العرب الاكبر » ٠

هكذا علمني الحزب كيف استخدم النيران وبشكل اخر ٠

في ذلك البيت في الشامية كان كل واحد منا يتولى مالية البيت لمدة شهر ٠ في الشهر الذي اصبحت فيه مسؤولا عن البيت كنت اعود ومعي سبعـــة او عشرة طلاب ، وهكذا أفلسنا في منتصف الشهر ٠ لم نكن نعرف في ذلك الوقت لا بقالا ولا بائع طيور ٠

وهكذا جلسنا بعد الظهر ننظر لبعضنا البعض ، وفجأة التمعت عينا عباس العادلي ٠ كان ينظر الى الحمام في ساحة البيت ٠ وبدأنا العمل فورا كأننـــا كنا نفكر في موضوع واحد ٠ كل منا انقض على حمامة ولقد فوجيء الحمام ، فلقد كان طول الوقت يمشي بيننا ٠ منذ ذلك الوقت عشنا على اكل الحمام ٠ وربما كنا اول من اكل الحمام في قرية الشامية ٠ بعد ذلك اصبحت عمليـــة اصطياد الحمام عملية صعبة جدا فلم يعد يهبط من اعشاشه على سطح بيتنـــا وينزل الى صحن الدار ٠ كان علينا ان نستخدم السلم لاصطياده في اعشاشه ، ووضعنا السلم فوق الجدار وكان مخلعا ، صعد عليه عباس العادلي بعد حـوار طويل ، مد عباس يده الى عش حمامة ولكنها زاغت من يده وطارت وهي تخبـط وجهه بجناحها وتبعها الحمام واختل توازن عباس فوق السلم فسقط ٠ وفي الصباح راه الطلاب وهو يعرج ورأوا الكدمات على وجهه ، ولم يكن أيا مـــن الطلاب يعرف ان مدرس الرياضيات سقط من علو ثلاثة امتـار وهو يصطاد حمامة ٠

بدأت منشورات الحزب وكراساته تظهر في قرية الشامية ٠ كل شهر كانـت تأتي البوسطة وكنت قد اقمت سقفا سريا ثانيا تحت سقف حجرتي لاخفـــي المطبوعات ٠ ومع ظهور مطبوعات الحزب بدأ البوليس السري في الظهـــور ، ولكننا كنا بالنسبة لاهل القرية اربعة من المدرسين المحترمين الذين يقدمـــون الدروس المجانية للطلاب ويسهرون يصححون الدفاتر ٠

« فريد ناجي » ــ حتى النار لا يمكن ان تمحو اسمه من يدي ــ كان اعز طلابي وكان مصابا بروماتيزم في القلب ٠ استعار مني رواية « الام » لجوركي ومات ولم يتم قراءة الرواية ٠ وضع ورقة سعفة نخل في منتصف رواية الام

وبعدها توقف قلبه عن الخفقان · وحملناه فوق سيارة وذهبنا لندفنه في مقبرة النجف · لقد رأيتهم وهم يغسلونه ولكنهم لم يستطيعوا ان يغسلوا اسم جوركي فوق جلده · ارت ان ادفن معه كتاب الام ولكنهم رفضوا · ربما خافوا ان يقوم كتاب بعمل انقلاب وهو تحت التراب ·

الخلية الاولى اعطت الخلية الثانية ولكن الامتحانات النهائية قد جاءت وكانت اهم الاحداث في المدرسة ·

□

بدأ حبر المناشير يفوح في شوارع الشامية وبدأت الرقابة البوليسية تشتد · كان علي ان افعل شيئا ما كي افلت من المصيدة · وجاء مندوب من الحزب وطلب مني السفر معه فورا الى بغداد · وسافرنا في الليل الى النجف ومنها الى بغداد ·

فى بغداد كان قرار الحزب ان اغادر العراق ، لقد انتهت السنة الدراسية ووزارة المعارف لن تجدد عقدي ، ثم علي ان احمل رسالة معي الى الخارج ·

وكانت رسالة الحزب حقيبة من الخشب امتلأ بطنها بمطبوعات الحزب · ولا ازال اذكر انني اصررت على حمل الحقيبة الخشبية :

ـ اذا قبضوا علي فلا يهم ، اما انت فهم يحتاجون لك كثيرا ·

وسلمني الرفيق الحقيبة ومضيت بها الى فندق الرشيد ·

كانت هدية الحزب الشيوعي العراقي الى الشيوعيين المصريين والشيوعيين الفلسطينيين في قطاع غزة ، وكانت من اجمل الهدايا التي حملتها في حياتي ، وانا مدين بوصول هذه الهدية الى مصر وقطاع غزة الى مدرس فلسطيني من غزة كان يعمل في العراق اسمه (ك·ط) · حينما وصلت الى مطار القاهرة عرفت انني في القائمة السوداء وانطلق ذلك المدرس الى حقيبة الخشب ولقد اخبرته بمحتوياتها حتى يتخذ قراره ·ولم يتردد ·ضم الحقيبة الخشبية الى حقائبه وانطلق بها خارج المطار ، ولقد قام بالفعل بتسليمها الى الرفيق (خ·ش) الذي طلبت منه تقديم الحقيبة اليه · وهكذا بت تلك الليلة في فندق مطار القاهرة الدولي وفي الصباح تم ترحيلي بالقطار الى غزه ·

حينما بلغ القطار محطة رفح الفلسطينية ، كنت احس بعجلات القطار وهي تكتب فوق القضبان منشورا جديدا للارض ·

□

قصيـــدة بَـابـل

[مقاطع]

- ١ -

دار المجنون يُسائِلُ : أين الشمسُ وأينَ الأفقُ ؟ وماذا
يحمل هذا الآتي :
عنقا او سكينا ؟
يسأل : كيف اظل شرارة خرق ؟

من أين أتيتَ ، وكيف ، وماذا ؟
أرضك مملكة التدجين ، وانت عصيٌّ
أتظل عصيا ؟

من اين اتيت ، وكيف ، وماذا ؟
يبدو أن الأشياءَ قطيعٌ

والافكارَ ذئابٌ فضِّيه ،

قابيل هنا ، هابيل هنالكَ لم يُدْفَنْ
والموتى شَرَكٌ
والاحياء سديمٌ ...
هل تبقى ، تخبز هذا الرمل ، وتحيا
في طحلب هذا البرج ؟
مزيدًا
من جمرٍ آخرَ
من شهواتٍ اخرى ...

صدِّقني ـ أُقدر ان اتقدَّمَ في منشارٍ
يا هذا الجذع اليابس ، لكن
اعمل كي اتقدم في طوفانٍ ...
من يتقدَّم ؟ صاحت
أُجراسُ عصورٍ
تتلاطم في حنجرةٍ بحريّهْ
حسنًا ، يا هذا البحر ، ورفقًا
يا أُدوات اللغة القرشيَّهْ ..
يبدو ان الأشياءَ قطيعٌ
والافكارَ ذئاب فضّيه ،
من أين اتيت ، وكيف ، وماذا ؟

متّهمٌ
حتى حين تقول الليل فراشٌ
والشمس امرأةٌ
متّهمٌ
حتى حين تقول الخنشارُ صديقٌ للنهدين ،
وحين تقول الحوضُ يحنّ لماءٍ لا يعرفهُ
والماء يحنّ لحوضٍ لا يعرفهُ ،
متّهمٌ
حين تقول الفاتح يختمُ حيناً
والخاتمُ يفتح حيناً ،
متّهمٌ
حين تقول الحزنُ ربيعٌ
والصفصاف دموعٌ
متّهمٌ
حين تُجاهرُ : بابل جرحٌ
يتدفّق من دمه الفقراءُ ، وبابل فقرٌ
يتناسل في دمه الشعراءُ ، وبابل سلطانٌ
والتاج نبيٌّ او تنّينٌ ،
من أين أُتيتَ ، وكيف ، وماذا ؟
أتموت ، وأنت جنينٌ ؟

هوذا التاريخ بقايا جثثٍ

والايام تهرول في كثبانِ الرمل : « تفيأْ
حلماً

وانسجْ
لمداك عباءةَ حبٍّ ، واجنحْ ... »

آفاقٌ جانحةٌ ، وصحارَى
تهذي ،
ونساءٌ في العتَباتِ يلدن الحسرةَ : « أهلاً

لكن ، ماذا نفعل ؟ أيدينا ليست أيدينا
نحن المقتولات ، وكل جنوحٍ يحيينا . »

- ٢ -

قال عليٌّ : « هذي بابلُ ... »
بابل قفزٌ
حيث الكون فراغٌ -
مجروراتٌ ومفاعيلٌ
شحاذون على الطرقات وشحاذون على الشُّرُفاتِ
يفترشون الغَسَقَ الطالع في الاهداب وفي اللَّهَواتِ
عرشًا يتأرجح في لبلابٍ
ونخيلَ دماءٍ
ألِفُوا ريح الموت وسالوا
في نَهَر العالم جرحًا ...

بابلُ أنتِ الشرُّ وانت الخيرُ
وأنت مدارٌ
ودمي وهواؤك طفلانِ
يمحو الثاني درب الاول
يمحو الأوّل درب الثاني ٠

- ٣ -

يبدو أنَّ الاشياءَ قطيعٌ
والأفكارَ ذئابٌ فِضّيه ،
من أين أتيتَ ، وكيف ، وماذا ؟
قُمْ ، يا قيسُ ترصَّدْ ليلى
قل للنخلة ان تؤويك ، وأسلِمْ
عينيك لوسوسة الأحلام ـ
ليلى صورٌ تتفتّح في أشكالٍ مَخْروطيّه
ليلى أقواسٌ ودوائر جنسيّه
قَصَبٌ عالٍ للأحزانِ
وبحرٌ أبيضُ للأوهام
قم ، يا قيس ـ الاشياءُ مباركةٌ
والرّغبة قدسيّه
قم ، يا قيس ـ التاريخ ركامٌ
والحاضر وحشٌ
تتلبّسه خِرقٌ وعظامُ ٠

متّهَمٌ

حتى حين تقول الارضُ امرأةً
وسواء قلت العالم عِرسٌ
او قلت العالم قَشٌّ
متّهمٌ ·
وسواءٌ جئت الينا شرعًا أو جئتَ سفاحًا
متّهمٌ ـ
[تُهمي أنّيَ وجـهٌ · تُهمي أنّيَ حمًى ·
تهمي اني اكشفُ عـن جرحي · تهمي
اني أرفض هـذا العصرَ واكتب لعنته
الكبرى ···]
متّهمٌ
في احلامكَ ، في خلجاتكِ ، حين تروح
وحين تجيءُ ـ
قم ، يا قيسِ ترصّد ليلى ···

من اين اتيت ، وكيف نسيتَ غزالَ الزّمن :
الجنسَ/الحبَّ/الموتَ
الصوفيَّ/وحيدَ القَرنِ ـ
اذكرْني

يا هذا النّيزكُ ، وامنحْني
ضوءًا
واسهرْ ، وتألّقْ في أنحائي
هوذا : أُغمضتُ جفوني باسْمكَ واستسلمتُ الى اعضائي

حيث نعانقُ ما لا نعرف كيف نَراهُ
حيث المعنى زيتٌ والصورة نارٌ
حيث التاريخ كلامُ الهازمِ صوتُ المهزومينَ ، وحيث مشينا
في أيلولَ ،
وفي كانونَ ،
وفي أيارَ ، مشينا
نَتلمَّسُ أقنعةَ التكوين ، ونحضنُ أزمنةَ مكسوره
تذكر ؟ لم نسمع
لم نلمح
إلا جَسَد اللّغة المجدورهْ ٠

قم يا قيسُ ترصَّدْ ليلى
عَيِّدْ عيدَ اللّهَبِ الوحشيّ ، اللّغةِ الوحشيّهْ
واقطعْ كلماتك من خيلاء الزّانِ وأبّهةِ المرّانِ ،
استنفرْ أضرحةَ العشاق ، وقدِّمْ
للموت حياتكَ ، وابدأْ ـ لا تنتظرِ العنقاءَ ،
تكونُ خطاك لِقاحًا :
ستكون الماءَ مِرارًا
ومِرارًا سوف تكون الصخر
مِرارًا سوف تكونُ الرّيحَ ،
وتغدو
مَلِكَ الآفاق ، وتغدو
مَلِكَ العربات الضّوئيهْ ٠

خذني ، يا هذا التيار ، امنحْني
مَدًّا اقصى
هوذا : تغدو فلكًا
وتدور كواكبُ في قدميكا ،
هوذا : أغمضتُ جفوني
واستسلمتُ إليكا ٠

- ٤ -

أعلو وأفكّر في التّشبيهِ وأنأى
لا أحتاجُ الى ذُرُوَاتٍ
شغفي أن أتواطأ مع أمواجٍ مع كلماتٍ
لا أملك إلا ان اقتلها
٠٠٠ في عادة وجهي ،

عادةُ وجهي :
لا أعطي لغتي الا للجذر ، وعادةُ صوتي
أن يتفيأ شمسَ الرغبة ـ بابلَ ، عادةُ صوتي
أن يخلق بابلَ كي يتغيّرَ هذا الزمنُ
ان يخلق بابلَ كي يتبرّأَ هذا الوطنُ /

أخلق بابلَ في الأجناسِ وفي الأنواع وأخلق بابل في الصّلواتِ

وفي الشّهواتِ واخلق بابل في الأرَحام وفي الأكفانِ واخلق
بابل بين الخالق والمخلوقِ وأخلق بابلَ في الاصواتِ وفي
الأسماءِ وفي الاشياءِ
وأظلُّ اللّهبَ الضّاربَ في الاشياء
خارجَ هذا الوَرَقِ الرّمْليّ ، أدشّنُ انحائي
بالضّوء ، برَغبةٍ إن ابقى
خارج هذا الملك ، عصيّا
لا تعرفني غير النّار كأني جنسٌ شمسيٌّ آخرُ ،
يمحو نَصّ الرمل ، يُفتّت كلّ مثالٍ
ويقيم الرغبة نهجاً
وتكون الصّبوةُ عيداً
... في عادة وجهي .

عادةُ وجهي ان يتقصّى
سَفَرَ التكوين ، فراغَ البدء ، يراهنَ :
أين يكون المِلْءُ فراغاً ، والآخرُ أوّلَ ؟ أين يكونُ
السجن طريقاً تتقمّصُ كلّ طريق ؟

عادة وجهي أن يبقى
أفقاً ، ويضلّل حتى الرّيحَ ... ،
لهـذا ،
أحيانًا ،
يطفو وجه الشمس ضباباً
ويكون الضوء استسلم للكلماتِ

احيانا ،
تولد في الكلمات جراحٌ
ويصير الحبر ترابًا
ويكون الجسد استسلم للكلماتِ

احيانا ،
تهجم بابل في طاووسٍ أو جلّادٍ
ويكون التاريخ هشيمًا
والغيم قيانًا
وتكون الاشجار سَبَايَا

أحيانًا ،
بابل قبلُ
وبابل بعدُ
وبابل وجهٌ للاحياءِ وللأموات ...

لهـذا ،
يولد في اسمائي
بَشرٌ
يزدحمون ويقتتلون/خذيهم
دليهم واحتضنيهم

كوني طرقًا لهم وفتوحاتٍ ، يا اسمائي
فأنا الابد المتشرّد خارج أسمائي
أبديًا
أُعلنُ شرع اللّهَب ، الوَلَه ، الحُلُم ، الأشْياء .

— ٥ —

صارت كفّايَ زنابقَ ، صارت عيناياَ صَلاةْ
أسّسْتُ خريفاً واستصلحتُ ربيعًا
وجلست مع الشّجرات القدّيسات
منتظرًا بابل /
(بابل لا يعرفها أحدٌ/لا يجهلها أحدٌ)
خَلَعَ التاريخ قميصَ النّوم وسارَ وحيدًا
في غابات الذكرى
(بابلُ لا يذكرها أحدٌ / لا ينساها أحدٌ)
بابلُ هذي أنتِ ، وهذا خطوكِ والطّرقاتُ هي الطّرقاتُ
الرقم يقول ونبض المعدن قال
وقالت لغةٌ والشعر يقولُ :
أين يكون ، الآنَ ، الملكُ الضِّلّيلُ ، الحَسَنُ الضِّلّيلُ ؟
أين يكون أبو تمّامٍ والمتنبّي ؟
ولأيّ طريقٍ قادَهَمُ المجهولُ ؟
سأراهم يوماً
وأسائلُ رملاً مَرَّ عليهم :

أدماءُ مَسالِخَ هذي الأنهارُ ؟
أمشانِقُ هذي الأشجارُ ؟

وأقول لرملٍ مرَّ عليهم :
أنتَ رسمتَ خطاهمْ
واليومَ ، أجيىء لأرسَمَ فيك خطايَ ، ولستُ الأحسنَ حالاً ،
لكني صرت الأعمقَ ضوءًا

مذ صرتُ الأعمقَ يأسًا ·

بابل ، هذي أنتِ وهذا عصركِ والكلماتُ هيَ الكلماتُ

« حيٌّ ، لكنّك مَيْتٌ ، يا أحمدُ » قال عليٌّ
« ستنال الخبزَ ، ولكن
كيف ستحيا والرّملُ محيطٌ ؟ »
« سيقال : الثّورةُ أنتِ ، ولكن
أتظلّينَ وراء حجابٍ ، يا مريمُ ؟ » قال عليٌّ ـ

بابلُ ، هذي أنتِ ، وهذا خطْوكِ والطّرقاتُ هي الطُّرقاتُ
بابل ، هذي أنتِ ، وهذا عصركِ ، والكلماتُ هي الكلماتُ
لن يدفقَ ماءٌ يغسلُ وحلَ دروبكِ ، حتى ···
لن يطلعَ فجرٌ يمحو ليلكِ ، حتى ···
حتى ···

(مات الكوفيون ، ومات البصريون
وفي انفسهم شيءٌ من حتى ···)

··· وعليٌّ عاشقكِ المجنونُ يُؤصّل في خلجاتكِ دربه

ولهذا ، يرسمكِ امرأةً
ويحيطكِ جنساً
ويُزاوجُ بين الحب ، وهذا العصرِ ، ويُعلنُ : صار
الحبُّ فضاءً ،
واجتاحَتْهُ رياحُ الرَّغبةْ ٠

قم ، يا قيسُ ترصَّدْ ليلى
قم ، يا قيس ـ التاريخ ركامُ
والحاضر وحشٌ
تتلبَّسُهُ خِرَقٌ وعِظامُ ٠

ـ ٦ ـ

بابلُ جنسٌ
للموت ، وبابل حبْ
تهبط نجوي
ضِقْتُ عليها / ضَاقتْ
عرفت أن حنيني تعَبٌ / تَعبتْ
عرفت أني أتبخّر فوق سريري / تَعبتْ
عرفت أن اللّيلَ فراشة جنسٍ / تعبتْ

بابل تصعد نحوي
قولوا : هذا زمن الرؤيا ، زمنُ الأنقاضِ ، وقولوا :

أهلاً بالأطراف ، بكلّ عصيٍّ
أهلاً بالتيه ، بكل قصيٍّ

بابل تهبط نحوي
بابل تصعد نحوي ...

بابل هذا الخسف مضيءٌ
بابل ، أنتِ الطفل وأنتِ الأمّ ، وأشهدُ
كيف يصير ترابكِ حُلْماً
ويصير أباً
ويصير جنيناً .

- ٧ -

أليوم ، يحاولُ وجه الصخرة أن يتزيّا
في عصفورٍ
أليوم ، سمعتُ الشّمسَ تخاطب طفلاً
أليوم ، رأيت طريقي في خطواتِ شريدٍ :

هل أدخل في ؟
هل أخرج من ؟

واليوم ، أهيّءُ ذاكرتي

للذبح ،
أحس كأني طفلٌ ...

بابل ، يكفي
أن تجتاحي مُدَنَ الضوء بغير عيونٍ
يكفي زحفكِ نحو الرغبة في جمجمةٍ أو سيفٍ
يكفي أن يُقطَعَ رأسٌ
كي يُلأَمَ جرحٌ /

بابل تنهض ـ جئنا

نمنح فيكِ العاقلَ ذاكرةَ المجنونِ
ونقودكِ ، دون ملوكٍ أو حرّاسٍ
لغةً للبدء ، هباءً للتكوينِ ٠

بابل جئنا
نبني ملكًا آخر ، جئنا
نعلن أنَّ الشعرَ يقينٌ
والخَرْقَ نظامٌ ٠

هوذا نجمٌ
يتوهَّجُ بين كواحلِنا
ثِقَةً بجحيمِ خطانا
ثِقَةً بفضاءِ
يتناسَلُ مِلْءَ حناجرنا ـ

غَنّيتُ / اُغنّي
جَسَدَ التاريخِ ، طيورَ الأزمنةِ المكنونَهْ

وَأَبَحْتُ لكل صعودٍ لغتي
وأبحتُ لكل صباحٍ
أن يتقمَّصَ وجهي ، أن يُنْكِرَني ـ
هل للتاريخ طريقٌ
خارج نَزْف الرِّئةِ الملعونَهْ ؟
هل للأرض كتابٌ
لا تكتبه اللّغة المجنونَهْ ؟

(بيروت،اوائل آب ١٩٧٧)

صدر عن دار الآداب في بيروت

التراث الفلسطيني والطبقات

تأليف

علي الخليلي

يحيى رباح

إلى اللقاء في الموت القادم
(قصة)

زوجتي حامل في شهرها الاخير ، هنا في الحرب تفلت منا الايام ، ننسى اسماءها وتواريخها ، اشجار البلوط والسنديان لا يتغير شكلها ، تلتف حول نفسها في حالة مستمرة من الاخضرار والجفاف المتداخلين ، وحين تسقط فوقها القذائف تحترق ، نعم تحترق بنفس السرعة والقابلية في كل الايام ، هنا في الحرب تفلت منا الايام ، ولكن يستطيع كل واحد منا ان يميز بين الليل والنهار ، في الليل نرى وميض انطلاق القذيفة ثم بعد لحظات نرى وميض انفجارها ، في النهار نسمع صوت الانطلاق ثم نسمع صوت الانفجار ، وزوجتي حامل في شهرها الاخير ، قال لنا الطبيب في اخر اجازة انها حامل في شهرها الثاني ، عدت من الاجازة الى العرقوب ، قلت لنفسي ٠٠ لماذا لا اسجل ذلك حتى لا انسى ؟٠٠٠٠ سجلت ذلك على جذع بلوطة ، احترقت البلوطة بعد ذلك بتأثير القصف ، لكنني لم انس ، وبقيت مع ذلك اواصل الحساب ، وانا اعرف الان ان زوجتي حامل في شهرها الاخير ٠

ـ ولد ٠٠ بنت ٠٠ ماذا تريد ؟

سألني ابو فراس مازحا ، قلت له وانا احدق في عينيه :

ـ ارحب بالقادم مهما يكون ٠

ـ ولد ٠٠ بنت ٠٠ ماذا تفضل ؟

هكذا عاد يسألني بالحاح ٠٠ قلت له ٠

ـ اذا ترك لي الخيار الحر ٠٠ افضل ولدا ٠

ـ لماذا ؟

ـ هكذا ٠

ـ بل يجب ان تذكر السبب ٠

يتصاعد ازيز جهاز اللاسلكي ، يختلط الصوت مع نقرشة نقاط المطـــر الثقيلة التي تتساقط فوق خيمتنا ، اتخلص من الحاحه ، انهم يطلبونه الى مكان بعيد ، لقد سألني ابو فراس ذات مرة :

ـ لماذا تزوجت ؟

قلت له خالطا بين الجد والدعابة ٠

ـ لكي اجد من يبكي علي عندما اموت ٠

قال لي بغتة :

ـ ولهذا احلم بالزواج من فتاة جميلة ٠٠ انني ٠٠ لا اعرف ٠٠ ولكنـي افضل ان تبكي علي امرأة جميلة عندما اموت ٠

كنا قد تعلمنا هو وانا ، ان نختلس لحظات نتحدث فيها عن الفرح والحزن ورائحة الاشياء ، وكنا نتحدث ايضا عن الموت ، عندما يكون الانسان مثلنا ٠٠ فدائيا ٠٠ يصبح الموت مباحا ومحظورا في آن واحد ، ليس هذا بقرار متعمـد. انه شيء تلقائي ، يصبح الواحد منا مثل رجل يعيش طيلة ايامه في مختبر مليء بالسموم القاتلة ، سموم بطيئة التأثير وسريعة التأثير ، لها الوان متنوعـــة ، يلامسها باصابعه ، يختزن الوانها في عينيه ، لكنه لا يتذكرها ، اننا نطلـــق تعابير مضحكة حين تسقط بالقرب منا احدى القذائف دون ان تنفجر ، وتـــدوي الطائرات فوق رؤوسنا مثل طيور خرافية مجنونة ، تصنع في السماء خطوطـــا بيضاء متقاطعة ، منذرة بانها تنوي تمزيق اجسادنا ، لكننا نروي لبعضنا حكايات عن اشياء صغيرة ، هو وانا تعلمنا كيف نختلس اللحظات لنتحدث عن الموت ٠

قال لي ابو فراس :

ـ ليتهم لا يدفنون الموتى ٠

ـ وماذا يفعلون بهم ؟

ـ يتركونهم على وجه الارض ٠٠ العظام تعيش لزمن طويـــل ٠٠ اليس كذلك ؟٠٠

سترسم عظامنا وهي ملقاة على وجه الارض ، خارطة حقيقية للحلم الذي نريد تحقيقه · كان قد ترك شعر لحيته ينمو ، شفتاه متشققتان كأنه يعاني من العطش ، وشعره الاسود منفوش ومتسخ من كثرة الغبار ، وعيناه حزينتان وعنيدتان ، مثل طائر يختبىء في عبء شجرة كي لا يمسكه احد ، وكانت الطائرات قد قصفت كل مواقعنا دفعة واحدة ، استشهد عدد من الشباب لم نكن بعد قد حددنا ، وتدهورت سيارة لاندروفر الى قاع الوادي ، ومات بغل اسود اللون كنا قد عثرنا عليه هائما في التلال وراء المهربين ، صار يحمل اوعية الماء وصناديق التموين والذخيرة الى قاعدة فوق قمة التل ، واحترقت خيمة ، واشتعلت النار في اماكن متعددة في الحرش ، وامتلأ الفراغ بالدخان والغبار ورائحة الدم ، وبدون اتفاق اصغينا الى نشرات الاخبار ··· لم يقل احد شيئا ·· قلت له وانا يمتلكني احساس بانني الوك كلمات محفوظة باردة ·

ـ انهم يخافون حتى من ذكر موتنا ·

ـ ·····

ـ ان دماءنا تلطخ وجوههم جميعا ·

ـ ·····

صامت لا ينظر الي ، عيناه حزينتان وعنيدتان مثل طائر يختبىء في عب شجرة ، ويده تهرش لحيته النامية ، وكنت ابحث في تلافيف الذاكرة المشوشة ، عن جملة معلبة اقولها ، افلتت منه الكلمات فجأة كأنه يقذفني بها مثل الحجارة ·

ـ من هم الذين نتحدث عنهم ؟

نهضت واقفا ، هذه عادة لم استطع التخلص منها ، عندما تجف الكلمات في حلقي ، انهض واقفا على قدمي ، واخذ هو يضحك ، ضحكات خافتة في البداية ، ثم انفجر في الضحك ، ضاعف هذا من ارتباكي في بادىء الامر ، ثم قذفت بنفسي في بحر هياجه الصاخب ·

ـ انني اتهم الفرس والرومان والتتار والصليبيين ·

ـ وانا اتهم الاتراك والانجليز والفرنسيين والاميركيين والصهاينة ·

ـ والجواري في قصور الخلفاء ·

ـ والقرامطة لانهم اضاعوا وثائق ثورتهم ·

ـ والفقراء في بلادنا لان لهم ذاكرة متسامحة ·

يبدو اننا كنا نضحك ونبكي ونهتف ونغني ونمارس الجنون ، فلقد كنا في غاية الحزن والغيظ ، ينقشع الدخان والغبار بالتدريج ، صوت ابواق سيارات الاسعاف يدوي ، عامل جهاز اللاسلكي يملي برقية بصوت عادي ، وعينين غاضبتين ، المعنويات عالية ٠٠ ، ينهض ابو فراس ، ينطلق بعيدا ٠

ـ الى اين ؟

ـ الى الحرش ٠

ـ ماذا ستفعل ؟

ـ اشم رائحة الاشجار المحترقة عن قرب ٠

يبتعد ، اقاوم رغبتي في اللحاق به ، استلقي على ظهري ، انام ٠٠ استغرق في النوم ، احلم بقرية صغيرة على شاطىء البحر ، مطر دافيء وشمس مشرقة ، وانا محمول على نعش ، اناس كثيرون يسيرون وراء النعش ، زوجتي تلبس السواد وتبكي بدموع هادئة ، تمسك بيدها طفلا جميلا ٠٠ انه ابني ٠٠ وجهه حزين بدون فجيعة ، وانا في نعش اراقب كل ذلك ، والجنازة الهادئة تنساب تحت اشعة الشمس ونقاط المطر الدافئة ، تنساب مثل غناء عذب ، واستيقظ ، لكن صورة الحلم تسري في جسدي مثل مخدر لم يفقد تأثيره بعد ٠

ـ انهض ٠٠ اين كنت هاربا ؟

ـ كنت اموت بهدوء في قرية صغيرة على شاطىء البحر ٠
ـ انك متطرف في احلامك ٠

ـ ماذا ؟

ـ تحلم بالبحر وبالسلم ٠٠ يا لك من متطرف ٠

انهض ، القصف والموت منحنا اجازة طويلة مع انفسنا ، اجازة مليئة بالحزن والصراخ والجنون والاحلام المتطرفة ، ولا يعرف احد ، اذا كان كل ذلك سيتاح لنا في الموت القادم ٠

افترقنا في بداية العام ، تركني عند حافة الارض الجنوبية ، وذهب هو الى حافة الارض الشمالية ، بقيت في العرقوب عند سفوح جبل الشيخ ، وذهب هو الى منطقة عينطورة عند سفوح جبل صنين ، قال لي وهو يرحل :

ـ حتما سأراك ٠

قلت له :

ـ وانا ايضا ٠٠ حتما سأراك ٠

هو وانا ونحن جميعا ، ننطق الكلمات في مناسبات كهذه بدرجة عالية من التأكيد ، الموت يلازمنا ، نحمله معنا في جعبة الذخيرة ، في المفاصل ، في الدورة الدموية ، في الخطوة الاولى والخطوة اللاحقة ، الموت نحمله معنا ، لكننا لا نسمح له ان ينفصل عنا ، ويقف قبالتنا ، ليطرح علينا تحية الصباح والمساء والاسئلة السمجة ، يتمرد الموت اللعين ، يتمرد بوقاحة في بعض الاحيان ، ينفصل عنا ويقف في المواجهة ، يخرج لسانه ساخرا ، يغرز نظراته اللزجة في عيوننا ، يتصرف بوقاحة وجرأة مثل ذئب جائع مهتاج ، وحينئذ ، ليس هناك سوى وسيلة واحدة ، ان نصرخ في وجه الذئب الجائع المهتاج ، ونندفع صوبه ، ونتحد به من جديد ٠

ـ حتما سأراك ٠

ـ وانا ايضا ٠٠ حتما سأراك ٠

توسعت الحرب ، فيما مضى ، كنا نعرف ان هناك ارضا خارج مدى القذيفة ، لم نكن نذهب اليها قط ، لكن ذلك كان يخلق حالة من المفاضلة النظرية ، حالة شبيهة بحرية الاختيار ، في الامكان البقاء داخل المدى او خارج المدى ، الان توسعت الحرب ، شملت كل الارض ، وقبل ان نفترق ، قرأت له رسالة من زوجتي « وضعت ٠٠ صار لنا طفلة صغيرة ٠٠ عيناها زرقاوان بلون بحر يافا » ٠

يضحك ٠٠ اقول له :

ـ اضف لون عيني طفلتي الى قائمة التطرف ٠

واقرأ له ايضا « هناك فتاة جميلة ٠٠ في غاية الجمال ، تقبل ان تتزوج من فدائي ٠٠ وتجيد البكاء » ٠

يضحك ويتمتم ٠

ماذا ؟

ـ اوشكت ان اصبح مثلك ٠

ـ كيف ؟

ـ كنت احلم بالبحر ٠٠ وسوف احلم بالسلم ٠

لم يكن قد بلغ الثلاثين بعد ، متوسط القامة ، ضامر الجسم ، حواجبه

كثة ، وصوته متوازن ، وعيناه حزينتان دائما ، ويعشق التفاصيل ومنحاز الى الفقراء الى درجة التوجس ، والى حد الغيظ في بعض الاحيان « البعض يفخرون بان سلالتهم تشتهر بطول القامة ، بسواد العيون ، بكثرة الانجاب ·· هل تعرف ·· سلالتنا تشتهر بالفقر ·· هل تصدق ؟·· سلالة قديمة ظلت تعيش في الفقر طوال قرون » ·

ـ انك تبالغ ·

ـ انني اقول الحقيقة ·

ـ ان ذلك يدل على قوة الاحتمال ·

ـ وربما يدل على البلادة ·· لماذا لم يثوروا ؟

في العرقوب ، في الليل ، المسافة بين القمة والقاع ، تصهل خيول قديمة يقولون ان فرسان صلاح الدين الايوبي مروا من هنا ·

ـ اللعنة ··· اللعنة ·

ويبحلق في وجهي بغضب ·

ـ ماذا دهاك ؟

ـ تصور ·· منذ صلاح الدين حتى اليوم ، هناك سلالات في بلادنا لم يمت احد من افرادها في الحرب ·

توسعت الحرب ، هذه حرب حقيقية ، لا يوجد احد خارج مدى القذائف ، ولا توجد طبقات خارج مدى التطاحن ، وانا احلم بموت هادىء في قرية صغيرة على شاطىء البحر ، وهو يحلم بفتاة جميلة يتزوجها وتبكي عليه عندما يموت ، ونحن نحلم بان ترسم عظامنا الملقاة على وجه الارض خارطة طموحنا ، وعلى الحاجز عند مفترق الطرق ، يحيطون بي ·

ـ قف ·

اقف ·

يتقدم احدهم ويصوب مسدسه الى صدري ، يقترب اكثر ، يلامس حديد المسدس لحمي فتسري في القشعريرة ، احاول ان اهرب بنظراتي من عيني قاتلي، لا استطيع ، انفاسه تختلط مع انفاسي ، عيناه في عيني ، استطيع ان اجزم انه لا يشعر بالسعادة ، ولا بالفخر ، وبالانتصار ، ولا بالرغبة في القتل ، « يا عدوي ماذا يكمن في اعماقك » ·· لا اصرخ ، اراقب حركة اصبعه الذي يلامس الزناد ، تتلاشى المسافة نهائيا ، اتأكد الان بمذاق خاص انني سأموت ، استنجد

بحلمي الجميل ، يفر مني حلمي ، وانجو من الموت ، رهينة مقابل رهينـــــة ، انجو ٠٠ استرد حياتي ٠٠ لماذا ؟٠٠ ربما مثل مقامر يسترد نقوده التي خسرها لكي يخسرها ثانية ٠٠ ربما ٠٠ نحن في زمن الانهيارات الكبيرة ، يهتز هـــذا الوعاء الضخم الذي اسمه الارض ، فتقذف بنا من اقصاها الى اقصاها ، انجـو من الموت في حافة الارض الجنوبية ، ونلتقي في حافة الارض الشمالية ٠

ــ خفت عليك ان تموت ٠

ــ ولماذا تخاف ؟

ــ لا اعرف ٠٠ ولكن عندما تتحقق توقعاتنا ٠٠ فان ذلك يؤثر فينا بقوة ٠ ربما نكون قد وصلنا الى الزمن الذي تتحقق فيه توقعاتنا ، دون ان نـرى ذلك ، ربما ، ان الذين يعرفون ويدرسون الطوفانات الكبيرة ، كيف تبدأ وكيف تنتهي ، لا يجيدون السباحة ٠

عرفته اول مرة في احداث ايار ١٩٧٣ ، الاسم ابو فراس ، ضابط شـــاب اعطوه مسدسا مكافأة له على شجاعته ، وكان هو يعد باعطاء اشياء كثيرة ٠

ــ من اين ؟

سألته ونحن نجلس على حافة حفرة عميقة ناتجة عن انفجار قذيفة ٠

ــ انا من قرية تبيع محصول زيتونها للتجار ٠٠ وتجوع ٠

هكذا قال لي وهو يبتسم ٠٠ وسألني ٠

ــ وانت ٠٠ من اين ؟

ــ انا من مدينة يهرب من عسف الرمال الى البحر ، ويهرب من هياج البحر الى الرمال ٠

كانت الاحداث توشك ان تتوقف . وكان احد الفدائيين قد قتـــل قبـــل بضع ساعات بحادث غريب ، كان موقعه يتعرض لقصف كثيف ، حـــــاول ان يتحاشى القذائف بان قفز من الموقع ، ونجا فعلا من ملاحقة القذيفة ، ولكـــــن افعى من الذرع السام ، افعى كانت كامنة بين العشب لدغته وقتلته على الفور ، وكان الفدائيون يتساءلون « بمن يجب ان نبـــدأ اولا ٠٠ بمصـــادر النيـــران المعادية ٠٠ ام بجحور الافاعي ؟ » ٠

التقينا من جديد ، ابو فراس ترك لحيته تنمو بغزارة ، منذ توسعت الحرب ، انتشرت هذه العادة بين المقاتلين ، لا احدى يدري ما هو الدافع الحقيقـــي وراء ذلك ، وابو فراس يقول لي :

ـ قبل ان احلق لحيتي ، سآخذ صورة تذكارية ٠

ثم يواصل الحديث وحشرجة حزن خفيفة تعترض ابتسامته ٠

ـ ربما تكون هذه هي الوثيقة الوحيدة ٠

ثم يسألني :

ـ كيف تركت العرقوب ؟

ـ انه يستعد ليكون الحصان الاول ٠

ينادي صوت على بعد امتار منا ٠

ـ الى اين وصلتما ؟

يقترب منا ، يسلم علينا باندفاع وحرارة ، يقول ابو فراس :

ـ هل تعرفه ٠٠ انه ابو زياد ٠

شاب اسمر البشرة ، هرقلي الجسم ، عيناه صغيرتان وقويتان ٠

ـ قدم الى الجبل ، يريد ان يرى بداية العالم ونهاية العالم من نقطة واحدة ٠

يضحك ابو زياد ٠٠ صوته مشحون برغبات جامحة ، مثل صهيل الخيول ، يقول باندفاع :

ـ صعدت الى اعلى قمة ٠

ـ ماذا رأيت ؟

ـ اليكما هذه القصة ٠٠٠ سألوا رجلا مؤمنا وهو على فراش الموت ٠٠ هل رأيت الله ؟٠٠ قال لهم ٠٠ لا ٠٠ لم اره ٠٠ وسألوا رجلا ملحدا وهو على فراش الموت ٠٠ هل رأيت الله ؟٠٠ فقال لهم ٠٠ نعم رأيته ٠

ـ ماذا تعني ؟

ـ فقط ٠٠ الاجابة عن سؤالك ٠

في تلك الاثناء كان الجبل مثل جزيرة صغيرة في المحيط ، كل شيء هجومي ، وكل شيء مهدد بالغرق ، وكل شيء قريب وبعيد في آن واحد ، يتحدث المقاتلون عن العموميات والتفاصيل بنفس الايقاع ، عن اولادهم ، والقذائف الجاهزة للاطلاق ، والبيوت التي يطالب اصحابها باجرة اكثر لها ، والثلج

الذي يسارع في تميزق قماش خيامهم ، وعن الله الذي يستقر بالقرب من القمم العالية ولكنه ليس مهتما باي شيء ، وعن امكانية احتراق الارض وامكانيـــة التعرض للحصار ٠

في الجبل ، في الضباب ، في دائرة عمل الزلازل القوية ، في فتـــرة التحولات الكبرى ، ليس في وسع احد ان يتأكد من اي شيء ، ولا تتاح الفرصة لاحد ان يمد ساقيه ويطيل الحديث ، كان ابو زياد قد رشقنا بكلماته وسكت هو ، وسكتنا ثلاثتنا ، عيوننا تدور على وجوه بعضنا ، يبحث كل واحد منا في وجـه صاحبه عن شيء يريده ٠٠ لكننا لا نجد شيئا ، يصل احد الصحفيين ويسـأل موجها الحديث الينا ٠

ـ هل يمكن ان انقل احساس المقاتلين ؟

ـ لم افهم ٠

يقول ابو فراس ، فيوضح الصحفي مادا رقبته التي تبدو مصنوعة مـــن المطاط ٠

ـ اريد ان اعرف حقيقة مشاعرهم ، انت مثلا « يوجه الحديث الى ابـو فراس » ما هي حقيقة مشاعرك ؟

عيناه حزينتان وعنيدتان مثل طائر يختبىء في عب شجرة كي لا يمسكـه احد ، وينادي احد المقاتلين :

ـ ابو فراس ٠٠ انهم يعدون لنا وجبه ساخنة ٠

يودعنا ابو فراس وينطلق مسرعا ، يرتبك الصحفي ، ينظر الينا محـاولا ان يعيد الكرة من جديد ، يأخذني ابو زياد من ذراعي ونذهب ، يقول لي ابـــو زياد :

ـ هل تعرف ماذا اكتشفت في القمة ؟

ـ ماذا ؟

ـ اننا نشبه بدويا انطلق في الصحراء يبحث عن جرعة ماء ٠٠ فوجـــد نهرا ٠

ـ ولكن ٠٠٠

يجب الا نغرق في النهر ٠

السيارة تنطلق بنا في طريق طويل كثير الالتواءات ، بين وقت واخـــر

نهدىء السرعة قليلا ، نصغي الى صوت القذائف ٠

ـ هذه منهم ٠

ـ هذه منا ٠

وبعد قليل نوشك ان نصل الى مفترق الطرق ، ابو زياد يقود السيـــارة ، وابو فراس يحمل في يده جهاز اللاسلكي الصغير ، يقترب القصف اكثر ،ووراءنا على بعد امتار ، ثلاث سيارات محملة بقوة من المقاتلين ، ينادي على الجهاز :

ـ من آدم فراس ٠

توقف لحين صدور تعليمات ٠

ويشرح لنا ٠٠ « سنسبقهم حتى نعرف اي طريق نسلك » ٠ نصل الـــى مفترق الطرق ، طريق الى الشمال وطريق الى اليمين، نوقف السيارة عنـــد المفترق ، نغادر السيارة نحن الثلاثة ، نتوقف ونراقب الانفجارات ، وميضـــ وانفجار وظلام في لحظة واحدة كأنما انخسفت الارض ، ينقشع الدخان والغبار ويصرخ ابو زياد :

ـ هل حدث لكما شيء ؟

الدم يتدفق من ساقه وذراعه لكنه ما زال واقفا ، وابو فراس منكفىء على الارض بدون حراك ، وسيارتنا تحولت الى حطام ، ينادي علينا بعض المسلحيـــن من مكان قريب ، نحمله ، كان جسده ما زال ساخنا ، يسعفون ابو زياد ٠٠ وانا اتحسس جسمه باصابعي ، اتيقن الان انه مات ، تأتي سيارة اسعاف ، احـــاول ان اتماسك في الوسط ، على جانبي جريح ينزف ، وعلى الجانب الاخر جثـــة فقدت حرارتها ، خارج منطقة القصف ، يطلق السائق بوق سيارة الاسعاف ، لا يستجيب احد من ركاب السيارات ، في البدايات لا يحب الناس ان يشاهدوا الموت حتى لا تضعف عزيمتهم ، وفي النهايات لا يحب الناس ان يشاهدوا الموت الذي هربوا منه ، هل نحن في البدايات ام النهايات ، يصل ابو زياد الى حافة الاغماء ، يحرك شفتيه بصعوبة ، يتمتم ٠

ـ لا تموتوا كلكم ٠

وعندما اخرج من مركز الاسعاف ، لا يتعرف احد الى وجهي ، ربما غيرت الصدمة ملامحي ، ولكن احدهم ينبهني الىان ملابسي كانت ترشح بالدم ٠

خليل بركات

اتفاق شتورة وتحديات الوضع في الجنوب

ما ان توقف القتال في بيروت وبقية المناطق اللبنانية ، حتى انفجر في الجنوب تحت شعار « تحرير ما تبقى من الاراضي اللبنانية التي يحتلها الفلسطينيون الغرباء » انطلاقا من الجنوب · وكان واضحا منذ البداية ، ان القوى الانعزالية اللبنانية التي اخذت على عاتقها تنفيذ المؤامرة محليا ، لم تكن لتستطيع السير في هذا المخطط ، وفتح معركة عسكرية في الجنوب لولا الدعم والمساندة ، بل والحماية التي تتلقاها من العدو الصهيوني· ذلك ان القرى التي يتواجد فيها الانعزاليون على الحدود ، لا يزيد عددها على ست موزعة على طول الشريط الحدودي وبعيدة عن بعضها البعض · ففي الجنوب الغربي تقع « علما الشعب » وعلى بعد حوالي ٢٥ كيلومترا منها تقع « دبل » و « عين ابل » و « رميش » مشكلة مثلثامتكاملا · وعلى بعد حوالي اربعين كيلومترا من هذا المثلث تقع « القليعة » و « برج الملوك » · وهذا التباعد الجغرافي فيما بينها مع عدم وجود خط امدادات داخلي يجعلها من الناحية العسكرية ساقطة ، خاصة وانها واقعة في بحر مناوىء للانعزاليين · ولذلك فتح العدو الصهيوني طرق فلسطين المحتلة لتشكل خط امداد واتصال للانعزاليين في هذه القرى ، الى جانب توفير الدعم والمساندة لحمايتهم عند الضرورة ومدهم بالمساعدات في الحقول التموينية والصحية التي لا غنى عنها في حال الحرب كما هو في حال السلم ان لم يكن اكثر ·

وعلاقة الانعزاليين بالعدو الصهيوني ليست مسألة استنتاج ، ولا هي مستندة الى الاخبار والتعليقات التي تتناقلها الصحف العالمية ، كما انها ليست مستقاة فقط من المشاهد التلفزيونية التي يعرضها تلفزيون العدو من حين لاخر والتي تظهر كيفية حصول التكامل والتعاون الجاري بينه وبين الانعزاليين ، وانما اقترنت هذه العلاقة اخيرا بأدلة رسمية دامغة مصدرها العدو الصهيوني نفسه · ففي ٨-٨-١٩٧٧ اعلن رئيس وزراء العدو مناحيم بيغن امام حشد من اليهود الاميركيين ان « اسرائيل » ساعدت وما زالت تساعد

« المسيحيين » في جنوب لبنان بالسلاح والعتاد والمساعدات الاخرى ، وانها سوف تمضي في هذه السياسة « لدوافع انسانية » خوفا عليهم من الابادة · واضاف ، ان المدفعية الاسرائيلية تقصف الفلسطينيين وحلفاءهم اليساريين ردا على قصف هؤلاء للقرى « المسيحية » · واعلن ان « اسرائيل » سوف تمد الانابيب لايصال مياه الشرب الى القرى المسيحية على الحدود ·

لقد اذيع هذا التصريح من اذاعة العدو الصهيوني نفسه وتناقلته الاذاعات العالمية ووكالات الانباء ، فجاء مغايرا للسياسة التي كان الصهاينة يتبعونها في السابق والتي تقضي بمنع مراسلي الصحف من نقل مثل هذه الانباء عن المساعدات ، كما جاء هذا التصريح بشكل صفعة قوية لزعماء الانعزاليين في « الجبهة اللبنانية » الذين كانوا ينفون كل ما يقال عن تعاونهم مع العدو الصهيوني والذين كانوا يصفون الافلام التلفزيونية التي تظهر تعاونهم مع العدو بانها « صور مركبة ومدسوسة ولا اساس لها من الصحة » . ويكشف خططهم السياسية التكتيكية عندما يتهجمون على « اسرائيل » في محاولة منهم لتغطية تعاونهم معها ·

و « المسيحيون » الذين يقصدهم بيغن هم المسلحون الانعزاليون التابعون « للجبهة اللبنانية » · وقد اختار هذه التسمية في محاولة منه لاخفاء الدور الحقيقي « لاسرائيل » تحت ما يسمى « بدوافع انسانية » ·

واذا كان الانعزاليون غير قادرين وحدهم على دفع الوضع في الجنوب نحو الانفجار ، فان « اسرائيل » هي الاخرى غير قادرة وحدها على القيام بهذا الدور ، ذلك ان فتحها للمعركة في الجنوب يعني اعتداء مباشرا على لبنان ، العضو في الامم المتحدة ، الامر الذي يؤدي الى احراجها دوليا ، ويؤدي الى تحوير الصراع في لبنان ليصبح صراعا مع العدو الاسرائيلي ينتج عنه احراج للانظمة العربية التي سوف تضطر الى اتخاذ موقف ما تجاه هذا العدوان ، ويقوي في الوقت نفسه من موقف المقاومة الفلسطينية · وهذا لن يكون في صالح « اسرائيل » التي تريد ان تستمر المؤامرة على الشكل الذي بدأت فيه منذ ١٣ نيسان ١٩٧٥ والتي اختارت طريق تفجير الاوضاع في لبنان عن طريق الاقتتال الداخلي واشغال العرب به ، كأفضل وسيلة لضرب الثورة الفلسطينية وتصفية ظاهرة الكفاح الشعبي المسلح التي برزت في مطلع سنة ١٩٦٥ والتي تدرك اسرائيل خطورة استمرارها وتصاعدها ·

من اجل ذلك كله اختارت « اسرائيل » طريق التدخل من الخلف واضعة امامها القوى الانعزالية ، لتظ في صورة الصراع مكتفية هي بدور الداعم والمساند ، وتوفير كافة مستلزمات القتال لها وحمايتها عندما تشعر انها اصبحت في وضع خطر ·

الوضع العسكري في الجنوب من منتصف نيسان الماضي وحتى منتصف اب ١٩٧٧ :

استمر التوتر العسكري في الجنوب ، بعد استرداد القوات المشتركة للثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية لبلدة « الطيبة » بتاريخ ٦ نيسان ١٩٧٧ ، وبلدة « الخيام » بتاريخ ٩ نيسان ١٩٧٧ · وعلى الرغم من ان هذه القوات قد اوقفت تقدمها عند مداخل بلدة « مرجعيون » نظرا لان الاوضاع السياسية لم تعد تسمح بمثل هذا التقدم ، وعلى الرغم من ان السياسة التي اتبعها الجانب الوطني ، منذ ذلك الحين ، كانت تقضي بالتزام حالة الدفاع عن النفس ، الا ان الجانب الانعزالي بدعم من « اسرائيل » استمر في توتير

الاجواء وزاد من عمليات القصف المدفعي ، خاصة في محور مرجعيون ·

ففي محور بنت جبيل ، لم تشهد المنطقة عمليات عسكرية هجومية من اي من الطرفين · وانحصر النشاط العسكري في هذا المحور بالقصف المدفعي من جانب « اسرائيل ، والانعزاليين ، باتجاه بلدة « بنت جبيل » ، والقرى المجاورة لها مع رد خفيف من الجانب الوطني عند الضرورة القصوى ·

الا انه بتاريخ ٢ تموز ١٩٧٧ قامت القوى الانعزالية بارتكاب مجزرة في قرية « يارين » الحدودية ذهب ضحيتها خمسة عشر مواطنا من ابناء البلدة بالاضافة الى خمسة جرحى معظمهم من النساء والشيوخ · وتفاصيل هذه المجزرة ان القوى الانعزالية قدمت الى البلدة من مثلث « دبل » ـ « رميش » ـ « عين ابل » ، على متن ناقلات جنود اعطتها اياها « اسرائيل » ·وعند وصولها الى البلدة اقدمت على قتل من صادفته في طريقها من دون اشتباك · علما بأن اهالي القرية كانوا قد اتفقوا مع الانعزاليين على تحييدها بحيث تمر دورياتهم من المثلث المذكور الى قرية « علما الشعب » الواقعة في الطرف الغربي من الشريط الحدودي ، دون ان يعترضها احد ، مقابلعدم تعرض الانعزاليين لبلدة · ولذلك عندما رأى الناس في البلدة ان الدورية الانعزالية قادمة ظنوا انها في طريقها الى « علما الشعب » ولكنهم فوجئوا عندما توقف افرادها في البلدة واقدموا على ارتكاب المجزرة ونسفوا عدة منازل ، بينما هرب شباب البلدة الى خارجها عبر الوديان ، ومن ثم نزح من تبقى من ابنائها بعد المجزرة الى القرى الخلفية ·

لم تكن الطريقة الغادرة التي اتبعها الانعزاليون مع قرية « يارين » امرا مستغربا ، وانما الامر المستغرب هو عدم اخذ الاحتياطات اللازمة · فاذا كان وضع « يارين » الجغرافي لا يسمح لها بمواجهة الانعزاليين وفتح جبهة قتال ضدهم ، فان المسلحين من ابنائها ، المتواجدين في داخلها كاف لاخذ هذه الاحتياطات وتجنيب البلدة مثل هذه المجزرة التي ذهب ضحيتها مثل هذا العدد دون قتال · علما بان الاجواء التي سبقت ارتكاب هذه المجزرة كانت تنبىء بأن امرا ما يعد لبلدة « يارين » من جانب العدو الصهيوني او من جانب الانعزاليين ، او من الاثنين معا · اذ قبل المجزرة بحوالي خمسة عشر يوما دخلت دورية صهيونية البلدة ليلا ونسفت بعض المنازل فيها واشتبكت مع عدد من ابناء البلدة كانوا يقومون بالحراسات · وعلى اثر ارتكاب المجزرة ، عادت الدورية الانعزالية الى قرى مثلث « دبل » و « عين ابل » و « رميش » بعد ان قصفتها مدفعية الثورة الفلسطينية وجيش لبنان العربي بشدة ، والحقيقة ان انسحاب الانعزاليين من يارين لم يكن نتيجة لهذا القصف · وانما نظرا لان مهمة الانعزاليين انتهت عند قيامهم بالعدوان على البلدة اذ يستحيل عليهم البقاء فيها لسببين :

الاول : عدم قدرة الانعزاليين على توزيع قواتهم ، لان القوات التي بحوزتهم في هذا المحور قليلة من ناحية العدد ·

والثاني : ان خط المواصلات بين قرى «المثلث» و « يارين » يبلغ طوله حوالي عشرين كيلومترا ، ولا تستطيع القوى الانعزالية تأمين الحماية له ، الامر الذي يعرض دورياتهم للخطر عند مرورها على هذا الخط ، فيما لو اتبعت القوات المشتركة اسلوب نصب الكمائن المتنقلة على طول الطريق ·

بعد مجزرة « يارين » بدأت المخاوف من ان يكون هذا العمل مقدمة لتصعيد الموقف

العسكري من جانب الانعزاليين في هذا المحور ومحاولة السيطرة على قرية « يارون » الحدودية المحاذية لقرية « رميش » التي يسيطر عليها الانعزاليون ، والتقدم منها نحو قرية « مارون الراس » الحدودية بحيث تصبح بلدة « بنت جبيل » في وضع خطر لانها تصبح عندئذ مطوقة من الجنوب ومن الغرب ، وواقعة تحت مرمى نيران القنص من الجنوب · الا ان ذلك لم يحصل بسبب ضعف القدرة العسكرية لدى الجانب الانعزالي وظهور خلافات داخل صفوفهم واصرار الاهالي في هاتين القريتين على تحييدهما حتى ولو ادى الامر الى الاصطدام بالقوى الانعزالية في حال اقدامها على احتلالهما ، الى جانب ان القوات المشتركة للثورة الفلسطينية والحركة الوطنية بالاضافة الى جيش لبنان العربي يتمتعون بقوة عسكرية لا يستهان بها لمواجهة الانعزاليين ·

اما في محور « الطيبة ـ مرجعيون » ، فقد كان التوتر العسكري شديدا ، الا انه انحصر في القصف المدفعي من جانب التحالف الانعزالي ـ الصهيوني باتجاه « الطيبة » ، رب « ثلاثين » ، « دير سريان » ، « القنطرة » ، من جهة الغرب ، وباتجاه « الخيام » و « ابل السقي » وغيرهما من القرى من الجهة الشمالية الشرقية ، دون ان يرافق ذلك محاولة تقدم من الجانب الانعزالي ، بينما كانت مواقف الجانب الوطني ملتزمة بسياسة التهدئة والدفاع عن النفس عند الضرورة القصوى ·

ومن جهة اخرى استمر القصف المدفعي الإسرائيلي ـ الانعزالي على بلدة « النبطية » وبعض القرى المجاورة لها طيلة هذه الفترة · وما زالت الحياة الاقتصادية مشلولة شللا تاما في « النبطية » التي هاجر تسعون في المائة من ابنائها الى القرى المجاورة تجنبا للقصف ·

الا انه في الاسبوع الثاني من شهر آب ١٩٧٧ ، اي قبل موعد تنفيذ اتفاق شتورة رسميا في الجنوب زاد التحالف الانعزالي ـ الصهيوني من قصفه المدفعي ، بشكل كثيف وبصورة خاصة على محور « الطيبة » ـ « رب الثلاثين » ومحور « الخيام » ـ « ابل السقي » ـ « بلاط » بالاضافة الى بلدة « النبطية » وبعض القرى المجاورة لها · وفي القطاع الغربي ، حاول الانعزاليون التقدم نحو قرية « يارين » من جهة « علما الشعب » ، الا ان محاولتهم تلك باءت بالفشل بعد ان تصدت لهم القوات المشتركة من الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية وجيش لبنان العربي وكبدتهم عددا من الخسائر في الارواح كان من بينها مقتل الضابط فرح قائد القوات الانعزالية في « علما الشعب » ·

اما في منطقة العرقوب ، وهي تمثل القطاع الشرقي بموجب اتفاقية القاهرة حيث يحق للفدائيين بموجب هذه الاتفاقية التمركز فيها واقامة القواعد ، فان الوضع هناك يثير الريبة · فالعدو الصهيوني يمارس عمليا سيطرته على العديد من قرى هذه المنطقة في ظل اجواء من الصمت الرسمي ودون الاعلان عن ذلك من قبله · اذ انه اقدم منذ عدة اشهر على تعبيد طريق بعرض ثمانية امتار تصل الى داخل بلدة « كفرشوبا » كما ان قواته تتمركز في التلال المطلة على البلدة وتقوم بنصب الكمائن بالقرب من الطريق المؤدية اليها ، ويقوم الضباط الصهاينة باستدعاء وفود من قرى « كفرشوبا » و « الهبارية » ، و « كفر حمام » و « شبعا » ، ويتحدثون معهم بأسلوب الترغيب والترهيب ، مبدين استعداد « اسرائيل » لمدهم بكل ما يحتاجون اليه شرط التعاون معها ضد « المخربين » الفلسطينيين ، او تعريض قراهم للقصف المدفعي في حال عدم تجاوبهم مع دعواتها · وبالفعل اقدمت « اسرائيل » على قصف قرية « كفر حمام » ، ردا على عدم ذهاب وفد

من القرية للاجتماع بالصهاينة ، ونجم عنهذاالقصف احراق المحاصيل الزراعية · كما اشتد القصف على قرية « راشيا الفخار » في الفترة الاخيرة ·

وفي شهر حزيران ١٩٧٧ حضر الى قرية « كفرشوبا » الرائد سعد حداد قائد القوات الانعزالية في منطقة مرجعيون ، عن طريق الارض المحتلة في فلسطين ، ومعه ٢٥ جنديا قدموا بواسطة سيارات جيب ترافقهم ناقلة جنود ، ودعا اهالي البلدة الى الحضور حيث اجتمع بهم ، ودعاهم الى التعاون معه ضد « الفلسطينيين الغرباء » معلنا استعداده لتقديم كل ما يلزمهم من حاجات تموينية · وغادر البلدة كما دخلها بحماية القوات الصهيونية المطلة على « كفرشوبا » ·

هل ينجح اتفاق شتورة في الجنوب ؟

ما ان اعلن اتفاق شتورة بتاريخ ٢١ تموز ١٩٧٧ بين السلطة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية وسورية ، والذي تضمن انهاء القتال الدائر في الجنوب عن طريق سحب مقاتلي الثورة الفلسطينية من قرى الحدود وتطبيق ما نصت عليه اتفاقية القاهرة بهذا الشأن ، مقابل سحب « القوات الانعزالية » من المنطقة ، وارسال قوات من الجيش اللبناني اليها ، ما ان اعلن هذا الاتفاق حتى سارع الانعزاليون ، من خلال التصريحات التي اطلقها عدد من زعمائهم ، الى اعلان التحفظ على الاتفاق ، والنظر اليه بسلبية · فقد علق بشير الجميل قائد « القوات الانعزالية » على اجتماع شتورة بقوله : « انه لا يرى فائدة من هذه اللقاءات ، لانها مسرحية ذات فصول ، ولن تؤدي الى النتائج المطلوبة ، وانه لا جدوى من مثل هذه الطريقة في حسم الازمة » · (النهار ٢٢ـ٧ـ٧٧) ·

اما سليمان فرنجية ، رئيس الجمهورية السابق فقال : « اعتقد ان تأليف اللجان اللبنانية ـ الفلسطينية لا يجدي نفعا ، كذلك كل ما يقال عن صيغ اعدت او طرحت للبحث، لان التجربة الطويلة علمتنا ان لا نثق كثيرا بمثل هذه اللجان » · (النهار ٢١ـ٧ـ٧٧) ·

ورد شربل قسيس رئيس مؤتمر الرهبانيات على سؤال عن رأيه في قول الاخ ابو اياد انه يريد مد يده الى جميع الاطراف في لبنان فقال : « بعد بكير » !! (النهار ٢١ـ٧ـ٧٧)·

وقال شاكر ابو سليمان رئيس الرابطة المارونية : « نقابل بشيء من الحذر التعهد الفلسطيني الجديد بتنفيذ اتفاق القاهرة بعدما سمعنا مرارا مثل هذه التصريحات » · (النهار ٢١ـ٧ـ٧٧) · ·

أما كميل شمعون فقد سئل عن رأيه بعد تنفيذ المرحلة الاولى من الاتفاق فيما اذا كان هذا التنفيذ من شأنه ان يؤدي الى مباشرة التحضير للوفاق السياسي ، فأجاب : « ما جرى حتى الان نعتبره احدى مراحل التنفيذ ، وعندما تكتمل مختلف المراحل نحن حاضرون للوفاق السياسي المطلوب ولغيره ، ولكن يجب الا يغيب عن بالنا موضوع اعادة اهالي الدامور · فما دامت الدامور محتلة ، وما دام الجنوب يحتله ١٥ الف مسلح فلسطيني وعدد كبير من ابناء الجنوب مهجرون من منازلهم ، فاننا نعتبر ان الوضع ما زال على حاله ولن ينتهي الا بازالة هذه الاوضاع الشاذة » · (النهار ٧ـ٨ـ٧٧) ·

من خلال هذه التصريحات التي ادلى بها زعماء الجبهة الانعزالية يتبين ما يلي :

اولا ـ ان الاتفاق المذكور لا يتوافق تماما مع رغبتهم في ضرب الوجود الفلسطيني المسلح على الارض اللبنانية ، وانهم بالتالي يتحفظون عليه ·

ثانيا ـ التركيز على قضية الدامور واعتبارها شرطا للوفاق السياسي بعدما كان الشرط هو تطبيق الفلسطينيين للاتفاقات المعقودة معهم · وهذا يعني التهرب من موضوع الوفاق السياسي الذي هو شرط لا بد منه لتحقيق الامن والاستقرار في لبنان ، علما بأن حل قضية الدامور وغيرها من قضايا المهجرين الذين يتجاهلهم شمعون ، مرتبطة بتحقيق الوفاق السياسي ·

ثالثا ـ ان كميل شمعون يلقي مسؤولية تهجير « عدد كبير من ابناء الجنوب » على عاتق « الفلسطينيين الذين يحتلون الجنوب » ، متجاهلا أن هذه المسؤولية تقع على عاتق الانعزاليين الذين نقلوا القتال الى الجنوب بالتعاون مع العدو الصهيوني وهو ما صرح به بيغن رئيس وزراء « اسرائيل » ، عندما اعترف مؤخرا بان « اسرائيل » ساعدت الانعزاليين بالسلاح والامور الاخرى وساندتهم بالقصف المدفعي ، وانها سوف تستمر بالقيام بهذا الدور « الانساني » ·

من خلال ذلك كله يتبين ، ان هناك احتمالا كبيرا في الا يطبق الانعزاليون اتفاق شتورة في الجنوب · لان تطبيق هذا الاتفاق يعني سحب قواتهم من المنطقة وبالتالي سحب ورقة الجنوب من ايديهم · في حين ان مخططهم يتطلب الحفاظ على هذه الورقة كوسيلة للابتزاز السياسي ، يضغطون بها محليا وعربيا من اجل مد نفوذهم على كل الاراضي اللبنانية كشرط لقبولهم بوحدة لبنان بدلا من التقسيم ، ويدفع بالقوى المحلية والعربية الى استرضائهم دوما وتقديم التنازلات لهم ·

ومن جهة اخرى ، فان « اسرائيل » بدورها لا ترضى ان ينجح اتفاق شتورة في الجنوب، لانها عندئذ تفقد الستار الذي من خلفه تتحرك ، وهي تريد ان يبقى الوضع على حاله في الجنوب ليكون كبسولة تفجير الوضع مجددا في لبنان ، واشغال العرب بالازمة اللبنانية ·

من هنا يتبين ان مصلحة اسرائيل ومصلحة الانعزاليين تتفقان في عدم استقرار الوضع في الجنوب ، بينما مصلحة الثورة الفلسطينية انهاء القتال في المنطقة لانه يشكل عامل استنزاف لها · كما ان من مصلحة ابناء الجنوب وقف هذا القتال تمهيدا لعودتهم الى قراهم واستئناف الحياة الاقتصادية ·

ولذلك فانه بدلا من ان تخف حدة القصف المدفعي بعد اعلان اتفاق شتورة ، زاد التحالف الانعزالي ـ الصهيوني من قصفه على قرى الجنوب في الوقت الذي اعلنت فيه الثورة الفلسطينية ومعها الحركة الوطنية وجيش لبنان العربي وقف اطلاق النار من جانب واحد وعدم الرد على استفزازات الانعزاليين الامر الذي يساعد على كشف الجانب الانعزالي اكثر فاكثر وتحميله مسؤولية استمرار القتال في الجنوب امام القوى المحلية والعربية ويساهم في تخفيف الضغط السياسي على الثورة الفلسطينية وتحويله نحو القوى الانعزالية التي ترفض تنفيذ الاتفاق ·

ومن الملفت للنظر ان اذاعة الكتائب ، وصحف الانعزاليين ، باتت تتحدث عن الاشتباكات في الجنوب ، بعد اتفاق شتورة ، على انها اشتباكات تجري بين «اهالي » « القليعة » و « عين ابل » و «دبل » و « رميش » وبين « الفلسطينيين واليساريين » بعدما كانت تذكر في الماضي اسم « القوات اللبنانية » · وهذا يحمل في طياته بذور التملص من الاتفاق ، وعدم

تنفيذه · ويبدو ان الجبهة الانعزالية سوف تدعي مستقبلا بانها سحبت قواتها من المنطقة ، وان الاهالي هم وحدهم موجودون هناك ، ولهم حق الدفاع عن انفسهم ، وانه « لا يعقل ان يطلب من الاهالي ترك قراهم » · ان الاسابيع القليلة القادمة سوف تجيب اجابة عملية على السؤال ، عندما يوضع اتفاق شتورة على المحك في الجنوب ·

صدر عن مركز الابحاث
منظمة التحرير الفلسطينية

تاريخ الصهيونية

الجزء الأول

تأليف
صبري جريس

٣٨٠ صفحة ـ الثمن ١٢ ل.ل.

ماهـــر الشـــريف

قضيّـــة فلسطـــين ومناقشـات المؤتـمر الثـاني للاممـيّة الشـيوعيّة

قدم لينين والبلاشفة بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية مساعدة كبـرى للحركة التحررية لشعوب البلدان العربية ، وذلك بفضحهم للمخططات الامبريالية الرامية الى تقسيم العالم العربي واستعباد شعوبه ، وبنشرهم لوثائق المعاهدات السريـــة التـــي ابرمها امبرياليو دول الوفاق فيما بينهم حول اقتسام مناطق النفوذ في الولايات العربيـــة الخاضعة للحكم العثماني انذاك ·

وفي هذا الاطار ، فضحت الدولة السوفياتية الفتية ، ومنذ الاشهر الاولى لولادتهـا ، دسائس الصهاينة وحماتهم الامبرياليين في فلسطين · ففي ٢٨ كانون الاول ١٩١٩ نشرت المفوضية المؤقتة لشؤون اليهود القومية لدى مفوضية الشعب لشؤون القوميات في جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية نداء خاصا اشار باستنكار الى « ان الصهاينـــة يحاولون ازاحة العرب من فلسطين ويستعدون لانشاء دولة يهودية لهم هنـــاك ··· ان جماهير الشغيلة اليهود ترى في جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية وطنها الاشتراكـي الذي تدافع عنه في الجبهات مع عمال روسيا وفلاحيها ضد امبرياليه دول الوفاق وجميـع عملائها ··· اننا لسنا بحاجة الى اية بلدان اخرى · ولا نبدي اية حقوق قومية لامتـلاك فلسطين · ونحن نعترف بهذه الحقوق كاملة لجماهير العرب والبدو الكادحة » · (١)

لقد لعب المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية الذي انعقد في تموز ـ آب ١٩٢٠ دورا هاما في عملية فضح دسائس الامبريالية والصهيونية في فلسطين · وصدر عـن هـذا المؤتمـر ضمن « اطروحات حول المسائل القومية والكولونيالية » (٢) اول نص رسمي للاممية الشيوعية يتعلق بقضية فلسطين ، ارتبط باسم لينين وتضمن ادانة واضحة وصريحـــة للمشروع الامبريالي الصهيوني ·

لقد اكدت الاطروحة الحادية عشرة من الاطروحات التي اقرها المؤتمر حول المسائـل القومية والكولونيالية ، والتي حددت استراتيجية وتكتيك الحركة الشيوعية العالمية « حيال الدول والبلدان المتخلفة ، حيث تسود مؤسسات اقطاعية او عشائرية ـ دينية » ، بأن علـى

قيادة الاممية الشيوعية ان تضع بعين اعتبارها ، خلال النضال الايديولوجي الذي تخوضه في هذه البلدان ، عدة مبادىء رئيسية ومنها : « ضرورة الفضح الدائب امام الجماهير العاملة في جميع البلدان ، وخاصة في البلدان المتخلفة ، لعملية الخداع المنظم الذي تمارسه الدول الامبريالية بمساعدة الطبقات السائدة في البلدان المضطهدة ، والتي تتظاهر بالدعوة لاقامة دول مستقلة سياسيا ، بينما تقيم في الواقع دولا تابعة لها كليا من جميع النواحي الاقتصادية والمالية والعسكرية · وكمثال صارخ على الخداع الذي يمارس على طبقة الكادحين في البلدان المضطهدة ، وذلك بالجهود المشتركة لامبريالية دول الوفاق وبرجوازية هذا البلد او ذاك ، نستطيع أن نشير الى مشروع الصهاينة في فلسطين · ان الصهيونية ، وبحجة اقامة دولة يهودية في هذا البلد ، الذي يشكل اليهود فيه اقلية ضئيلة ، قد قدمت السكان الاصليين من الكادحين العرب ، قربانا للاستغلال الانكليزي » · (٣)

سنحاول خلال هذا البحث التعرض لخلفيات هذا النص ـ الموقف ، وذلك من خلال مراجعة المناقشات التي دارت داخل جلسات المؤتمر ، والتي تعرضت لقضايا الصهيونية وفلسطين ·

لم يتعرض المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية بشكل مباشر لقضايا الصهيونية وفلسطين (٤) ، وانما تم ذلك كنتيجة للصراعات الايديولوجية الحامية التي احتدمت بين ممثلي المجموعات السياسية اليهودية المختلفة التي ساهمت في هذا المؤتمر ، وذلك اثناء النقاشات الموسعة التي دارت حول المسائل القومية والكولونيالية ·

قبل التعرض لمداخلات ممثلي المجموعات السياسية اليهودية التي ساهمت في هذا المؤتمر، نرى من الضروري التعريف بهذه المجموعات واستعراض تاريخ نشأتها ، وظروف اشتراكها في المؤتمر · ولكن قبل ان نفعل ذلك ، سنحاول اعطاء لمحة عامة عن النقاشات التي دارت داخل المؤتمر الثاني للاممية حول المسائل القومية والكولونيالية ·

١ ـ المسائل القومية والكولونيالية على جدول اعمال المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية :

لعب المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية دورا بارزا في عملية تطوير نظرية واستراتيجية وتكتيك الحركة الشيوعية العالمية حيال المسائل القومية والكولونيالية ، في ظروف الامبريالية وبدء مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية · وقد نظر المؤتمر الى المسألة القومية والكولونيالية كمسألة ذات طابع عالمي ، تتعلق بدور ومكانة النضال التحرري القومي الذي تخوضه الشعوب المستعمرة والتابعة في العملية الثورية العالمية ·

عندما دعي المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية للانعقاد في صيف العام ١٩٢٠ ، كان يسود العالم بفعل قانون التطور المتفاوت لعملية الثورة العالمية ، وضع متناقض الى ابعد حد ، فمن جهة استطاع النظام السوفياتي الصمود في وجه التدخل الامبريالي والرجعي ووطد مواقعه ، وتصاعدت موجة النضال التحرري للشعوب المستعمرة والتابعة ، ومن جهة اخرى تباطأ وقع تطور الثورة في غرب اوروبا خاصة بعد سلسلة الهزائم التي منيت بها الطبقة العاملة ، والتي كان من ابرزها تهاوي الجمهورية السوفياتية في المجر في آب ١٩١٩ امام ضربات القوى الرجعية الداخلية المدعومة من قبل الامبريالية الانكليزية ·

في ظروف هذا الوضع العالمي المتناقض والتراجع المؤقت الذي فرض على الحركة الثورية في أوروبا ، اولى المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية اهتماما خاصا لبحث قضية

حلفاء الطبقة العاملة في النضال ضد الامبريالية ، ودرس بتعمق في هذا المجال المسالة الزراعية والمسألة القومية والكولونيالية · وقد صاغ لينين شخصيا مسودة الاطروحات الاولية حول هاتين المسالتين ، وساهم بنشاط في اعمال اللجان المكلفة بتحضير مشروع القرار الخاص بكل منهما (٥) ·

ان مبدأ التحالف بين الطبقة العاملة والفلاحين هو مبدأ اساسي من مبادىء اللينينية · ولقد كان ماركس وانجلز قد أكدا على أهمية وضرورة هذا التحالف ، خاصة بعد أن استخلصا نتائج الهزيمة التي منيت بها بروليتاريا اوروبا الغربية في المعارك الثورية التي جرت في العام ١٨٤٨ ، ودروس هزيمة كومونة باريس في العام ١٨٧١ · وقد كانت الافكار الاساسية التي صاغها ماركس وانجلز حول المسألة الفلاحية ، والتي اغفلها طويلا انتهازيو الاممية الثانية ، هي القاعدة التي اعتمد عليها لينين فيما بعد لصياغة البرنامج الزراعي للحزب البلشفي وللاممية الشيوعية ·

لقد احتلت المسألة القومية والكولونيالية اهمية خاصة في اعمال المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية ، لانها المسألة التي تجسد أساسا مبدأ التحالف بين الطبقة العاملة والفلاحين على الصعيد العالمي ، خاصة وأن الفلاحين يشكلون الغالبية العظمى من سكان المستعمرات والبلدان التابعة ·

لقد كان لينين يرى بأنه لا يمكن القضاء على النظام البرجوازي في البلد الواحد اذا لم يتدعم التحالف الكفاحي بين الطبقة العاملة والفلاحين في هذا البلد · وكذلك الامر على الصعيد العالمي ، فانه لن يكون من الممكن هزيمة الامبريالية العالمية بدون تدعيم التحالف الكفاحي بين البروليتاريا الثورية في البلدان الرأسمالية المتقدمة وحركة التحرر القومي لشعوب المستعمرات والبلدان النامية ، خاصة وان هذه الحركة الاخيرة قد باتت تشكل ، بعد انتصار ثورة اكتوبر وبدء الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، جزءا لا يتجزأ من الثورة الاشتراكية ، العالمية ·

افتتح المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية في ١٩ تموز ١٩٢٠ بمدينة بتروغراد ، ثم انتقل الى مدينة موسكو لمتابعة اعماله خلال الفترة الواقعة بين ٢٣ تموز الى ٧ آب · وقد ساهم في أعمال هذا المؤتمر (٢١٧)مندوبا ، يمثلون (٦٧) منظمة في (٣٧) بلدا (٦) · وبالاختلاف عن المؤتمر التأسيسي الاول الذي انعقد في العام ١٩١٩ ، ساهم في أعمال هذا المؤتمر عدد كبير نسبيا من ممثلي الاحزاب الشيوعية والعمالية في البلدان المستعمرة والتابعة ، من بينهم مندوبون عن الهند والصين وكوريا وايران وتركيا ··· وقد قيم لينين تقييما كبيرا أهمية اشتراك هذا العدد الكبير من ممثلي الحركات الثورية في المستعمرات والبلدان التابعة · ففي التقرير الذي قدمه في الجلسة الاولى للمؤتمر عن « الوضع العالمي ومهام الاممية الشيوعية الرئيسية » (٧) ، أكد لينين على أن « وحدة البروليتاريا الثورية في البلدان الرأسمالية المتقدمة مع الجماهير المستغلة في المستعمرات ··· قد أصبحت حقيقة واقعة في هذا المؤتمر (الذي) يستحق بحق لقب مؤتمر عالمي ··· » (٨) ·

قرر المؤتمر في الجلسة التي عقدها في ٢٤ تموز تشكيل لجنة خاصة برئاسة لينين لبحث المسألة القومية والكولونيالية وتقديم قرار خاص بها · وقد عين « مارينغ » (MARING) ، مندوب الحزب الشيوعي في الهند الهولندية سكرتيرا لهذه اللجنة · وقد اعتمدت اللجنة كقاعدة لعملها « المسودة الاولية للاطروحات حول المسائل القومية والكولونيالية » التي كان لينين قد وضعها استعدادا للمؤتمر ، بالاضافة الى « الاطروحات التكميلية » التي

وضعها المندوب الهندي « روي » (ROY) بطلب من لينين (٩) ، والتي ركزت أساسا على الاوضاع في الهند وعلى ظروف النضال الذي تخوضه الشعوب المضطهدة من قبل الامبريالية الانكليزية في آسيا ٠

اجتمعت اللجنة يوم ٢٥ تموز لمناقشة مسودتي الاطروحات المقدمة من لينين و « روي » ، كما استمعت الى عدة تقارير عن نشاط الحركات الثورية في الهند الهولندية (اندونيسيا) والصين وايران وكوريا وغيرها ٠ بالاضافة الى تقرير خاص عن أوضاع الحركة السوداء في أمريكا ، قدمه المندوب الاميركي « ريد » (REED) (١٠) ٠ وبعد مناقشات طويلة استمرت طوال اليوم ، وافقت اللجنة على المسودة الاولية للاطروحات التي قدمها لينين وذلك بعد ادخال عدد من التعديلات عليها ، كما أقرت مسودة الاطروحات التكميلية المقدمة من « روي » ، بعد ان قام لينين بتصحيح بعض الافكار التي تضمنتها ٠

لقد كانت الاطروحات المقدمة من لينين تنطلق من واقع أن التناقض القائم بين الرأسمالية والاشتراكية هو التناقض الاساسي في المرحلة الجديدة التي افتتحها انتصار ثورة اكتوبر ٠ ان مجمل التطور العالمي ـ قال لينين ـ مشروط الان بنضال الدول الامبريالية ضد روسيا السوفيتية ، «فاذا لم نتخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة فاننا سنكون عاجزين عن معالجة صحيحة ، حتى لو اقتصرت هذه المعالجة على مسألة قومية وكولونيالية واحدة، ولو كانت هذه المسألة تتعلق بأكثر زوايا العالم انعزالا ٠٠ فقط بالانطلاق من هذه الحقيقة تستطيع الاحزاب الشيوعية سواء في البلدان المتقدمة أو المتخلفة أن تطرح وأن تعالج بشكل صحيح القضايا السياسية » ٠ لقد اكد لينين على ان مجمل احداث السياسة العالمية تتجه الان نحو نفس النقطة المركزية ، والتي تتمثل « بالصراع الذي تخوضه البرجوازية العالمية ضد الجمهورية السوفياتية في روسيا التي تلتف حولها الحركات السوفيتية لعمال الدول المتطورة من جهة ، وكافة حركات التحرر القومي في المستعمرات والامم المضطهدة ، (التي اقتنعت بعد تجارب مريرة) بأنه لا خلاص بالنسبة اليها الا بانتصار سلطة السوفيات على الامبريالية العالمية » ٠

انطلاقا من هذه الحقيقة ، تتمثل المهمة العاجلة للاممية الشيوعية بالسعي لتحقيق التحالف الوثيق بين كافة حركات التحرر القومي المعادية للامبريالية وبين روسيا السوفياتية ، وذلك لخوض النضال ضد العدو المشترك : الامبريالية العالمية ٠

لقد طالب لينين في اطروحاته جميع الاحزاب الشيوعية في البلدان الرأسمالية المتقدمة بتقديم المساعدة المباشرة ، خلال نشاطها الدعائي والتحريضي ، الى الحركات الثورية للامم التابعة أو التي لا تملك المساواة في الحقوق ، ولشعوب المستعمرات ٠ فبدون تقديم هذه المساعدة المباشرة ، لن يكون « النضال ضد استعباد الامم التابعة وشعوب المستعمرات ، والاعتراف بحقها في الانفصال ، سوى شعارات خادعة ، كما كان الامر بالنسبة لاحزاب الاممية الثانية » ٠

أما الاحزاب الشيوعية في البلدان المتخلفة ، فقد رأى لينين بأن من واجبها دعم نضال حركة التحرر القومي البرجوازية ـ الديمقراطية ، ومحاربة التأثيرات الايديولوجية للقوى الرجعية ، وتقديم مساعدة خاصة للحركة الفلاحية في نضالها ضد الملكية العقارية الكبيرة، والسعي لطبع هذه الحركة بطابع ثوري من خلال تحقيق التحالف الوثيق بينها وبين الحركة العمالية الثورية في أوروبا الغربية ٠

لقد اعتبر لينين بأن على الاممية الشيوعية أن تدعم « الحركات القومية البرجوازية ـ الديمقراطية في المستعمرات » ، ولكن على شرط أن تتجمع في الوقت نفسه « عناصر الاحزاب الشيوعية في كافة البلدان المتخلفة ، وأن تتثقف بروح النضال في سبيل المهام الخاصة ، مهام النضال ضد الحركات البرجوازية ـ الديمقراطية » في المستقبل · وقد رأى لينين بأنه بالامكان اقامة تحالفات مؤقتة بين الاممية الشيوعية وبين البرجوازية ـ الديمقراطية في المستعمرات « شريطة عدم الاندماج معها ، وضمان الحفاظ على استقلالية الحركة البروليتارية في المستعمرات حتى ولو كانت في بداياتها الاولى ·· » ·

وبالنسبة لحقوق الاقليات القومية داخل البلدان المتعددة القوميات اكد لينين على أنه لا يكفي أن تعترف الاحزاب الشيوعية رسميا بمبدأ المساواة بين القوميات وبضمان حقوق الاقليات القومية ، ولا أن تدين بدعاياتها وتحريضها الخرق الدائم لهذا المبدأ داخل البلدان الرأسمالية ، بل أن عليها « أن تظهر دائما بأن النظام السوفياتي هو وحده القادر على ضمان المساواة بين القوميات ، من خلال تحقيق وحدة العمال اولا وجميع الكادحين ثانيا في النضال ضد البرجوازية » ·

لاحظ لينين في نهاية اطروحاته بأن الاضطهاد المتواصل الذي تعاني منه شعوب المستعمرات قد ترك عند الجماهير الكادحة « ليس فقط مشاعر الكراهية ، وانما ايضا مشاعر الريبة تجاه الامم المضطهدة عموما ، وحتى تجاه عمال هذه الامم » · وقد ساعدت خيانة غالبية قادة هؤلاء العمال خلال الحرب العالمية الاولى « الذين دافعوا تحت شعار « الدفاع عن الوطن » عن حق (برجوازيتهم) باضطهاد المستعمرات ونهب البلدان التابعة ماليا ، في تقوية مشاعر الريبة المشروعة هذه » · وقد نصح لينين البروليتاريا الشيوعية الواعية في البلدان الرأسمالية المتقدمة باعارة انتباه خاص لبقايا مشاعر التعصب القومي عند جماهير البلدان المضطهدة منذ وقت طويل من قبل القوى الامبريالية ، وأن تكون حتى على استعداد لتقديم بعض التنازلات في سبيل التعجيل بالقضاء على بقايا مثل هذه المشاعر ·

لقد كانت الاطروحات التكميلية المقدمة من المندوب الهندي روي (١١) تنطلق من الفكرة القائلة « بأن مستقبل الحركة الثورية في أوروبا مشروط تماما بانتصار الحركة الثورية في بلدان الشرق » · وبخصوص هذه البلدان الاخيرة ، فصل « روي » بين نوعين من الحركات: الحركة القومية البرجوازية ـ الديمقراطية « المناضلة في سبيل التحرر السياسي داخل حدود العلاقات البرجوازية » من جهة ، والحركة العمالية ـ الفلاحية « الساعية للقضاء على كافة اشكال الاستثمار » من جهة اخرى · وقد اعتبر المندوب الهندي انطلاقا من هذا الفصل بين الحركتين بأن الدعم الذي قد تقدمه الاممية الشيوعية للحركات البرجوازية الديمقراطية سيؤدي الى « تقوية الوعي القومي عند الجماهير على حساب وعيها الطبقي »· وانطلاقا من هنا ، طالب روي بحذف الفقرة التي تتعرض في اطروحات لينين لواجب الاحزاب الشيوعية بتقديم الدعم لحركات التحرر البرجوازية الديمقراطية في المستعمرات والبلدان التابعة · وبالاعتماد على مثال الهند ، اعتبر « روي » أن على الاممية الشيوعية أن تدعم فقط المحاولات الرامية الى « تأسيس وتطوير الحركة الشيوعية في الهند » ، وأن واجب هذه الحركة هو الاهتمام فقط « بتنظيم الجماهير الشعبية العريضة بهدف خدمة مصالحها الطبقية » ·

تصدى لينين لوجهات نظر المندوب الهندي التي « لا أساس لها » (١٢) ، واعتبر بأن

هذا الاخير قد ذهب بعيدا جدا في تحليله حين أكد على ان « مستقبل الثورة في الغرب مشروط فقط بدرجة تطور قوى الحركة الثورية في البلدان المستعمرة » · وقد نصح لينين الشيوعيين في الهند « بدعم الحركة البرجوازية ـ الديمقراطية ولكن دون الاندماج بها » ، وأكد على ان البلاشفة قد دعموا في الماضي حركة التحرر الليبرالية في المرحلة التي كانت فيها هذه الحركة تتصدى للقيصرية ·

لقد كانت احدى الافكار الخاطئة التي تضمنتها الاطروحات التكميلية للمندوب الهندي هي أنه يكفي لقيام حزب شيوعي جماهيري وقادر على قيادة العملية الثورية ، ان تتواجد جماهير عمالية وفلاحية عريضة · وبالاعتماد على وضع الهند نفسه ، أثبت لينين خطأ هذه الفكرة « فمع انه يتواجد في (هذا البلد) ٥ ملايين عامل ، و ٣٧ مليونا من الفلاحين غير المالكين ، الا ان الشيوعيين الهنود لم ينجحوا حتى الان بتأسيس مثل هذا الحزب في بلدهم » ·

أدخلت اللجنة في ختام أعمالها عدة تعديلات على المسودة الاولية للاطروحات المقدمة من لينين ، كان من اهمها التعديل الذي ينص على ضرورة ابدال مصطلح « برجوازي ـ ديمقراطي » ، بمصطلح « ثوري ـ قومي » ، وذلك في كافة الفقرات التي تدعو الاحزاب الشيوعية لدعم حركات التحرر القومية في المستعمرات والبلدان التابعة · وبعد ادخال هذه التعديلات وافقت اللجنة بالاجماع على مسودتي الاطروحات والاطروحات التكميلية ، التي لم يبق سوى تقديمها واقرارها من قبل المؤتمر ·

خصص المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية يومي ٢٦ و ٢٨ تموز لمناقشة تقرير اللجنة الخاصة بالمسألة القومية والكولونيالية ، حيث تم تكليف لينين شخصيا بتقديم هذا التقرير·

اعلن لينين في بداية تقريره أن اللجنة المكلفة قد وافقت بالاجماع على الاطروحات المقدمة وذلك بعد ادخال عدد من التعديلات عليها (١٣) · ثم انتقل الى تحليل مضمون هذه الاطروحات مركزا بشكل خاص على قضية الحركة البرجوازية الديمقراطية في البلدان المتخلفة التي دلت على وجود تباينات في وجهات النظر حولها ، مما دفع اللجنة الى اتخاذ قرار جماعي بابدال مصطلح « برجوازي ـ ديمقراطي » بمصطلح « ثوري ـ قومي » · وفي تفسيره لمضمون هذا التعديل ، اكد لينين على « اننا كشيوعيين ليس من واجبنا ان ندعم ، ولن ندعم حركات التحرر البرجوازية في البلدان المستعمرة ، الا في حالة كونها حركات ثورية حقا ، وحين لا يعارض ممثلوها نشاطنا الرامي الى تربية وتنظيم الفلاحين والجماهير العريضة من الكادحين بروح ثورية » · ولكن في الوقت نفسه ، حذر لينين مندوبي المؤتمر من اعتماد تقييم خاطىء للمحتوى الاجتماعي للحركات القومية في البلدان المستعمرة والتابعة · ليس هناك من شك ـ قال لينين ـ « بأن كل حركة قومية لا يمكنها ان تكون سوى حركة برجوازية ـ ديمقراطية ، لان الجماهير العريضة من سكان البلدان المتخلفة تتشكل أساسا من الفلاحين الذين يجسدون العلاقات البرجوازية والرأسمالية · وسيكون طوباويا الاعتقاد بأن الاحزاب البروليتارية ، اذا وافقنا على انها ستظهر في هذه البلدان ، تستطيع بدون اقامة علاقات محددة مع الحركة الفلاحية ، بدون دعمها عمليا ، ان تتبع تكتيكا وسياسة شيوعيتين في هذه البلدان المتخلفة » ·

اولى لينين اهتماما خاصا في تقريره لمسألة التطور الاجتماعي المستقبلي للبلدان المتخلفة · وقد اكد على ان مرحلة التطور الرأسمالي ليست بالضرورة مرحلة حتمية

بالنسبة لشعوب البلدان المتخلفة ، خاصة « اذا استطاعت البروليتاريا الثورية أن تنشر بين هذه الشعوب دعاية متواصلة ... واذا قدمت لها الحكومات السوفياتية المساعدات بكل السبل المتوفرة لها » .

بعد أن انتهى لينين من تقديم تقريره ، بدأ مندوبو المؤتمر نقاشهم الموسع حول المسألة القومية والكولونيالية ، وقد أيد معظم المؤتمرين الموضوعات الرئيسية التي تضمنتها الاطروحات المقدمة . غير أن عددا من المندوبين ، خاصة في عداد الوفد الايطالي ، قد اعترض على محتوى هذه الاطروحات . فقد اعتبر المندوب الايطالي « سيراتي » (SERATI) ، الذي حاول قدر جهده اقفال باب المداخلات سريعا ، بأن الاطروحات المقدمة من قبل لينين و « روي » ، ما هي الا « حلول وسطية انتهازية قد تفسر تفسيرات شوفينية وقومية » . وأعلن بأن التحرر الحقيقي للشعوب المضطهدة لن يتحقق الا بعد انتصار الثورة البروليتارية ، وليس عن طريق « اتحاد مؤقت آني للاحزاب الشيوعية مع الاحزاب المسماة بالبرجوازية الثورية » (٤) ، مضيفا بأن الطبقة العاملة لا يمكنها ان تدعم الحركات البرجوازية خاصة في البلدان المتخلفة خوفا من ان تفقد مواقعها وتوجهاتها الطبقية ، «فالجماهير قد تفقد توجهاتها الطبقية بسهولة في البلدان المتخلفة ، حيث لاتملك البروليتاريا وعيا طبقيا قويا » . وطبعا لم تترك أفكار المندوب الايطالي هذه ، الموروثة عن تراث « اشتراكية » انتهازيي الاممية الثانية ، أي أثر يذكر داخل المؤتمر ، الذي أقر بالاجماع الاطروحات والاطروحات التكميلية ، بعد امتناع ثلاثة مندوبين عن التصويت (١٥).

٢ ـ ثلاث مجموعات سياسية يهودية داخل المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية :

لقد ذكرنا سابقا بأن تعرض المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية لقضية فلسطين قد تم نتيجة للصراعات الايديولوجية التي احتدمت بين ممثلي المجموعات السياسية اليهودية التي ساهمت في اعماله ، وذلك اثناء النقاشات الموسعة التي دارت حول المسألة القومية والكولونيالية . سنحاول الان اعطاء لمحة موجزة عن هذه المجموعات ، متعرضين اساسا لتاريخ نشأتها ولظروف مساهمتها في هذا المؤتمر .

أ ـ البوند (BUND) الشيوعي :

انعقد المؤتمر العمالي اليهودي الاول في مدينة « فيلنا » بروسيا القيصرية في الفترة الواقعة بين ٢٥ الى ٢٧ ايلول ١٨٩٧ ، بعد عدة اسابيع من انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول . وقد تقرر خلال هذا المؤتمر تأسيس « العصبة العامة للعمال اليهود في ليتوانيه وروسيا وبولونيا » ، المعروف تحت اسم « البوند » .

لقد تشكل البوند في البداية من مجموعة من المثقفين الاشتراكيين اليهود وعناصر شبه بروليتارية من الاوساط الحرفية في المقاطعات الغربية من روسيا . وقد أعلن « اركادي كريمر » (A. KREMER) ، احد قادته في المداخلة التي ألقاها في المؤتمر : « بأن الاتحاد العام لجميع المجموعات الاشتراكية اليهودية لا يهدف فقط للنضال في سبيل المطالب السياسية الروسية العامة ، وانما سيكون له مهمة خاصة أيضا تتجسد بالدفاع عن مصالح العمال اليهود والنضال من أجل انتزاعهم لحقوقهم المدنية ومحاربة القوانين التفريقية المجحفة بحقهم .. فالعمال اليهود ـ اضاف كريمر ـ لا يعانون فقط من وضعهم كعمال ، وانما ايضا من وضعهم كيهود .. » (١٦) .

انتسب البوند في العام ١٨٩٨ للحزب العمالي الاشتراكي الديمقراطي الروسي وذلك

خلال انعقاد المؤتمر الاول لهذا الاخير « بصفته منظمة مستقلة تهتم أساسا بالقضايا التي تخص البروليتاريا اليهودية » (١٧) · وقد وافق قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي على منح البوند صفة الاستقلالية بهدف تدعيم وحدة الحركة الاشتراكية الديمقراطية في كافة مناطق روسيا القيصرية ·

في المؤتمر الذي عقده في العام ١٨٩٩ ،رفض البوند اعتماد موضوعة « الامة اليهودية »، وقرر تحديد مجال نشاطه الخاص باليهود في مجال النضال ضد القوانين التفريقية التي كانت قد سنتها حكومة القيصر · وقد حذر البوند البروليتاريا اليهودية من خطر الانقياد وراء « الايديولوجية القومية التي تضعف الوعي القومي ··· وتقود الى الشوفينية » · ولكن مع مرور الزمن ، بدأ يظهر داخل البوند اتجاهان رئيسيان تجاه حل المسألة اليهودية : الاتجاه الاول اعتبر التواجد المستقل للحركة العمالية اليهودية كمرحلة انتقالية على طريق الاندماج والمساهمة في الثقافة الروسية ،كجزء لا يتجزأ من البروليتاريا الروسية · أما الاتجاه الثاني فقد كان يرفض فكرة الاندماج معتبرا نفسه جزءا من البروليتاريا « داخل الامبراطورية الروسية » ، وجزءا من المجموعة « القومية » اليهودية في روسيا ·

بعد صراع حام استطاع الاتجاه الثاني داخل البوند ان يحسم الامور لصالحه ، وترك الحزب نهائيا فكرة الاندماج · وفي نيسان ١٩٠١ ، عالج المؤتمر الرابع للبوند لاول مرة المسألة اليهودية كمسألة « قومية » ، وطالب بتأسيس دولة فيدرالية تقوم على قاعدة اتحاد القوميات التي تشكلها ، واعتبار اليهود « قومية » من قوميات هذه الدولة الاتحادية ، ولو أنهم لا يمتلكون أرضا خاصة بهم (١٨) · وانطلاقا من هذا التغير الذي طرأ على موقفه ، طالب البوند قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي بالاعتراف به ممثلا وحيدا للبروليتاريا اليهودية وأن يكون له الحرية التامة في معالجة قضايا البروليتاريا اليهودية والدفاع عن مصالحها « الخاصة » · وقد أقر المؤتمر بهذا الخصوص توصية خاصة ، اعتبر فيها « ان الحزب العمالي الاشتراكي الديمقراطي الروسي هو اتحاد لمنظمات قومية، يمثل البوند داخله احدى هذه المنظمات القومية » (١٩) · وقد كلف المؤتمر اللجنة المركزية المنتخبة بأن تهتم بتنفيذ هذه التوصية عند انعقاد المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي ·

سيكون من المفيد ان نلاحظ بأن ظهور هذه الافكار القومية داخل البوند في تلك الفترة ، لم يكن يرجع لعامل الصدفة ، خاصة اذا عرفنا بأن تلك الفترة التي نحن بصددها قد عرفت نشاطا صهيونيا معتبرا داخل التجمعات اليهودية الخاصة « مناطق الاقامة » في روسيا القيصرية · ففي ذلك الوقت بدأت تتشكل الخلايا الاولى للاحزاب الاشتراكية الصهيونية ،وبدأ التحضير للمؤتمر الصهيوني لعاصمة روسيا الذي انعقد خلال العام ١٩٠٢ · وقد كان لهذا النشاط الصهيوني الملحوظ تأثيره غير المباشر على مواقف البوند ، وذلك على الرغم من ان مؤتمر البوند الرابع قد انتقد بقوة الحركة الصهيونية ووصفها بأنها « رد فعل الطبقات البرجوازية اليهودية على ظاهرة العداء للسامية » ·

رفض المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي الذي انعقد في تموز ـ آب ١٩٠٣ ، الطلب الذي تقدم به البوند لاعتباره ممثلا وحيدا للبروليتاريا اليهودية ، على اعتبار ان تحقيق هذا الطلب سيؤدي « الى تقسيم العمال داخل منظمات الحزب حسب

المبدأ القومي والتخلي عن مبدأ المنظمة الطبقية الواحدة للطبقة العاملة المتواجدة فوق الارض الواحدة » (٢٠) · وبعد ان رفض طلبه ، قرر البوند الخروج من الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي والعمل بصورة مستقلة تماما ·

خاض لينين في نضاله لخلق حزب مركزي اممي ، نضالا حاميا ضد الافكار القومية الانفصالية للبوند · ففي المقال الذي كتبه عن « وضع البوند داخل الحزب » (٢١) في اكتوبر ١٩٠٣ ، وصف لينين فكرة « القومية اليهودية » التي يدافع عنها البوند بانها « فكرة صهيونية ، خاطئة تماما ورجعية بمضمونها ··· ليس فقط عند اتباعها المنطقيين (الصهاينة) ، وانما ايضا عند اولئك الذين يصرون على توفيقها مع أفكار الاشتراكية الديمقراطية (البونديين) ·· » ·

تابع البوند بعد خروجه عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي سيره على نفس الطريق القومي الانفصالي · ففي مؤتمره السادس الذي انعقد بمدينة « زيوريخ » في العام ١٩٠٥ (٢٢) صاغ الحزب مطلب « الاستقلال الذاتي القومي الثقافي » لليهود داخل الامبراطورية الروسية ، الذي كان يعني بأن يتجسد ارتباط « اليهود المبعثرين بين شعوب الامبراطورية بمجموعتهم القومية الواحدة ، من خلال اتاحة الامكانيات امهم لتطوير لغاتهم القومية وثقافتهم وتعليمهم » · وقد طالب البوند بأن « تتخلى الدولة بأجهزتها الحكومية المركزية والمحلية عن مسؤولياتها تجاه كافة المهام المتعلقة بالقضايا الثقافية (التعليم مثلا) ، على ان تعطى مسؤولية الاشراف على هذه المهام للامة اليهودية نفسها لتديرها من خلال مؤسساتها الخاصة المنفصلة ، المركزية والمحلية المنتخبة بالاقتراع المتساوي المباشر والسري من قبل جميع اليهود » ·

عند انعقاد المؤتمر الرابع للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي في نيسان ١٩٠٦ ، قرر البوند الانضمام من جديد لهذا الحزب · وقد وافق المؤتمر على طلب البوند ، في الوقت الذي اكد فيه مجددا رفضه لمطالبه القومية (٢٣) · واعتبارا من هذا التاريخ ، كان البونديون يقفون دوما الى جانب القوى « التصفوية » داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي ، في صراعها ضد لينين والبلاشفة · وقد ارتبط البوند بعلاقات وثيقة مع المناشفة ، خاصة خلال المرحلة التي اعقبت العام ١٩١٢ ·

لقد تميز التطور اللاحق للبوند خلال المرحلة التي سبقت انتصار ثورة اكتوبر بتفاقم التناقضات الداخلية لبرنامجه « القومي » ، خاصة وانه كان يدعو لايجاد حل « قومي غير اقليمي » للمسألة اليهودية في الوقت الذي كان يرفض فيه حل الاندماج من جهة ، والحل الصهيوني من جهة اخرى (٢٤) ·

عند اندلاع الحرب العالمية الاولى ، ظهر داخل البوند اتجاهان متعارضان بخصوص الموقف الذي يجب اتخاذه تجاه هذه الحرب الامبريالية : اتجاه « دفاعي » اتخذ نفس مواقف معظم القادة الشوفينيين للاممية الثانية ، واتجاه « اممي » تبنى موقف البلاشفة والمجموعات الاشتراكية الثورية الاخرى · غير ان الاتجاه الاول استطاع بعد فترة وجيزة ان يفرض موقفه داخل الحزب بأكمله ·

ساعدت السياسة الثورية الاممية التي انتهجها النظام السوفياتي بعد انتصار ثورة اكتوبر تجاه الاقليات والقوميات التي كانت تقطن اراضي الامبراطورية الروسية ، والخطوات العملية التي اتخذها لمحاربة كافة مظاهر العداء للسامية ، في زيادة تفاقم

الازمة السياسية والايديولوجية داخل البوند ، وخلقت الظروف المساعدة لظهور نـــواة لاتجاه شيوعي حقيقي داخله ٠

وبالفعل بدأت اعتبارا من ذلك الوقت عملية تمايز سياسي وايديولوجي داخل البوند استمرت عدة اشهر ، ونتج عنها انقسام الحزب الى تيارين : تيار انتهازي يميني حافظ على ارتباطه بالمناشفة ، وتيار شيوعي تبنى القاعدة السياسية للحزب البلشفي بقيـــادة لينين ٠ غير أن هذا الانقسام لم يحصل في نفس الوقت داخل منظمات الحزب ، وانمـا حصل على فترات متباينة ٠ ففي ١ اذار ١٩١٩ ، قررت الاغلبية داخل مؤتمر منظمـــة البوند لعموم اوكرانيا تغيير اسم الحزب الى « البوند الشيوعي » ، مما حدا بالاقليـــة للخروج من المؤتمر والانشقاق عن الحزب (٢٥) ٠ ومن جهة أخرى ، قررت الاغلبية فـــي مؤتمر « غومل » (Gomel) الذي عقدته منظمة البوند لعموم مناطق « روسيا البيضاء» في نوفمبر ١٩١٩ الانضمام الى الحزب الشيوعي الروسي والى الاممية الشيوعية (٢٦) ٠ وقد اتخذت اغلبية اعضاء منظمات البوند في كل من ليتوانيه وبولونيا نفس هذه المواقف تقريبا ٠ وأخيرا قرر المؤتمر الثاني عشر للبوند في عموم روسيا ، الذي انعقد في موسكو في نيسان ١٩٢٠ ، تغيير اسم الحزب نهائيا الى « البوند الشيوعي » ، والانضمام الـــى الاممية الشيوعية ٠ وقد جاء في مقررات هذا المؤتمر : « أن الوقت قد حان ليتخلى البونـد عن معارضته الرسمية وأن يعلن عن تضامنه مع سياسة السلطة السوفيتية (خاصة) وأن برنامج الحزب الشيوعي ، الذي هو في الوقت نفسه برنامج السلطة السوفياتية ، يتوافق تماما مع السياسة العملية للبوند » (٢٧) ٠ وقد دعا المؤتمر في ختام اعماله كافة منظمات البوند بأن تقتدي بمثال الحزب في روسيا السوفياتية (٢٨) ٠

ب ـ البوعالي تسيون (Poalei Zion) اليساري :

في الوقت الذي كانت فيه توجهات البوند السياسية تتطبع شيئا فشيئا بالافكار القومية، بدأ عدد من مفكري الحركة الصهيونية محاولتهم للجمع بين بعض الافكار الاشتراكيـــة والافكار الصهيونية ٠

لقد كانت المجموعات اليهودية التي تسعى للجمع بين الصهيونية والاشتراكية تسمـى عموما بمجموعات « البوعالي تسيون » (عمال صهيون) ٠ في المرحلة الاولى (١٨٩٩ ـ ١٩٠٤) ، لم تكن هذه التسمية الفضفاضة تدل على وجود اي ارتباط تنظيمي بين هـــذه المجموعات ، ولا حتى عن وجود برنامج سياسي موحد يحدد كيفية الجمع بين الصهيونية والاشتراكية ٠

تأسست المجموعة الاولى من مجموعات « البوعالي تسيون » في روسيا القيصرية فـي بدايات القرن العشرين ٠ ومع أن المؤتمر التأسيسي الاول للحزب قد انعقد في آذار ١٩٠٦ ، الا أن « تاريخ الحزب » الرسمي الصادر عن لجنته المركزية يشيـر الـــى « ان ولادة البوعالي تسيون في روسيا ترجع الى سنوات ١٩٠٠ ـ ١٩٠١ ٠ فتحت هذا الاسم ظهرت لاول مرة مجموعة من العمال والمثقفين اليهود في مدينة « مينسك » (MINSK)» (٢٩) ٠ ومن « مينسك » امتد البوعالي تسيون سريعا الى المدن الكبيرة الاخرى الواقعة فـــي حدود « مناطق الاقامة اليهودية » ، مثل اوديسا وفارصوفيا وفيلنا (١٩٠١ ـ ١٩٠٢) ٠ وقد بدأ الحزب اعتبارا من تلك الفترة امتداده خارج حدود الامبراطورية القيصرية ، حيث تأسست مجموعات البوعالي تسيون في كل من : النمسا (١٩٠٣) ، والولايات المتحـدة

الاميركية (١٩٠٣) ، وفلسطين (١٩٠٥) ، وبريطانيا العظمى (١٩٠٥) ، والارجنتين (١٩٠٧) ، وبلغاريا (١٩١٠) ... وقد اجتمع ممثلو هذه المجموعات في العام ١٩٠٧ ، وأسسوا « الاتحاد العمالي الاشتراكي اليهودي العالمي : بوعالي تسيون » .

أطلقت مجموعات البوعالي تسيون على أنفسها لقب « منظمات عمالية اشتراكية » ، وذلك بهدف حجب الاهداف الحقيقية لعملية توسع النشاط الصهيوني في صفوف العمال اليهود. أما البوعالي تسيون في روسيا ، فقد اطلق على نفسه لقب : « الحزب العمالي الاشتراكي ـ الديمقراطي اليهودي : بوعالي تسيون » .

لن يكون في مجال بحثنا هذا ، استعراض تاريخ وسياسات مجموعات البوعالي تسيون في العالم . اهتمامنا سيقتصر على المجموعة الرئيسية بين هذه المجموعات : البوعالي تسيون الروسي بقيادة « بير بوروشوف » (٣٠) (Ber Borochov) ، الذي يعتبر بمثابة الاب الفكري والسياسي للصهيونية الاشتراكية ، والذي كان يصف نفسه « بالصهيوني الاشتراكي الديمقراطي الماركسي » .

لقد كان بوروشوف ينطلق من القناعة بأنه من الممكن الجمع بين العقيدتين الصهيونية والماركسية والخروج بمحصلة نظرية واحدة لهما (٣١) . ولكن ما هو مضمون « الماركسية » التي أعلن بوروشوف تبنيه لها ؟ . للاجابة على هذا السؤال ، سنحاول تحليل أهم الافكار الواردة في مؤلفه الرئيسي ، المنشور في العام ١٩٠٥ ، تحت عنوان « الطبقة والامة » (٣٢) ، خاصة وانه المؤلف الاساسي الذي يحاول بوروشوف خلاله اثبات مقدرته على تملك النظرية الماركسية واستيعابها ، وقدرته على تطويع مفاهيمها الاساسية ، فيستشهد بمؤلفات « كارل ماركس » ، وخاصة بمؤلفه « رأس المال » اكثر من مرة ، ويردد تعابير « الصراع الطبقي » ،و « القوى الانتاجية » ، و « علاقات الانتاج »...

قبل أن يتعرض للمسألة اليهودية ، شعر بوروشوف بالحاجة لعرض نظريته الخاصة عن المسألة القومية ، والتي كانت تنطلق من فكرة تعميم عوامل التمايزات المختلفة الموجودة بين الامم ، والتي ينبع عنها الشعور بالرغبة في الانفصال وتأسيس الدول القومية المستقلة، وتسميتها بـ « شروط الانتاج » . وبمعنى اخر ، فان « شروط الانتاج » ـ حسب بوروشوف ـ هي بمثابة « الاطار الجغرافي والعرقي والتاريخي » الذي تتطور داخل حدوده القوى الانتاجية لكل أمة من الامم . « ان اهم هذه الشروط الانتاجية ـ كتب بوروشوف ـ هو الارض ... (فهي) القاعدة التي تقوم فوقها الشروط الانتاجية الاخرى » (٣٣) .

عندما تتواجد « شروط الانتاج » في وضع « غير طبيعي » ، كما في حالة غياب احد هذه الشروط كالارض مثلا ، تظهر المسألة القومية حينئذ ، كصراع بين الحركة القومية المعبرة عن مصالح القوى الانتاجية الصاعدة والوضع « غير الطبيعي » « لشروط الانتاج » ، « فتتوافق مصالح افراد الامة وتضعف التناقضات الطبقية ويتقوى شعور التعاضد القومي يوما بعد يوم » (٣٤) . ويأخذ الصراع القومي احيانا ـ حسب بوروشوف ـ طابع المنافسة بين عمال الامم المختلفة لاحتلال اماكن العمل ، « فطوال الفترة التاريخية التي تكون خلالها مكانة العمل القومي غير اكيدة ومضمونة ... فان المسألة القومية تستبق من حيث الاهمية المسألة الطبقية ، والدفاع عن مكانة العمل يشغل العامل اكثر بكثير من النضال الطبقي .. » .

اكد بوروشوف في تحليله لمواقف الطبقات الاجتماعية المختلفة من المسألة القومية ، على أن الطبقة العاملة هي الطبقة الوحيدة التي تقف دوما « واقعيا وتقدميا وثوريا » تجاه المسألة القومية ، وأنها الطبقة ذات المصلحة الاكيدة في تواجد « شروط انتاج طبيعية » · « ان الشعور القومي الواقعي هو الشعور الذي لا يكون على حساب الوعي الطبقي ، ولا يمتلكه الا العناصر التقدمية للامة المضطهدة ·· ويتجسد عند الطبقة الاكثر تقدمية بين طبقات الامة ، عند البروليتاريا الثورية المنظمة ، عبر مطالب دقيقة محددة يتضمنها برنامج حد ادنى يرمي الى اقامة مكان (قومي) طبيعي للعمل وللنضال بالنسبة للبروليتاريا ، ويضمن تواجد شروط انتاج طبيعية للامة بمجملها » (٣٥) ·

ان المهمة الرئيسية للطبقة العاملة تكمن اذا ـ حسب بوروشوف ـ في خوض النضال لحل المسألة القومية ، وضمان تواجد « شروط انتاج » طبيعية ، وذلك لتتمكن بعد ذلك من التفرغ لانجاز مهام النضال الاجتماعي والثورة الاشتراكية ، فبعد تحقيق انجاز الهدف القومي « تنتهي مهمة القومية الواقعية (قومية البروليتاريا) ·· ، وعوضا عن التضامن القومي السابق ، التضامن الاجباري المفروض وغير الطبيعي ، تتشكل بنية طبقية سليمة ، تسمح بخوض صراع طبقي حقيقي » (٣٦) ·

انطلق تحليل بوروشوف للمسألة اليهودية في بداية القرن العشرين من اعتبار اليهود « أمة متواجدة في ظل شروط انتاج غير طبيعية » ، خاصة بسبب عدم توفر « الارض القومية » الخاصة بهم · وقد شبه بوروشوف التركيبة الاجتماعية لكل امة من الامم بهرم مركب من طبقات اجتماعية تقوم الواحدة منها فوق الاخرى وذلك حسب بعدها أو قربها من عمليات الانتاج الاساسية : طبقة عريضة من العمال والفلاحين في قاعدة الهرم ، تأتي فوقها طبقة من مستخدمي الخدمات العامة والنقل وفئة الحرفيين وفي قمة الهرم تتواجد فئات المالكين وأصحاب الاعمال والمثقفين ··· وعند تحليله لتركيبة اليهود الاجتماعية ، خاصة داخل حدود الامبراطورية القيصرية (٣٧) ، وجد بوروشوف ان تركيبتهم تبدو وكأنها « هرم معكوس » ، بحيث تتواجد فئات عريضة من الحرفيين ، مسنودة بفئات ضيقة من العمال وخاصة من عمال المرافق « غير الحيوية » التي عليها ايضا ان تسند الثقل الكبير لفئة ضخمة من التجار · وقد أكد بوروشوف على أن هذه التركيبة الاجتماعية « غير الطبيعية » كانت تشكل عائقا امام التطور اللاحق للبروليتاريا اليهودية المركزة في المراحل الاخيرة من عملية الانتاج والمعرضة دوما « للمنافسة القومية » الشديدة على اماكن العمل ، خاصة في أوقات الازمات الاقتصادية ·

اعتبر بوروشوف واقع التركيبة الاجتماعية لليهود في بداية القرن العشرين داخل الامبراطورية القيصرية كواقعة تاريخية ملموسة ، ينبغي الانطلاق منها في ايجاد الحل للمسألة اليهودية ، دون أن يشعر أبدا بالحاجة لتحليل خلفياتها التاريخية (٣٨) · فالحل اذا ـ حسب بوروشوف ـ هو السعي لقلب « الهرم المعكوس » ، واقامة مجتمع يهودي « طبيعي » ، مشابه لمجتمعات الامم الاخرى · وقد كان هذا يعني عمليا بأن يسعى اليهود للحصول على أرض خاصة بهم ، يقيموا فوقها « دولتهم القومية » ، ويضمنوا لانفسهم تواجد « شروط انتاج طبيعية » ، ويتحولوا الى عمال والى فلاحين بهدف قلب « الهرم المعكوس » ، وتغيير طبيعة تركيبتهم الاجتماعية · وهكذا وصل تحليل بوروشوف الى الاستنتاج بأن حل المسألة اليهودية لن يتأتى عن طريق النضال في سبيل « الاستقلال الذاتي القومي الثقافي » كما كان يطالب البوند ، ولا عن طريق الاندماج والنضال الى

جانب القوى الثورية المحلية في سبيل الثورة الاجتماعية ، وانما عن طريق الهجرة المنظمة الى المكان الذي يوفر لليهود امكانية تغيير تركيبتهم الاجتماعية ويسمح لهم بالنفاذ الى مرافق الانتاج الاساسية · وطبعا هذا لن يتحقق الا في اطار بلد متخلف ، لا يمتلك اقتصادا رأسماليا متطورا ، بحيث تسمح بنيته الاقتصادية للجماهير الغفيرة من المهاجرين اليهود بالنفاذ الى مرافق الانتاج الاساسية ·

انطلاقا من هذا التحليل نادى بوروشوف بضرورة النضال في سبيل تحقيق « الاستقلال الاقليمي للشعب اليهودي في فلسطين » · ولكن لماذا فلسطين بالذات ؟ تهرب بوروشوف من الاجابة بوضوح على هذا السؤال ، ورفض الاعتراف بأن الحل « الماركسي » الذي يدعو له ، يحتاج هو أيضا لضمان انجازه الى قاعدة مثالية ترتكز على الدوافع العاطفية والدينية وذلك لحث اليهود على الهجرة والاستيطان · وقد دعا بوروشوف العمال اليهود « ليكونوا في طليعة نضال الجماهير اليهودية » في سبيل تحقيق هذا الحل « الصهيوني الاشتراكي » للمسألة اليهودية خاصة وأن تحقيقه سيخدم اساسا مصالحهم الطبقية · ومن هنا ، فان خصوصية نظرية بوروشوف « الماركسية » ، وجوهر اختلافها عن نظرية « الصهيونية البرجوازية » ـ اذا صح التعبير ـ تكمن في أنه قد توصل الى الصهيونية أخذا بعين اعتباره مصالح « الطبقة العاملة اليهودية » ، وليس مصالح « الامة اليهودية » بشكل عام (٣٩) ·

تعرض بوروشوف في بعض كتاباته لمواطني فلسطين العرب ، الذين كان يسميهم بـ « السكان المولودين في فلسطين » ، واكد على انهم لا يمتلكون اي ثقافة قومية خاصة بهم ، وليس عندهم اي صفات قومية مميزة · ومن هنا « فانهم سيقبلون بأي ثقافة مستوردة تكون على مستوى اعلى من ثقافتهم ، وسيكونوا عاجزين عن ابداء اي مقاومة منظمة ضد التأثيرات الخارجية ، ولن يستطيعوا الدخول في منافسة قومية (على العمل) ·· » (٤٠) !

وقد استنتج بوروشوف على أن السكان العرب في فلسطين « سيندمجون اقتصاديا وثقافيا مع من يضمن النظام في البلاد ، ويعمل على تطوير القوى الانتاجية » (٤١) ·

اجتاز البوعالي تسيون الروسي بعد تأسيسه في بداية القرن مرحلة صعبة ، تميزت باحتدام الصراعات الايديولوجية داخله وبحدوث انشقاقات عديدة بين صفوفه ، غير أن الحزب استطاع بفضل المجهود النظري والسياسي لبوروشوف اعادة تنظيم نفسه وتجاوز الازمة التنظيمية التي مر بها · وقد عقد الحزب مؤتمره الاول في مدينة « بولتافا » (Poltavea) في آذار ١٩٠٦ ، معتمدا على وثيقة نظرية قدمها بوروشوف تحت عنوان : « برنامجنا السياسي » (٤٢) (Notre Plate - Forme) ، تضمنت الافكار الرئيسية التي كان قد وضعها الاب الفكري والسياسي للصهيونية الاشتراكية · وفي شهر آب ١٩٠٧ ، عقد الحزب مؤتمره الثاني في مدينة « جراكوفي » (Gracovie) ، وأقر برنامجه السياسي الذي اكد على ان هدف البوعالي تسيون هو تحقيق « الاستقلال الاقليمي للشعب اليهودي في فلسطين » ، وأن طريق النضال لتحقيق هذا الهدف « هو النضال الطبقي للبروليتاريا اليهودية في صفوف الاشتراكية الديمقراطية العالمية » (٤٣) ·

وفي العام ١٩٠٧ ، ساهم البوعالي تسيون الروسي بقيادة بوروشوف بنشاط ، في تحضير المؤتمر الاول « للاتحاد العمالي الاشتراكي اليهودي العالمي : بوعالي تسيون » ،

الذي انعقد بمدينة « لاهاي » (La Haye) · وقد أقر المؤتمر بأن اهداف الاتحاد العالمي تتلخص بالنضال « في سبيل قلب النظام الرأسمالي » ، وتحقيق « الحل الاقليمي للمسألة اليهودية عن طريق اقامة مركز يهودي ديمقراطي في فلسطين » (٤٤) · وفي العام ١٩٠٩ ، اضيفت الى كلمة « فلسطين » ، بطريقة لا تدع مجالا للشك في حقيقة النوايا التوسعية للقادة « الاشتراكيين » الصهيونيين ، عبارة « والبلدان المجاورة » (٤٥) ·

لم تشكل مجموعات البوعالي تسيون في البلدان المختلفة,حركة موحدة على الصعيدين الايديولوجي والسياسي ، وذلك على الرغم من تأسيس « الاتحاد العالمي » · ففي روسيا القيصرية تطبع البوعالي تسيون الروسي بطابع العمل السري الثوري الذي لازم نشاطات الحركات الثورية في تلك الفترة ، وكان الحزب يجاهر علنية بانتماءاته الايديولوجية « الماركسية » ·أما في اوروبا الغربية وفي الولايات المتحدة الاميركية ،فقد وقعت مجموعات البوعالي تسيون تحت تأثير افكار التيارات الاصلاحية داخل الحركة الاشتراكية ـ الديمقراطية · ولقد كانت هذه التباينات الايديولوجية والسياسية في صفوف البوعالي تسيون تحمل في طياتها منذ تلك الفترة بذور الانشقاقات التي بدأت تتجذر داخل الحزب ·

عندما وقعت الحرب العالمية الاولى ، ادانت مجموعات البوعالي تسيون في كل من روسيا وبولونيا والنمسا هذه الحرب ، واعتبرتها بمثابة صراع بين الدول الامبريالية هدفه تقاسم مناطق النفوذ ونهب المستعمرات · وقد ساعد الموقف الذي اتخذته هذه المجموعات من الحرب ، والذي كان يختلف عن المواقف « الاشتراكية ـ الشوفينية » التي اتخذتها بقية مجموعات البوعالي تسيون في العالم ، في تدعيم الاتجاهات اليسارية داخل البوعالي تسيون في روسيا والنمسا وبولونيا ، تلك الاتجاهات التي كانت تسعى للتوفيق بين مبادىء الحزب الصهيونية وبين مواقف الاشتراكية الديمقراطية الثورية بقيادة حزب البلاشفة · وقد جاء انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية ليساهم في تقوية مواقع الاتجاهات اليسارية داخل البوعالي تسيون في هذه البلدان الثلاثة ، الذي عرف ابتداءا من العام ١٩١٨ صراعا ايديولوجيا حاميا داخله تركز حول قضية ارتباط الحزب بالاحزاب الاشتراكية الثورية الاوروبية التي التفت حول الحزب البلشفي ، واسست فيما بعد الاممية الشيوعية ·

وقد نتج عن هذا الصراع الايديولوجي الذي استمر طوال العام ، انشقاق البوعالي تسيون الروسي في بداية ١٩١٩ الى جناحين : جناح يميني التف حول « الحزب العمالي الاشتراكي ـ الديمقراطي اليهودي » ، واخر يساري اسس « الحزب الشيوعي اليهودي : بوعالي تسيون » (٤٦) ·

لقد كانت عملية الاختيار بين احدى الاميتين العماليتين الثانية الاصلاحية ام الثالثة الثورية تبدو ظاهريا وكأنها السبب الرئيسي الكامن وراء هذا الانشقاق الذي حصل داخل البوعالي تسيون الروسي · غير أن هذا السبب ومع اهميته ، لم يكن في الحقيقة الا سببا ثانويا بالقياس مع السبب الرئيسي الذي كان يكمن وراء الانشقاق ، والذي تجسد بظهور مفهومين مختلفين للمسألة اليهودية :

المفهوم الاول « اليميني » كان يؤكد على انه طوال فترة الانتقال التاريخية من الرأسمالية الى الاشتراكية ، فان « الحاجة التاريخية » لهجرة « الشعب اليهودي » الى فلسطين ستشمل بالضرورة جميع البلدان ، بما فيها تلك التي عرفت انتصار الثورة

الاشتراكية ، كما في روسيا السوفياتية · وقد اعتقد انصار هذا المفهوم بأن عملية التحويل الاشتراكي للمجتمع في روسيا لن تساهم في حل المسألة اليهودية ، ودعوا العمال اليهود للعمل فقط في سبيل انتصار الاهداف الصهيونية ، في سبيل تصعيد الهجرة الى فلسطين وتسريع عملية اقامة المستوطنات الزراعية اليهودية فيها ·

أما المفهوم الثاني « اليساري » الذي تبناه انصار « الحزب الشيوعي اليهودي » ، فقد كان يدعو العمال اليهود في روسيا للمساهمة الفعالة في عملية البناء الاشتراكي والسعي لتوطيد النظام السوفياتي الى جانب البروليتاريا الروسية ، في نفس الوقت الذي لم يكن يقلل فيه من اهمية العمل في سبيل المهام الصهيونية الخاصة كالهجرة والاستيطان في فلسطين ، ولكن على شرط الا يطغى الاهتمام بهذه المهام كليا على نشاط الحزب ، كما هو الحال بالنسبة للجناح اليميني (٤٧) · وحتى داخل « الحزب الشيوعي اليهودي » كان بالامكان التفريق بين اتجاهين : الاتجاه الاول الغالب كان يتبنى كليا الموقف الذي عرضناه أعلاه ، ويدعو العمال اليهود لتقديم اكبر دعم ممكن للحركة الثورية في روسيا ، لان انتصار هذه الحركة هو الشرط الذي لابد منه لحل المسألة اليهودية ، ويعترف بان المسألة الصهيونية تأتي من حيث الاهمية بعد المسألة الاشتراكية · أما الاتجاه الثاني الانتهازي ، فقد كان يأمل بأن يتبنى الحزب الشيوعي الروسي الحل الصهيوني للمسألة اليهودية ويسمح بالهجرة الجماعية للايين اليهود الروس الى فلسطين (٤٨) ·

كان للانشقاق الذي حصل داخل البوعالي تسيون الروسي نتائج مشابهة في كل من بولونيا والنمسا · ففي هذين البلدين شكلت المجموعات اليسارية داخل البوعالي تسيون ، بالتعاون مع بعض اعضاء الحزب الذين قدموا من روسيا السوفياتية ، « مكتب التنظيم » ، الذي اضطلع بمهمة توحيد كافة الاتجاهات اليسارية التي كانت تسعى داخل البوعالي تسيون للانضمام الى الاممية الشيوعية · وقد حدد « مكتب التنظيم » التباينات السياسية والايديولوجية بين اليسار واليمين داخل البوعالي تسيون بما يلي :

التيار اليميني « الاصلاحي » كان يطالب « بالاستقلال الذاتي » لليهود في فلسطين على قاعدة الديمقراطية البرجوازية ويدعو لعقد مؤتمر صهيوني عالمي يضم ممثلين عن كافة طبقات « الشعب اليهودي » ، ويسعى لاقامة « وطن قومي » في فلسطين بالتعاون وبدعم من الصهيونية البرجوازية ·

أما التيار اليساري « الثوري » الذي يمثله « مكتب التنظيم » فقد كان يطالب باقامة « ديكتاتورية البروليتاريا اليهودية » في فلسطين ، ويدعو لعقد مؤتمر صهيوني عالمي يضم ممثلين عن البروليتاريا اليهودية فقط ، ويسعى لحل مصاعب البروليتاريا عبر النضال ضد البرجوازية الصهيونية وبدعم من القوى الثورية للبروليتاريا العالمية بقيادة الاممية الشيوعية (٤٩) ·

اعترفت قيادة «الاتحاد العالمي بوعالي تسيون» بـ « الحزب الشيوعي اليهودي » كممثل رسمي للاتحاد في روسيا ، وذلك على الرغم من كافة المحاولات التي بذلتها العناصر اليمينية داخل « الحزب الاشتراكي الديمقراطي اليهودي » لمنع قيادة الاتحاد من الاعتراف بالجناح « الشيوعي الصهيوني » · ومن جهة اخرى ، اقرت قيادة الاتحاد شرعية نشاط « مكتب التنظيم » ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه بعض العناصر داخل قيادة الاتحاد تأمل بأن يساعد نشاط هذا المكتب على زيادة وزن البوعالي تسيون داخل الحركة

الاشتراكية الثورية العالمية وأن يؤدي الى الاعتراف به من قبل الاممية الشيوعية كممثل وحيد للبروليتاريا اليهودية · وقد كانت هذه العناصر تأمل بأن تعترف قيادة الاممية الشيوعية بشرعية الصهيونية وبسلامة « الحل » الذي تتبناه للمسألة اليهودية ·

قبل فترة وجيزة من انعقاد المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية ، تقدم « مكتب التنظيم » للبوعالي تسيون في فيينا بمذكرة للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، اعرب فيها عن رغبة « مكتب التنظيم » بالمساهمة في أعمال المؤتمر الثاني للاممية ، وطالب قيادة الاممية بالسعي لتوحيد كافة المجموعات الماركسية في صفوف البروليتاريا اليهودية ، بما فيها المجموعة الماركسية داخل البوعالي تسيون ، والبوند الشيوعي ، والقسم اليهودي داخل الحزب الشيوعي الروسي · كما طالبت المذكرة قيادة الاممية بأن تعترف بـ « مكتب التنظيم » داخل « الاتحاد العالمي » بوعالي تسيون كالفرع اليهودي داخل الاممية الشيوعية (٥٠) ·

جـ ـ القسم اليهودي التابع للحزب الشيوعي الروسي :

تشكل القسم اليهودي داخل الحزب الشيوعي لعموم روسيا (JEWSEKTSIA) في اكتوبر العام ١٩١٨ · ولم يكن هذا القسم بمثابة منظمة خاصة بالشيوعيين اليهود ، وانما كان عبارة عن جهاز سياسي تابع لقيادة الحزب المركزية ، هدفه نشر الدعاية والتحريض في صفوف العمال اليهود · وقد كان يطبع نشراته ويوزعها باللغة اليديشية ، التي كانت تتكلمها غالبية السكان اليهود في بلدان اوروبا الشرقية ، وخاصة في كل من روسيا وبولونيا · وقد جاء في التصريح الذي أعطاه « ديمانشتين » (Dimanstein) ، احد اصدقاء هذا القسم للجريدة اليهودية السوفياتية « Der Emes » ، والذي نشر بتاريخ ١٢ ايلول ١٩١٨ : « ان هذه المنظمة اليهودية هي جزء لا يتجزأ من الحزب الشيوعي الروسي ، وليست حزبا شيوعيا جديدا ، وهي ضرورية لوجود مميزات لغوية عند اليهود ، ومن أجل تدعيم الاتصال بينهم وبين العمال الروس ··· » (٥١) ·

٣ ـ الصراعات الايديولوجية التي احتدمت بين ممثلي المجموعات السياسية اليهودية أثناء نقاشات المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية :

ساهم في أعمال المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية ثلاثة مندوبين يهود هم : « فرومكينا » (Frumkina) عن البوند الشيوعي ، و « ميريجين » (Mérejine) عن القسم اليهودي التابع للحزب الشيوعي في روسيا ، و « كون » (Kohn) عن البوعالي تسيون اليساري (٥٢) · وطبعا لم تثر مساهمة المندوبين الاولين في أعمال المؤتمر اي اشكال سياسي · فالبوند الشيوعي كان قد تبنى مواقف السلطة السوفياتية كاملة تجاه المسألة اليهودية وتمت الموافقة على انضمامه الى الاممية الشيوعية ، اما القسم اليهودي التابع للحزب الشيوعي الروسي فلم يكن ، كما ذكرنا سابقا ، بمثابة منظمة سياسية مستقلة ، وانما كان جزءا لا يتجزأ من المنظمة الام ،الحزب الشيوعي لعموم روسيا · غير أن مساهمة مندوب البوعالي تسيون اليساري في أعمال المؤتمر قد طرحت بعض الاشكالات السياسية، ولم تتم الموافقة على قبوله كعضو استشاري الا بصعوبة · سنتوقف قليلا عند هذه النقطة ، قبل استعراض مداخلات المندوبين اليهود والصراعات الايديولوجية التي احتدمت بين « فرومكينا » و « ميريجين » من جهة ، و « كون » من جهة اخرى ·

كانت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية قد رفضت مضمون المذكرة التي كان قد تقدم

بها اليها « مكتب التنظيم » بوعالي تسيون في فيينا ، والتي اعرب فيها عن رغبته بالمشاركة في اعمال المؤتمر الثاني للاممية · ومع أن طلبه قد رفض ، الا ان « مكتب التنظيم » قرر ايفاد مندوبه « كون » للمساهمة في أعمال المؤتمر ·

وفي موسكو ، رفضت لجنة مراقبة العضوية التي عينها المؤتمر الاعتراف بتمثيلية « كون » كمندوب عن البوعالي تسيون ، وحذفت اسمه من قائمة الوفد النمساوي الذي تطفل عليه · وعلى الرغم من ذلك ، استطاع « كون » الحصول على حق المساهمة في نقاشات المؤتمر كعضو مراقب له صوت استشاري فقط بعد أن تمكن من اثبات تمثيله للحزب الاشتراكي في فلسطين (M.P.S.) (٥٣) الذي كان يتعاطف مع الاممية الشيوعية ، علما بأنه لم يكن قد زار فلسطين على الاطلاق (٥٤) ·

أثيرت قضية فلسطين والصهيونية في المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية اثناء المداخلة التي القتها مندوبة البوند الشيوعي « فرومكينا » ، كمساهمة منها في النقاشات الموسعة حول المسائل القومية والكولونيالية في ٢٨ تموز ١٩٢٠ ·

وقد اكدت مندوبة البوند الشيوعي في بداية مداخلتها على ضرورة الاهتمام بمسألة الاقليات القومية التي تقطن بلدان متعددة القوميات ، ونصحت قيادة الاممية الشيوعية بعدم تكرار الخطأ الذي ارتكبته الاممية الثانية حيال هذه المسألة · ودعت كافة الاحزاب الشيوعية لخوض نضال حازم « ضد المفهوم البرجوازي لحق هذه الاكثرية القومية او تلك ، بالتملك القاطع للارض التي تقطنها ، وضد الفكرة التي تتبناها المجموعات الاشتراكية القومية التي تعتبر الاكثرية القومية بمثابة المجموعة السائدة المطلقة ، وتعامل الاقليات (القومية) العمالية التي تقطن فوق اراضيها كالاجانب » (٥٥) وقد طالبت « فرومكينا ، الاحزاب الشيوعية في جميع البلدان المتعددة القوميات بتبني البرنامج الذي وضعه الحزب الشيوعي في روسيا لحل المسألة القومية ، والذي « منح الجماهير العمالية من القوميات المتعددة (في روسيا) الامكانيات الحقيقية للتطور الثقافي » ، وساهم بوضع الاسس الكفيلة بتدعيم التعايش الاخوي فيما بينها ، خاصة بعد بناء الاجهزة الخاصة المهتمة بالمسائل القومية داخل الحزب وداخل مفوضيات الشعب (جهاز تعليم خاص بالاقليات القومية ، مفوضية مختصة بشؤون القوميات ·· الخ) (٥٦) ·

بعد ذلك انتقلت مندوبة البوند الشيوعي ، التي كانت قد عارضت اشتراك مندوب البوعالي تسيون في أعمال المؤتمر ، الى اثارة قضية الصهاينة في فلسطين داعية الاممية الشيوعية لادانة مشروعهم الاستيطاني في هذا البلد · وبهذا الخصوص اقترحت « فرومكينا » ادخال اضافة تكون بمثابة المثال الملموس على صحة المبدأ السادس من مبادىء الاطروحة الحادية عشرة من « اطروحات حول المسائل القومية والكولونيالية » التي كان لينين قد تقدم بها الى المؤتمر ، والذي دعا فيه قيادة الاممية الشيوعية للقيام بحملة ايديولوجية واسعة تفضح الخداع الذي تمارسه القوى الامبريالية على الجماهير الكادحة في البلدان المتخلفة ، حين تؤكد عن رغبتها في « اقامة دول مستقلة سياسيا ، بينما هي تقيم في الواقع دولا تابعة لها كليا من جميع النواحي الاقتصادية والمالية والعسكرية » · وقد جاء في الاضافة المقترحة من « فرومكينا » ما يلي : « بامكاننا ان نورد كمثال على عملية النفاق التي ذهب ضحيتها الجماهير العاملة للامة المضطهدة ، والتي تمارسها دول الوفاق بالاتفاق التام مع برجوازية هذه الامة نفسها، قضية الصهاينةفي فلسطين، الذين، وبحجة اقامة دولة يهودية مستقلة قد اخضعوا الجماهير العاملة العربية في فلسطين لنير

(اضطهاد) انكلترا ، مع أن اليهود لا يشكلون سوى اقلية ضئيلة في فلسطين » (٥٧) ٠ وقد استطردت المندوبة اليهودية قائلة بانها قد اشارت « لمثال الحركة الصهيونية لانه بمثابة المثال الصارخ على عملية النفاق هذه ٠ ففي فلسطين لا يتعلق الامر باغلبية من السكان اليهود ، وانما بأقلية من السكان تسعى فقط لاخضاع غالبية عمال هذا البلد لاستثمار رأسماليي دول الوفاق » ٠ وطالبت قيادة الاممية الشيوعية بمحاربة هذا النفاق الصهيوني الصارخ ، خاصة « وان الصهاينة ينشطون في جميع البلدان ، ويتلاءمون مع ظروف الجماهير العمالية اليهودية المتخلفة ويساهمون في خلق مجموعات عمالية ذات اتجاهات صهيونية (بوعالي تسيون) ، تحاول في هذه الفترة الاخيرة تملك جملة لفظية شيوعية » ، بينما هم في الواقع « يخدمون بتحريضهم ودعايتهم مصالح الطبقة الرأسمالية » (٥٨) ٠

وبعد ان انتهت مندوبة البوند الشيوعي من القاء مداخلتها ، تحدث « ميريجين » فأعلن بأن الاقسام اليهودية التابعة للحزب الشيوعي في روسيا « متفقة تماما مع وجهة النظر التي عبرت عنها الرفيقة فرومكينا بخصوص الصهيونية وبخصوص الحزب الشيوعي اليهودي بوعالي تسيون » (٥٩) ٠ ومن هنا لم يجد مندوب القسم اليهودي ضرورة للتعقيب على هذه القضايا ، وأثر تركيز مداخلته على قضية الدفاع عن حقوق الاقليات القومية القاطنة في البلدان المتعددة القوميات ٠ وقد دعا « ميريجين » المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية الى ادانة المذابح التي تنظمها ضد اليهود قوى الثورة المضادة ، والتي تتحمل مسؤوليتها دول الوفاق ، « فعملاء دول الوفاق وبواقع تواجدهم في صفوف جيوش الثورة المضادة في روسيا واوكرانيا وبولونيا وهنغاريا وغيرها من البلدان يساهمون بشكل مباشر في تنظيم هذه المذابح ، وهذا ما ظهر جليا خلال المذبحة التي نظمها ضد اليهود بمدينة القدس في نيسان الماضي عملاء الحكومة الانكليزية ٠٠ » (٦٠) وقد حث المندوب الشيوعي اليهودي في نهاية مداخلته عمال جميع البلدان بأن يناضلوا بنشاط ، عن طريق الكلمة والفعل ، ضد هذه المذابح وان يبرهنوا على أن ديكتاتورية البروليتاريا هي النظام الوحيد القادر على وضع حد لها ، من خلال القضاء على كافة الحواجز التي تفصل بين القوميات المتعددة ، واقامة اسس التآخي الحقيقي بين الشعوب ٠

في الجلسة الثانية من جلسات المؤتمر في ٢٨ تموز تحدث « كون » مندوب البوعالي تسيون ، فحذر من المحاولات التي يقوم بها بعض الخطباء ، مثل « فرومكينا » او « ميريجين » لحرف النقاشات عن مجراها الطبيعي ، واكد بأن ما ذكر عن المسألة القومية ، يتعلق بوضع اقليات تعيش في منطقة واحدة ولا يتعرض لوضع الاقليات التي تعيش مشتتة في اكثر من بلد (٦١) (يقصد اليهود) ٠ وطالب الاممية الشيوعية باسم البوعالي تسيون بتوفير « الوسائل الاجتماعية الكفيلة بارضاء الحاجات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية لجماهير الاقليات القومية العاجلة » ،مؤكدا على أن «البروليتاريا اليهودية ستكون راضية في حال منحها المؤسسات الاجتماعية الكفيلة بتأمين حاجاتها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية في اطار الدستور السوفياتي وعلى اساس ان لا يتعارض ذلك مع متطلبات نضال الدولة السوفياتية » (٦٢) ٠

غير ان مداخلة « كون » امام المؤتمر الثاني لم تكن تهدف ابدا للحديث عن الوسائل الكفيلة بتأمين الحقوق المتساوية للجماهير اليهودية التي كانت تقطن فوق اراضي الدولة السوفياتية ، خاصة وان السلطة السوفياتية لم تكن تنتظر تدخل البوعالي تسيون لتضع أسس سياستها الاممية الهادفة الى ضمان المساواة الكاملة في الحقوق والواجبات

للقوميات المختلفة ومحاربة كافة أوجه مظاهر العداء للسامية ، واتاحة الفرص امـــام الجماهير العمالية اليهودية للمساهمة في عملية البناء الاشتراكي ، من خـــلال اعطائها الامكانيات المادية للخلق والابداع في جميع المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية ٠

لقد كانت مداخلة مندوب البوعالي تسيون تهدف أساسا لاقناع الاممية الشيوعية بأن الحل « الجذري » للمسالة اليهودية لن يتحقق الا عن طريق نجاح المشروع الصهيوني في فلسطين ، ومطالبتها بالتالي بدعم وتأييد هذا المشروع ٠ وقد استغل « كون » الاضافـــة المقترحة من « فرومكينا » والهادفة الى ادانة المشروع الصهيوني في فلسطين ، ليعرض وجهة نظر حزبه التفصيلية حول هذا الموضوع ٠ فأعلن بأنه يعارض قطعيا اقرار هـــذه الاضافة من قبل المؤتمر ، وذلك على الرغم من اتفاقه التام مع محتوى القسم الاول منها « فالصهيونية البرجوازية التي وضعت نفسها بالضرورة في خدمة الامبريالية الانكليزية ، حتى لا تبدو وكأنها حركة طوباوية يجب ان تحارب بحيوية وفي جميع الظروف ٠ وهذا مـا يفعله انصار الحزب الشيوعي بوعالي تسيون ٠٠ » (٦٣) ٠ ولكنه لايجد الضرورة لادخال الاضافة المقترحة من « فرومكينا » ضمن الاطروحة الحادية عشر من الاطروحـــات ، لان الاشارة الى قضية « النضال ضد الصهيونية البرجوازية ، ستضطر المؤتمر لاتخاذ قرارات طويلة تدين حركات برجوازية قومية أخرى ، توصف بأنها حركات تحررية ٠٠» (٦٤) ٠ بعد ذلك انتقل « كون » للتعقيب على الفقرة الثانية من الاضافة المقترحة والمتعلقة بقضية ادانة نشاطات البوعالي تسيون الشيوعي « فهذا مايرمي اليه أساسا الاقتـــراح المقـــدم من فرومكينا ٠ وهنا تجدون المثال الحي عن الصراعات التي خنقت ولسنين طويلة الحيـــاة السياسية للبروليتاريا اليهودية ٠٠ » ، وأكد على ان مندوبة البوند الشيوعي لا يحق لهـا انتقاد البوعالي تسيون ، خاصة وأنها « تمثل الحزب الذي كان يدعم وحتى الامس القريب جميع الحكومات المضادة للثورة في روسيا ٠٠ بينما كنا نحن داخل البوعالي تسيون أوائل الذين وقفوا الى جانب البلاشفة في النضال ضد الثورة المضادة ، وشرعنا قبل كافـــة الاتجاهات البروليتارية اليهودية الاخرى في النضال في سبيل الثورة العالمية ٠٠ » (٦٥)٠

وبخصوص الاوضاع السائدة في فلسطين ، زعم « كون » بأن فرومكينا « تدعم قرارها المقترح ببعض تأكيدات عامة تدل على جهل تام بأوضاع البلاد المعنية »٠

وانطلاقا من هذا الزعم انبرى مندوب البوعالي تسيون يعرض ملاحظات حزبه بخصوص الاوضاع السائدة في « بلدان آسيا العربية ، أي في العراق وسوريا والجزيرة العربية » ، تلك البلدان « التي لم يشر اليها بعد ، علما بأنها تقع في محيط السيطرة الامبرياليـــة الانكليزية وهي مدعوة للعب دور هام في المستقبل على جميع الاصعدة »٠ وأعلن عـــن معارضته لوجهة نظر « فرومكينا » « التي تريد ان تظهر لنا الحركة التي استحوذت على الشرق العربي خلال الحرب العالمية الاولى وكأنها حركة تحرر وطني ، (علما) بأن جهود البدو الذين يقودون هذه الحركة المسماة بتحررية تهدف الى ضمان استغلال الجماهيـــر الكادحة ونزع الفلاحين عن اراضيهم ، وهم يجدون في محاولاتهم هذه الدعم الكامل من قبل الامبريالية الانكليزية ٠٠ » (٦٦) ٠ أما بخصوص موقف «شيوعيي البوعالي تسيون » من الاوضاع في فلسطين ، فقد اكد « كون » على ان حزبه « لا يريد بناء دولة يهودية في فلسطين ، او على الاقل لا يريد بناء دولة بدعم من الامبريالية الانكليزية ٠٠٠ وانمـا يطالب بضمان حق الهجرة والاستيطان في هذا البلد ، طالما هو موجود بأيدي البرجوازية الانكليزية ، للجماهير اليهودية التي ستهاجر خلال الثورة الاجتماعية من البلدان التي

تقطنها بكثافة ، كما في اوكرانيا وليتوانيه وبشكل خاص في بولونيا ، وسيذهب قسم منها الى فلسطين للعمل في الزراعة مدفوع في ذلك نحو العمل المنتـــج الاجتماعي المفيـد والضروري ... » ، واعلن بأن تنظيم الهجرة والنشاط الاستيطاني اليهودي في فلسطين لن ينجز الا عبر نضال « الطبقة العاملة اليهودية وعمال البـــلاد الاصليين وبتضامن البروليتاريا العالمية ، ضد البرجوازية اليهودية وضد البرجوازية العالمية ... » ، ملقيا بمسؤولية قيادة هذا « النضال » على عاتق « الحزب الاشتراكي في فلسطين المنتمي الى حزبنا والذي يمثل المجموعة البروليتارية الشيوعية الوحيدة التي تخوض النضال الصعب ضد الامبريالية الانكليزية ، ليس فقط في فلسطين بل في المنطقة العربية بأسرها ...» (٦٧)·

انطلاقا من جميع هذه الاعتبارات لاحظ مندوب البوعالي تسيون بأن القرار المقترح من « فرومكينا » والذي يناقشه المؤتمر « يبدو وكأنه يتجاهل وقائع هذه البلدان ويريد دفع المؤتمر الى اتخاذ قرار مثير للسخرية .. » ، فالوقائع الاجتماعية السائدة في هذه البلاد تدل على ان « العمال اليهود المهاجرين هم بمثابة البروليتاريا الحديثة الوحيدة ، البعيدة عن اي رغبة في التملك والمفعمة بالتالي بروح الوعي الطبقي وبارادة النضال الثوري ، (اما) الجماهير العربية التي تعمل فوق اراضي كبار الملاكين اليهود والافندية العرب وتملك قسما كبيرا من هذه الاراضي ، فلا يمكن اعتبارها الا بمثابة نصف بروليتاريا · وان الطليعة السياسية التي ستدفع هذه الجماهير في خضم المعركة الثورية ... هو حزبنا الذي زرع نفسه في فلسطين بدعاية ثورية قوية وبوفـــاء عميق لمبـــادىء الاممية الشيوعية .. » (٦٨) ·

وفي نهاية مداخلته ، طالب « كون » مندوبي المؤتمر برفض اقرار القرار المقترح مـــن « فرومكينا » لانه « يتعارض مع جميع هذه الوقائع ، ومع فحوى ونص الاطروحات التـي تطالب بتقديم الدعم الكامل للمجموعات الشيوعية البروليتارية حيث وجدت ، في نضالها ضد الحركات الثورية القومية ــ البرجوازية ، ولانه سيضر كثيرا بنشاط الحركة الشيوعية في صفوف البروليتاريا اليهودية في العالم اجمع ، وبشكل خاص بنشاط الحركة الشيوعية في المنطقة العربية » (٦٩) ·

★★★

عبرت مداخلة « كون » امام مندوبي المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية تعبيرا صادقا عن طبيعة التناقضات الداخلية الكامنة في مواقف وسياسات التيار « الشيوعي » الصهيوني · فمن جهة وفاء كامل للمبادىء النظرية التي وصفها « بوروشوف » ، ومن جهة اخرى رغبة معلنة بالانخراط في نضال الحركة العمالية الثورية العالمية بقيادة الاممية الشيوعية · وقد كان مندوب البوعالي تسيون يهدف من وراء مداخلته الى اقناع الاممية الشيوعية بسلامة الحل الصهيوني في فلسطين للمسألة اليهودية ، ويسعى الى توفير « الشرعية الثورية » لمثل هذا الحل عن طريق العلاقة التنظيمية التي كان يأمل باقامتها بين حزبه وبين الاممية الشيوعية ، بعد اعتراف هذه الاخيرة بالبوعالي تسيون « ممثلا وحيدا للبروليتاريـــا اليهودية » (٧٠) ·

وللتوصل الى تحقيق هدفه هذا ، قام « كون » بتزييف الاوضاع السائدة في فلسطيـــن وطبيعة الصراع الدائر بين قوى المعسكرين الامبريالي ــ الصهيوني من جهة ، والوطني التحرري العربي من جهة اخرى · فالبس الحركة الصهيونية لباس « حركة تحرر وطني »

بعد ان نزع هذا اللباس عن حركة التحرر الوطني العربية بحجة ان قياداتها « رجعية ـ اقطاعية » · واكد على ان البروليتاريا اليهودية هي الفئة الوحيدة المؤهلة « بامتلاكها للوعي الطبقي » للعب دور «طليعي في قيادة النضال الاجتماعي في المنطقة » · اما المشروع الاستيطاني ـ الصهيوني فقد صوره وكأنه بمثابة « عمليةسلمية » لاتهدف الى اقامة دولة يهودية في فلسطين على حساب مصالح الجماهير العربية ، وانما ترمي الى تحويل المهاجرين اليهود الى « مزارعين منتجين » يساهمون في تحديث اوضاع البلاد بما يخدم مصالح الجماهير العربية الكادحة ·

لقد زيف مندوب البوعالي تسيون خلال مداخلته طبيعة الحركة الصهيونية كحركة عنصرية ـ رجعية تهدف الى اخضاع الجماهير الكادحة العربية لخدمة مصالح البرجوازية الكبيرة اليهودية والامبريالية العالمية عن طريق اقامة دولة صهيونية في قلب العالم العربي · وشوه المحتوى الاجتماعي التقدمي والمعادي للامبريالية لحركة التحرر الوطني العربية ، التي كانت تقودها بالفعل « قيادات رجعية ـ اقطاعية » ، ولكن قواها الاجتماعية المحركة والمحددة لطبيعة محتواها كانت اساسا قوى الجماهير العربية الكادحة من العمال والفلاحين· وزعم بأن البروليتاريا اليهودية هي وحدها المؤهلة لقيادة النضال الاجتماعي في المنطقة « لتملكها للوعي الطبقي » ، متناسيا حقيقة ان الغالبية العظمى من العمال اليهود ـ ما عدا فئة محدودة جدا من العمال اليهود الثوريين والاممين ـ المنضوية تحت لواء الاحزاب « الاشتراكية ـ الصهيونية » ، كانت تسبق دوما وعيها « القومي » الصهيوني على حساب وعيها الطبقي ، وما الشعارات الشوفينية التي كانت ترفعها (احتلال الارض ، واحتلال العمل) سوى الدليل القاطع على صحة هذه الحقيقة ·

غير ان مندوب البوعالي تسيون لم يستطع ، وعلى الرغم من تزييفه الفاضح لوقائع الحقائق الملموسة ، خداع مندوبي المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية الذين وافقوا بالاجماع على اقرار الاضافة المقترحة من مندوبة البوند الشيوعي « فرومكينا » · وهكذا قدم لينين والبلاشفة والاممية الشيوعية منذ العام ١٩٢٠ ، سلاحا نظريا فعالا للقوى الوطنية والتقدمية العربية بغية مكافحة الصهيونية والامبريالية ·

الحواشي :

١ ـ بونداريفسكي ، سياستان ازاء العالم العربي ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧٥ ، ص ٢٨٤ ·

٢ ـ بيانات واطروحات ومقررات المؤتمرات العالمية الاربعة الاولى للاممية الشيوعية (١٩١٩ـ١٩٢٣) ، ماسبيرو ، باريس ، ١٩٧٢ ، ص ٥٧ ـ ٦٠ ·

٣ ـ نفس المصدر ، ص ٥٨ ـ ٥٩ · كان «فواز طرابلسي» قد ترجم هذا النص عن الانكليزية ونشره ضمن البحث الذي اعده عن «الاممية الشيوعية وقضية فلسطين» في المقاومة الفلسطينية الواقع والتوقعات ، كتاب خاص صادر عن مجلة دراسات عربية ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٦٧ ·

٤ ـ لم يتطرق لينين مثلا في مسودة أطروحاته الاولية حول المسائل القومية والكولونيالية لمثال فلسطين · راجع لينين ، المؤلفات الكاملة ، الجزء ٣١ ، باريس ـ موسكو ، ١٩٦١ ـ ص ١٥١ ·

٥ ـ انظر لينين : المسودة الاولية للاطروحات حول المسائل القومية والكولونيالية ، المصدر نفسه ، ص ١٤٥ ـ ص ١٥٢ · انظر كذلك : المسودة الاولية للاطروحات حول المسألة الزراعية، المصدر نفسه ، ص ١٥٣ ـ ص ١٦٦ ·

٦ ـ الاممية الشيوعية ، عرض تاريخي

موجز ، معهد الدراسات الماركسية ـ اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، دار التقدم ، موسكو ، ص ٧٥ · (بالاسبانية)·

٧ ـ لينين ، المؤلفات الكاملة ، الجزء ٣١ ، ص ٢٢١ ـ ٢٤١ ·

٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٣٩ ·

٩ ـ عندما عرض لينين المسودة الاولية للاطروحات ، رجا «جميع الرفاق، وخاصة اولئك الذين يمتلكون معارف محددة في هذا المجال» ، بان يعبروا عن ارائهم من خلال تقديم تصحيحاتهم وشروحهم الملموسة لمسودته ·

١٠ ـ راجع بهذا الصدد : أندريه بيير (André Pierre) المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية ، تقرير عن النقاشات مستوحى من جرائد موسكو ، مكتبة الحزب الاشتراكي و«الانسانية» ، باريس ، ١٩٢٠ ، ص ١٨ ـ ص ١٩ ·

١١ ـ انظر : الماركسية واسيا (١٨٥٣ ـ ١٩٦٤) ، منشورات (A. Colin) ، باريس ، ١٩٦٥ ، ص ١٩٧ ـ ١٩٩ وايضا ص ٢١٢ ـ ص ٢١٦ ·

١٢ ـ المصدر نفسه ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠·

١٣ ـ لينين ، تقرير اللجنة القومية والكولونيالية المقدم في ٢٦ تموز ، في المؤلفات الكاملة ، الجزء ٣١ ، ص ٢٤٧ ـ ٢٥٣ ·

١٤ ـ راجع مقتطفات من مداخلة المندوب الايطالي في : الماركسية واسيا ، المصدر المذكور ، ص ٢١٩ ـ ص ٢٢٢ ·

١٥ ـ المندوبان الايطاليان «سيراتي» و«غرازيادي» (Graziadie) بالاضافة الى المندوب الاسباني «بيستانيا» (Pestania)

١٦ ـ أورده س· بارون (S. Baron) في كتابه : اليهودي الروسي في العهدين القيصري والسوفياتي ، منشورات ماكميلان ، نيويورك ، ١٩٦٤ ، ص ١٧٠ · (بالانكليزية) ·

١٧ ـ انظر لينين ، المؤلفات الكاملة ، الجزء ٦ ، ص ٥٦٢ ·

١٨ ـ انظر بيريتزمرهاف (P. Merhav) : اليسار الاسرائيلي ، تاريخ وقضايا واتجاهات الحركة العمالية الاسرائيلية ، منشورات Antropos ، باريس ، ص ٢١ ـ ٢٢ ·

١٩ ـ انظر لينين ، المؤلفات ، الجزء ٦ ، ص ٥٦٢ ·

٢٠ ـ تاريخ الحزب الشيوعي «البلشفي» في الاتحاد السوفياتي ، موجز صادر عن لجنة خاصة باشراف اللجنة المركزية للحزب ، منشورات اللغات الاجنبية ، موسكو ، ١٩٤٩ ، ص ٤٨ · (بالفرنسية) ·

٢١ ـ لينين ، المؤلفات ، الجزء ٧ ، ص ٩٠ ـ ص ١٠١ ·

٢٢ ـ انظر : «البوند : معركة سياسية طويلة» في مجلة «الدفاتر الجديدة» (Les nouveaux Chaiers) رقم ١١ ، خريف ١٩٦٧ ، ص ٤٩ ـ ٥١ ·

٢٣ ـ المصدر السابق ، ص ٥٠

٢٤ ـ هاجم البوند في عدة مقررات اتخذتها مؤتمراته الحل الصهيوني للمسألة اليهودية ، مفندا موضوعات هذا الحل الذي لا أهمية تذكر له « اذا كانت الصهيونية تدعو لهجرة عدد محدود من اليهود الى فلسطين» · أما اذا كانت الصهيونية تطمح الى هجرة «معظم اليهود ، أو القسم الاكبر منهم الى فلسطين» ، فمن الضروري محاربتها «كفكرة طوباوية خطيرة ، لن تفعل سوى أن تحرف الجماهير اليهودية عن النضال

في سبيل حقوقها السياسية والاقتصادية، وستؤدي الى اضعاف مستوى وعيها الطبقي» ٠

ليس هناك من شك بان قادة البوند كانوا صادقين مع أنفسهم في دعواتهم المتكررة لمحاربة الحل الصهيوني ٠ الا ان حسن نياتهم ، خاصة وهم يدعون لحل «قومي» من نوع اخر للمسألة اليهودية داخل الامبراطورية الروسية ، لم يمنع القادة الصهاينة من تجيير الدعوات القومية للبوند لخدمة الحل الصهيوني الذي كانوا يدافعون عنه ٠ ولقد أشاد القادة الصهيونيون بالخدمات غير المباشرة ، التي قدمها لهم البوند خلال نشاطه ٠ فكتب «جابوتنسكي» ، أحد اولئك القادة المغرضين برجعيتهم : «انني من أنصار البوند المتحمسين ٠٠ انني اشك بأن يكون للبوند دور هام بخصوص مستقبل روسيا ، ولكن مستقبل اليهود يهمني اكثر بكثير كصهيوني ٠ لقد كان دور البونديين كبيرا في هذا الخصوص، (فنشاطهم) قد سهل لنا مهمة تحقيق الاهداف العريضة للصهيونية ٠ لقد خدم البونديون بشكل مباشر الحركة الصهيونية ، فقد ساعدونا قليلا فقليلا بشكل خاص ، على ايجاد الطريق السليم (لربط العمال اليهود بالحركة الصهيونية)، فالتقدم الكبير الذي أحرزه البوعالي تسيون قد تحقق جزء كبير منه بفضل البوند» ٠

٢٥ ــ انظر م٠ رافيس (M. Rafes) «الحركة الشيوعية اليهودية» من مجلة «الاممية الشيوعية» ، رقم ٩ ، نيسان ١٩٢٠ ، ص ١٣٤٥ ــ ص ١٣٥٤ ٠(الطبعة الفرنسية) ٠

٢٦ ــ المصدر السابق ، ص ١٣٥٠ ٠

٢٧ ــ انظر «البوند اليهودي ، السوفياتيات والاممية الشيوعية» في «الاممية الشيوعية» ، رقم ١١ ، حزيران ١٩٢٠ ، ص ١٨٩٩ ٠

٢٨ ــ لم يعمر التواجد المستقل للبوند الشيوعي طويلا ٠ ففي المؤتمر الاستثنائي الذي عقده هذا الحزب في موسكو من ٥ الى ١١ اذار العام ١٩٢١ تقرر الموافقة على مشروع القرار الذي كانت قد تقدمت به قيادة الاممية الشيوعية لحل الحزب والاندماج نهائيا بالحزب الشيوعي لعموم روسيا ٠ راجع بهذا الصدد : «مقررات المؤتمر الاستثنائي للبوند في عامة روسيا» في «الاممية الشيوعية» ، رقم ١٧ ، حزيران ١٩٢١ ، ص ٤١٩٧ ٠

٢٩ ــ راجع الكسندر بياسكوفسكي : «الصهيونية في روسيا القيصرية» ، في «الصهيونية بين الامس واليوم» ، كتاب خاص صادر عن أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي ، موسكو ، ١٩٧٦ ، ص ٣١ ٠ (بالفرنسية) ٠

٣٠ ــ ولد بوروشوف بمدينة «بولتافا» في روسيا القيصرية في العام ١٨٨١ ٠ وكان والده المعلم واحدا من مؤيدي مجموعة «عشاق صهيون» المثالية في هذه المدينة ٠ لم تختلف كتاباته الاولى عن كتابات المثقفين الصهيونيين انذاك ، وقد تميز نشاطه السياسي في بدايته بتعاونه الوثيق مع «ب اوسيشكين» أحد قادة الحركة الصهيونية في روسيا الوسطى ، والذي كان أبعد مايكون عن الفكر الاشتراكي ٠ تبنى بوروشوف الفكر الاشتراكي بعد اطلاعه على كتابات المفكر الصهيوني الاشتراكي الاول «ناحمان سيركين» ، وخاصة كتابه «الثورة الاشتراكية والدولة اليهودية» ٠ هاجر «بوروشوف» في العام ١٩٠٧ الى الولايات المتحدة الاميركية ، ولم يرجع الى روسيا الا في العام ١٩١٧ ، ولكن الموت لم يمهله طويلا حيث توفي بعد أشهر قليلة من رجوعه ٠

٣١ ــ لم يعبأ بوروشوف كثيرا بالثمن

المطلوب من الماركسية ان تدفعه لضمان النجاح بالخروج بمحصلة نظرية واحدة للعقيدتين الصهيونية والماركسية ٠

٣٢ ــ انظر بير بوروشوف : « الطبقة والامة» ، منشورات انجيل (ANGEL) ، تونس ، ١٩٤٥ ٠ (بالفرنسية) ٠

٣٣ ــ المصدر السابق ، ص ٢٦ ٠

٣٤ ــ المصدر ذاته ، ص ٦١ ٠

٣٥ ــ المصدر ذاته ، ص ٦٣ ٠

٣٦ ــ المصدر ذاته ، ص ٦٣

٣٧ ــ للتعرف على الاوضاع الاجتماعية لليهود داخل الامبراطورية القيصرية ، راجع ابراهام ليون : المفهوم المادي للمسألة اليهودية ، ترجمة عماد نويهض ، دار الطليعة ، بيروت ، تشرين الثاني ١٩٦٩ ٠

٣٨ ــ وهنا تناسى «الماركسي» بوروشوف أن المادية التاريخية هي احدى الركائز الرئيسية للنظرية التي وضعها ماركس ، وأن الماركسي الحقيقي لاينظر للواقعة التاريخية الملموسة الا كنتاج لعملية تطور تاريخي طويل محكوم بالقوانين الموضوعية ٠

٣٩ ــ تجدر الملاحظة هنا بأن بوروشوف عندما يتحدث عن «الطبقة العاملة اليهودية» ، فانه لايتحدث عنها كفئة اجتماعية في طور التكون ٠ وانما كطبقة اجتماعية متجانسة ومتواجدة ، وذلك على الرغم من ظروف «الهرم المعكوس» ٠ وقد كان التأكيد على تواجد هذه الطبقة «ذات المصالح الطبقية الواحدة» يشكل ركيزة أساسية من ركائز النظرية التي وضعها بوروشوف ، خاصة وأن غياب «الطبقة العاملة اليهودية الواحدة» سيعني عمليا محو كافة التمايزات التي تميز النظرية «الاشتراكية الصهيونية» عن النظرية الصهيونية «البورجوازية» بشكل عام ٠

ولكن اذا تساءلنا هل كانت هذه «الطبقة العاملة اليهودية» متواجدة في الواقع ، فان الجواب سيكون النفي ٠ صحيح أنه كان هناك عشرات الالاف من العمال اليهود ، الا انهم لم يشكلوا أبدا فئة اجتماعية متجانسة ولها مصالحها الطبقية المحددة ، بل كانوا جزءا لايتجزأ من الطبقة العاملة الواحدة داخل روسيا القيصرية ٠

٤٠ ــ أورده ماريو اوفينبرغ (M. Offenberg) : الشيوعية في فلسطين ، الامة والطبقة في الثورة المعادية للاستعمار ٠ منشورات Meisenheim am Glan Verlag Anton Hain ١٩٧٥ ، ص ٥٤ ٠ (بالالمانية) ٠

٤١ ــ المصدر السابق ، ص ٥٤ ٠

٤٢ ــ راجع مقتطفات هامة من هذه الوثيقة في ب٠ مرهاف ، اليسار الاسرائيلي ، المصدر المذكور ، ص ٤٠ ــ ص ٤٣ ٠

٤٣ ــ انظر الكسندر بياسكوفسكي ، المقال المذكور ، ص ٣٢ ٠

٤٤ ــ المصدر السابق ، ص ٣١ ٠

٤٥ ــ المصدر ذاته ، ص ٣٢ ٠

٤٦ ــ انظر م٠ اوفينبرغ ، الشيوعية في فلسطين ، المصدر المذكور ، ص ٦٥ ٠

٤٧ ــ المصدر السابق ، ص ٦٥ ــ ٦٦ ٠

٤٨ ــ المصدر ذاته ــ ص ٦٦ ــ ٦٧ ٠

٤٩ ــ المصدر ذاته ، ص ٦٧ ــ ٦٨ ٠

٥٠ ــ المصدر المصدر ذاته ، ص ٩١ ٠

٥١ ــ اورده م٠ اوفينبرغ ، المصدر ذاته ، ص ١٠٢ ٠

٥٢ ـ انظر : المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية ٠ تقرير مختزل ، مطبوعات الاممية الشيوعية ، بتروغراد ، ١٩٢١ ٠ (بالفرنسية) ٠

٥٣ ـ راجع بونداريفسكي ، سياستان ازاء العالم العربي ، المصدر المذكور ، ص ٢٨٦ ٠ انظر كذلك م٠ اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ٩٥ ـ ٩٦ ٠

تأسس حزب العمال الاشتراكي في فلسطين (M.P.S.) في اذار ١٩١٩، من اتحاد اعضاء حزب البوعالي تسيون الذين عارضوا الانضمام الى «اتحاد العمل» الصهيوني اليميني «احدوت هعفودا» مع اعضاء مجموعات اشتراكية صغيرة اخرى ٠ ومن ان ايديولوجية هذا الحزب لم تكن قد تبلورت بعد من الناحية الماركسية ، وكان يشوبها الكثير من بقايا الافكار الاشتراكية ـ الصهيونية ،الا ان تأسيسه كان بمثابة خطوة هامة على طريق قيام الحزب الشيوعي في فلسطين٠ وقد أيد اعضاء هذا الحزب بحماس ثورة اكتوبر وتوجهوا الى الاممية الشيوعية منذ البداية ٠

٥٤ ـ م٠ اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ٩٦ ٠

٥٥ ـ انظر النص الكامل للمداخلةالتي ألقتها «فرومكينا» في : المؤتمر الثاني ٠٠ تقرير مختزل المصدر المذكور ، ص ١٩٨ ـ ٢٠١ ٠

٥٦ ـ المصدر السابق ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ ٠

٥٧ ـ المصدر ذاته ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١

٥٨ ـ المصدر ذاته ، ص ٢٠١ ٠

٥٩ ـ انظر النص الكامل للمداخلةالتي القاها «ميريجين» في المصدر ذاته ، ص ٢٠٧ ـ ٢١٢ ٠

٦٠ ـ المصدر ذاته ، ص ٢١١ ٠

٦١ ـ انظر النص الكامل للمداخلة التي القاها «كون» ، في المصدر ذاته ، ص ٢١٢ـ٢١٨ ٠

٦٢ ـ المصدر ذاته ، ص ٢١٣ ٠

٦٣ ـ المصدر ذاته ، ص ٢١٥ ٠

٦٤ ـ المصدر ذاته ، ص ٢١٥ ٠

٦٥ ـ المصدر ذاته ، ص ٢١٥ ـ ٢١٦ ٠

٦٦ ـ المصدر ذاته ، ص ٢١٦ ٠

٦٧ ـ المصدر ذاته ، ص ٢١٧ ٠

٦٨ ـ المصدر ذاته ، ص ٢١٨ ٠

٦٩ ـ المصدر ذاته ، ص ٢١٨ ٠

٧٠ ـ في سعيها المتواصل للانضمام الى الاممية الشيوعية دخلت قيادة البوعالي تسيون ، بعد المؤتمر الثاني للاممية ، بمفاوضات رسمية مع اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية استمرت حتى صيف العام ١٩٢٢ ٠ وقد انقطعت الاتصالات بين الطرفين بعد أن رفضت قيادة البوعالي تسيون قبول الشروط التي وضعتها اللجنة التنفيذية للاممية والقاضية بتخلي البوعالي تسيون عن ايديولوجية الصهيونية وحل نفسها وانتساب اعضائه للاحزاب الشيوعية المحلية ٠

أنت متهم .. قل ما تعرفه

صدر هذا التحقيق الهام ، الذي تنشر « شؤون فلسطينية » نصه الحرفي ، في جريدة « الصانداي تايمز » الاسبوعية ، تاريخ ٧٧/٦/١٩ · وهو اجراء محاولة تقوم بها الصحافة الانكليزية والغربية عموما ، لكشف انتهاكات « اسرائيل » الفاضحة لحقوق الانسان ، كما يعبر عنها في تعذيب السجناء والمعتقلين الفلسطينيين ·

وتشير الصحيفة ، الى انها تنشر هذا الملف ، لانها تعتقد ان حقوق الانسان لا تتجزأ ، وهناك ضرورة للفت الرأي العام العالمي ، الى ما يجري داخل اسرائيل · « لان العديد من الهيئات الدولية التي ادانت سوء معاملة المعتقلين في عدد كبير من بلاد آسيا وافريقيا واميركا الجنوبية ، تتردد في ادانة اسرائيل » · كما ان « الصانداي تايمز » ، تدين بشدة مواقف الصحافة الاسرائيلية ـ « الليبرالية » ـ التي كان من المفترض بها ادانة انتهاكات « اسرائيل » اليومية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، بينما هي تكتفي بنشر بيانات تكذيب ونفي تعذيب المعتقلين في سجون « اسرائيل » ·

هذا الملف ، هو نتيجة تحقيق قام به فريق « انسايت » داخل الارض المحتلة ، واستمر خمسة اشهر · وهو بهذا المعنى ، بالغ الدلالة ، لانه يكشف وللمرة الاولى ، وعلى النطاق العالمي الواسع ، قضية محاولة سحق الكرامة الانسانية ، التي يحاولها الحكم العسكري المحتل ·

لقد اثار نشر هذا التحقيق ردود فعل مختلفة ، نشير هنا الى ابرزها :

١ ـ مجموعة كبيرة من رسائل القراء ، وصلت الى الصحف التالية : (الصانداي تايمز ، الهيرالد تريبيون ، لندن تايمز ، الاوبزرفر) ، بعضها يدافع عن « اسرائيل » ، عبر الاشارة الى حالة اليهود في البلاد العربية ، او عبر التأكيد من جديد على فاشية التجمع الاسرائيلي ، كما جاء في رسالة قارىء من تل ابيب : « الارهابيون العرب ليسوا جنودا بل قتلة · اتريدون ان نكون لطفاء معهم ، بينما هم يقتلون النساء والاطفال · نحن مضطرون ان نكون اقوياء · علينا ان ندبرهن ذلك للمخربين العرب ، والا دمرونا » ·

وبعضها الآخر من لجان متعاطفة مع الحق العربي ، تؤيد نشر التحقيق · او من مواطنين يهود يؤيدون فيها نشر التحقيق « ان عددا كبيرا من اليهود في اسرائيل ولندن ، ومناطق اخرى من العالم ، كانوا قد احتجوا على هذه الممارسات ونعتوا بالخونة » ·

٢ ـ اثار نشر هذا التحقيق ردود فعل على الصعيد السياسي ، اذ وقع ٢٧ نائبا بريطانيا مذكرة ، تدعو الى مناقشة الموضوع في مجلس العموم · كما اعلن مونمان ، وهو نائب عمالي بريطاني ورئيس الاتحاد الصهيوني ، نيته في اقامة دعوى على الصانداي تايمز امام مجلس الصحافة · اما الصحافة الاسرائيلية ، فقد اشارت الى هذا التحقيق بشكل عرضي ، وفي معرض نفي ما جاء فيه · وقد اقترح احد محرري « هآرتس » ابعاد الصحفيين الاجانب الذين يتكلمون عن المعاملة السيئة التي يتلقاها السجناء العرب ·

٣ ـ اما على المستوى « الاسرائيلي » ، فكان هناك ردان :

ا ـ رد صحفي ، نشر في « الصنداي تايمز » و « لندن تايمز » ، يبدي اسفه على عدم شمول التحقيق القضاة الاسرائيليين ، لان القضاء الاسرائيلي مستقل · ثم ينفي ما ورد في التحقيق ، مع مهاجمة المحاميتين فيليسيا لانغر ، وليا تسيميل ·

ب ـ سمحت « اسرائيل » لبعض الصحفيين بزيارة سجن غزة ، ومقابلة المعتقلين هناك · وقد اشار المعتقلون ، الى انهم عانوا من سوء المعاملة ، لكنهم لم يشيروا الى كونهم عذبوا بالكهرباء ·· وقد اجاب رئيس تحرير « انسايت » (مجموعة صحفيي الصنداي تايمز الذين قاموا بالتحقيق) الى ان هذا الرد خاطىء · فنحن نعلم انه الآن ، لا يوجد تعذيب في سجن غزة ، ولذلك فاسرائيل هي التي اختارت هذا السجن بالذات ، ولم تعط الصحفيين حرية الاختيار ·

في ساعة مبكرة من صباح الرابع والعشرين من شباط (فبراير) سنة ١٩٧٧ تمت عملية نقل عند جسر اللنبي ، نقطة المرور الرئيسية من الضفة الغربية التي يحتلها الاسرائيليون الى الضفة الشرقية للاردن ·

فقد تقدمت سيارة جيب عسكرية اسرائيلية الى وسط الجسر وتوقفت هناك · وترجل منها عدة جنود اسرائيليين وتبعهم احد موفدي الصليب الاحمر من القدس ، وهو سويسري شاب يدعى برنار مونغر · ومعا ساعدوا شخصا هزيلا على النزول من سيارة الجيب ومددوه على نقالة · كان اسمه عمر عبد الكريم · وكان نجارا فلسطينيا من قرية بيت ساحور ، القائمة تحت بيت لحم مباشرة · كان في الخامسة والثلاثين من عمره ، ولكنه بدا شيخا مسنا ·

وعلى الجانب الاردني من الجسر كانت جماعة صغيرة تنتظر عبد الكريم · وكانت هذه الجماعة تتألف من اخيه وضابط ارتباط عسكري اردني وجان كورفوازييه ، رئيس بعثة

الصليب الاحمر الدولي في عمان · ورفع رجلا الصليب الاحمر ، كورفوازييه ومونغر ، النقالة وحملاها الى سيارة اسعاف تابعة للهلال الاحمر الاردني (الذي يعمل في الاردن بالتعاون مع الصليب الاحمر الدولي) ·

وفيما توجه مونغر عائدا الى سيارة الجيب الاسرائيلية ، حاول عبد الكريم بضعف ان يلوح له بيده مودعا · وعندما سأله احد العسكريين عن اسمه ، لم تكد شفتاه تتحركان · وحزن شقيق عبد الكريم عندما بدا له أن عبد الكريم لم يعرفه · وقال كورفوازييه لاصدقائه فيما بعد : « اعتقدت انه سيموت » ·

لكن عبد الكريم ظل على قيد الحياة · وعند الظهيرة ادخل الى مستشفى الملك حسين في السلط ، التي تبعد عن الجسر ٢٥ ميلا على الطريق الى عمان · ودون في سجل الحالات لدى الفحص الاول الذي اجري عليه انه هزيل وضعيف · وكان يشكو آلاما في الصدر ويجد صعوبة في التنفس · وكان مصابا بالتهاب في مجرى البول وظهرت عليه علامات الدوار · وتشير صعوباته في التحرك الى تأكيد شكواه من ان مفاصله ، وبخاصة ركبتيه ، تؤلمه ايضا · ثم اظهرت الصور بالاشعة السينية للصدر ان اضلع عبد الكريم كانت في احدى المراحل قد انكسرت · ولاحظ الطبيب ايضا ان عبد الكريم كان في حالة عصبية شديدة ، ووصف له المهدئات ·

غير ان عبد الكريم استمر يحمل آثار كونه مر في اختبار اليم · وعندما جاءت زوجته نجمة لتزوره حدق فيها ، وسألها : « من انت ؟ » ومر بعض الوقت قبل ان يبدو عليه انه تذكرها ·

وبمعونة المضادات الحيوية والفيتامينات المتعددة وحمية عالية بالبروتينات استعاد عبد الكريم وعيه وعافيته ببطء ، علما بانه كان بعد ذلك بشهرين ما يزال يمشي بصعوبة بالغة ·

وقال عبد الكريم ان قوات الامن الاسرائيلية كانت قد اعتقلته قبل ذلك بأربعة اشهر واتهمته بالانتماء الى حركة المقاومة الفلسطينية · وقال انه بعد ذلك تعرض للتعذيب · وكانت اعمال التعذيب التي رواها وحشية ومطولة ومنظمة وفوق ذلك مطبقة بصورة لا تترك ادنى شك ــ اذا صحت روايته ــ بأن الاسرائيليين يمارسون التعذيب المنظم ·

كنا ننتظر وصول عبد الكريم · وقد علمنا بقضيته في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٧٧ حين كان ما يزال تحت الحجز الاسرائيلي ·

وقبل اطلاق سراحه كنا قد تحدثنا الى زوجته ومحاميه ورئيس بلدية قريته ·

وكنا طيلة خمسة اشهر نحقق في مزاعم عن قيام اسرائيل بالتعذيب المنظم للسجناء العرب · وكانت مثل هذه المزاعم مستمرة باصرار منذ نحو عشرة اعوام ــ منذ الاسابيع الاولى للاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة بعد انتصار اسرائيل في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ · وقامت الامم المتحدة ومنظمة العفو الدولي Amnesty وعدة افراد ، في اوقات مختلفة ، بتحقيقات تفصيلية في الأدلة واستنكرت الممارسة الاسرائيلية بدرجات متفاوتة · بيد ان جميع التحقيقات السابقة كانت مكشوفة للانتقاد لانها اجريت خارج اسرائيل والاراضي المحتلة ، دون ان تحاول التثبت من الحقائق في المكان نفسه الذي جرى فيه التعذيب · حتى ان لجنة خاصة من لجان الامم المتحدة قد اعترفت بعدم قدرتها

على « التوصل الى نتيجة حاسمة ، اذ ان هذه لن تكون ممكنة الا بعد استقصاء حر داخل الاراضي المحتلة » ٠

وقد عملنا لاجل هذا التحقيق الذي قام به فريق انسايت ، داخل الضفة الغربية وقطاع غزة . فأخذنا التصاريح واستقصينا الروايات هناك وذهبنا الى بلدان عربية مجاورة ، حيثما دعت الضرورة ، لزيادة التثبت من هذه الادعاءات ٠ واستجوبنا ٤٩ عربيا فلسطينيا كانوا تحت حجز قوات الامن الاسرائيلي ٠ وجميع هؤلاء تقريبا ما يزالون يقيمون في الاراضي المحتلة ٠ وادعى ٤٤ منهم ، انهم تعرضوا للتعذيب ٠

وقد وافق ٢٢ فلسطينيا من العرب الذين شملهم التحقيق على ان نذكر اسماءهم ، حتى وان كانوا ما يزالون يقيمون تحت الحكم العسكري الاسرائيلي ٠ وفي توصلنا الى الاستنتاجات اعطينا وزنا اكبر لهؤلاء الاشخاص ٠ اما الحالات الباقية حيث طلب الفلسطينيون ان تبقى اسماؤهم مجهولة ، فقد عاملناها بمزيد من الحذر ، علما بأن اتفاقا ثابتا في الروايات يبرز من هذه الحالات ايضا ٠

واستنتاجاتنا هي الآتية :

١) ان اجهزة الامن والمخابرات الاسرائيلية اساءت معاملة العرب في السجن ٠

٢) كان بعض سوء المعاملة بدائيا فقط : ضرب المعتقلين لفترات طويلة على سبيل المثال ٠ الا ان الاسرائيليين يستخدمون اساليب اكثر تعقيدا وحداثة ايضا ، بما فيها التعذيب بالصدمة الكهربائية والحبس في زنزانات مبنية بناء خاصا ٠ وهذا النوع من الاجهزة ، مقرونا بدرجة التنظيم الواضحة في تطبيقه ، ينقل ممارسة اسرائيل من صعيد الوحشية البسيطة ويضعها بثبات في فئة التعذيب ٠

٣) يجري التعذيب في ستة مراكز على الاقل : في سجون المدن المحتلة الرئيسية الاربع، نابلس ورام الله والخليل في الضفة الغربية، وغزة في الجنوب، وفي مركز الاعتقال بالقدس ، المعروف بالمجمع الروسي Russian compound ، وفي مركز المخابرات العسكرية الخاص الذي لا يعرف مكان وجوده ولكن الشهادات تشير الى انه في مكان ما داخل قاعدة التموين العسكرية الشاسعة في صرفند ، قرب مطار اللد على طريق القدس ـ تل ابيب ٠ وثمة ادلة تشير ايضا الى انه كان هناك ، لفترة من الوقت على الاقل ، معسكر مماثل في مكان ما قرب غزة ٠

٤) ان جميع اجهزة الامن الاسرائيلية متورطة في التعذيب: الشين بيث Shin Beth الذي يقدم تقاريره الى مكتب رئيس الوزراء مباشرة ، والمخابرات العسكرية التي تقدم تقاريرها الى وزير الدفاع، وبوليس الحدود، ولاتام Latam «دائرة المهمات الخاصة» الاسرائيلية ، والجهازان الاخيران يقدمان تقاريرهما الى وزير الشرطة ٠

٥) التعذيب منظم بصورة منهجية ثابتة بحيث لا يمكن اعتباره مجرد حفنة من « الشرطة الاوغاد » الذين يتجاوزون الاوامر ٠ فهو تعذيب نظامي ٠ ويبدو أنه مجاز على احد الاصعدة كسياسة متعمدة ٠

٦) التعذيب يستخدم لثلاث غايات على ما يبدو ٠ الغاية الاولى هي انتزاع المعلومات بالطبع ٠ الدافع الثاني ، الذي يبدو انه شائع كالاول على الاقل ، هو حمل الاشخاص على الاعتراف بجرائم « امنية » ارتكبوها او لم يرتكبوها ويستخدم الاعتراف المنتزع من ثم

كشهادة في المحكمة : فاسرائيل تبرز وجود قلة من السجناء السياسيين لديها ، وهؤلاء هم فقط الذين تمت ادانتهم بصورة قانونية في المحكمة · الهدف الثالث ، على ما يبدو ، هو اقناع العرب في الاراضي المحتلة بأن التصرف الاستسلامي هو السلوك الاقل ايلاما ·

ولذلك قد يكون العرب الاثنان والعشرون الذين نسميهم هنا عرضة لردة فعل في اسرائيل · وكان الاثنان والعشرون يدركون ذلك وقد قبلوا به · ولا نرى وسيلة لحمايتهم الا بالنشر الاعلامي ، ولذا ننشر كملحق لهذا التقرير اسماءهم واسماء قراهم او مدنهم ·

مشكلات التثبت

ان قضية عمر عبد الكريم ، الرجل الذي نقل عبر جسر اللنبي ، هي حالة تصور تصويرا نموذجيا الحالات الاخرى لسببين · فادعاءاته لا تكاد تختلف عن الادعاءات في عشرات الحالات السابقة · كما ان صعوبات التثبت من صحة اقواله لا تختلف ايضا ، كما سنرى لاحقا · اولا روايته ، المسجلة خلال ثماني ساعات من الاستجواب في اواسط نيسان (ابريل) · وينبغي اضافة عبارة « قال » ذهنيا الى كل زعم تال :

اعتقل عمر عبد الكريم في الثالث والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٦ فيما كان يعبر جسر اللنبي باتجاه الشرق ، في طريقه لزيارة زوجة شقيقه في عمان · ونقل بالسيارة الى المجمع الروسي الذي يسميه العرب « المسكوبية » ـ وهو مركز الاعتقال والاستنطاق في القدس الذي يضم شين بيث ولاتام واحيانا بوليس الحدود ·

وكان بين المستنطقين الذين استجوبوه ذلك المساء نفسه اثنان صار يعرفهما باسم « ايدي » و « اورلي » · واتهماه بأنه احد الفدائيين · وعندما انكر ذلك ، ضربوه على اخمص قدميه · وبعد ذلك ، علقاه من رسغيه حوالي ١٥ دقيقة · ثم ارسل الى زنزانة في مجمع السجن الرئيسي بالمسكوبية · وكانت قدماه متورمتين فحبوا الى داخل الزنزانة ·

بقي في المسكوبية سبعة ايام · وفي استنطاقات لاحقة مدد على الارض ، وفيما وقف رجل على ساقيه ، شد رجل آخر ذراعيه الى الوراء · وذات مرة اخرى جرى لوي عصا داخل الصفد الذي يكبل يديه ، مما قطع امداد الدم عن يديه · واستمر ينكر تورطه مع الفدائيين ·

وبعد اسبوع نقل في سيارة شحن مغلقة الى مكان آخر ـ اعتقد انه صرفند ـ ، الى هذا الحد كان يمكن وصف معاملته بأنها « وحشية » وليست تعذيبا · لكن المركز الجديد كانت له غاية اكثر تصميما · فقد كان رأسه كله مغطى بكيس اسود من الكانفاس بصورة متواصلة ، الا خلال جلسات الاستجواب · وكان يتولى التحقيق مستنطقون جدد ، مع ان اورلي كان موجودا ايضا ·

وصارت الكهرباء تستخدم الآن · فقد جرى لصق رصاصتين سوداوين رقيقتين الى عبد الكريم بقماش لاصق · وكان طرفا السلكين مثبتين داخل صندوق اسود ، هو على الارجح محول ، ومن الصندوق ظهر سلك ابيض رقيق ادخل في مقبس بالحائط · وهنا زر على الصندوق يحرك التيار · وقال عبد الكريم : « شعرت كأن عظامي تتكسر · وكان الامر الاكثر ايلاما هو لدى تثبيت السلكين الى خصيتي · ولدى ادارة

التيار كنت اشعر به خلال جسدي كله · وبعد انتهاء الصدمات احسست بالالم في جميع مفاصلي · وكانت كل عضلة تؤلمني وشعرت ان اعصابي باتت مرهقة » ·

ويقول عبد الكريم ان الكهرباء استخدمت في « ثماني او تسع » جلسات · ولكنه استمر يقول بأنه بريء · وبعد ١١ يوما نقل من جديد ، الى سجن الخليل ·

وكان ايدي واورلي ما يزلان معه ، الا ان مزيدا من المستنطقين انضموا اليهما الآن · وخلال اليوم الاول من وجوده في الخليل ركله واحد يدعى « اوزي » في وجهه · وعندما سال الدم من انف عبد الكريم ولطخ جزمته ، اجبره اوزي على لعق الدم عن الجزمة · ويتذكر عبد الكريم الجزمة : « سميكة وذات شبكة مصلبة على النعل كجزمة المغاوير » ·

كما انه يعرف احد المستنطقين باسم « ابو غزال » · وكان ابو غزال هذا يحمله من شعره ويلوح به حول الغرفة ، وعندما يقتلع الشعر يجبره على اكله · ويقول عبد الكريم : « كان الشعر كله يعلق في حلقي · فشعرت بانني اريد التقيؤ » · ثم اجبر على شرب مياه مالحة · واخيرا عمد ابو غزال و مستجوب آخر الى ادخال زجاجة عنوة في است عبد الكريم ·

كان ذلك هو اليوم الاول · ويقول انه في اليوم الثاني علق ايضا برسغيه الى بكرة وضرب · « وشعرت بشيء ينكسر في صدري ·· ثم غبت عن الوعي · وحينما استعدت وعيي كنت ممددا على الارض وكانوا يلقون الماء على وجهي ·· »

وفي اليوم الثالث او الرابع جاء اورلي بزوجة عبد الكريم ، نجمة ، الى السجن · « وعندما رأتني في تلك الحال اخذت تصرخ · فأمسك بها اورلي من شعرها ، وشرع يصفع وجهها حتى نفر الدم من انفها وفمها ··· » فقال عبد الكريم انه سيعترف ·

« وقال اورلي : الآن نحن اصدقاء » · واخرج سيجارة وناولني اياها · فأخذت السيجارة ورحت ادخنها وقال : « تكلم الآن » · وهكذا كان علي ان ابدأ بالكذب · لم يكن لدي ما اقول وكان علي ان انقذ زوجتي · فقلت انه كان عندي قنابل وخبأتها في مرحاضي · وعندما قلت ذلك ، قالت زوجتي : « كلا ، انا التي وضعتها هناك » · وفي الواقع ، لم نكن قد فعلنا شيئا ، ولكنها قالت انها فعلت ذلك لتنقذني ، وانا قلت ذلك لانقذها » ·

واقتيد عبد الكريم الى بيته في بيت ساحور حيث قامت شاحنات المجارير بامتصاص المجرور قرب منزله · ولم يجدوا شيئا · وعندما تبين انه كذب ، اقدم ايدي على ضرب رأس عبد الكريم تكرارا على جدار خشن ، فتساقطت قطع الجص التي تكسو الجدار وامره اورلي باستردادها ففعل ·

وظل عبد الكريم يقول لمستجوبيه : « لو كان لدي اي شيء لاعطيتكم اياه » · فلم يصدقوه · وابقي تحت « دوش » بارد ، ثم ادخل في برميل من الماء المثلج ، وعلق من رسغيه مرة اخرى فيما راح المستجوب اورلي يضغط على اعضائه التناسلية ·

يقول عبد الكريم : « لا يستطيع العقل ان يتصور كم هو مؤلم ذلك · كان شديدا الى حد جعلني انسى جميع الآلام الاخرى » ·

وآخر اعتداء يتذكر عبد الكريم انه تعرض له هو حبسه داخل زنزانة صغيرة رش فيها من خلال ثقب الباب غاز من نوع ما · « لم استطع التوقف عن السعال · واخذ الدمع يسيل من عيني والمخاط من انفي · وشعرت بالعالم كله يدور من حولي » · ويتذكر

« قلعة زجاج كالاصبع » جرى ادخالها اخيرا في كل منخر لتسهيل تنفسي ·

منذ تلك المرحلة تصير ذكريات عبد الكريم المزعومة مشوشة ومتقطعة · فقد تثبتنا من انه عند نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) ، على سبيل المثال ، امضى اسبوعا في مستشفى السجن الاسرائيلي في رام الله · وهو يقول انه لا يتذكر ذلك · ثم في الثاني عشر من كانون الثاني (ديسمبر) تقول زوجته نجمة انها وابنهما البالغ من العمر ١٢ سنة زاراه عندما اعيد الى الخليل ولم يعرف ابنه · ويقول عبد الكريم انه لا يذكر هذه الحادثة ايضا ·

في حوالي هذا الوقت اخذه الاسرائيليون الى الحدود الاردنية · الا ان الاردنيين رفضوا القبول به لانه لم تتم ترتيبات بشأنه ·

ويقول عبد الكريم انه يتذكر بصعوبة شيئا من هذا · وعن رحلته الاخيرة الى السلط في شباط (فبراير) بعد توسط الصليب الاحمر الدولي لا يتذكر الشيء الكثير ·

انها قصة رهيبة ، ولكن ما هو مدى صحتها ؟· في طبيعة التعذيب لا يوجد غير فريقين : المعذب والضحية · وكما قالت منظمة العفو الدولي : « المواجهة بين الفرد والقوة اللامحدودة للدولة ·· تجري في المعتزل الاكثر سرية للسلطة السياسية » · وبدون اعتراف الذين يقومون بالتعذيب ، علينا ان نبحث عن اشياء اخرى : تأييد التفاصيل التي يمكن التثبت منها ، او تطابق احدى الروايات مع الروايات الاخرى في ظروف يمكن استبعاد التواطؤ عنها · وبهذه الاختبارات تستحق رواية عبد الكريم التصديق ·

كنا قد علمنا بقصته ، كما قلنا ، قبل اطلاق سراحه · والمقابلات المستقلة التي اجريناها أدت من ثم الى تأييد صحة روايته ·

قبل اطلاق سراح عبد الكريم بستة اسابيع كانت زوجته نجمة قد اخبرتنا ــ في مقابلة في بيت ساحور ــ كيف انها اعتقلت وأخذت الى سجن الخليل · وقالت ان كلا منهما تعرض للضرب امام الآخر · وصفع وجهها وشدت من شعرها · وبدا زوجها « مضروبا بشدة على وجهه وكانت عيناه متورمتين · وكانت هناك حروق على ظهر يديه وحروق أخرى على وجهه وكأنها احدثت بحديد او بنار كهربائية » · (وارانا عبد الكريم فيما بعد ، بين علامات اخرى على جسده ، آثار جرح مسطحة على ظهر رسغه الايمن · وقال انها جاءت نتيجة استعمال الكهرباء ، غير المخففة بمحول في الخليل · « الصقوا الاسلاك بي ثم وضعوا القابس في المقبس مباشرة · وكان ان اطارني التيار بعيدا عن مكاني فاضطروا الى اعادة وصله بي · وتطايرت شرارات من يدي · اما الاجهزة الاخرى فلم تسبب شررا ») ·

وأسهمت مقابلات أخرى في تأييد صحة رواية عبد الكريم · ففي الرابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) قامت محامية عبد الكريم فليسيا لانغر وكاتبها عبد العسلي بزيارته في سجن الخليل · وفيما بعد كتبت لانغر تصف تلك الزيارة :

« جيء به الي وكان يسنده سجناء آخرون لانه لم يكن قادرا على المشي وحده ··· كان يبدو في حالة رديئة جدا وكان وجهه شاحبا شحوبا تاما ··· وكان طوال الوقت يشير الى أضلعه مدعيا انه لا يستطيع التنفس · وقال لنا احد زملائه السجناء ان اضلعه كسرت أثناء التحقيق ·· وقال لنا عمر انه عذب بالكهرباء وفيما هو يتكلم عن ذلك راح يرتعد

ارتعادا رهيبا ... وكأن جسده قد تشنج ... ولم يعرف سنه ولا مكان ولادته او عنوانه او اذا كان لديه أولاد . ومرة واحدة فقط خلال زيارتنا له ، اعترف بأن زوجته ضربت امامه ، ولكنه بعد ذلك توقف عن الحديث حول ذلك . وبدا لنا انه كان في عالم آخر » .

وفي مقابلة اخرى قبل اطلاق سراح عبد الكريم بستة اسابيع ، اكد كاتب لانغر ، العسلي ، روايتها ، مضيفا انهما رأيا عبد الكريم يبدأ بالضحك فجأة ويقبل احد حراس السجن . « وقال ان الحارس كان الشخص الوحيد الذي لم يعذبه ... » (لم يأت العسلي على ذكر وجود حروق على جسم عبد الكريم ، ولكنه ادعى انه رأى « علامات زرقاء واخرى حمراء كالدم قرب اذنه ») .

كما اننا في اواسط كانون الثاني (يناير) اي قبل اطلاق سراحه بستة اسابيع ايضا ، قابلنا حنا الاطرش ، رئيس بلدية قرية عبد الكريم . وقال لنا آنذاك كيف ان الاسرائيليين امضوا عدة أيام يفرغون المجارير حول منزل عبد الكريم . وروايته عن هذا الحادث تطابق بوجه عام التفاصيل التي رواها لنا فيما بعد عبد الكريم ـ الذي لم تكن لديه ثمة وسيلة للتواطؤ معه .

واخبرنا رئيس البلدية ايضا انه في اواخر تشرين الثاني (نوفمبر) ، بعدما سمع من فليسيا لانغر عن حال عبد الكريم ، ذهب ليقابل الحاكم العسكري الاسرائيلي لمنطقة بيت لحم . « فقال انه لا يصدق القصة ، ولكنه سينظر فيها » . وقال لرئيس البلدية فيما بعد ان عبد الكريم قد نقل الى احد مستشفيات السجون .

واتصل رئيس البلدية كذلك بالصليب الاحمر الدولي في القدس . « طلبت منهم ان ينظروا في الادعاءات . وفيما بعد اكد لي موفد الصليب الاحمر برنارد مونغر انها صحيحة . واكد صحة رسالة فليسيا لانغر تأكيدا تاما » .

السياسة التي يتبعها الصليب الاحمر هي الا يدلي ابدا بتعليقات علنية حول اي من الحالات والقضايا . وقال الموفد الرئيسي للصليب الاحمر في القدس ، الفريدو ويتشي ، أنه لا يستطيع ان يؤكد او ينفي تصريح رئيس البلدية . قال : « نحن نقدم تقاريرنا الى السلطات ونطلب منها ان تتخذ الاجراءات » . وكذلك في عمان ، كان كل ما اكده جان كورفوازييه هو انه التقى بعبد الكريم على جسر اللنبي .

الا انه تأكد لنا ان موفد الصليب الاحمر في القدس ، مونغر ، تمكن لاول مرة من الوصول الى عبد الكريم في نهاية تشرين الثاني ، بعد اعتقاله بنحو ٥٥ يوما . وكان ان تم نقل عبد الكريم الى مستشفى سجن رام الله آنذاك ـ ربما نتيجة لتدخل مونغر . وهناك جرى تصويره بالاشعة السينية ، ولكنه أعيد بعد اسبوع الى الخليل . وفي ضوء حالته اللاحقة ـ التي وصفها مونغر بأنها « باعثة على الاسى » والتي تشهد عليها السجلات الطبية في السلط ـ يبدو هذا قرارا غريبا . وليس مستغربا ان يحمل عبد الكريم اعز الذكريات عن مونغر ، الذي ساعدت جهوده المتواصلة اخيرا على اطلاق سراحه . يقول عبد الكريم : « لقد انقذ حياتي » .

عضو في المقاومة الفلسطينية

ولكن اذا كان ثمة تأييد مستقل لصحة بعض نقاط رواية عبد الكريم ، فان هناك

ايضا نقاط ضعف تجعلها تقف دون الدليل القاطع النهائي ٠

في الدرجة الاولى ، كان فعلا احد اعضاء المقاومة الفلسطينية ٠ فلسبعة اعوام خلت امضى حكما بالسجن ٢٠ شهرا لحيازته مسدسا ٠ ومحاميته فليسيا لانغر ، رغم كونها يهودية ولاجئة من « الحل النهائي » الهتلري ، هي شيوعية نشيطة ، تندد بها الحكومة الاسرائيلية تنديدا منتظما لاتصالاتها السياسية مع اعداء الدولة الصهيونية ٠

ثانيا ، ان الادلة الطبية ليست باتة ٠ فهي في النهاية ترتكز على آراء وشهادات مدير مستشفى السلط ، الدكتور احمد حمزه ٠ لكن الدكتور حمزه ليس حياديا على الاطلاق ٠ ففي عام ١٩٧٦ ابعده الاسرائيليون عن الضفة الغربية ٠ واحكامه السريرية ايضا مكشوفة للتحدي ٠ فالدكتور حمزه ، اذ وجد ان جراح عبد الكريم « تتفق » مع رواية تعذيبه ، شدد بعض التشديد على اضلعه المكسورة ٠ الا اننا اكتشفنا ان عبد الكريم ، في شباط (فبراير) ١٩٧٦ ، زار مستشفى جبل داود للتجبير في بيت لحم وكان يشكو آلاما في ظهره وصدره ٠ وتشير سجلات المستشفى الى أن صورة بالاشعة السينية تظهر ايضا « ادلة على كسور متعددة في الاضلاع » ٠ ويقول خبراء طبيون في لندن انه حتى لو كسرت اضلع عبد الكريم مجددا فيما بعد ، فان صور الدكتور حمزه بالاشعة السينية قد لا تكون سمحت له بالتمييز بين مجموعتي الكسور ٠

ويمكن القول ان الموقف السياسي لفليسيا لانغر ، في بلد يدعي الحرية السياسية ، لا يجب ان تمنع الاخذ بشهادتها ٠ ويمكن القول ايضا ان الكسور القديمة معرضة بصورة اكيدة لعطب جديد نتيجة الضرب ٠ ومع هذا تبقى شكوك ٠ وفي حين اننا تمكنا من التأكد من صحة نقاط كثيرة في روايتيهما ، فان عبد الكريم وزوجته اختلفا حول تفصيل بارز واحد ٠ فقد قال ان زوجته جلبت امامه في الخليل حوالي الخامس والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) ــ وتفاصيل شهادته لا تترك مجالا للخطأ ٠ وكانت زوجته قد اخبرتنا ان التاريخ هو الخامس عشر من تشرين الاول (اكتوبر) ٠

ان مد وجزر الادلة نموذجي في ادعاءات التعذيب وهو يوضح الصعوبات الملازمة للبرهان ، غير ان قطعة من الادلة الخارجية في قضية عبد الكريم تشير اشارة قوية الى ان « شيئا ما » يرغب الاسرائيليون في اخفائه قد حدث له فعلا ٠ وهي تأتي من الاسرائيليين انفسهم ٠

ففي اليوم الاول ارسل عبد الكريم عبر نهر الاردن الى مستشفى السلط ، اتصل الدكتور حمزه بوكالة رويتر واخبرها عن وضع عبد الكريم ٠ وطلب احد مراسلي رويتر في اسرائيل تفسيرا من السلطات العسكرية في الضفة الغربية ٠

فقيل له ان عبد الكريم فدائي ومخرب عربي مدان حكم عليه بالسجن لمدة ١١ عاما ٠ لكنه اصيب بالمرض بعد تمضية ثلاثة اعوام فقط ٠ وقد طلب من الاسرائيليين السماح له بالذهاب الى الاردن للمعالجة الطبية ، وتمت الموافقة على ذلك ٠

هذه القصة الاسرائيلية كاذبة ٠ فالسجلات الطبية في بيت لحم تظهر ، كما قلنا ، ان عبد الكريم ، ذهب في شباط ١٩٧٦ اي قبل اطلاق سراحه على جسر اللنبي بسنة كرجل حر ، الى مستشفى بيت لحم للتجبير ، وقام بعدة زيارات اخرى كمريض خارجي قبل اعتقاله ٠ ويؤكد رئيس البلدية حنا الاطرش ان الاعتقال تم في تشرين الاول ١٩٧٦ ٠

واخيرا فاننا ننشر (على الصفحة ١٧) صورة عبد الكريم وزوجته المأخوذة في الذكرى الثالثة عشرة لزواجهما · وقد التقطت الصورة في ستوديو فوتو ديفد في بيت لحم ربيع ١٩٧٦ · ويتذكر الستوديو التقاطها ·

ويمكن استبعاد وقوع خطأ في معرفة الشخص · فان قلة من « الفدائيين والمخربين » ينقلون كمرضى وسط تمضيتهم مدة الحكم عليهم بالسجن عبر جسر اللنبي · كما لم يظهر اي تشويش في كلام السلطات العسكرية · الا ان بيت القصيد هو ليس كذب السلطات الاسرائيلية · فالقلق هو ان الضابط الذي كذب اما ان يكون امره رؤساؤه بأن يفعل ذلك ـ واما انه كذب ببادرة خاصة منه ، مدركا ان رؤساءه لن يعاقبوه اذا اكتشفوا الامر · وبكلام آخر ان ما حدث لعمر عبد الكريم كان جزءا من نظام مجاز رسميا ·

حكم العالم

بعد يوم واحد من تصويت الامم المتحدة على تأسيس دولة اسرائيل في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ ، كتب حاييم وايزمن ، اول رئيس جمهورية لاسرائيل ، والذي يعتبره الكثيرون الاب المؤسس لها ، يقول : « انا على يقين من ان العالم سيحكم على الدولة اليهودية بناء على ما سوف تفعله مع العرب » · والمعضلة التي تغلفها نبوءته تفضي مباشرة الى الوضع الذي يكشفه تحقيقنا ·

اسرائيل دولة يهودية ، مصممة على ان تبقى كذلك · ومع هذا فهي تحكم ١ر٧ مليون عربي ـ ولعشرة اعوام كان ١ر٢ مليون من هؤلاء تحت الاحتلال العسكري ·

اما لماذا زادت اسرائيل منذ ١٩٤٨ بصورة ثابتة سيطرتها على العرب واراضيهم فأسباب ذلك تعود الى الرجعة اللامتناهية للسبب والنتيجة ، للاتهام والاتهام المضاد التي يتألف منها تاريخ الشرق الاوسط الحديث · وهذا خارج نطاق تحقيقنا · والحقيقة هي ان معظم الاسرائيليين لا يرون اي خيار غير الاستمرار في الاحتلال العسكري · وبعض الاسرائيليين يريدون ان يفعلوا ذلك بنشاط على اساس الحقوق اليهودية التاريخية في الارض ·

ولان اسرائيل تعتمد الى هذا الحد على ما اعتبره وايزمان حكم العالم ، فانه يتوجب عليها ان تحاول تأمين حكم لصالحها · والنزاع بين هذه الحاجة الدولية والحقيقة الداخلية المتمثلة في الحكم العسكري والمقاومة العربية المعبر عنها احيانا بالارهاب هو ، على ما يخيل الينا ، التفسير الاكثر وضوحا لسبب تحول التعذيب ، ارتكازا على الادلة ، الى ممارسة اسرائيلية مقبول بها ·

بالطبع ، ان كثيرين سيرفضون بحدة ادلتنا على انها غير معقولة اطلاقا · كما ان عددا اكبر من الناس سيجدون في فكرة تحول شعب مضطهد (بفتح الهاء) بدوره الى شعب مضطهد (بكسر الهاء) مفارقة كريهة الى حد المطالبة بأدلة اقوى ربما مما سيكون مطلوبا ضد بلدان اخرى · وسيشير حتى عدد اكبر من الناس الى ان اسرائيل تزعم ـ وبلا شك تشعر ـ انها في حرب من اجل حياتها ، وان سجل العرب حول الحريات المدنية رديء ، لكي لا نقول اكثر من ذلك ·

وبيت القصيد ، بالطبع ، هو ان اسرائيل نفسها لا تقبل ، نظريا ، بالتضمينات غير المعبر عنها لحجة هؤلاء ·

فاسرائيل لا تعترف بأن وضعها يسوغ التعذيب · وهي تنكر انكارا تاما ان التعذيب يستعمل ابدا · كما ان اسرائيل لا تبرر اخفاقاتها في الحقوق المدنية بالمقارنات مع النقائص العربية · بل على العكس فهو امر جوهري لروح اسرائيل ولحاجتها الى الدعم الدولي انها جزء من الغرب ـ وبالتالي ان يحكم لها او عليها وفقا للمقاييس الغربية · فاسرائيل تدعي « كحقيقة » ـ كما قال مراقب اسرائيلي رسمي في اجتماع للجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة في آذار (مارس) ١٩٧٣ ـ « ان حقوق الانسان للسكان المدنيين [في الاراضي المحتلة] كانت وما تزال تحترم وتصان على نحو كامل ··· والحقائق تشير الى مجتمع مفتوح ، هادىء ومستريح » ·

وبعد عشرة اعوام من الاحتلال العسكري ، شعرت اسرائيل انها قادرة على القول ، في كتابها الرسمي :

« المناطق المدارة هادئة ومزدهرة اليوم ··· والعرب والاسرائيليون الذين كانوا حتى عام ١٩٦٧ يعيشون في عزلة وتباعد متبادلين يتمتعون اليوم ببدايات تعايش سلمي ومثمر » ·

وبما ان اطروحتنا هي ، على وجه الدقة ، ان الحاجة الدولية الى المحافظة على ذلك المركز تفسر استخدام التعذيب الى حد بعيد ، فمن الضروري ان نبدأ بايجاز استجابة اسرائيل لمشكلات « التعايش » :

لقد مرت ردة الفعل الفلسطينية على احتلال الضفة الغربية في ثلاث مراحل · المرحلة الاولى : مقاومة نشيطة من اواسط ١٩٦٧ الى نهاية ١٩٦٩ · وبنهاية ١٩٦٩ كانت الغارات على المستوطنات الحدودية قد توقفت تقريبا ·

المرحلة الثانية من منتصف ١٩٧٠ حملت معها هدوءا نسبيا · فبعد سحق الفلسطينيين في صراع « ايلول الاسود » بالاردن وموت الرئيس عبد الناصر صار المناضلون الفلسطينيون يتطلعون الى الخارج : الى الالعاب الاولمبية فيميونيخ في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢ مثلا ·

اما المرحلة الثالثة فيمكن ردها الى الغارة الإسرائيلية على بيروت في نيسان (ابريل) ١٩٧٣ عندما استولى الاسرائيليون على الالوف من الوثائق · وعلى اساس هذه الوثائق شهدت الضفة الغربية ، وبصورة لها دلالتها منطقة الجليل ، ضمن حدود اسرائيل القديمة، موجات جديدة من الاعتقالات التي شملت مناضلين فدائيين او متعاطفين مشتبه بهم · والاضطرابات التي اشعلتها موجات الاعتقال هذه ـ في شكل اضطرابات مدنية وتظاهرات قام بها طلبة المدارس الثانوية الى حد كبير ـ شهدت مدا وجزرا ولكنها لم تتوقف فعلا قط · ونتيجة للاستيطان الاسرائيلي المتواصل في الضفة الغربية ،والغارات الانتحارية الفلسطينية كالتي شنت على كريات شمونة ومعالوت وبيسان ، ازدادت المشاعر بين الشعبين سوءا ·

اما في غزة فقد اختلف شكل المراحل · فبوجود ٣٠٠ الف لاجيء محشورين حشرا في المخيمات، الى جانب ١٠٠ الف من اهالي غزة الاصليين ، فان المنطقة هي احدى اكثر مناطق العالم اكتظاظا بالسكان ـ وبيئة مثالية للعمل الفدائي · وقد استمرت المقاومة النشيطة هناك حتى أواسط ١٩٧١ ، عندما تحولت الى حرب اهلية صغيرة بين الفئات الفلسطينية المتنافسة · وشقت اسرائيل بالبولدوزرات طرقات عريضة عبر المخيمات كخطوة

اولى نحو تهدئتها والسيطرة عليها · وبحلول اواسط ١٩٧٢ كان قد تم سحق الفدائيين ·

ولم تنكر اسرائيل قط ان معركتها ضد المقاومة الفلسطينية انطوت على اجراءات شديدة قاسية · فقد هدمت البيوت (١٦٫٢١٢ منزلا بين تموز ـ يوليو ١٩٦٧ وآب ـ اغسطس ١٩٧١ وفقا لسجل مستقل) وابعدت « عملاء تخريب معروفين » (١١٣٠ شخصا الى الاردن منذ ١٩٦٧ وفقا لسجلات البوليس الاردني) · ولكنها تشير الى ان العرب يتمتعون بانتخابات بلدية حرة وبمستويات عيش افضل من مستويات عيش العرب في مصر وسوريا ولبنان ، والى انها تستخدم الاجراءات التأديبية بتحفظ ·

بناء على هذه الخلفية واجهت اسرائيل اصعب مشكلة لاية دولة محتلة ، وهي معاملتها للمقاومين والمخربين · ففي ١٩٧٦ ادعت انها حطمت ٩١ شبكة للتخريب واعتقلت ٨٠٧ اشخاص لهم صلة بها ·

وحتى قبل انتصارها عام ١٩٦٧ كانت اسرائيل قد اعدت بنية ادارية للاراضي التي ستحتلها ـ ونظام محاكم عسكرية · لكن حملات الاعتقال في اواخر ١٩٦٧ واوائل ١٩٦٨ غمرت ذلك النظام · وكان البريطانيون لدى مواجهتهم مشكلات مماثلة ايام الانتداب قد لجأوا الى اقامة معسكرات اعتقال ـ واحد قرب تل ابيب ، واخر في الصحراء قرب غزة · (وما يزال العرب واليهود على السواء يسمونها « معسكرات الاعتقال » · وكانت الاوضاع فيها رهيبة على ما يبدو) ·

ان فكرة قيام اسرائيل بالذات ، من بين جميع الشعوب ، بانعاش « معسكرات الاعتقال » كانت قد رفضت في مناقشات عاطفية في البرلمان الاسرائيلي · ولم يكن ثمة بديل لجعل سجون اسرائيل والاراضي المحتلة تكتظ بالموقوفين · وفي الاشهر التي تلت حرب ١٩٦٧ تجاوز عدد الموقوفين بلا محاكمة الالفين · وبحلول اوائل ١٩٧٠ كان ما يزال عدد الموقوفين بلا محاكمة ١٩٢٣ شخصا ·

الا ان المحاكم العسكرية ادركت الموقوفين بصورة بطيئة · وتدريجيا ادانت المحاكم العسكرية تقريبا جميع العرب الذين اعتقلوا في موجات اعتقال جديدة ـ ومعظم الذين ظلوا موقوفين من الايام الاولى ـ بتهم « جرائم امنية » تتراوح بين العضوية في منظمة غير شرعية وتوزيع المناشير او كتابة الشعارات في الاماكن العامة ، وحيازة اسلحة او ارتكاب التخريب او جرائم القتل ·

وبعد عشرة اعوام من الاعتقال ، لا يوجد لدى اسرائيل (حسب اخر رقم نشر) غير ٣٧ موقوفا بلامحاكمة · لكن نحو ٦٠ بالمئة من جميع السجناء في سجون اسرائيل او المناطق المحتلة هم عرب ادانتهم المحاكم العسكرية بجرائم امنية ـ حوالي ٣٢٠٠ من اصل ٥٨٠٠ ·

وهكذا تستطيع اسرائيل ان تظهر للعالم انه ليس لديها سجناء سياسيون ـ بل ارهابيون مدانون فقط · وكما تساءل سفير اسرائيل في الامم المتحدة ، جاكوب دورون ، في خطاب القاه في تشرين الثاني الماضي : « اي عيب هناك في اجراء محاكمات وادانة الذين وجدوا مذنبين بعدما اخذت العملية القانونية مجراها ؟ » والجواب على هذا السؤال هو : العيب هو عندما يتم الحصول على تلك الادانات بوسيلة التعذيب السري ·

المحاكم العسكرية هي نقطة ارتكاز الادعاء بحكم المناطق المحتلة وفقا للقانون · لقد

تكلمنا مع ستة محامين ـ اسرائيليين اثنين واربعة فلسطينيين ـ يظهرون بصورة منتظمة في تلك المحاكم للدفاع عن المتهمين بجرائم امنية · واسماؤهم : فيليسيا لانغر ، ليا تسيميل ، وصفي مصري ، انطون جاسر ، الياس خوري وفايز ابو رحمة · والرأي الذي اجمع عليه هؤلاء هو ان المحاكم العسكرية تتواطأ في استخدام اجهزة المخابرات والامن الاسرائيلية للتعذيب وتخفيه عمدا والالية التي تلجأ اليها هذه المحاكم انيقة ، بطريقتها الخاصة ، وتكاد تكون قياسية · فمعظم الادانات في تلك المحاكم ترتكز على اعترافات المتهمين · والمحامون على يقين من ان معظم تلك الاعترافات تنتزع انتزاعا بالمعاملة السيئة او التعذيب : وبلا استثناء تقريبا ترفض المحاكم ذلك الادعاء بالتعذيب ·

المشتبه به امنيا في الاراضي المحتلة يعتقله عادة الجنود الاسرائيليون او شرطة الحدود، يرافقهم معظم الاحيان رجل او اكثر يرتدون الثياب المدنية · ومعظم الفلسطينيين الذين تحدثنا اليهم اشاروا الى الرجال الذين يرتدون ثيابا مدنية على انهم اعضاء في شين بيث، جهاز الامن الداخلي لاسرائيل · (وفي الواقع ، علمنا انهم يمكن ان ينتموا كذلك الى المخابرات العسكرية الاسرائيلية) ·

ويمكن ايقاف المشتبه به حتى ١٨ يوما قبل ان يساق امام قاض عسكري · وبامكان القاضي ان يأمر بتوقيفه مدة اخرى تصل الى ستة اشهر · وخلال هذه المدة يصار الى استجواب المشتبه به · وعندما يساق الى المحكمة في النهاية ـ بعد مدة قد تصل الى سنة ـ يكون الادعاء العام مجهزا على الدوام تقريبا بافادة ، موقعة من المشتبه به ، يعترف فيها ببعض الاتهامات الموجهة اليه على الاقل ·

وتقول اسرائيل ان جميع الاعترافات طوعية · هذا الادعاء لا يصدقه المحامون الستة الذين تحدثنا اليهم · فالمحامي وصفي مصري ، وهو في الستين من عمره ومن نابلس وكان قاضيا كبيرا تحت الحكم الاردني ، يقول : « في ٩٠ بالمائة من القضايا التي لدي ، قال لي السجين انه قد ضرب وعذب · ومن الصعب اثبات ذلك بالطبع لانه ليس لديهم شهود يرونهم يتعرضون للضرب · ولكني على يقين من ان الضرب يحدث » ·

يكون للمحاكم العسكرية عادة ثلاثة قضاة عسكريين ـ على ان يكون واحد منهم فقط مؤهلا ، اي له خبرة ستة اعوام في سلك المحاماة ، ليصير قاضيا مدنيا · والانظمة العسكرية التي يطبقونها ترتكز الى حد ما على انظمة وضعها البريطانيون عام ١٩٤٥ ـ لمقاومة الارهاب اليهودي بصورة رئيسية ·

لكن المناورة الحاسمة لا تجري فيالمحاكم · فالمحاكم تسمح فعلا لمحامي الدفاع بدحض شرعية الاعترافات وصحتها · وعندما يحدث هذا تقام « محاكمة صغيرة » (تسمى بالعبرية زوتا Zuta) ·

فالذي يحدث هو هذا · يقول المتهم للمحكمة انه عومل معاملة سيئة او تعرض للتعذيب· ومن ثم يستدعي الادعاء العام الشرطي او ضابط الجيش الذي اخذ الاعتراف · وتقول المحامية الشابة الاسرائيلية المولد ليا تسيميل ان الضابط يقول للمحكمة : « جلست مع المشتبه به ، وتناولنا القهوة معا ، وناولته سيجارة ، فتكلم بحرية ،وكان كل شيء طبيعيا»· وهذا الضابط يقول الحقيقة دائما تقريبا ·

والحيلة هي ان الشرطي او الضابط قد يكون بالفعل اخذ الافادة · ولكنه لم يقم بالاستجواب · وقال الكثيرون من السجناء الذين استجوبناهم انهم بعد الموافقة على

الادلاء بافادة كانوا ينقلون من المستنطقين الى الشرطة ومعهم ملاحظات بالجرائم التي يعترفون بها · ومن ثم يؤلف الشرطي الجديد الافادة للمحكمة ·

وحاول عدة سجناء ان يغيروا افادتهم ، فأحدهم ، شحاده شحاده من رام الله ، احتج مثلا بانه لا يستطيع قراءة اعترافه المزعوم لانه مكتوب بالعبرية · (وهذه شكوى شائعة ·) « ترك الشرطي الغرفة ودخل رجلان في ثياب مدنية · فقلت لهما انني اريد ان اعرف ماذا اوقع · فقالا : لا وقت لدينا لكل هذا · وشرعا يضرباننني · فقلت : حسنا ، حسنا، سأوقع » ·

ويكاد يستحيل على المتهمين استدعاء مستنطقيهم الحقيقيين الى المحكمة ، لانهم ينتحلون القابا عربية ، مثل « ابو سامي » و « ابو جميل » و « ابو داود » ـ او القابا مثل « جاكي » و « داني » و « أري » · وتكون النتيجة هي نفسها حتى ولو نجح المتهمون في ذلك · فقد اخبرتنا ليا تسيميل كيف انها استدعت اخيرا الى المحكمة مستنطقا كان موكلها قد وصفه · « فنظر الى المتهم وقال انه انه لم يره قط في حياته » ·

والتحديات الناجحة لشرعية الاعترافات نادرة ، المحامي وصفي مصري محط اعجاب المحامين الاخرين لكونه اقنع المحاكم العسكرية بالغاء الاعترافات في خمس قضايا ـ من اصل مجموع يقدره « بالالوف » · وقالت ليا تسيميل انها « كادت تنجح مرة » ·

وشرحت ان دورها الحقيقي كان المساومة على الالتماسات · كان احد موكليها الشخص الوحيد الباقي على قيد الحياة من مجموعة متسللين قتلتهم بالرصاص دورية اسرائيلية · « قال لي انه قاس تعذيبا شديدا ويريد الاحتجاج في المحكمة · فعرض الادعاء صفقة : اذا انا امتنعت عن مناقشة اعترافه سيطلب الادعاء عقوبة قصوى مدتها ١٨ سنة · وبما انه كان يمكن ان يحصل على السجن مدى الحياة ، فقد نصحته بالموافقة » ·

وقال لنا محام فلسطيني من غزة ، هو فايز ابو رحمه ، انه قرر الا يقبل اية قضايا امنية اخرى · « اخبرت الاسرائيليين انه طفح كيلي · وقلت لهم انه احرى بهم ان يعودوا الى الاعتقال بلا محاكمة وان ينهوا هذه المهزلة · »

ولذلك فان السؤال هو ماذا يحدث في جلسات الاستنطاق السرية تلك ؟

قصة غسان حرب ··

غسان حرب مفكر وصحفي فلسطيني في السابعة والثلاثين من عمره من رام الله ، التي تبعد عشرة اميال شمالي القدس وليلة الحادي والعشرين ـ الثاني والعشرين من نيسان (ابريل) ١٩٧٤ كان هو وزوجته ينزلان في بيت حميه هناك · وبعيد منتصف الليل ايقظهم من النوم ستة جنود اسرائيليين ورجلان يرتديان ثيابا مدنية · وامر احد الرجلين المدنيين حرب بان يرتدي ملابسه · فسأله حرب : « ما الامر ؟ » واجاب الرجل : « سترى» وكبلت يدا حرب وعصبت عيناه وحمل في سيارة نقلته الى سجن رام الله ·

والذي حدث لغسان حرب خلال الشهرين التاليين قد سبق ان اثار اهتماما دوليا ، وعندما اثيرت قضيته في الامم المتحدة العام الماضي وصفها سفير اسرائيل هناك ، جاكوب

دورون ، ببساطة على انها « نموذج لروايات الفظائع التي تنشرها عناصر معينة ضد الادارة المدنية » ٠

والذي عناه دورون هو ان حرب ، شيوعي ٠ لكنه صحيح ان كلا الجانبين ، اسرائيل ومتهميها ، قد شوها قضية حرب ـ ويعود ذلك جزئيا الى كون الشاهد الرئيسي ، اي حرب نفسه ، كان غير موجود ٠ فلمدة سنتين ونصف السنة بعد تلك الزيارة في منتصف الليل ظل حرب موقوفا بلا محاكمة ٠

ولم يطلق سراحه ويعاد الى بيته الا في الثامن عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٧٠ وبعد ذلك بوقت قصير سجلنا لاول مرة روايته هو عن اختباراته ٠ وقد ترك حرب انطباعا بانه شاهد ممتاز : دقيق ، متحفظ ، يشك في انطباعاته وراغب في العثور على نقاط يمكن التثبت منها ٠ وفيما يلي قصته في الجوهر :

خلال الايام الخمسين الاولى لم يحدث له شيء ٠ تعرض للكم والركل لدى وصوله الى السجن وسمع ، وهو ما يزال معصوب العينين ، اخرين يتلقون المعاملة ذاتها ٠ ولكن وبعد ان قضى ثلاث ليال في زنزانة صغيرة مع ستة سجناء اخرين ، نقل الى غرفة اكبر تضم ٤٠ رجلا ٠ وفيما مرت الايام اخذ الاخرون للاستجواب ـ وكان معظمهم قد اعتقل في نفس الليلة التي اعتقل فيها هو ٠ وقال انهم كان يعادون « في حال رديئة جدا » بعد ستة ايام او سبعة واحيانا بعد ١٥ يوما « تعرضوا للضرب ٠ وبالامكان رؤية اثار الضرب على وجوههم وصدورهم » ٠ والغريب انهم مع هذا لم يتكلموا كثيرا على ما يبدو ٠ ولم يأت دور حرب الا في الثاني عشر من حزيران (يونيو) ، اي بعد اعتقاله بـ ٥١ يوما ٠

عصبت عيناه من جديد واجبر على التمدد ارضا داخل سيارة جيب كما يعتقد ، في رحلة استمرت ساعتين او ثلاث ساعات ٠ وعندما توقفت سيارة الجيب اخيرا ، واخرج منها حرب وهو ما يزال معصوب العينين ، وضع كيس سميك من القماش فوق رأسه ٠ وبقي حوالي ثلاثين او اربعين دقيقة واقفا ، ورافعا يديه في الهواء ـ « عندما تكون الاوضاع رديئة ربما اعتقد المرء ان الوقت اطول مما هو فعلا » كما اضاف حرب بحذر ـ ادخل الى غرفة ورفعت العصبة عن عينيه ، وخاطبه رجل يرتدي ثيابا مدنية بالعربية :

ـ هل تعلم اين انت ؟

قال حرب : كلا ٠

ـ انت في قصر النهاية ٠

وهذا هو اسم سجن في بغداد اشتهر باعمال التعذيب والاعدامات السرية ٠ كان يعلم حرب انه ليس في العراق ٠ لكنه ادرك ايضا ما يعنيه قصر النهاية ٠ وادرك ما عناه مستجوبه ٠

وعلم حرب انه اعتقل لانه ، بوصفه شيوعيا صريحا ، كان مشتبها بانه يشترك في المقاومة المسلحة في الضفة الغربية ٠ كان قد انتمى الى الحزب الشيوعي كطالب في رام الله ، التي كانت جزءا من الاردن ٠ وكانت الحكومة الاردنية قد حظرت الحزب وجرى اعتقال حرب عام ١٩٥٧ ٠ كان في السابعة عشرة من عمره يومذاك ٠ وامضى مع اعضاء

اخرين في الحزب الاعوام الثمانية التالية في السجن ·

واخيرا اطلق سراحه في عفو عام . وخلال حرب ١٩٦٧ كان حرب يدرس الاقتصاد في جامعة موسكو · وعاد الى رام الله عام ١٩٧٢ ليعمل في صحيفة الفجر العربية الصادرة في القدس · وكان يتكلم ويكتب ضد الاحتلال الاسرائيلي · وقد تكون هذه النشاطات ازعجت الاسرائيليين الا ان ايا منها لم يكن غير قانوني · وكما قال سفير اسرائيل جاكوب دورون : « ما من احد في السجن بسبب معتقداته السياسية » وتسمح اسرائيل للشيوعيين بالترشيح للانتخابات في اسرائيل نفسها ·

اما في الضفة الغربية فان جميع الاحزاب السياسية ونشاطاتها محظورة ويبقي الاسرائيليون الشيوعيين المعروفين تحت المراقبة الدائمة · وكان هذا هو الوضع بصورة خاصة منذ ١٩٧٣ عندما قرر شيوعيو الضفة الغربية ومنظمة التحرير الفلسطينية تشكيل تحالف سموه الجبهة الوطنية الفلسطينية · وبما ان اسرائيل تعتبر منظمة التحرير الفلسطينية منظمة محض ارهابية فانها سرعان ما نظرت الى « الجبهة » على هذا الاساس وفي ليل الحادي والعشرين ـ الثاني والعشرين من نيسان ١٩٧٤ تحركت ضد « الجبهة » وتم اعتقال حرب ·

وفي الامم المتحدة قال السفير دورون فيما بعد ان اسرائيل لم « تعتقل الا الذين توجد ضدهم ادلة بجرائم امنية » · الا ان معظم الذين اعتقلوا آنذاك لم توجه اليهم اية تهمة قط ونحن نعلم عن تسعة رجال ـ احدهم حرب ، وثمانية منهم شيوعيون يعترفون بانتمائهم ـ اخذوا على ما يبدو الى « قصر النهاية » الاسرائيلي · وابعد ثلاثة منهم الى الاردن عام ١٩٧٥ · وسمح لاثنين آخرين بالعودة الى منزليهما في الضفة الغربية عام ١٩٧٦ · واطلق سراح حرب ورجل اخر عام ١٩٧٧ · وما يزال اثنان في السجن · ولم تجر محاكمة اي منهم ، ناهيك بادانتهم ·

ولا يثبت هذا ، بالطبع ، ان ايا منهم لم يرتكب مخالفة · فقد نقل عن لسان الامين العام للحزب الشيوعي الاردني قوله ان رفاقه في الضفة الغربية كانوا ناشطين بالفعل · وتبقى الحقيقة ان حرب ينفي اشتراكه في اي نشاط اجرامي ، ولم يتقدم الاسرائيليون بأية ادلة قط ·

ومن الضروري توضيح هذا ، لا لشيء الا لان السفير دورون انكر الادعاءات التالية ووصفها بانها « محاولة لاثارة الرأي العام ولتغطية الجرائم المرتكبة » · ولذلك فانه يستخدم القول بالجرائم غير المبرهنة لينكر الادعاءات بالتعذيب ·

وتبقى القضية الاساسية : وهي حتى لو كان حرب ورفاقه مذنبين ، فكيف عوملوا في « قصر النهاية » الاسرائيلي ؟ ·

محنة في « الخزانة »

حسب رواية حرب ، انتهى اجتماعه الاول مع مستنطقه بصورة مفاجئة · قال له المستنطق : « نعلم انك ضد السلطات · اخبرنا كل ما تعرفه » · فأجاب حرب انه ليست لديه اية معلومات · وقال المستنطق : « حسنا ، لا تريد ان تتكلم » · وأوما للحراس ، الذين كانوا يرتدون بزات عسكرية ، قائلا : « خذوه » · وفي غرفة اخرى امر حرب بأن

يتعرى وألبس « اوفراول » من النوع العسكري والتقطت له صور · ثم اعيد الى مستنطقه · ورأى هذا المستنطق مرات عديدة في الايام الستة عشر التالية ·

« كان بدينا ، اسمر البشرة بعض الشيء ولكنه ليس اسود · وكان شعره اسود ، وليس له شارب ، وكان شعره جعدا بعض الشيء · لا اذكر اذا كان له فرق في شعره أم لا » · ويعتقد حرب ان طوله يبلغ نحو ١٧٠ سنتمترا وهو بين الثانية والثلاثين والاربعين من العمر · « كان يتكلم العربية بلهجة سورية » · ويتذكر حرب انه كان دائما يرتدي سروالا مدنيا وقميصا قصير الكمين ·

في المرة الاولى انهال عليه بالضرب فورا · ويقول حرب : « كان يجلس على طاولة ، وانا كنت جالسا على مقعد خشبي وابتدأ يضربني · ولمدة ١٥ دقيقة ، ٢٠ دقيقة راح يضربني بيده على عرض وجهي » · (ويحذر حرب مرة اخرى من انه قد يكون بالغ في الوقت) · ولم يطرح سوى سؤالا واحدا : « هل تريد ان تتكلم ؟ » وكرر حرب القول انه ليس لديه ما يقوله ·

وفي نهاية تلك الجلسة الاولى اقتيد حرب الى مكان آخر بعدما غطي وجهه من جديد بالكيس · ونزع القيد عن يديه و « الاوفراول » عن جسمه ، وربطت يداه وراء ظهره ، وعاريا الا من الكيس فوق رأسه دفع دفعا الى ما شعر انه مكان ضيق · واغلق الباب · ورغم وجود ثقبي هواء في اعلى الكيس ، خشي حرب الاختناق ، ولذا نزع الكيس عن رأسه بأن زلق رأسه على الجدار ووجد نفسه في زنزانة صغيرة لا نوافذ لها ، ويتسرب الضوء الوحيد اليها من شق تحت الباب · يقول : « كانت في الواقع مجرد خزانة » · ويعتقد ان مساحتها كانت ٦٠ سنتمترا مربعا ، ولا يزيد ارتفاعها عن ١٥٠ سنتمترا · « يبلغ طولي ١٧٨ سنتمترا ولم استطع الوقوف فيها ، كما ان الجلوس لم يكن ممكنا » ·

اشد الامور غرابة كانت ارض الخزانة ، فهي من الاسمنت ، وتبرز منها على مسافات متقاربة ولكنها غير منتظمة مجموعة من النتوءات الحجرية · « كانت مدببة وذات اطراف حادة · وربما بلغ ارتفاعها سنتمترا ونصف او سنتمترين اثنين · ولم يكن بامكاني الوقوف عليها بشكل طبيعي · كان يمكنني ان اقف عليها ولكن بصعوبة والم · فأخذت ارفع احدى الساقين واضع الاخرى ارضا ، ثم ارفع تلك الساق عندما تتعب واضع الاخرى ارضا ، وهكذا ·

ويعتقد حرب انه امضى ثلاث او اربع ساعات في « الخزانة » في المرة الاولى ــ مع انه يحذر من تقديره للوقت وقد يكون مبالغا · الا ان اطلاقه من المكان لم يجلب له الراحة ·

فقد فتح الباب ·وفك احد الجنود الصفد عن يدي حرب ليدعه يرتدي ثيابه ، ثم كبل يديه امامه · ولان حرب كان قد نزع عن رأسه الكيس ، فقد صفع وعصبت عيناه من جديد ، هذه المرة « بنظارتين من نوع ما ، نظارتين مصنوعتين من قماش اسود » · ثم وضع الكيس فوق رأسه · واقتيد حرب الى داخل ما يعتقد انه فناء مفتوح من اجل المزيد من « المعالجة » ·

« كان هناك ثلاثة او اربعة منهم · قدرت ذلك من اصواتهم · كانوا يضربونني ، ثم قالوا : والآن انزل على ركبتيك ويديك · كانت هناك حجارة صغيرة في الفناء وكان مؤلما جدا ان احبو عليها » · (مؤلما بنوع خاص بالنسبة الى حرب ، لان عنده تشوهات عظمية

تبرز من ركبتيه) ٠ « استمر ذلك ربما نحو ساعة ٠ كنت احبو حول المكان على الارض فيما هم يركلونني ويضربونني ٠ وفيما كنت احبو راحوا يركبون علي ، ويجلسون علي كأنني حصان » ٠ وعندما جيء بحرب اخيرا الى مستنطقه من جديد ، قال الرجل : « والآن انظر الى حالتك » ٠ ثم راح يكلم حرب تكرارا فيما اخذ هو ومستنطق آخر يطرحان الاسئلة عليه ٠

« قالا : هل تعرف هذا الشخص ، ذاك الشخص ٠٠٠ وكانا يذكران الاسماء ٠ وقال احدهما انني متهم بتهم عسكرية وقلت لهما : كلا ، كلا ٠ فقال : نعرف انك ناشط في هذا الحقل ٠ فقلت : حسنا ، اذاكنتماتعرفان انني ناشط ، قدما لي بعض الادلة ٠ اعرف ان هذا غير صحيح ٠ واذا كان لديكما بعض الادلة قدماها لي ٠ فقال : نعرف ، نعرف ٠ واستمر يضربني » ٠

كان ذلك هو اليوم الاول ٠ وقال حرب انه في النهاية حبس في زنزانة وسمح له بالنوم٠ وفي الصباح ابتدأ الروتين من جديد ـ وتكرر ذلك دون تنوع تقريبا خلال الايام الاربعة التالية : « الخزانة » ، الفناء ، الاستجواب ، الزنزانة ـ ولكن لم ينته دائما بالنوم ٠ فالروتين كان يمكن ان يبدأ في اي وقت من النهار او الليل ٠

واحيانا خلال انهيالهم عليه بالضرب كان حرب يعرى من ثيابه : « كانوا ياخذونني الى الخارج ، ويأخذون ثيابي ، وكان هناك اربعة اشخاص او خمسة ٠ فيركلني احدهم ، ويتلقاني آخر ، ويعطيني للاول ـ ككرة تركل من والى ٠ وبعد ذلك يجعلونني احبو ٠ كنت لا ازال عاريا حين جلس احدهم على ظهري وراحوا يضحكون » ٠

وفي مرة اخرى ، امر حرب بالحبو الى داخل بيت كلب ، مساحته اقل من قدمين ، لم يكن الكلب بداخله ، ولكن حرب استطاع ان يسمعه ينبح بجواره ٠

وسمع حرب ايضا اصوات سجناء آخرين : « ذات مرة في المرحلة الاولى اخذوني الى الخزانة في الليل ٠٠٠ ربما كانت الساعة التاسعة او الثانية عشرة ٠ ثم اخذت الى الخارج وسمعت بعض الاصوات ، اصوات الم وبكاء واستعطاف ٠٠٠ (آخ يا راسي) ، (آخ يا بطني) ، (انكم تقتلونني) ٠ وبالطبع لم استطع ان اتبين من هم هؤلاء الاشخاص الذين يئنون ، ولكني سمعت انينهم » ٠

ومما لا ريب فيه ان المركز بدا مجهزا بجهاز بشري قادر على « معالجة » اكثر من نزيل واحد ٠ وبين الثاني عشر والسادس عشر من حزيران ـ الايام الخمسة التي تخللها استجواب ـ استنطق حرب ستة او سبعة رجال ، جميعهم يرتدون الثياب المدنية ٠ ولم يكن الرجل ذو اللهجة السورية دائما بينهم ٠ كما لم يكن العنف يستخدم على الدوام ـ علما بأنه تميز بالشدة كلما استعمل ٠ ويقول حرب انه في احدى المراحل ضرب فلقا بعصا ٠

الا ان معاملته خفت بعد تلك الايام الخمسة ٠ وجرى استنطاقه لمدة ١٢ يوما آخر ، لكن الجلسات صارت اكثر استرخاء واستطرادية تنتقل من موضوع الى آخر ، ولم يعد يوضع في « الخزانة » او يخرج الى الفناء ٠ يقول حرب : « لا ادري اذا كنت قد اقنعتهم ان لا علاقة لي بالتهم العسكرية » ٠

وفي ما يحسب حرب انه كان الثامن والعشرون من حزيران (يونيو) ، نقل وهو

ما يزال معصوب العينين في سيارة من المركز الى سجن ياغور خارج حيفا · وذهب معه خمسة او ستة سجناء آخرين · وفي ياغور ابتدأ حرب الاحتجاز الذي اطلق سراحه منه في كانون الثاني ١٩٧٧ ·

وتنفي اسرائيل ان حرب تعرض للتعذيب · واول دفع تفصيلي لها قدمه السفير دورون في خطاب بالامم المتحدة في تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي ، بعد استماعه الى تقرير من « لجنة خاصة » تابعة للامم المتحدة حول الاراضي المحتلة جاء على ذكر قضية حرب بين قضايا اخرى ·

كانت المحامية فليسيا لانغر قد رفعت عددا من هذه القضايا الى الامم المتحدة · لـذا هاجم دورون اولا مصداقيتها : « عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الموالي لموسكو » و « داعية ناشطة ضد الدولة ··· مكرسة للافتراء على اسرائيل وتشويه سمعتها » ·

ومضى دورون يقول ان حرب كان قد احتجز للتحقيق معه في « نشاطات تخريبيـة بالنيابة عن منظمة ارهابية » · ولما ان صارت هذه المزاعم عن التعذيب معروفة ، فحصه طبيبان « وجدا انه غير مصاب بشيء على الاطلاق » · وسمح لوفد عـربي مـن مدينـة رام الله بزيارته ايضا · وقال دورون ان هذا الوفد كذلك « كان مقتنعا بأنه لم يعامل معاملة سيئة بأية طريقة » · وفيما يتعلق بجوهر الاتهامات التي ساقها حرب ، قال دورون انـه يمكنه القول ، بعد « تحقيقات غير متحيزة » ابتدأتها السلطات الاسرائيلية نفسها ، ان حرب لم يتعرض لاي تعذيب · « فما من احد يحتجز في السجن معصوب العينين ومكبلا » ·

الا ان فرقاء آخرين اشتركوا في تلك التحقيقات كانت لهم ذكريات مختلفة · فقد قامت زوجة حرب ، عفاف ، بزيارته في سجن ياغور يوما واحدا او نحو ذلك بعد مغادرته مركز الاستنطاق · وتقول عفاف انها روعت : « بدا منظره رهيبا · كان شاحبا ومرهقا وقـد خسر الكثير من وزنه » ·

وسبب تقريرها عما رأته وعما قاله لها زوجها اضطرابا في رام الله · فعائلة حـرب معروفة محليا · وكان حرب قد اشتهر بكتاباته وخطبه · ولما رأى حاكم رام الله العسكري ذلك ، امر بنقل حرب من ياغور الى السجن المحلي · ويقول حرب ان الطبيبين الاسرائيليين فحصاه ـ فحصا روتينيا لا مباليا ـ لدى وصوله الى السجن المحلي · وقابله ايضا موفد من الصليب الاحمر الدولي ، وقدم له شكوى رسمية بالتعذيب · وكما قال دورون ، سمح لحرب بأن يقابل وفدا محليا : نائب رئيس بلدية رام الله وشقيق حرب ·

وقد تكلمنا مع الرجلين · وخلافا لما زعمه دورون ، قال الرجلان إنهما اعتقدا فعلا ان حرب عومل معاملة سيئة · وقال شقيق حرب انه بدا مريضا ، وهزيلا ، وظهرت عليه بعض آثار سوء المعاملة ، بما فيها آثار جراح · ويتذكر نائب رئيس البلدية آنذاك ، وهو محام يدعى الفريد كيسيك ، فيقول : « قال لنا انه تعرض للتعذيب · وخيل الي ان حاله ليست رديئة بقدر ما سمعت ، ولكنه بدا مريضا واعتقدنا انه عومل معاملة سيئة » ·

وماذا بشأن « التحقيقات غير المتحيزة » التي اجرتها اسرائيل في القضية ؟ في اوائل تموز (يوليو) ، فيما ازداد الاضطراب حول ادعاءات التعذيب التي نشرتها زوجـة حرب اعلن وزير البوليس ، شلومو هيلل ، عن تحقيق ـ تحت اشراف ضابط شرطة ، واحد حرب الى مقر قيادة الشرطة في رام الله لاستجوابه · وقال حرب ان التحقيق كان

سريعا وسطحيا · ولم تزد كلمات التقرير النهائي عن ٥٠٠ كلمة · (بالمقارنة يبلغ مجموع كلمات تقريرنا نحن عن استجوابنا التفصيلي لحرب ١١٫٠٠٠ كلمة) · واستجوب الشرطي ايضا الستة الآخرين الذين قدموا شكاواهم بواسطة المحامية لانغر · وبحلول اوائل آب كان قد قدم تقريره · ونفى التقرير الادعاءات ·

وقاومت لانغر التقرير · فبالاشتراك مع محام آخر ، هو وليد فاهوم ، رفعت شكوى الى المحكمة العليا في تل ابيب مدعية ان التحقيق لم يف بالغرض وان وزير البوليس هيلسل قصر في اداء واجبه · ومن الناحية الفنية ، اذن ، لم يكن بوسع المحكمة الا ان تتفحص القضية الاجرائية الضيقة · الا ان المحامين كانوا يأملون ، بأن تنظر المحكمة في القضية الاوسع للادعاءات نفسها . وهذا ما فعلته المحكمة في نهاية المطاف ·

بيد ان اجراءها كان من الغرابة بحيث ان شكا كبيرا على الاقل يجب ان يلقى على النتيجة التي توصلت اليها · فهي لم تستدع اي شاهد · ولم تأخذ افادات اوسع · وقالت المحكمة انها قصرت نفسها على « الاختيار بين الادعاءات المتناقضة للسجناء والمحققين كما قدمت كتابة » · وعلى أساس تقارير طبية « لم تظهر اية علامة من علامات الجراح المسببة عمدا » اختارت ان تصدق المحققين · وفي الثامن عشر من كانون الاول (ديسمبر) رفضت المحكمة الشكوى ضد هيلل ·

اربع قصص مؤيدة

نعلم ، كما سبق ان قلنا ، بوجود ثمانية فلسطينيين عرب آخرين يبدو انهم كانوا في مركز الاستنطاق الخاص في الوقت نفسه مع حرب · اثنان من هؤلاء ما زالا في السجن . ولكننا تعقبنا وقابلنا اربعة من الستة الذين اطلق سراحهم : محمد ابو غبير ، جمال فريتخ ، خلدون عبد الحق ، وحسين حداد ·

كان حداد وحده في المنفى في الاردن · (ومات في عمان في ايار (مايو) ١٩٧٧ · ونحتفظ بشريط سجلنا عليه مقابلة معه) · وما يزال الثلاثة الآخرون ، مثل حرب ، يقيمون في الضفة الغربية · ولم توجه الى اي منهم اية تهمة ابدا · وعلى ضوء ما يقوله هؤلاء الاربعة ، من المهم ان ننظر في ما اذا كان ثمة تواطؤ في الروايات بينهم وبين حرب · مما لا ريب فيه ان حرب وثلاثة منهم كانوا معا لبضعة ايام في ياغور ، بعد الاستنطاق مباشرة · ولكنهم فرقوا بعد ذلك ، واثنان فقط وضعا في السجن نفسه (عبد الحق وفريتخ في ناباس) ولم يكن حداد في ياغور مع الآخرين ، ولكنه رأى حرب لبضعة ايام في رام الله حينما اخذ الى هناك لحضور جلسة محاكمة لتمديد مدة اعتقاله · وهذا يطرح الاحتمال النظري بأن الرجال الخمسة كان يمكن ان يتآمروا لاختلاق رواية · الا انه لم يكن بالامكان اختلاق قصة الا خلال تلك الايام في ياغور ـ لكي تنقل الى حداد فيما بعد · وثمة نقطتان اخريان · فان حداد لم تتح له فرصة الاجتماع بالآخرين بعد ابعاده الى الاردن · ثانيا ، كنا قد قابلنا اثنين من الذين ما زالوا في الضفة الغربية ـ هما عبد الحق وابو غبير ـ دون اي انذار ، وقبل اطلاق سراح حرب وفريتخ · وقد استجوبناهما بعد اطلاق سراحهما بأيام قليلة فقط · وفي رأينا ان هذه الافعال ووزن التفاصيل التي تطوع الرجال في روايتها بعد اختباراتهم بنحو ٣٠ شهرا تنم عن حقيقة واقعة وليس عن رواية ملفقة · وفي ما يلي الروايات :

☐ محمد ابو غبير ، كندرجي من القدس ، تكلم عن مركز الاستجواب واصفا اياه « بمعسكر عسكري » حيث يرتدي الحراس « بزات عسكرية » وهو ايضا عري من ثيابه ، والتقطت له صور فوتوغرافية واعطي « اوفراول» من قطعة واحدة في الوان التمويه ، وهو ايضا يتحدث عن عصب عينيه « بكيس اسود مصنوع من قماش سميك جدا » له ثقبان في اعلاه · وهو كذلك ظل معصوب العينين طوال الوقت الا في زنزانته او اثنـــاء الاستنطاق · كما انه ، مثل حرب ، وصف « فناء حجريا » وذكر وجود كلاب ·

عندما طلبنا من حرب تقدير شكل ومساحة المركز ، قال انه لا يستطيع ان يفعل ذلك لانه يعتقد انه اقتيد في كل مكان على نحو دائري · وعندما طرح السؤال نفسه علـى غبير ، اجاب : « لا اقدر ان اعرف · فالمشكلة هي انهم كانوا يقودونني بشكل دائري »·

☐ جمال فريتح ، عامل من نابلس ، تحدث عن « بزة سجن » و « كيس من القماش الاسود » فوق رأسه · وتكلم عن حبوه عاريا فوق حصى · واضاف ان عينيه ، خلال تلك المحنة ، كانتا مغطاتين بعصابة اضافية تحت الكيس · وقال انه كان يوضـع في مـا سماه « البراد » مرة في اليوم على الاقل · « كان حجمه ٦٠ سنتمترا في ٦٠ سنتمترا وبارتفاع ١٦٠ سنتمترا · وكان الاسمنت على الارض مصنوعا بطريقة تجعله يبدو مثل تلال صغيرة متقاربة بأطراف حادة جدا · وكل طرف منها كالمسمار » ·

☐ خلدون عبد الحق ، شريك في شركة بناء بنابلس ، تحدث عن كونه عـري مـن ثيابه ، والتقطت له صور ، واعطي « اوفراول ممزق » ليرتديه · وعصبت عيناه « بكيس اسود صنع من القماش » وله « ثقبان في اعلاه ليدخل منهما الهواء » · وتكلم عن فناء ـ سماه « مكانا في العراء » ـ حيث قال انه علق بذراعيه من عقيفة في الجدار · وتذكر خزانة صغيرة ـ « كانت ارضها مغطاة بحجارة حادة جدا فوق الاسمنت » ·

☐ حسني حداد ، صاحب مصنع في بيت لحم عند اعتقاله ، اعطي سترة كاكيـــة وسروالا بدلا من اوفراول · لكن « كيس الكانفاس الاسود » ذا الثقبين لم يتغير · كذلك لم يتغير وجود « حديقة من نوع ما » و « ارضها مرصوفة بالحصى » حيث ركل فيما هو يحبو · ويذكر ايضا زنزانة طولها ٥٠ سنتمترا ، بعرض ٥٠ سـنتمترا وبارتفـاع ١٥٠ سنتمترا ، وكانت ارضها مفروشة بنتوءات « تشبه ابهامات البشر » لكنها ذات اطراف حادة · وحتى التفاصيل الصغيرة في رواية حرب اكدها حداد · فكلا الرجلين قالا ان غرفة الاستنطاق الاولى كان فيها رسوم بيانية تعليمية تظهر اسلحة على الحائط · وقال كلاهما ان صوتا غريبا ازعج نومهما · فقد تحدث حرب عن « اصوات محركات تحـدث ازيزا » · وتكلم حداد عن « صوت طنين من محرك ، او ربما صوت ازيز » · وعشرات التفاصيل تتطابق في الروايات الخمس ، و منها الصحون البلاستيكية ، وغياب الشوك والملاعق والسكاكين للاكل ، والسطل البلاستيكي للمرحاض ، وانعدام وجود ورق تواليت ·

وكانت هناك تناقضات ايضا · فعبد الحق ، مثلا ، يتذكر الفناء على انه « يشـبه التراب » وينفي ان تكون فيه حجارة او حصى · وتراوحت المعاملة السيئة المزعومة مـن حيث النوعية وطول مدتها · فقد ادعى فريتح انه تعرض باستمرار تقريبا للضرب والمعاملة السيئة · وقال غبير انه لم يكد يمس · (وربما كان السبب هو ان غبير كان مصابـا بالسل ، ولدى اعتقاله ، كان مريضا باصابة في بطنه) · ولكننا حين نأخذ الادلة بعين الاعتبار ، نكتشف انه كان يوجد في اسرائيل عام ١٩٧٤ مركز استنطاق يديره الجيش حيث تغطى وجوه المشتبه بهم وتكبل اياديهم باستمرار ويحرمون من النوم والمتطلبـــات

البشرية الاخرى ويتعرضون بصورة منظمة للتعذيب الجسدي والذهني ٠

اين يجري كل هذا ؟

اين يوجد مركز الاستنطاق هذا ؟ الجواب الاكثر احتمالا هو انه يقوم وراء سياج من الاسلاك العالية يراه جميع السياح فيما هم يمرون بالسيارات في مرحلة الطريق الاخيرة من القدس الى تل ابيب ٠ فالسياج ، ونقاط التفتيش عند اثنين من المداخل ، وبضعة مبان وضيعة واطئة هي كل ما يظهر للعيان من الاميال العشرة المربعة التي تقوم عليها اكبر مصلحة للمعدات العسكرية ومستودعات التموين ، في صرفند ٠ (ويستخدم الصندوق الوطني اليهودي جزءا من صرفند كذلك لخزن المعدات من اجل بناء الطرقات في مستوطناته الجديدة في اسرائيل والاراضي المحتلة) ٠

وتحتلّ صرفند مركزا بارزا في عالم الشياطين الفلسطينية ٠ عشرات الافادات تتكلم عنها ، ومعظم الذين مروا في مركز الاستنطاق يسمونه بصورة آلية صرفند ، الا ان هذا هو مجرد افتراض من جانبهم ، كما سنظهر في استجواباتنا ٠

ومع هذا فهناك اسباب تاريخية تشير الى انهم قد يكونون على حق ٠ فقد بنيت صرفند لتكون مستودع المعدات البريطانية الرئيسي في فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية ٠ وحينما احتاجت بريطانيا من ثم الى معسكرين لسجن الموقوفين العرب ابان الاضطرابات التي وقعت في اواخر الثلاثينات ، بني احدهما داخل صرفند ٠ (وكان الآخر في سيناء) ٠ وقد استولى الاسرائيليون على عدد كبير من مباني الانتداب البريطاني القديم ، بحيث ان صرفند كانت الاختيار المنطقي لتضم جيلا جديدا من الموقوفين العرب ٠

اذ انه واضح من روايات الموقوفين ان مركز الاستنطاق الجديد والغامض الذي يديره العسكريون وضع قيد العمل بعد حرب ١٩٦٧ ٠ ومرت ثلاثة اعوام اخرى او نحو ذلك قبل ان يصار الى تجديد المباني ـ التي كانت في البداية متداعية ، وكأنها لم تستعمل لبعض الوقت ٠ (ولاحظ عملية التجديد بعض الموقوفين الذين اخذوا الى هناك في فترات مختلفة) ٠ والتأكيد بأن مركز الاستنطاق كان في صرفند يأتي بثقة بالغة من هؤلاء « الخريجين » الاوائل ٠ ومع هذا فان كلا منهم يبدو وكأنه علم ذلك من نزلاء سبق ان كانوا هناك ٠ وواحد فقط ادعى انه رأى شارة كتب عليها « سجن صرفند » ، لكننا نعتقد ان هذا غير محتمل ٠

في تلك الايام الاولى لم يكن عصب العيون يطبق بمثل تلك الشدة ، ولم بضعة موقوفين الاشياء المحيطة بهم ٠ ويتذكر احدهم شجرة اوكاليبتوس ٠ ولكن عصب العيون والعزلة المتواصلين بعد ١٩٧٠ حجبا حتى تلك اللمحات ٠

كان ما يزال بامكان الموقوفين ان يسمعوا بالطبع ، مرور طائرات فوقهم ، وتقع صرفند تحت خط طيران متجه الى داخل مطار اللد الواقع على بعد خمسة اميال ٠ ولكن في حين تكلم البعض عن طائرات ثقيلة الوزن تطير على ارتفاع منخفض ـ الامر الذي يشير الى وجود مطار مجاور ـ فان البعض الآخر قال انها كانت تطير عاليا ٠

وفي الواقع فان الاسرائيليين نجحوا نجاحا كاملا في عزل الذين جرى استنطاقهم منذ

١٩٧٠ ـ ١٩٧١ ، بحيث ان الدليل الوحيد على ان المركز لم ينقل الى موقع آخر بعد ذلك يأتي من سجينين واثقين ـ لكونهما كانا هناك قبل ذلك التاريخ وبعده ـ من انهما وضعا في المكان عينه في المرتين ٠

ولكن عندما حاولنا ان نقارن تلك التفاصيل الطوبوغرافية القليلة الاولى بتلك التي نسبها حرب وغيره من الذين اعتقلوا في ١٩٧٤ ، لم نستطع ان نقرر ما اذا كانت تتعلق بالمكان نفسه ٠ كما لم يكن حرب ورفاقه مستعدين للتأكيد انهم كانوا في صرفند ٠ وتذكر حرب قائلا : « قال آخرون انها كانت صرفند ٠ ولكني لا ادري » ٠ ولان المكان كان حارا جدا هناك فان حرب يميل الى الاعتقاد بانه كان « في الجزء الجنوبي من اسرائيل » ٠ (ولكنه يقيم في التلال الباردة ، وكل السهل الساحلي الاسرائيلي حار في حزيران) ٠ واتفق حسني جداد في الرأي مع حرب ٠ قال : « كنت سائقا وانا اعرف الطرقات » ٠ ويعتقد جداد ان سيارة الجيب ، خلال الرحلة من بيته في بيت لحم ، تحولت جنوبا قبل الوصول الى صرفند ٠ واضاف انه رأى حركة سيارات سريعة على طريق رئيسية تبعد عنه ١٥٠ ياردة ٠ وهذه على وجه التقريب هي المسافة من الطريق الى المباني الظاهرة للعيان في صرفند ٠ لكن جداد يعتقد ان نسبة عالية من السيارات كانت لها لوحات ارقام رمادية فاتحة ، مما يشير الى تسجيلات في غزة ٠ ولذلك اعتقد ان المركز كان في مكان ما بالقرب من قطاع غزة ٠

قيود على الصليب الاحمر

من عادة اسرائيل ان تستشهد باللجنة الدولية للصليب الاحمر للدفاع عن نفسها ٠ مثال ذلك ان السفير دورون قال في الامم المتحدة في تشرين الثاني الماضي : « في اعقاب سجن كل سجين امني ، يصار الى ارسال جميع التفاصيل عنه الى اللجنة الدولية للصليب الاحمر » ٠ وقال ان هذه الفئة من السجون « تتمتع حتى بامتيازات اضافية ، وعلى سبيل المثال زيارات يقوم بها ممثلون عن اللجنة الدولية للصليب الاحمر ٠٠٠ وفي تلك المناسبات يسمح لهم بالتكلم مع كل سجين دون شهود » ٠ ولم يذكر السفير دورون نقطتين مهمتين ٠ فالصليب الاحمر كان قادرا بالفعل على زيارة السجناء في الاراضي المحتلة منذ ١٩٦٨ ٠ (تنكر اسرائيل ان تكون معاهدة جنيف تنطبق في هذه الحالة ، ولذا فانها لا تسلم للصليب الاحمر بأية حقوق من هذه الناحية ٠ ولكنها تسمح له بالدخول) ٠ الا ان الاسرائيليين ، طوال تلك الاعوام التسعة ، منعوا الصليب الاحمر بصورة متواصلة تابتة من مقابلة سجناء يخضعون للاستجواب ٠ كما ان دورون لم يقل ما نعلم نحن من مصادر لا يرقى الشك اليها انه صحيح : خلال الاعوام التسعة الماضية ، عندما استطاع ممثلو الصليب الاحمر الوصول الى السجناء ، كانوا يسمعون الرواية تلو الرواية عن سوء المعاملة والتعذيب ٠ وقد وجه الصليب الاحمر مئات من الاشعارات الى الحكومة الاسرائيلية يعلمها بذلك ٠ وبالطبع فان اللجنة الدولية للصليب الاحمر كسبت حقها في العمل بوعدها الحكومات بأن تبقى صامتة ٠ ويتعهد موفدوها ، وجميعهم سويسريون ، بالا يتكلموا عن عملهم ابدا ٠ غير اننا علمنا من مصادر لا يرقى الشك اليها بالمشكلات التي يواجهها الصليب الاحمر في الاراضي المحتلة ٠ فالصليب الاحمر لا يبلغ فورا بالاعتقالات ٠ فعائلات السجناء ومحاموهم هم الذين يتصلون بالصليب الاحمر في كثير من الاحيان ـ وعادة لا يعلمون هم انفسهم اين يوجد السجناء الآن ٠ ويحاول الصليب الاحمر من ثم

تعقب السجناء والوصول اليهم بأسرع وقت ممكن ـ خصوصا اذا كانت ثمة اسس للاشتباه بوجود معاملة سيئة · بيد ان الموفدين يواجهون ثلاث عقبات ·

فهم يستطيعون الدخول الى السجون فقط ، وليس الى مراكز الشرطة او المعسكرات العسكرية · كما لا يحق لهم حتى دخول السجون بلا قيود · وتوجد مجموعات من الزنزانات ملحقة بالسجون لا يستطيع الصليب الاحمر رؤيتها · وبعض هذه الزنزانات يقع خارج السجن نفسه ، وملاصق لمكتب الحاكم العسكري المحلي · ولكن خارج نابلس ، على سبيل المثال ، فان الزنزانات الخاصة ـ التي تسمى الزنزانات (X) ـ تقوم على الجانب الجنوبي ، قرب زنزانات الحبس الانفرادي · وتبقى هذه الزنزانات تحت سيطرة اجهزة الامن ، ولا يستطيع الصليب الاحمر الوصول اليها او دخولها · كما لم يستطع الصليب الاحمر ، خلال الاعوام الثمانية الاولى من الاحتلال ، زيارة اي سجين في مركز التوقيف واستنطاق المعروف بالسكوبية في القدس · ولا يستطيع الدخول الى مركز الاستنطاق السري حيث احتجز حرب ·

والى ذلك فان الصليب الاحمر يقدم قائمة بالسجناء الذين يريد مقابلتهم بنوع خاص الى سلطات السجن ، قبل زيارة السجن بـ ٤٨ ساعة · ويحدث من ثم احيانا انه يقال لموفدي الصليب الاحمر لدى وصولهم ان السجين الذي يريدون مقابلته قد نقل لتوه الى سجن آخر · وعلى الفور يضيف الموفدون الذين « يغطون » ذلك السجن الرجل الى قائمتهم · واذا قيل لهؤلاء الموفدين بدورهم ان السجين قد نقل من جديد ـ وهي عملية وصفت لنا بأنها « لعبة اوراق » ـ فان قلقهم يزداد بالطبع · وهكذا فان الصليب الاحمر قد لا يصل الى السجناء الا بعد عملية بحث ، ونادرا ما يصل اليه الا بعد انتهاء الاستنطاق ، واحيانا كثيرة لا يصل اليه ابدا · واخبرنا عدة شهود كيف رحب بهم موفدو الصليب الاحمر عندما التقوا بهم اخيرا · ونقل عن لسان احد الموفدين قوله : « كنت ابحث عنك في كل مكان » · ويبدو ان موفدا آخر قال : « الآن وقد وجدتك ، فانك ستكون في امان » · يرفض الصليب الاحمر التصريح بافادات المعاملة السيئة التي يلقاها السجناء · ولكن انطباعنا هو انه في حين يؤتى عموما على ذكر الضرب ، فان نصف السجناء او اقل يدعون تلقيهم معاملة سيئة اكثر تعقيدا · ولا يقرر جميع هؤلاء تقديم شكاوى رسمية · وحتى عندما يصار الى تقديم شكوى رسمية ـ ينقلها الصليب الاحمر من ثم دون تعليق الى السلطات الاسرائيلية ـ فان الصليب الاحمر نادرا ما يعلم اذا ادت الشكوى الى نتيجة ما · وخلال فترة ستة اشهر قد يلاحظ الموفدون ان الشكاوى حول شكل معين من اشكال سوء المعاملة اخذت تتناقص ، او قد يكتشفون ان مستنطقا معينا قد نقل من مركزه · وهذا كل شيء ·

ولمدة خمسة اشهر فقط ، خلال صيف ١٩٦٩ ، افلح الصليب الاحمر في اقناع الاسرائيليين بالسماح لموفديه بمقابلة بعض الذين يخضعون للاستجواب ـ وذلك في السجون فقط ، وليس في المعسكرات العسكرية او مراكز البوليس · لكن السلطات الاسرائيلية غيرت رأيها بعد ذلك · وجاء في تقرير لاحق للجنة الدولية للصليب الاحمر : « حتى وان اعتقد موفدو اللجنة الدولية للصليب الاحمر بأنه طرأ بعض التحسن على اوضاع الاستنطاق ، فان اللجنة تعتبر ان اجراء الزيارات الذي تفرضه السلطات الاسرائيلية الآن لم يعد يسمح لها بأن تضمن عدم استخدام وسائل استنطاق تتنافى مع القانون الانساني » · كان ذلك في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ · وبعد ستة اعوام ، وبعد تقارير نشرت في الصحف الاسرائيلية تقول بأن الصليب الاحمر كان راضيا عن الاوضاع ، ادلت اللجنة الدولية للصليب الاحمر بتصريح آخر من تصريحاتها العلنية النادرة · (يقول الصليب الاحمر انه لا يفعل ذلك الا عندما يشعر ان سياسة الصمت التي ينتهجها تستغل او يساء استعمالها) · وفي الثاني

عشر من كانون الثاني ١٩٧٧ ، قال الصليب الاحمر « ان عددا من المشكلات التي اثارتها اللجنة الدولية للصليب الاحمر لم تحل » · واشار الصليب الاحمر الى انه ما يزال غير مسموح له بزيارة « الذين يخضعون للاستنطاق » ·

تأكيد القوة

ليس الاستنطاق ، بالطبع ، الا احد اهداف سوء المعاملة او التعذيب · فسوء المعاملة قد يردع شعبا متمردا · الا ان الامر يتطلب درجة من العلنية من اجل الوصول الى هذا الهدف ، كتأكيد شبه علني للقوة · هذا هو احد التفسيرات المحتملة لما يجري في المسكوبية بالقدس ·

ان المسكوبية التي تمتد فوق عدة هكتارات في قلب القدس ، شمالي المدينة القديمة مباشرة ، تستمد اسمها من استعمالها الاصلي كمستشفى للحجاج الارثوذكس · ويوجد داخل جدرانها اليوم سجن ، ومستودع تصليح لسيارات الشرطة ، ومضخات بترول ، وصفان اثنان من المباني ذات الطبقة الواحدة · والقسم الاكبر من المسكوبية مفتوح للجمهور : فالمبنى رقم ٢ يصدر رخص قيادة السيارات وبطاقات الهوية · لكن المباني التي تحمل ارقام ٤ و ٦ و ٨ تضم مراكز القدس الرئيسية لاجهزة الامن الاسرائيلية المدنية بما فيها ـ في المبنى رقم ٤ ـ القسم المسمى «ميوتيم» وهو دائرة الاقليات · ورئيسها يهودي عراقي يدعى نعيم شابو · وخلافا لبقية الاراضي المستولى عليها ، فان القدس الشرقية لم تكن مجرد محتلة من اسرائيل ولكنها ضمت اليها عمليا ـ ومعها مواطنوها العرب غير الراغبين الذين يبلغ مجموعهم ٩٠ الف نسمة · ومهمة « ميوتيم » هي « معالجة » « العناصر المخربة » بينهم ·

بعد بضع دقائق من الساعة الثالثة بعد ظهر الخامس عشر من كانون الاول ١٩٧٦ ، دخلت هيدفا ساريد المبنى رقم ٤ · وهيدفا هي سكرتيرة المحامية الاسرائيلية المولد ليا تسيميل ، التي كانت قد تواعدت على لقائها هناك · « بحثت عن السكرتيرة في مكتب الاستقبال ، الا ان احدا لم يكن هناك · ثم سمعت صرخة ، اعتقد انها كلمة « حالا » العربية · وكان باب مكتب آخر يقع في الرواق نفسه نصف مفتوح فنظرت داخل المكتب · كان هناك بضعة رجال ـ خمسة او ستة او سبعة ـ مجتمعين حول شخص عرفت انه من موكلينا · كانوا جميعا يتكلمون اليه في نفس الوقت ، ووسط صراخهم به رفع احدهم ـ وهو رجل رمادي الشعر ـ ساقه وركل موكلنا في اعضائه التناسلية · فصرخ الموكل وانحنى فوق ركبتيه ، وامسك اعضاءه التناسلية وراح يبكي · واخذت اصرخ في الرجال · فجاؤوا ودفعوني بعيدا واغلقوا الباب وراءهم · ورأيت الرجل الرمادي الشعر وصرخت به : رأيتك تركل ذلك الفتى · اريد رقمك · هذا غير قانوني · فقال : « انا رئيس هذه الدائرة · اسمي نعيم شابو · ماذا تريدين هنا ؟ » ودفعوا بها خارجا ·

ليست هيدفا ساريد الشخص الوحيد الذي يدعي انه شاهد العنف في المسكوبية · فان اميركيا عضوا في جمعية خيرية تقوده اعماله احيانا الى المسكوبية يتذكر انه رأى في ١٩٧٦ رجلا ، بدا واضحا انه يشرف على الاغماء ، يصار الى اخراجه من المبنى رقم ٤ ، ويقاد في الهواء الطلق لبضع دقائق ثم يعاد الى الداخل · وفي زيارة اخرى رأى رجلا يقاد عبر المسكوبية والدم ينزف من انفه وفمه · كان موكل ليا تسيميل ، الذي

قالت هيدفا ساريد انها رأته يتعرض للركل ، فتى يدعى محمود المغربي · كان في السادسة عشرة من عمره فقط . لكنه سبق ان اعتقل اكثر من عشر مرات ، وبدا واضحا انه يعتبر مثيرا للمتاعب · وقدم المغربي لنا رواية تفصيلية عن الطريقة التي ضرب بها في الجلسة التي قاطعتها هيدفا ساريد · ويؤيد سجين آخر قسما من رواية المغربي ، علما بأن ادعاء هذا الاخير الاضافي بالصدمة الكهربائية يبقى بلا تأكيد · المغربي هو واحد من اصل ٢٤ فلسطينيا قابلناهم كانوا قد استجوبوا في المسكوبية · وقال ٢٢ منهم انهم اسيئت معاملتهم او اكثر من ذلك · الادعاءات المتعلقة بالمسكوبية ، شأنها شأن الادعاءات المتعلقة بسجني رام الله والخليل او مركز الاستجواب السري ، تحدد بصورة ثابتة ومستمرة مجموعة من الايذاءات الجسدية المحدودة والمختصة الى حد كبير بذلك المكان · وهذه الايذاءات تتركز في المسكوبية في الاعتداءات الجنسية · تسعة من الذين قابلناهم تكلموا عن كون اعضائهم التناسلية ضربت او عصرت او لويت · وبشكل ثابت مستمر قالوا ان هذا كان في الغالب يتم من الوراء فيما هم يقفون، عراة وبسيقان منفرجة ، مراجهين الحائط · والامر غير الاعتيادي هو ان « ميوتيم » لا تبذل مجهودا كبيرا ، على ما يبدو ، لتخفي على الاقل هذه الاعتداءات الاكثر شيوعا · وبالفعل يبدو انها تتعمد اظهار قوتها على القدس الشرقية · ففي حين انها تعتقل معظم الذين يوجدون لديها في غارات ليلية ، مثلا ، فان الكثيرين يستدعون برسالة شكلية · وتتحدث الرسالة عن مقابلة ، لكن صيت « ميوتيم » السيء بين الفلسطينيين يجعل الذين يتلقون الرسالة يتوقعون آليا اسوأ الاحتمالات ·

الا ان معظم الذين يستدعون قانعون بأنه لا فائدة من هربهم ، لذا فانهم يحضرون حسب الطلب ، وفي كثير من الاحيان يختفون ببساطة في الاعتقال · ولا يوجه اي اشعار الى عائلاتهم · وبكلام آخر فان اختبار المغربي يبدو ممثلا تمثيلا نموذجيا لما علمت « ميوتيم » « مثيري المتاعب » ان يتوقعوه · لكن للمسكوبية ، كما لمركز الاستجواب السري ، وظائف استنطاق واعتراف كذلك الامر · اذ ان الذي يحدث هناك للذين يشتبه بأن لديهم معلومات او بأنهم ارتكبوا مخالفات اكثر خطورة يبدو اكثر قسوة وفظاظة الى حد كبير · الا اننا في تقييمنا لتلك الادعاءات كنا نعود تكرارا الى تقدير ما تسميه منظمة العفو الدولي « المصداقية والدافع » بالنسبة للشاهد ، وذلك بناء على مقابلات مطولة · فشهادة جوزف عوده ، مثلا ، رهيبة ـ علما بأنها ليست فريدة بحال من الاحوال · وهي تتطابق في شكلها مع الشهادات الاخرى · ويوجد لدينا بعض التأييد لصحة هذه الشهادات · الا ان الناحية الاكثر تأثيرا كانت الطريقة التي اعطى بها عوده تلك الشهادة · تعود ادعاءات عوده الى عام ١٩٦٩ عندما صدر بحق ابنته رسمية ، التي كانت في الحادية والعشرين من عمرها آنذاك ، حكمان بالسجن مدى الحياة « لجرائم امنية » بينها زرع قنبلتين قتلتا ١٤ شخصا · ويقول عوده ان الساعة كانت حوالي الواحدة بعد منتصف ليل الثامن من شباط (فبراير) ١٩٦٩ عندما اقتحم الجنود الاسرائيليون بيته ، الذي كان آنذاك في رام الله ، واعتقلوه هو وبناته الثلاث ـ واحدة في الثالثة والعشرين ، واخرى في السابعة عشرة ، ورسمية · واخذوهم الى المسكوبية · رشهادته تؤكد ما اوضحته الاحكام اللاحقة بالسجن : ان اهتمام الاسرائيليين كان منذ البداية منصبا في الواقع على رسمية · وحسب رواية عوده ، رتب المستنطقون خلال العشرين يوما التي امضاها في المسكوبية سلسلة من المواجهات بين اعضاء العائلة ، كوسيلة للضغط على ما يبدو · وقال انه ابقي مرة في غرفة واحدة فيما كانت رسمية تتعرض للضرب في غرفة مجاورة : « وعندما اعادوني ··· لم يكن بامكان رسمية

الوقوف على قدميها · كانت متمددة على ارض الغرفة ورأيت بقع دم على ثيابها · كان وجهها ازرق اللون واحاط السواد باحدى عينيها · ثم حملها جنديان ، وفي تلك اللحظة اخذت ابكي واصرخ فعصبوا عيني واعتقد انها اخرجت من الغرفة » · وازداد اغتمام عوده بشكل ظاهر فيما اكمل روايته · واخذ يتنفس بسرعة وصارت العضلات على جانب خده ترتعش وتنتفض · وسألناه : متى رأى رسمية بعد ذلك ، فشرع يبكي · واخيرا قال لترجماننا : « يا ليتني مت بدل ان ارى هذا الشيء ··· انها مسألة شرف ··· لا بأس . ترجم لهم ، لم لا ؟ ماذا اقول ؟ امسكوا بها على الارض واقحموا فيها عصا » · ولما صار بامكانه ان يواصل حديثه ، قال انه ادخل الى غرفة استجواب فوجد رسمية عارية ومكبلة اليدين · واضاف ان احد المستنطقين « طلب مني ان انام معها ، فقلت : لا تفكروا مجرد تفكير بذلك ، فانا لن افعل ذلك ابدا · وراحوا يضربونني ويضربونها وكان كلانا يصرخ · وكانت رسمية ما تزال تقول : انا لا اعرف شيئا · وباغدوا بين ساقيها واقحموا العصا فيها · وصار الدم يتدفق من فمها ومن وجهها ومن عجزها · ثم غبت انا عن الوعي » · لقد كتبت منظمة العفو الدولي تقول : « ان احد العناصر المهمة التي تقرر ردة فعل منظمة العفو لاية ادلة [حول التعذيب] هو استعداد الحكومة للتحقيق في الادعاءات ولمعاقبة اي مذنبين » · ومن عادة اسرائيل ان تستجيب لادعاءات سوء المعاملة او التعذيب بمجرد رفضها على انها روايات مختلقة · بعضها ، وربما حتى الكثير منها ، قد يكون مختلقا ـ ولكننا نعتقد انها ليست كلها مختلقة · وقياسا بمعيار منظمة العفو ، فان انكارات اسرائيل ليست دائما مقنعة · لقد سبق لنا ان حددنا استجابة اسرائيل الداخلية : اخفاقات المحامين المتكررة في اقناع محاكمها بقبول الادعاءات ، و « التحقيقات غير المتحيزة » حيث اجراءات المحاكم تمنع عمليا اصحاب الشكاوى من رؤية الانكارات الرسمية ناهيك بتحديها وتفنيدها ، وباختصار : نظام قضائي مائع ومريب عادة ، وفي كثير من الاحيان معاد لمحاولات سبر الحقيقة ·

تفسير اسرائيل في الامم المتحدة

على الصعيد الدولي تتمثل استجابة اسرائيل بالتأكيدات التي اعطاها في الامم المتحدة سفيرها جاكوب دورون في تشرين الثاني الماضي : « بوسع بلادي ان تقف معتزة الى جانب سجلها ، سجل المحافظة الدقيقة على حكم القانون في المناطق المدارة » · وقال ان اسرائيل اظهرت « موقفا ليبراليا ومستنيرا ، بما فيه الاعتراف الصريح باية اخطاء قد تكون ارتكبت وبذل الجهود لاصلاحها ··· » واعترف دورون بتلك الاخطاء : « صحيح انه في حالة او حالتين ، هما استثنائيتان تماما ، استخدمت القوة ضد السجناء للاسف · واحدى هذه الحالات الاستثنائية تسببت ، لسوء الحظ ، في موت احمد شيخ دحدول ··· »

تعرض دحدول للضرب حتى الموت من قبل جنود في سيارة عسكرية في آذار (مارس) ١٩٧٦ فيما كانوا ياخذونه الى مركز شرطة طولكرم . الواقعة ٢٠ ميلا شمالي ـ شرقي تل ابيب · ووصف دورون النتيجة : « ان السلطات الاسرائيلية تطبق حكم القانون تطبيقا شديدا ·· ولا تظهر السلطات او المحاكم اية محاباة · ومنذ ذلك الحين وجد الضابط المذكور مذنبا وصدر بحقه حكم بالسجن لمدة طويلة » · حين مات دحدول اعلنت السلطات

الاسرائيلية انه مات بنوبة قلبية · ودحض هذا الزعم الطبيب العربي الذي عالجه · وعلى رغم الضجة الكبيرة التي اثارها موته ، فان الحقيقة لم تبدأ بالظهور الا بعد ذلك بأربعة اشهر عندما قالت السلطات فجأة لمحامية دحدول ـ فليسيا لانغر مرة اخرى ـ ان تهمة ستوجه الى احد الضباط · ولم تبرز اسرائيل علنا حتى الآن اية ادلة تشير الى ان محاكمة قد جرت · وزعم انها جرت في محكمة عسكرية · الا ان المحكمة عقدت بصورة سرية · ولم يسمح للسيدة لانغر بارسال مراقب ، ناهيك بالاشتراك في المحاكمة · ولم تتخذ حتى الآن اية اجراءات ضد الجنود الذين اقدموا فعلا على ضرب دحدول (علما بأن النائب العام اعلن اخيرا ان تهما ستوجه اليهم) · كما لم تؤخذ اية شهادات ابدا من السجناء العرب الآخرين الذين كانوا في سيارة الشحن مع دحدول · واكتفت السلطات بالاعلان ان ضابطا برتبة رائد قد خفضت رتبته الى نفر وسجن لمدة سنتين · وحتى هذا اليوم ، ترفض اسرائيل تسمية الجندي او تحديد المكان الذي يمضي فيه عقوبته ·

وفي كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٦ حصلت عائلة دحدول اخيرا على امر من المحكمة العليا من اجل نسخة طبق الاصل عن المحاكمة · وفي آذار ١٩٧٧ اجابت المحكمة العسكرية بانها لن تسمح الا للسيدة لانغر بأن ترى نسخة عن وقائع المحاكمة ـ ولكن بشرط موافقتها على عدم نسخها او كتابة اي شيء حولها · فرفضت السيدة لانغر · وهكذا فان المعركة لرؤية سجل هذا « الاعتراف الصريح » تستمر · وكذلك الادعاءات ·

ملحـــق

نمط التعذيب

ان ادعاءات الاربعة والاربعين فلسطينيا الذين قالوا لنا انه اسيئت معاملتهم او عذبوا تغطي جميع مراكز الاستجواب الاسرائيلية الرئيسية الستة ، التي تظهر على الخريطة · وتبرز بعض الانماط العامة : مثال ذلك ان ١٩ شخصا قالوا لنا ان اعضاءهم التناسلية ضربت او اوذيت بطرق اخرى · ولكن من هذه الروايات كان بالامكان ايضا تبين بعض الميول الظاهرة لدى المستنطقين في المراكز المختلفة (وقد تأكدت لنا هذه الصورة من تفحص نحو ٥٠ افادة من مصادر اخرى) ·

فالمستنطقون في المسكوبية بالقدس يميلون الى تفضيل الاعتداء على الاعضاء التناسلية ، الى جانب امتحانات احتمال كحمل كرسي بذراعين ممدودتين او الوقوف على ساق واحدة · وكان اختصاص المركز المعروف باسم صرفند هو عصب عيون السجناء لفترات طويلة من الوقت ، وتهديدهم او الاعتداء عليهم بالكلاب ، وتعليقهم من رسوغهم · ومن رام الله جاءت ادعاءات كثيرة تشير الى التغطيس في الماء البارد لفترات طويلة ـ اما في دوش ، او في بركة في وسط فناء السجن · ومن الناحية الاخرى ، كادت رام الله تكون وحدها التي لم تسبب ادعاءات تشير الى التعذيب بالصدمة الكهربائية · ومن الخليل جاءت عدة ادعاءات مماثلة لادعاء عمر عبد الكريم ـ الذي بدأنا تحقيقنا بروايته ـ المتعلق بالاعتداء الشرجي ·

العرب الذين قدموا اسماءهم

قام فريق « انسايت » بمقابلة ٤٤ فلسطينيا ادعوا سوء المعاملة على ايدي اجهـــزة الامن الاسرائيلية · ومن هؤلاء وافق ٢٢ شخصا ما يزالون يعيشون في ظل الاحتـــلال الاسرائيلي على نشر اسمائهم · انهم :

غسان حرب من رام الله ، محمد ابو غبير من القدس الشرقية ، جمال فريتح مـــن نابلس ، خلدون عبد الحق من نابلس ، محمود المغربي من المدينة القديمة في القدس ، (ومنذ ان قابلناه اعيد اعتقاله ويمضي حاليا عقوبة بالسجن ستة اشهر في سجن ديمونا باسرائيل) ، حسن حماد من المدينة القديمة في القدس ، اسحق حليفاوي من القـــدس الشرقية ، سمير ادقيدك من القدس الشرقية ، عمر سلامه عبد الكريم من بيت ساحور ، جوزف عوده وابنته ليلى في اريحا ، جميل ابو غبير من القدس الشرقية ، فوزي عبـد الواحد نجم من مخيم لاجئي المغازي قرب غزة ، زهير الديبي من نابلس ، نبلان كريشي طالب في كلية بير زيت قرب رام الله ، شحاده عبد الهادي محمد شلالده من رام الله ، عصام عاطف الحاموري من الخليل ، عبد الكريم طه الشالودي طالب في مركز التدريب المهني التابع للاونروا في قلنديا ، اسعد سينوكرات طالب في كلية بير زيت ، مسعـف سليمان اطرش ابو عطوان من دورا ، نايفه عواوده من دورا ، فايز توتنجي من المدينة القديمة في القدس ·

كما ان ثلاثة فلسطينيين وافقوا على تسميتهم وقدموا لنا ادلة مؤيدة مع انهم لـــم يدعوا التعذيب : حسن المغربي (والد محمود المغربي) من المدينة القديمة في القدس ، طه مصالحه طالب في الجامعة العبرية في القدس الغربية ، خليل رسماوي من بيـــت ساحور ·

شهادة ستة آخرين

فوزي عبد الواحد نجم

اعتقل في تموز ١٩٧٠ · تحدث عن التعذيب في صرفند ومهاجمة الكلاب له · سجن سنتين ونصف السنة « كارهابي » · اعتقل مرة ثانية في تموز ١٩٧٣ · تحدث عـن تعرضه للضرب في سجن غزة · اعترف بنشاط فدائي · اطلق سراحه في تموز ١٩٧٥ ·

زهير الديبي

اعتقل في شباط ١٩٧٠ واستجوب لعشرة ايام في نابلس · قال انه جلد وضرب فلقاء وعصرت اعضاؤه التناسلية ، ورش بالماء البارد من خرطوم · اعترف بتوزيع مناشير · وامضى سبعة اعوام في السجن ·

شحاده شلالده

اعتقل في آب ١٩٦٩ واستجوب لخمسة ايام في المسكوبية · يقول ان « خرطوشة » قلم

الحبر الجاف اقحمت في قضيبه · حكم عليه بالسجن مدى الحياة بتهمة الاشتراك في اغتيال احد المتعاونين مع الاسرائيليين · اطلق سراحـــه في كانون الثـــاني ١٩٧٦ لاصابته بمرض قلبي ·

عبد الشالودي

اعتقل في نيسان ١٩٧٤ ، واحتجز معصوب العينين لمدة ٤٨ ساعة في المسكوبية · يقول ان نعيم شابو ، رئيس دائرة « الاقليات » ، ضربه ، كما تعرض للضرب من السجناء اليهود · اعتقل بلا محاكمة لمدة ١٦ شهرا ·

جميل ابو غبير

اعتقل في شباط ١٩٧٦ واحتجز في المسكوبية · يقول انه ضرب على رأسه وجســـمه واعضائه التناسلية واجبر على التمدد في مياه باردة · واحتاج الى علاج في المستشفى · اطلق سراحه بعد ثمانية ايام · يؤكد تقرير الطبيب بعض الجراح ·

عصام عاطف الحامودي

اعتقل في تشرين اول ١٩٧٦ · يقول ان الاسرائيليين ، خلال احتجازه في ســـجن الخليل ، تآمروا لجعل احد السجناء يغتصبه · اعترف بالتظاهر وبتدمير كنيس ، ولكنه لم توجه اليه اية تهمة · اطلق سراحه بعد ١٥ يوما ·

نقل النص من الانكليزية الى العربية رجا جورج

رسائل

رسالة جيبوتي

استقلال آخر

قلما حدث استقطاب للاهتمام العالمي مثلما جرى منذ بدأت عقارب الساعة تشير الى نهاية الاستعمار الفرنسي لجيبوتي ، الذي انتهى رسميا في الدقيقة الاولى من يوم ٢٧ـ٦ـ١٩٧٧ .

واذا كان المركز الاستراتيجي لهذه الدولة الفتية الواقعة على الضفة الافريقية لباب المندب ، مدخل البحر الاحمر ، يجعل منها محط انظار القوى والدول التي ترتبط مصالحها وتتأثر بالملاحة عبر ذلك الطريق الحيوي ، الذي يتحكم بالملاحة من المحيط الاطلسي الى المحيط الهندي ، عبر قناة السويس والبحر الاحمر ، فان اهمية هذه الميزة قد تتضاعف بعد التحولات الاخيرة في اثيوبيا التي جعلت من منطقة شرق افريقيا ، وتحديدا القرن الافريقي ، منطقة تفجر رئيسية في العالم .

فبينما يشتد الصراع بين النظام الاثيوبي والثورة الارتيرية وبينه وبين الحركات المعارضة من حزب الشعب الثوري الاثيوبي في اليسار الى الاتحاد الديمقراطي الاثيوبي ، الذي يضم بقايا نظام هيلاسيلاسي الاقطاعي الرجعي ، في اليمين .. مرورا بانتفاضات القوميات المختلفة : جبهة تحرير اورمو التي تطالب بحقوق الغالا (١٦ مليون نسمة) وجبهة تحرير التجراي .. الخ . وبينما تتزايد يوما بعد يوم احتمالات الصدام بين اثيوبيا والسودان ، وبين اثيوبيا والصومال .. مع انعكاسات اصرار الولايات المتحدة على الدفاع عن نفوذها ومصالحها في وجه البؤرة المتحالفة مع الاتحاد السوفييتي في اثيوبيا ، التي تزيد من قدرة النفوذ السوفييتي على اجتياح مواقع النفوذ الامريكي .. بينما يحدث هذا، نجد ان اثيوبيا لا تملك سوى منفذين على البحر الاحمر : أولهما الساحل الارتيري (ميناءي مصوع وعصب) وثانيهما ميناء جيبوتي الذي يرتبط باثيوبيا بواسطة خط حديدي انشأته اثيوبيا اثناء الاستعمار الفرنسي لجيبوتي الذي استمر مئة وخمس وعشرين سنة .. ومع ازدياد العمليات العسكرية في ارتريا اصبح هذا الخط الحديدي الى جيبوتي يمثل البديل الوحيد لتعطل عمليات التصدير والاستيراد عبر الموانيء الارتيرية .. الى ان نسفت وحدات من جبهة تحرير ساحل الصومال المحتل اجزاء من ذلك الخط قبل شهرين ، بل ونقلت عددا كبيرا من قضبان السكة الحديدية الى مناطق بعيدة مما سيجعل الخط معطلا لستة شهور على الاقل .

وبقدر ما ضاعفت هذه العملية من حرص اثيوبيا على الدفاع عن نفسها من الاختناق نتيجة عزلها عن العالم بتعطيل استخدامها للموانيء الثلاثة مصوع وعصب وجيبوتي ، فان هذه العملية قد جعلت جيبوتي نفسها تشعر بالاختناق الجزئي حيث انها تستورد كل ما يأكله شعبها من الخارج وتستورد جزءا اساسيا من طعام شعبها بواسطة هذا الخط الحديدي من اثيوبيا ·· حيث لا زراعة في جيبوتي سوى بضع مزارع صغيرة جدا لبعض افراد الجالية اليمنية قرب العاصمة. ولا تصنيع فيها سوى مصنعين احدهما للبيبسي كولا ويملكه علي عارف رئيس الوزراء السابق واخر للكوكاكولا ··

وعندما صوت شعب جيبوتي مؤيدا الاستقلال ، بدأ تسابق الدول المختلفة لافتتاح قنصليات عامة في جيبوتي تمهيدا لتحويلها الى سفارات ، وتقاطر عليها المبعوثون ·· الصريون منهم والعلنيون ·· واخذ المواطنون في جيبوتي يتلفتون حولهم ليفهموا ماذا يجري ·· فمدينة جيبوتي التي كانت تعتبر من اغلى مدن العالم بالنسبة لتكاليف المعيشة ، أخذت الاسعار فيها ترتفع اكثر مع هذا الزحف الخارجي المفاجيء ·· وبدأت الحكومة المحلية تفكر بالمستقبل ·· فليس لجيبوتي أية موارد سوى دخل الميناء ورسوم البضائع التي تنقل من اثيوبيا واليها عبر الخط الحديدي · وكان الخيار غاية في التعقيد :

١ ـ الصومال تعتبر جيبوتي امتدادا تاريخيا وجغرافيا وبشريا لها ·· وبالفعل فان غالبية سكان جيبوتي (الذين شماهم الاستعمار الفرنسي بالعيسى) هم صوماليون ··

٢ ـ اثيوبيا لن تفرط بمنفذها على البحر · فهو الوحيد اذا فقدت ميناءي مصوع وعصب الارتيريين ، وهو الاساسي حتى اذا استطاعت ان تضمن استخدام هذين الميناءين . ولذلك تبنت بقية سكان جيبوتي وهم من الدناكله (الذين سماهم الاستعمار الفرنسي بالعفر) ، والدناكله ينتشرون في ارتيريا واثيوبيا وجيبوتي ·· لكن التحولات التي حدثت مؤخرا في اثيوبيا قد جعلت الكثير من سكان جيبوتي الدناكله يفكون ارتباطهم باثيوبيا وخاصة بعدما اختار سلطان دنكاليا علي مرح العيش في المنفى بالسعودية ·

٣ ـ فرنسا التي استعمرت جيبوتي مئة وخمسا وعشرين سنة حاولت بضراوة ان تربط جيبوتي بعد استقلالها بمنطقة الفرنك الفرنسي وان تضمن عدم استيراد جيبوتي بضائع من أية دولة ما دامت مثيلاتها موجودة في فرنسا ، وهددت بسحب التغطية للفرنك الجيبوتي المرتبط منذ سنين طويلة بالدولار اذا لم تقبل حكومة جيبوتي بهذه الشروط ··

٤ ـ الصراع المفتعل الذي خلقته فرنسا بين العيسى والعفر وكرسته تاريخيا لايمكن ان تمحى اثاره ببساطة ، ويكفي ان نذكر هنا بأن ميدانا رئيسيا في العاصمة كان مخصصا للاقتتال بين العفر والعيسى في ساعات محددة وفي يوم محدد من كل اسبوع برعاية السلطات الفرنسية·· وكان مسموحا في يوم الاقتتال الاسبوعي ذاك استعمال السلاح الابيض من قبل الطرفين ··

مشاكل فورية :

وبدأت اجراءات الحكومة المحلية تتوالى · اختلف العفر والعيسى حول اعتماد لغة رسمية للبلاد : أتكون لغة العفر ام لغة العيسى ام اللغة الفرنسية ·· وجاء الحل باعتماد اللغة العربية التي يتحدثها بعض السكان بصعوبة ، والتي لا يتقنها قراءة وكتابة سوى قلة نادرة من السكان ··

وجاء الخلاف الثاني حول من يكون

قائدا للجيش ·· فللعفر غالبية الضباط وللعيسى غالبية الجنود ·· هكذا كان اللغم الفرنسي متقنا·· وكان الحل الوسط هو تعيين ضابط من الجالية اليمنية قائدا للجيش ·· ولكن هل هناك جيش بالفعل ؟ تلك قضية اخرى ·

وقبل أربعة ايام من اعلان الاستقلال برزت مشكلة جديدة ·· فجبهة تحرير ساحل الصومال المحتل أصرت ان تدخل قواتها التي تتمركز في الصومال الى جيبوتي وان تشترك في العرض العسكري صبيحة السابع والعشرين من حزيران (يونيو) فالاستقلال انجاز اسهم مقاتلوها اسهاما رئيسيا في تحقيقه ·· لكن اثيوبيا لا يمكن ان تسمح بمثل هذه البادرة ·· وقررت الحكومة المحلية ايفاد اثنين من قادة الجبهة الذين انتخبوا مؤخرا في برلمان جيبوتي لاقناع مقاتلي الجبهة بالتخلي عن هذه الفكرة ·· لكن احد المقاتلين اتهم هذين الموفدين بالخيانة واطلق عليهما النار فأصيبا بجروح خطيرة ثم انتحر بعد ذلك ·

وكان الحل الوسط ان يدخل ثلاثمئة فقط من مقاتلي الجبهة (أي ١٠٪ من مجوع المقاتلين) بدون اسلحة وبملابس مدنية ·· ودخل هؤلاء جيبوتي فعلا وتم وضعهم جميعا في مبنى مستقل ·· ولكن ما ان مرت ساعات الا وكانوا قد ارتدوا ملابسهم العسكرية واصروا على الاشتراك في العرض العسكري ·· واشتركوا فعلا ·· لكن بدون سلاح ·

ومع تلك الحلول للمشاكل الملحة ، بوشر برسم حلول المشاكل الاخرى :

١ ـ الخط الحديدي

كان الخط الحديدي ملكا لشركة ذات أسهم موزعة على النحو التالي :

ـ ٥٠٪ تملكها اثيوبيا ·

ـ ٢٧٪ تملكها الحكومة الفرنسية ·

ـ ٢٣٪ تملكها بنوك وشركات فرنسية ·

وقد تضمنت المعاهدة الاثيوبية الفرنسية بصدده منح اثيوبيا حق السيادة على جزء من ميناء جيبوتي ·· وقد ارسلت حكومة جيبوتي قبيل اعلان الاستقلال تطلب من الحكومة الاثيوبية المباشرة في التفاوض لتوقيع اتفاقية جديدة حيث ان جيبوتي تعتبر المعاهدة الاثيوبية الفرنسية لاغية منذ أول لحظة لاعلان الاستقلال، واشترطت حكومة جيبوتي شرطين اساسيين :

١ ـ الغاء حق السيادة الاثيوبية على أي جزء من الميناء ·

٢ ـ اعادة توزيع الاسهم بحيث تصبح : ٥١٪ ملكا لحكومة جيبوتي و٤٩٪ ملكا لاثيوبيا ·

٢ ـ المستقبل الاقتصادي :

ان الهياكل الاقتصادية الاساسية مفقودة في جيبوتي ، واذا كانت المملكة العربية السعودية قد التزمت بدفع ميزانية الدولة لسنة كاملة بدءا من يوم الاستقلال، فان هذا الالتزام يدخل في اطار المسكنات لا الحلول ·

ذكر الرئيس حسن جوليد رئيس جمهورية جيبوتي ، وكذلك السيد احمد ديني رئيس البرلمان ومفكر الحزب الحاكم، ان حل المشكلة الاقتصادية كما تراه الحكومة الجديدة يكمن في جعل جيبوتي بلدا مفتوحا بحيث يتحول بسرعة الى هونغ كونغ جديدة بنفس مستوى الاولى·· ولكن بغض النظر عن صواب هذا الحل اقتصاديا ، هل يمكن فصل المستقبل الاقتصادي عن واقع جيبوتي في قلب بؤرة تفجر حقيقية ، تحف بها صراعات ومصالح دولية عديدة ؟··

٣ ـ المستقبل السياسي :

لقد تم اعلان الاستقلال ·· ولكن هل تحقق شيء من الاستقلال ؟ نعم لقد ارتفع علم ، وانتخب رئيس ، وستمضي البلاد فترة انتقالية مدتها ستة أشهر تعقبها انتخابات جديدة لبرلمان جديد ومن ثم حكومة جديدة ··

الحكومة الحالية تمثل عمليا حزبا واحدا هو حزب الرابطة الشعبية الافريقية لاستقلال جيبوتي ، فماذا عن الاحزاب الاخرى ·· وماذا عن جبهات التحرير التي كانت والتي لا زال مقاتلوها ينظرون الى العاصمة عبر حزام الاسلاك الشائكة التي أحاطها به الاستعمار الفرنسي، والذي لا زال يحيط بالعاصمة بعد استقلالها ؟··

ولنقترب اكثر ··

ـ ليس هناك جيش ·· واذا تم تجنيد ما يكفي من أبناء جيبوتي الذين يبلغ تعدادهم ربع مليون نسمة ، فمن أين السلاح الكافي والمتطور ؟

ـ لا زالت هناك قوات فرنسية في جيبوتي وستبقى الى اجل غير محدد ·· حاملة الطائرات كليمنصو تربض في قلب الميناء ومعها عدة مدمرات وقطع بحرية فرنسية ، والجنود الفرنسيون يملأون شوارع العاصمة عصر كل يوم ··

واكثر من ذلك : في الايام التي تلت اعلان الاستقلال كان الحرس الذين يتولون حراسة القصر الجمهوري (مقر المندوب السامي الفرنسي سابقا) هم من الدرك الفرنسيين ··

ـ لا زال المستشارون الفرنسيون يديرون معظم المصالح والوزارات ·· وهذه مجرد أمثلة :

ـ رفض الفرنسيون دخول السيد رامغولام رئيس وزراء موريشيوس ، لحضور احتفالات الاستقلال رغم انه رئيس منظمة الوحدة الافريقية في ذلك الوقت ، الامر الذي اضطره للعودة فورا بطائرته·

ـ حاول الفرنسيون منع وزير الشؤون الدينية الموريتاني من دخول البلاد للتهنئة بالاستقلال ، ثم جرى تهريبه بواسطة بعض الموظفين المحليين ··

ـ جرت محاولات عديدة من قبل المستشارين الفرنسيين لاستبعاد وفد منظمة التحرير الفلسطينية ، ورغم تدخلات رئيس الجمهورية ورئيس البرلمان ووزراء كثيرون فقد استمرت هذه المحاولات حتى اللحظة الاخيرة ··

ولنتعمق قليلا لاستشراف المستقبل :

في العاصمة مدرسة واحدة ·· وفي البلاد طبيبان اجنبيان ·· وكما ذكرنا فان جيبوتي تستورد كل شيء عدا البيبسي كولا والكوكاكولا ·· والاسعار خيالية والموارد محدودة للغاية : الميناء وخط السكة الحديدية ولا ثالث لهما ·· ولذلك تنتشر السرقة والدعارة انتشارا ينذر مثيله في بلد اخر ، وتنتشر معها الامراض تحت راية الفقر الشامل والجهل شبه المطلق والافتقار الشديد للكوادر حتى في ابسط المجالات ··

فهل ينفصل المستقبل السياسي عن المستقبل الاقتصادي ؟

لقد حصلت جيبوتي على عضوية منظمة الوحدة الافريقية ، ولا عائق امام رغبتها في عضوية جامعة الدول العربية والامم المتحدة ·· وتنتظر الجمهورية الفتية مساعدات عاجلة من الدول العربية بشكل خاص ·· الا ان السؤال المطروح يظل قائما : ماذا عن المستقبل ·· سياسيا واقتصاديا ··

هل تصمد جيبوتي امام الصراعات التي تشتد في القرن الافريقي ؟ وأين سيكون

موقعها من هذه الصراعات ..

هل تشهد جيبوتي استقرارا داخليا نسبيا ولو لفترة قصيرة ترسي فيها القواعد الاساسية لانطلاقتها نحو تحقيق الاستقلال الذي اعلنته ؟

نقطة اخرى هامة ..

لقد اغلقت الشركات الاسرائيلية مكاتبها في جيبوتي قبيل اعلان الاستقلال .. والمعروف ان شركة « زيم » كانت ذات نشاط واسع جدا في جيبوتي ، كما ان السفن الاسرائيلية ظلت منذ انفتاح البحر الاحمر امام ملاحتها عام ١٩٥٧ تعتمد على ميناء جيبوتي اعتمادا رئيسيا.. فهل يسلم العدو الصهيوني ببساطة بفقدان وجوده ومصالحه في جيبوتي ؟..

لا زالت بعض البضائع الاسرائيلية في اسواق جيبوتي ، بل وكان اول ما شهدته وانا ادلف من مبنى مطار جيبوتي الى المدينة قبل اربعة ايام من الاستقلال البرتقال الفلسطيني بصناديق اسرائيلية.. فهل الامر مجرد بقايا عهد ما قبل اعلان الاستقلال ؟.. لو كان الامر كذلك فما هو تفسير وجود اكثر من اسرائيلي في العاصمة بعد الاستقلال ؟ بل ما هو تفسير الحاح صحفي اسرائيلي على طلب موعد من السيد احمد ديني رئيس البرلمان لسؤاله عن علاقة جيبوتي بعد استقلالها باسرائيل ؟ رغم ان السيد ديني قد رد هاتفيا بأنه لالزوم للمقابلة ما دام محورها هذا السؤال ، فجيبوتي ستكون عضوا في جامعة الدول العربية ، وبالتالي لن تكون لها علاقات باسرائيل ..

بل ان السيد احمد ديني عندما اعلن استقلال جيبوتي في جلسة البرلمان التي عقدت قبيل منتصف الليل مساء ٢٦-٦-٧٧ قد حدد بوضوح الموقف من القضية الفلسطينية اذ قال : « نحن نقف هنا عند باب المندب . لكن عيوننا تنظر هناك الى فلسطين ، وسنظل مع شعبها في نضاله حتى تتحرر » .

كانت هذه هي الاشارة الوحيدة المحددة في خطاب اعلان الاستقلال الى موقف جيبوتي من القضايا العالمية ..

ومع هذا فان التقدير الاولي هو ان اسرائيل ستبذل محاولات مضنية لاستعادة مواقعها في جيبوتي .. وليس مستحيلا بالنسبة لها ان تتعاون مع جهات مختلفة لخلق واقع جديد في جيبوتي يحقق لها هذا . فالتناقضات كثيرة ، والازمات التي تلوح في الافق خطيرة للغاية ، ومستقبل الجمهورية الفتية تتقاذفه رياح الصراعات المعقدة في المنطقة . والكرة في مرمى العرب .

خير الدين عبد الرحمن

رسالة واشنطن

محادثات بيجن - كارتر

عقد رئيس وزراء اسرائيل مناحيم بيجن مؤتمرا صحفيا بعد انتهاء مباحثاته مع الرئيس كارتر يوم الاربعاء الموافق ٢٠-٧-٧٧ ملخصه التالي :

«أكد بيجن استعداد اسرائيل للمشاركة في مؤتمر جنيف ، على اساس حضور كل من الدول المعنية وهي اسرائيل ، مصر سوريا ، الاردن ، لبنان (اذا وافقت) ، واكد بأن المؤتمر سيعقد بدون اي شروط او التزامات مسبقة من قبل أي من الاطراف المعنية ، وان المباحثات في جنيف ستكون مفتوحة وبدون أية شروط ·

وهاجم فكرة الكيان الفلسطيني في الضفة الغربية بشدة ، واكد بأنه سيكون قاعدة عدوانية سوفياتية و « خطرا مميتا » على اسرائيل ، وستكون هذه بداية النهاية لاسرائيل ·

كما رفض أية شروط مسبقة من الرئيس السادات · واكد بأن القدس ستبقى عاصمة لاسرائيل وستبقى متحدة ·

وركز على ان هدف المفاوضات هو توقيع معاهدة سلام بين اسرائيل والدول العربية المجاورة وذلك عن طريق لجان مشتركة (مصرية اسرائيلية ، سورية اسرائيلية ، اردنية اسرائيلية ، لبنانية اسرائيلية) واكد بأن معاهدة السلام معناها انهاء حالة الحرب وتحديد الحدود واقامة العلاقات الدبلوماسية والعلاقات الاقتصادية والتجارية والثقافية مع الدول العربية · واكد بأنه لا يمكن القبول بمشاركة منظمة التحرير في مؤتمر جنيف لانها بناء على ميثاقها تهدف الى « تدمير اسرائيل » وذكر بأنه يعرف نوايا منظمة التحرير وهدفها « قتل النساء والاطفال وشعب اسرائيل » ولذلك لا يمكن القبول بها كطرف مفاوض · واذا أصرت الدول العربية على حضور منظمة التحرير لمؤتمر جنيف ، فعندها تقترح اسرائيل بديلين آخرين : اولا : ان تقوم أمريكا بانشاء لجان مشتركة مماثلة للجان المشتركة في رودس عام ١٩٤٩ للوصول الى اتفاقيات · ثانيا : او ان تقام « مباحثات بالوكالة » عن طريق الوفد الامريكي كوسيط بين الوفد الاسرائيلي والوفود العربية ·

وانهى بيجن ، بأن على الطرف الآخر ان يقرر ما يريد ، ويجب البدء فورا في المفاوضات لتحقيق معاهدات سلام » ·

وخلال الاسئلة والاجوبة ، ذكر بيجن التالي :

« رفض التحدث حول الانسحاب من الاراضي المحتلة والدخول في أية تفاصيل حول القضايا المتعلقة بالمشكلة واكد بأن كل ذلك يجب ان يبحث في جنيف وبأن الرئيس كارتر لم يضغط عليه اطلاقا واكد بأن هناك تفاهما كاملا وعلاقات طيبة وبأنه يعتبر كارتر صديقا ·

كما رفض وجود ممثلين عن منظمة التحرير مع وفد الاردن ، ولكنه لا يعارض وجود فلسطينيين عرب مع وفد الاردن

بدون ان تكون لهم علاقة بمنظمة التحرير، وطلب التزام الصمت من الجميع وعدم بحث الموضوعات المختلفة لغاية انعقاد مؤتمر جنيف · واكد ان جميع الاطراف تريد الذهاب الى جنيف ، وهناك يتم بحث كل الموضوعات بدون شروط او التزامات مسبقة ·

ردود الفعل الامريكية :

ذكر الرئيس كارتر بعد انتهاء مباحثاته مع بيجن بأنه متفائل وبأن جميع الاطراف متشوقة لحضور مؤتمر جنيف ، وانه يجب ان يتم التفاوض بشأن الاراضي ، واما موضوع الفلسطينيين فهو معقد ·

واشارت التقارير الصحفية الى ان هناك تفاهما واتفاقا بين كارتر وبيجن . والظاهر ان كارتر اتفق مع بيجن حول عدم حضور منظمة التحرير لمؤتمر جنيف ·. وصرح الرئيس كارتر في مؤتمره الصحفي بتاريخ ٢٧-٧-٧٧ بان تمثيل الفلسطينيين مشكله وعقبة رئيسية (واشنطن بوست) كما صرح وزير الخارجية الاميركيه فانس بتاريخ ٢٩-٧-٧٧ بانه لا يمكن التعامل مع منظمة التحرير ما دامت لا تعترف باسرائيل ، وفي مقال للصحفي اليهودي ستيفن روزنفلد (واشنطن بوست ٢٩-٧-٧٧) قال بأن الدول العربية المعنية قررت التخلي عن منظمة التحرير والتفاهم مع اسرائيل عن طريق الاردن ، وان المنظمة قد انتهت سياسيا ، واما الصحفي الامريكي ادوارد شيان فكتب (واشنطن بوست بتاريخ ٢٧-٧-٧٧) ينتقد سياسة الرئيس كارتر التي أدت الى تقوية موقف مناحيم بيجن في امريكا ، واكد بانه بدون حل قضية الفلسطينيين لا يمكن احلال سلام في المنطقة ، واشارت معظم الصحف الى ان بيجن نجح في اعادة العلاقات الجيدة بين امريكا واسرائيل واعادة التفاهم والتعاون ، كما نجح في تثبيت موقف اسرائيل على انه موقف سلام واستعداد للتفاهم ، وقد ساهم في بلورة هذه الصورة عدد من الصحفيين والصحف الامريكية المؤيدة لاسرائيل والتي حاولت ان تظهر بيجن بمظهر السلام ·

كما جاءت معظم ردود الفعل الامريكية وخاصة من بعض اعضاء الكونجرس الامريكي مؤيدة لاقتراحات بيجن ، وصرح عدد من زعماء الكونجرس الامريكي بأن مقترحات بيجن ايجابية وبأنها خطوة نحو السلام ، والان على العرب التحرك نحو السلام ·

التحرك الاعلامي العربي :

قامت الجمعيات والمنظمات الامريكية الصديقة والعربية الامريكية بتحرك اعلامي واسع للدفاع عن وجهة النظر العربية ، ومن هذا التحرك :

١ ـ عقدت لجنة حقوق الانسان في الارض المحتلة مؤتمرا صحفيا بتاريخ ١٨ ـ٧ـ٧٧ تحدث فيه الدكتور جيمس زغبي (نائب رئيس جمعية الخريجين العرب) والدكتور نصير عاروري وطالبوا الرئيس كارتر بالدفاع عن حقوق الانسان في الارض المحتلة ، كما طالبوا بيجن باطلاق سراح المعتقلين العرب بدون محاكمة ، كما ناشدوا الشعب الامريكي بالتحرك للدفاع عن حقوق شعب فلسطين في الارض المحتلة ·

٢ ـ قامت المنظمات والجمعيات الصديقة بمسيرة شارك فيها ما يزيد عن ٥٠٠ شخص بتاريخ ١٩ـ٧ـ٧٧ ورفع المتظاهرون لافتات تطالب بالدفاع عن حقوق الانسان في الاراضي المحتلة وتحقيق الحرية والسلام لشعب فلسطين ، وتتهم بيجن بالارهاب واضطهاد العرب ، كما عقد المشرفون على المسيرة مؤتمرا صحفيا عرضوا وجهة نظرهم دفاعا عن قضية فلسطين ·

٣ ـ كما عقد متحدث باسم منظمة

التحرير الفلسطينية مؤتمرا صحفيا في واشنطن بتاريخ ١٩-٧-٧٧ ناشد فيه الشعب الامريكي بمساندة شعب فلسطين والعمل من أجل تحقيق السلام المبني على الحرية والعدل لشعب فلسطين ، وطالب بايقاف المساعدات العسكرية الضخمة لاسرائيل والتي تستخدم للقتل والارهاب في المنطقة . كما دعى الى انهاء الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية بسرعة .

نبيل حاتم

رسالة لندن

يهود بريطانيا وحكومة جديدة في اسرائيل

متابعة ومراقبة ردود فعل الاوساط الصهيونية البريطانية - ويهود بريطانيا - على نتائج الانتخابات الاسرائيلية الاخيرة التي اوصلت « الليكود » اليميني المتطرف وزعيمه الارهابي بيغن الى الحكم ، أمر بالغ الاهمية والدقة بسبب ما قد يتركه من اثار ليس على العلاقات بين اسرائيل والحركة الصهيونية واليهود في بريطانيا وحسب ، بل على « تناغم وتناسق وتشابك وتماسك » العلاقات في داخل الحركة الصهيونية ذاتها في ارجاء العالم .

ولذلك أسبابه :

١ - المعروف ان الدعم الذي تقدمه « الجالية اليهودية البريطانية » - افرادها جميعا ، بالطبع ، مواطنون بريطانيون - يعد من ابرز واهم اشكال الدعم الذي يقدمه يهود العالم الى اسرائيل . وفيما لو اعتبر المال بمثابة المقياس الوحيد للدعم ، فان المحصلة تضع يهود اميركا في المقدمة . فيهود بريطانيا ليسوا بثراء يهود اميركا، فضلا عن ان طبيعة العلاقة بين يهود بريطانيا ودولة اسرائيل مختلفة عن العلاقة بينها وبين يهود اميركا ، حيث ان الوقائع التاريخية تؤكد قيام العلاقات الوطيدة بين الجالية اليهودية البريطانية وبين يهود اسرائيل حتى قبل قيام هذه الاخيرة. فالدعم المعنوي والسياسي الذي يقدمه يهود بريطانيا الى اسرائيل هو من اهم اشكال الدعم ، ان لم يكن الاهم .

٢ - يهود بريطانيا يتأثرون ، مثل غيرهم من المواطنين في هذا البلد، بالازمة الاقتصادية التي تعاني منها البلاد . وستزداد درجة معاناة هؤلاء - اي اليهود - عندما يدركون ان الاموال التي تقتطع من اجورهم تذهب الى حكومة اسرائيلية اصدرت حكما على نفسها بالعزلة الدولية بسبب السياسة « قصيرة النظر » التي يتبناها حزب « الليكود » .

٣ - يهود بريطانيا - مثل غيرهم من البريطانيين - يتوزعون على مختلف طبقات الشعب . ومتوسطو الدخل منهم - وهم الاغلبية ، ينتمي معظمهم الى حزب العمال البريطاني والى الحركات النقابية- يشكلون المصدر الاساسي للدعم المطلوب .

وليس فقط العدد القليل من الاثـــرياء اليهود ٠

٤ ــ ان ابرز زعماء الحركة الصهيونية والجالية اليهودية في بريطانيا هم مـــن زعمـــاء الحركة العمالية والنقابيـــة البريطانية ٠ « اريك مونمان » عضو في مجلس العموم وعضو بارز في حزب العمال الحاكم ورئيس وسكرتير عدد من الهيئات والمؤسسات الصهيونية فـــي بريطانيا ٠ « أيان ميكاردو » عضو في مجلس العموم ايضا، وهو عضو في اللجنة التنفيذيـــة لحزب العمال التي ترأسها حتى عام ١٩٧١ وترأس لجنة الشؤون الخارجية للحـــزب بين عامي ١٩٦٦ و ١٩٧٠ وهو عـــضو فعال فيها الان ، فضلا عن زعامته لـ«يسار» حزب العمال الحاكم ٠ « ادموند ديل » ، عضو بارز اخر في الحـــزب وهو وزيـــر التجارة الخارجيـــة في حكومـــة جيمس كالاهان ٠ « هارولد ليفر » ، يعتبر مـــن ابرز الادمغة الاقتصادية في بريطانيا ، وهو المستشار الدائم لرئيس الـــوزراء للشؤون الاقتصاديـــة ٠ هـــؤلاء جميعا ، وغيرهم ايضـــا ، كانوا رواد ارســـاء العلاقات التاريخية بين بريطانيا واسرائيل تحت مظلة ارساء العلاقات بين الحـــركة العمالية والنقابية البريطانية وبين حركة الكيبوتزات و « الهيستدروت » (اتحـــاد نقابات العمال الاسرائيلي) اللذين نقـــدم قياداتها بمثابة « رواد الاشتراكية فـــي الشرق المتخلف » ٠

فقدان التوازن وملامح « التغيير »

ان عرضا سريعا لبعض الملاحظات التي يمكن ربط الواحدة منها بالاخرى ، والتي تكونت من مراقبة ردود الفعل في صفوف الجالية اليهودية البريطانية ، قد يعـــزز القول بان العلاقة بين اسرائيل وبين هذه الجالية معرضة للتغير في ضوء نتـــائج الانتخابات الاسرائيلية الاخيرة ٠ فيهـــود بريطانيا تعودوا على وجود حـــكومة تحالف العمال (المعراخ) في الحـــكم منذ قيـــام الدولـــة فـــي عـــام ١٩٤٨ ٠ ويهود العـــالم ، مـــن ناحيتهم تعودوا عـــلى ترديـــد اسمـــاء مثـــل « بـــن غوريون واشكول ومئير ودايان ورابيـــن وبيريز » ، اما اسم « بيغن » ، فيعتقد ان يستغرق اليهود في بريطانيا خاصة ، بعض الوقت قبل ان يألفوه ٠

اولا : صحيفة « الجـــويش كرونيكل » الاسبوعية ، وهي من أبرز الصحـــف الصهيونية في العالم واقدمها (تأسســـت في أواخر القرن الماضي وخاضت معـــارك التفرقة العنصرية ضد اليهود آنذاك) ، تبدو المادة التي تنشر فيها منذ الاعـــلان عن نتائج الانتخابات في اسرائيل قـــد فقدت « توازنها » بقدر يوحي وكأنها مقدمة على الدخول في عملية « تغيير » مواقفها من حكومة اسرائيل الجديدة ٠

☐ رغم ان الصحيفة لا تزال تنشـــر المقال نصف الشهري الذي يكتبه موشـــي دايان (مقالات هذا الاخير بعد فـــوز « الليكود » تبرر جميعها قبوله لمنصـــب في حكومة بيغن وتشرح اهمية ذلك) ، فان « الحذر » واضح في معظم المواد الاخرى المنشورة ٠

☐ خبران هامان ، ويحملان دلالـــة بالغة ، نشرتهمـــا « الجويش كرونيكل » مؤخرا على صدر صفحتها الاولى بالخط السميك ٠

الاول تحت عنوان : « كلا » لكاتز ٠ ويقول الخـــبر ان « الدكتور زبغنيـــو برجنسكي ، مستشار الرئيس الاميركـــي كارتر لشؤون الامن القومي ، اعرب عـــن عدم رغبته لقاء صموئيل كاتز ، موفـــد بيغن الـــى واشنطن لتوضيح سياســـة الليكود » ٠ ويستطرد : « والمعلوم ان برجنسكي غيـــر راض بشأن بعـــض التصريحات التي اعلن عنها مناحيـــم بيغن » ٠

الخبر الثاني ، تحت عنوان : « صورة خاطئة » · ويقول الخبـــر ان « وزارة الخارجية الاسرائيلية بعثت بتعليمـــات عاجلة الى سفاراتها في العواصم الغربية تطالب المسؤولين فيها بضرورة الرد على « الهجوم العنيف » الذي تشنه اجهـــزة الاعلام الغربية على الليكود »· ويستطرد: « ايغال الون بعث بتعميم سياسي وزع على الدبلوماسيين الاسرائيليين يطلب منهم بمقتضاه ان يوضحوا ان هذا الهجوم هو « تحريف » لنظرة الليكود المستقبلية » ·

لاول مرة ، منذ قيام دولة اسرائيل على الاقل ، تعفي « الجويش كرونيكل » نفسها من مهمة الدفاع عن رئيس حكومة فـــي اسرائيل ·

□ في سلسلة من المقـالات الافتتاحية (لا تزال مستمرة) بدأتهـــا « الجويش كرونيكل » منذ الاعلان عـن الانتخابات الاسرائيلية يجري تركيز عـــلى النقاط التالية : (١) اطراء العمليـــة الانتخابية الديمقراطية في اسرائيل · (٢) تركيـز الناخبين على الوضع الاقتصادي المهترىء في اسرائيل ورغبتهم في الحصول علـى « حكومة نظيفة » · (٣) التركيز علـى ضرورة الحفاظ على الود في العـلاقات بين الولايات المتحـدة واسرائيل · (٤) الدعوة الـى التهدئـة ومطالبـة اميركـا والغرب بالتريث ريثما يتم تشكيل الحكومة (٥) الاشارة الى انتهازية حركة « غوش امونيم » التي تحاول انتهاز فرصة تشكيل الحكومة بزعامـة بيغن لتنفيـذ خططهـا بانشاء مستوطنات في الضفـة الغربيـــة ـ على حد تعبير « الجوش كرونيكل » ـ « هذا عمل اخرق وخطر » · (٦) الاعلان عن الرغبة بضرورة اللجوء الى «المساومة» لتشكيل حكومة قوية · (٧) تحذير «منظري اليمين » من عواقب « تحطيم الانجـازات الصناعية التي حققها تحالف العـــمال » خلال السنوات السابقة « ومـن ازالـــة السمة الاشتراكيـــة عن الكيبوتزات » ، والمطالبة بمقاومة هذا الاغراء « لانه سوف يعرض اسرائيل لدمار لا يمكن اصلاحه »· (٨) لفت نظر اليمين بأن يواجه التحدي عن طريق استكشاف « أشكال اقتصاديـة واجتماعية جديدة تعيد الى اسرائيل قلبها وتعيد الحماس الى قلـــوب مؤيديها » · (٩) الاشارة الى أهمية مشاركة يهـــود العالم في مشروع بناء اسرائيل « التـي كانت عنصرا اساسيا في تطوير الدولة »· (١٠) الاشارة الى تسرب الاوهام حـول دولة اسرائيل الى نفوس يهود العالم خلال العام الاخير « بسبب الفضائح والفسـاد والرشوة وغياب القيادة الوطنية الحازمـة وفقدان الاحساس بالهـــدف القومي » · (١١) التركيز علـــى ان الروابط بيـــن اسرائيل « والدياسبورا » (اليهود فـي خارج اسرائيل) ستكـــون « أسهل ، او اكثر صعوبة عما كانت عليه في السابق ، بقدر يتساوى مع قدرة الحكومة الجديدة على توحيد شعب اسرائيل في موقـــف موحـــد ازاء السيـــاستين الداخليـة والخارجية » · (١٢) الرد على بيغن الذي يقترح تعيين وزير « لشؤون العـلاقات مع الدياسبورا » بالقول ان عمل هـذا الوزير لن يكون تمثيل اسرائيل لـــدى الدياسبورا وحسب ، « بل نقل وجهـات نظر يهود العالم الى حكومة اسرائيل ، حيث يتطلب هذا المنصب تفهما بالغـــا وانفتاحا كبيرا وحساسية مرهفة واستعداد الحكومة المسبق على قبول معارضة بعض اجزاء من يهود العالم لسياسات الحكومة في اسرائيل » ·

اراء وتحذيرات متناقضة

ثانيا : فيما يلي عينة من ردود الفعل لدى افراد او ممثلي هيئات ومؤسســـات مختلفة ازاء نتائج الانتخابات الاسرائيلية وعرضها يخدم من دون شك ما نحـاول ان نؤكده من ملامح « التغيير والتناقض »

في ان معا في اوساط « الجالية اليهودية » من ناحية وفي صفوف زعماء الحركة الصهيونية من ناحية اخرى ·

☐ قارىء « صهيوني » اسمه « سيدني هامبرغر » ، وهو انكليزي يسكن في لندن يقول في رسالة بعث بها الى « الجويش كرونيكل » انه لم ينتم في يوم من الايام « الى حركة غير الحركة الصهيونية » ، وهو بالتالي كان دائما « من مؤيدي » الحركة الصهيونية الاقليمية » (اي التي تحتل ارضا كي تحتفظ بها) · ويعرب القارىء الصهيوني عن مخاوفه ازاء ردود الفعل الصاخبة والساخطة على فوز الليكود ، ويذكر انه يخشى ان يخفف من يدعون بـ « اصدقاء » (على حد تعبيره) اسرائيل من حماسهم وتأييدهم لاسرائيل في المستقبل · ويضيف ان رسالة يهود بريطانيا يجب ان تكون واضحة امام الملأ وهي : « كنا ، وسنبقى دائما صهاينة · وسنواصل تقديم الدعم لاسرائيل بغض النظر عن الحكومة التي يختارها الشعب » ·

☐ « ميلغن بينجامين » رئيس فرع بريطانيا لحزب « حيروت » يتهم ـ في رسالة له نشرت في العدد التالي من « الجويش اوبزرفر » ـ زعماء الحركة الصهيونية « الذين كانوا يدافعون عن أسرائيل في الماضي » بسبب لجوئهم الى الصمت في هذه الاونة « حيث ان اسرائيل في حاجة ماسة الى هؤلاء الان » · ويذكر ان بعض الاوساط الصهيونية « اصيبت بخيبة امل وهلع » ازاء نتائج الانتخابات· ويطالب « المتقاعسين » ان يتخلوا عن مراكزهم القيادية في الحركة الصهيونية البريطانية «لاولئك الذين يؤمنون باسرائيل ـ مهما كانلونها ـ وبالصهيونية وبالهدف الصهيوني العظيم » ·

« الانتداب » الاميركي

☐ صهيوني اخر ، ولكنه اميركي ، مر في لندن في طريقه من اميركا الى اسرائيل ادلى بتصريحات تتعلق بوضع يهود اميركا · يقول هذا الصهيوني ، واسمه « جاك تورشزمند » وهو عضو في اللجنة التنفيذية « للمنظمة الصهيونية العالمية » والرئيس المشارك « لاتحاد العالم لعموم الصهاينة » ، « ان حكومة كارتر تسعى الى شق صفوف الجالية اليهودية في اميركا » · ويذكر ان يهود اميركا لا يهتمون لموقف الحكومة الاميركية من الليكود ، » فقد ارسل معهم هؤلاء برقيات تهنئة الى بيغن » · ويحذر الصهيوني الاميركي من مغبة المواجهة بين الحكومة الاميركية وحكومة بيغن ، ويقول انه لو حدثت مثل هذه المواجهة «فان يهود اميركا سيتخذون موقفا مماثلا لموقف يهود بريطانيا في الايام الاخيرة من الانتداب البريطاني » · ويزيد ان معلوماته التي حصل عليها من كبار موظفي الخارجية الاميركية تفيد ان هؤلاء « يفضلون التعامل مع حكومة اسرائيلية تتمتع ببرنامج واضح » · وان صحيفة المال والاعمال « وول ستريت جورنال » ذكرت في افتتاحية لها ان مشاكل اسرائيل الاساسية هي مشاكل داخلية واقتصادية « ويمكن ان تكون حكومة بزعامة بيغن اكثر قدرة على حل هذه المشاكل من الحكومات السابقة » ·

☐ البروفسور « امانويل غاتمان » ، اسرائيلي صهيوني ، والرئيس السابق لكلية العلوم السياسية في الجامعة العبرية والذي يشغل منصب « الاستاذ الزائر » في « مدرسة لندن للاقتصاد » (ال·اس· اي·) ، يقول ان هزيمة حزب العمال الاسرائيلي نتيجة لعملية طويلة من التطور السوسيولوجي · ويصف الامر بانه «ثورة

سياسية حقيقية ، لان عصر ربط حزب العمال وزعمائه بالهدف الصهيوني قد وصل الى نهايته » ٠

□ صهيوني بريطاني ، لعل ما قاله يشكل واحدا من أهم التعليقات ٠ انه « ايان ميكاردو » زعيم حزب العمال البارز وصاحب السمعة العالية في اوساط الحركة النقابية البريطانية ٠ يقول : « ان تحالف الليكود مع الاحزاب الدينية هو بمثابة الكارثة لاسرائيل » ٠ وكان ميكاردو يتحدث امام جمعية اصدقاء اسرائيل التابعة لحزب العمال ـ فرع منطقة كامبدن (وهي منطقة عمالية فقيرة) ـ ٠ ورغم اعلانه عن ضرورة مواصلة تقديم الدعم لدولة اسرائيل ، الا انه اعرب عن «قلقه» ازاء بروز « اتجاهات غامضة تنتج عن مثل هذا التحالف » ٠ وفي ختام كلمته وجه ميكادو الدعوة الى اعضاء حزب العمال البريطاني وافراد الجالية اليهودية بأن يقدموا الان « اكثر من اي وقت مضى الدعم كل الدعم للحركة العمالية الاسرائيلية » ٠

هذه فقط بعض الملاحظات القليلة حول ردود فعل الاوساط الصهيونية البريطانية على وصول الليكود الى الحكم في اسرائيل وهي ـ بسبب قلتها وندرتها ـ لا يمكن اعتبارها حقائق ثابتة ومواقف حاسمة تتضمن وجهات نظر «نقيضين» قد يدخلان مرحلة في المواجهة التي ستؤثر من دون شك ، على طبيعة وشكل العلاقات في داخل الحركة الصهيونية البريطانية، وبين هذه وبين اسرائيل في ظل بيغن ٠ ولكن ، من ناحية اخرى ، ان هذه الملاحظات ـ رغم قلتها وندرتها ـ يمكن اعتبارها مؤشرات للامح بداية مرحلة من انتشار الخلاف داخل الحركة الصهيونية التي دخلت منذ اوائل عام ١٩٦٨ في دائرة الخلاف ٠

مصطفى كركوتي

رسالة باريس

التعذيب

على اثر الاضراب الذي اعلنه المعتقلون الفلسطينيون في سجن عسقلان، انشئت في باريس « لجنة الاعلام حول السجناء والمعتقلين الفلسطينيين في سجون اسرائيل » ٠ كان اول نشاط للجنة ، هو نشر اعلان في صحيفة « الموند » الباريسية ٦ـ٧/٣/٧٧ ٠ يشرح وضع المعتقلين في عسقلان ، ويناشد الرأي العام العالمي التدخل لفضح الارهاب الاسرائيلي ٠ وقد وقع البيان مجموعة من المحامين المعروفين ، والقضاة ، واساتذة الجامعة والكتاب والاطباء ٠ كما بدأت اللجنة باصدار نشرة بالفرنسية عن اوضاع المعتقلين ٠ ودعت اللجنة ، المحامية الاسرائيلية ليا تسيميل ، التي كانت تقدم شهادة عن انتهاكات اسرائيل لحقوق الانسان في جنيف ، الى باريس ٠ حيث عقدت ندوة في المركز الدولي للطلاب يومي ٢٧ و٧٧/٥/٢٨ ٠ وقد القت المحامية ليا تسيميل الشهادة التالية :

اود ، في هذه الامسية ، ان اقدم وصفا سريعا لما يحصل لمعتقل منذ لحظة توقيفه حتى اخلاء سبيله · ساتحدث بشكل اساسي عن الارض المحتلة ، واقدم وصفا للصلاحيات التي يتمتع بها المسؤولون العسكريون في الضفة الغربية ، وقطاع غزه والجولان ·

في كل مدينة كبيرة من مدن الضفة الغربية ، يوجد مبنى ، يعود غالبا الى فترة الانتداب البريطاني وهو بمثابة سوبر ماركت للقمع · وهناك يوجد كل شيء · البوليس ، الحكومة العسكرية ، مركز المخابرات ، السجن ، المحكمة ، مركز التوقيف ·

الحاكم العسكري الاسرائيلي ، هو الذي يقرر عمليا ، في جميع شؤون الحياة في الارض المحتلة · من منع التجمعات الى القضايا الثقافية · وكمثال على ذلك ، فقد تلقت جامعة بيرزيت في الضفة الغربية المحتلة ، رسالة من الحاكم العسكري ، يطالب باعطائه لائحة مسبقة باسماء الهيئة التعليمية للعام الدراسي القادم · وهذه اللائحة ، يجب ان تخضع لموافقة الحاكم العسكري · السبب ، ان عددا من الطلاب الفلسطينيين من الارض المحتلة عام ١٩٤٨ ـ الذين يعتبرون مواطنين اسرائيليين ، يتلقون دروسهم في جامعة بيرزيت ، وبعضهم بدأ يدرس فيها · وتعتبر الحكومة العسكرية ان هؤلاء الطلاب راديكاليون ويقومون بالتحريض السياسي ·

يبت الحاكم العسكري ، في جميع ما يتعلق بالحياة الاقتصادية في الارض المحتلة . فهو الذي يعطي اجازة العمل ، وحق القيام بمشروع اقتصادي ، وادارة الاستثمار ···

تسمح هذه السلطة المطلقة للحاكم العسكري بممارسة الضغط على الناس ، في سبيل اجبارهم على التعاون السياسي مع سلطات الاحتلال · هناك مثل واضح على ما اقول : هناك رجل من رام الله اسمه عبد النور جنحو · اصبح صاحب ملايين منذ سنوات بسبب علاقاته مع الحاكم العسكري · ويسميه اهل رام الله حاكم المدينة الحقيقي · قدم جنحو هذا ترشيحه للانتخابات البلدية في نيسان ١٩٧٦ · لكنه فشل · ولم ينتخب · في اليوم التالي ، قتل بمسدسه المرخص ، رجلا يعتبره مسؤولا عن فشله الانتخابي · ورغم ان هذه الجريمة شخصية ، فلم يحاكم جنحو امام المحكمة المدنية ، بل امام المحكمة العسكرية · وبعد محاكمة دامت ثمانية اشهر ، صدر عفو عنه · لقد رأيت عددا كبيرا من المعتقلين ، لكنني لم ار معتقلا بهذا الشكل · يرتدي بذلة كاملة ، وربطة عنق · جهاز تلفزيون خاص في زنزانته · وفيما انا متوجهة بالطائرة من تل ابيب الى باريس كان جنحو يجلس في نفس الطائرة ·

يستطيع الحاكم العسكري ان يغلق جميع المدارس والمؤسسات التعليمية بقرار · كما بامكانه اقفال الحوانيت ساعة يشاء · او اجبار اصحاب المؤسسات على العمل عندما لا يريدون ذلك · والطريقة سهلة نسبيا · عندما يعلن اضراب عام ، تذهب قوات من الجيش من بيت الى بيت . وتأتي بالتجار الاثرياء ، امام محلاتهم المقفلة ، وتخيرهم ، بين فتح محلاتهم او اغلاقها بالشمع الاحمر الى الابد ·

وادى الحاكم العسكري ، امكانية فرض الاقامة الجبرية · او الابعاد الى مدينة اخرى· اشهر الحالات هي حالة ريموند طويل ، التي فرض عليها الاقامة الجبرية في منزلها مع منع كامل من مغادرته مدة اربعة اشهر ونصف · يقف شرطي امام منزلها ، ويسجل اسماء الذين يدخلون اليه · قطع خط الهاتف · ولم تعرف ريموند طويل ، سبب هذه الاقامة الجبرية الطويلة الا بعد فترة · فقد اشتركت في احدى التظاهرات التي نظمتها مجموعة

اسرائيلية يسارية للتنديد بتخريب الاراضي الزراعية في منطقة عقربة في الضفة الغربية ٠

وهناك ايضا ما يسمى بالتوقيف الاداري ، الذي يستخدم منذ عشرات السنين في اسرائيل ٠ اي التوقيف في السجن دون محاكمة او تهمة ٠ هدف التوقيف الاداري هو ضرب القيادات الشعبية ٠ والواقع ، ان معظم الذين يطبق التوقيف الاداري ضدهم ، هم من القيادات السياسية او الشعبية او المثقفين ٠ هناك حالة المغني الشعبي مصطفى الكرد، الذي كان يتلقى وبشكل دوري الدعوات من الحكومة العسكرية للتعاون معها ٠ لكن امام رفضه المتواصل ، قامت سلطات الاحتلال بتوقيفه اداريا لمدة اربعة اشهر ٠ وهناك اناس موقوفون اداريا منذ عدة سنوات ، ولا يزالون معتقلين دون محاكمة ٠

يقدم السجان ، عادة ، لمعظم الموقوفين الاداريين عرضا باطلاق سراحهم مقابل الالتزام بمغادرة البلاد نهائيا ٠ اما الذين يرفضون الصفقة ، فتتم عملية ابعادهم بقرار ابعاد ٠ لقد تم ابعاد الدكتور أحمد حمزة النتشي بقرار ، قبل موعد الانتخابات البلدية في نيسان ٧٦ ، رغم انه كان احد المرشحين ٠

هناك خالد زواوي ، الذي اخذ بالقوة من السجن الى مكتب الحاكم العسكري ، حيث ضرب واجبر على توقيع طلب هجرة ادارية ٠ وقد تمكنا من ايقاف هذا الاجراء عبر تقديم طلب الى المحكمة ٠ لكن هناك العديد من الحالات ، التي يبعد فيها الناس بهذا الاسلوب٠ يحق لاي جندي اسرائيلي ، ان يوقف اي مواطن من المناطق المحتلة ، دون ابراز سبب او مذكرة قضائية ٠ يحق له حجز كل شيء دون مبرر ٠ وهناك سلطة تستعملها الحكومة العسكرية ، وهي تدعى **العقاب الجماعي** ٠ واحد اوجهها الاكثر انتشارا هي عملية نسف المنازل ٠

تنسف بيوت معظم المعتقلين ، الذين وجدت اسلحة في حوزتهم ، ايا كان عدد العائلات التي تقيم في المبنى ٠ اعتقل شاب من منطقة الخليل ، ويدعى عزمي الاطرش ٠ جاء الجنود بعد يومين من اعتقاله ٠ وسألوا عن مكان اقامته ٠ اشار السكان الى بيت قديم جدا ونصف مهدم ٠ لم ير الجنود فائدة من نسف هذا المنزل القديم ٠ لكنهم علموا ، ان للاطرش شقيقا يسكن منزلا جميلا ٠ ذهبوا الى منزل شقيقه ونسفوه ، بعد ان اعطوا سكانه مهلة عشر دقائق ٠

ساحاول الان ان اصف ما يجري للانسان منذ لحظة اعتقاله ٠ وكما اشرت ، فان اي جندي اسرائيلي يستطيع اعتقال ابناء الارض المحتلة ٠ لكن هناك مسألة القدس الشرقية ٠ فقد الحقت القدس بعد حرب ١٩٦٧ بدولة اسرائيل ٠ ومن المفترض بالتالي ، ان تطبق القوانين الاسرائيلية فيها ، اي لا يمكن اعتقال اي انسان دون مذكرة توقيف رسمية ٠ وعندما اسأل زبائني المعتقلين ، عن مذكرة التوقيف هذه ، فغالبا ما يأتيني هذا الجواب ٠ « لم اتجرأ حتى على السؤال » ٠

لا تقوم الشرطة بالتحقيق ٠ فالتحقيق الحقيقي ، يتم على مستويين : الاول ، وتقوم به اجهزة الامن اي المخابرات ٠ والثاني ، الاستعلامات العسكرية ، اي ما تسمونه هنا ، بالمكتب الثاني للمخابرات العسكرية ٠

تهتم اجهزة المخابرات العسكرية ، بالناس الذين تسللوا الى اسرائيل من الخارج ٠

وتهتم المخابرات بالناس الاخرين · يؤدي هذا الوضع الى وجود قاعة صغيرة للمخابرات داخل جميع مراكز الشرطة في الارض المحتلة · وفيها ، يتواجد عمـــلاء الاستخبـــارات الاسرائيليين ، الذين يلقبون باسماء مثل ابو داوود ، ابو سلام ، ابو جوني ··

لن ادخل الان في تفاصيل الاستجواب والتحقيق · لكن استطيع ان اقول ، ان النـــاس يتعرضون لتعذيب حقيقي · ويتحملون الاهانات والعنف والوحشية · ساقدم نموذجيـــن عن هذا التعذيب ·

النموذج الاول ، هو نموذج ابراهيم ، من منطقة الخليل · وهو راع عمره حوالي سبعين عاما · ويقيم في منزل صغير على اطراف القرية · عام ١٩٦٧ ، حين انسحب الجـــيش الاردني من الضفة الغربية ، كان ابراهيم في الحقل يرعى قطيعه · جاءه ثلاثة جنـــود اردنيين وطلبوا منه اخفاء سلاحهم حتى موعد عودتهم · اخذ البنادق وخبأها في حائـــط منزله · في اذار ١٩٧٦ ، اي بعد تسع سنوات ، وشي به ، واعتقل · ابى الرجل ان يعترف (يقال في فلسطين ان الخليلي عنيد) رغم ان التهمة ليست خطيرة · تعرض لتعذيـــب وحشي · تمرير التيار في اليدين والرجلين والاذنين ، ثم بدأت الدماء تسيل من انفه ، فيما تابع المحققون ضرب رأسه على الطاولة · ثم اجبره المحقق ـ الذي يقوم بتعذيبه على بلـع دمه قائلا : « لن نسمح لك بتلويث مكاتب الحكومة الاسرائيلية » · من البديهي ، انه وقع على ورقة اعترافه بعد ذلك · وعندما اقتيد الى المحكمة ، استطاع الدفاع ان يبرهن ، على ان هذا الاعتراف انتزع تحت التعذيب · لكن وكالعادة ، قررت المحكمة عدم وجود التعذيب. وان الحديث عن التعذيب هو جزء من « المخيلة الشرقية » ·

النموذج الثاني ، هو بدر انور المصري ، وهو عضو في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين· اعتقل واقتيد الى احد مراكز التحقق من الشخصية ـ يتكلم الجميع عن هذا المركز ، ولكن لا احد يعلم اين يقع · ويبدو ان موقعه هو قرب معسكر في منطقة تل ابيب ·

ترك بدر انور المصري في عزلة تامة داخل زنزانة لمدة شهرين ، وكان يستجوب طوال هذه الفترة يوميا · عذب بالكهرباء ، عبر تمرير التيار الكهربائي في الكرسي التي اجلسوه عليها خلال التحقيق · شنق من رجليه . ورأسه مغطى ، بينما كان جنود لم يتمـــكن من رؤيتهم ينهالون عليه ضربا ·

هناك طريقة تعذيب اخرى ، ترد في شهادات الكثير من المعتقلين · انها ظاهرة الكلاب · يدخل المحقق غرفة التعذيب برفقة كلاب كبيرة ومخيفة · واذا بدت علامات التردد على وجه المتهم ، او اذا لم يظهر حماسا كافيا للاعتراف ، تهاجمه الكلاب · لقد تمكن الدفاع ، ولو بعد فترة طويلة ، من الحصول على شهادة طبيب قام بمعاينة السجين تؤكد وجود اثـــار نهشات عميقة جدا في جسده وهي ناجمة عن عضات الكلاب · لكن السجين يشير ، الى ان اقسى تعذيب تعرض له ، كانت طريقة تجويعه · يرمون له كسرة خبز واحدة في اليوم ، وعليه ان يرجوهم من اجل جرعة ماء ·

سجين اخر ، اسمه سلامة ، من القدس · اجريت له عملية تنويم مغناطيسيـــة ، كـــي يعترف بنشاطاته · واعتقد ان طرق التعذيب والاستجواب تواصل تطورها ·

بعد انتهاء الاستجواب ، يأخذ المحقق اعترافات المعتقلين مكتوبة · تكتب الاعترافـــات دائما باللغة العبرية · اي ، ان على السجين التوقيع على نص بلغة لا يفهمها · وتعتبـــر هذه الاعترافات بمثابة شهادة · وتكون عادة ، في محاكمات الامن ، الاثبات الوحيـــد ·

يظهر جليا ، من طريقة تحرير هذه الاعترافات ، انها حررت من قبل المحققين انفسهم · اليس « مضحكا » ان يقول المتهم : « انا عضو في منظمة تخريبية » · « او انا عضو في منظمة معادية » ·

سوف ادخل الان ، في بعض التفاصيل · فانا اعتقد ان فهم الية لائحة الاتهام ، امر بالغ الاهمية · فاللائحة تتضمن عادة عدة اتهامات · مثلا : رمى احدهم قنبلة يدوية · فيتهم بالتدريب على استعمال القنبلة ، ثم الاتصال بعميل العدو الذي اعطاه القنبلة ، وينهم ايضا بحيازة القنبلة ، واستخدامها · هناك حتى الان اربع تهم · يضاف اليها ، تهمة الانتماء الى منظمة غير شرعية ، كما يمكن اتهامه بالتآمر على امن الدولة · وكونه رمى القنبلة ، فقد ادى بالتالي ، خدمات لمنظمة عدوة · نحن امام كتاب اتهام ، ولسنا امام لائحة اتهام ·

بعد ذلك هناك المحاكمة · القاضي عسكري أمضى حياته في القضاء العسكري ، ولكنه ليس بالضرورة قاضيا حقوقيا · اذ يكفي ان يكون قد انجز دراسة الحقوق كي يصبح قاضيا · ولديه مساعدون · وهم ضباط في الجيش ، ليس لهم اية كفاءة حقوقية ، وفي غالب الاحيان ، يؤتى بهؤلاء من المراكز نفسها ، حيث يمارسون القمع بوصفهم سلطة عسكرية ، ويتابعون داخل المحكمة دورهم السابق ·

عادة ، تكون الاحكام قاسية جدا · وتصاغ باسلوب بطولي · مثلا : شاب في التاسعة عشرة من العمر ، اتهم بانه عضو في منظمة فلسطينية · اشار الحكم الصادر عن المحكمة ، انه « كان عضوا في منظمة من المجرمين والمخربين ، هدفها اسالة دم الابرياء من النساء والاطفال ، ورغم انه لم يشارك شخصيا في سفك الدماء ، فهو بمجرد انضمامه الى هذه المنظمة يتحمل مسؤولية اعمالها الاجرامية » ·

الرجل المسن الذي اشرنا اليه سابقا ، حكم عليه بالسجن مدة خمس سنوات ·

يمكننا ان نشير الى نموذج مجموعة من شباب القدس · والقدس الشرقية تغلي ، لم تعد مكانا يستطيع فيه السياح التجول بحرية ، والاندهاش امام عظمة القدس تحت الاحتلال · فاذا اراد السائح الذهاب الى حائط المبكى ، عليه ان يمر امام عشرات الجنود الاسرائيليين المدججين بالسلاح البالغ الحداثة . الذي طوره الاميركيون لمواجهة التظاهرات · هذا التبدل في حالة القدس ، نجم عن الدور الذي يلعبه اطفال المدينة المحتلة· انهملا يقومون بالاعمال الكبيرة : يرمون الحجارة · ترمى الحجارة على السياح في بعض الاحيان ، وعلى رجال الشرطة والجنود في اغلب الاحيان · ينجحون في تحطيم زجاج سيارة عسكرية ، او سيارة احد الضباط · يحرقون الدواليب ، ويكتبون الشعارات على الحيطان · ومنذ فترة قصيرة ، بدأوا باستخدام الزجاجات · ليست بالضبط زجاجات مولوتوف · كل يضع ما في مخيلته · ومنذ فترة وجيزة ، عبئت زجاجات الكوكاكولا بالبنزين ورميت ·

في الماضي ، كانوا يحاكمونهم امام قاضي الاطفال ، لان اعمارهم تتراوح بين ١٥ و ١٦ سنة · اما الان ، فقد اصبحوا يحاكمون امام المحكمة العسكرية · وعوضا عن احكام تتراوح بين عام وثلاثة اعوام مع فرض غرامات كبيرة ، كما يحصل في المحاكم المدنية · هناك شبان سيقوا امام المحكمة العسكرية مع لائحة اتهام تتضمن عشر تهم ، والحقيقة انهما

القيا زجاجتين : الاولى على جندي لكنها لم تنفجر ، والثانية على سيارة ، ولم تنفجر ايضا · والواقع انهما لم يستخدما اية وسيلة لاحراق الزجاجتين اللتين ملئتا بالبنزين · وقد حكم عليهما في ايار ١٩٧٧ بالسجن لمدة ثمانية اعوام ·

عندما تجري التظاهرات . تقام محاكمات عسكرية في منتصف الليل · يقاد المعتقلون امام هذه المحاكم ، دون ان يسمح لهم بتدبير امر الدفاع عن انفسهم ، ويحكم عليهم بغرامات باهظة جدا · ولا توجد امكانية لاستئناف الاحكام الصادرة عن المحاكم العسكرية·

بعد انتهاء المحاكمة يصل المعتقل الى السجن · هنا يبدأ العقاب الحقيقي · العقاب ليس بمعنى سلب حرية المعتقل ، بل بمعنى العذاب اليومي الدائم ·

هناك جدل واسع حول عدد السجناء الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية · الارقام متضاربة ، لان الحكومة الاسرائيلية تريد ابقاء الرقم سرا · توافق الحكومة على ان عدد السجناء هو حوالي ٣٠٠٠ سجين · انا اعتقد ان العدد الحقيقي يتراوح بين ٣٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ سجين ·

هناك نوعان من السجون · السجون المختلطة ، حيث يتواجد سجناء يهود اسرائيليون، وسجناء فلسطينيون · وهناك السجون الخاصة بالعرب · من المستحيل عمليا المقارنة بين شروط هذين النوعين من السجون · فسجن عسقلان ـ واظنكم سمعتم به ، هو نموذج السجن الخاص بالفلسطينيين ، في السجون الهولندية تخصص ١٦ م٢ لكل سجين · اما في سجن نابلس فالمساحة المخصصة للسجين هي ٥ر١ م٢ · لقد تبنى المعتقلون في السجون الاخرى جميع مطالب سجناء عسقلان · ليس هناك اسرة · ينام الانسان على الارض مباشرة او على صفيحة رقيقة جدا من المطاط · وبشكل عام ، يرفض المعتقلون السياسيون العمل ، لانه يحمل طبيعة عسكرية · فلقد فرض على معتقلي سجن الرملة صناعة شبكات التمويه للجيش الاسرائيلي ، ولم يكن نضال سجناء الرملة ضد هذا العمل سهلا ، ولكن في نهاية المطاف نال السجناء مطلبهم بعد ان دفعوا ثمن هذا النصر · فالقصاص عندما ترفض القيام بهذا العمل هو البقاء في الزنزانة طوال الوقت · وليس هناك امكانية للخروج من الزنازين المكتظة سوى ساعة واحدة في النهار ، وهي ساعة النزهة داخل باحة مسقوفة ·

يعيش المعتقلون حياة مزرية · يقضون حاجاتهم في الغرفة نفسها حيث ينامون ، وحيث تكون فرشهم او ما يستعملونه بدل الفراش ملتصقة ببعضها · الواحد قرب الاخر وفي مواجهة الاخر · الشروط الصحية والمادية داخل هذه السجون بالغة السوء · وجميع المعتقلين يشكون من الروماتيزم والقرحة · وانواع اخرى من الامراض ·

يحق للسجناء قراءة جريدة واحدة ، من وقت الى اخر ، وهي الجريدة اليومية التي تصدرها الهستدروت باللغة العربية · جميع مطالب السجناء للحصول على ادبيات سياسية او لها علاقة بالسياسة مرفوضة بشكل قاطع · حتى جريدة « الجيروزاليم بوست » الصهيونية ، التي تصدر باللغة الانجليزية يمنع ادخالها الى السجن ·

اما العناية الصحية فهي دون مستوى النقد · فمنذ مدة قصيرة ، وصل احد زبائني من المعتقلين الى مستوصف السجن (وهذا امتياز لا يحصل عليه المعتقل دائما) · قال له الطبيب ، « لا ارى لماذا يجب ان اعالجك · فلو كانت صحتك جيدة بما فيه الكفاية ،

فسترمي صاروخا على القدس » · يطبع هذا النوع من المواقف والملاحظات علاقات السلطات الطبية مع المعتقلين ·

اعلن سجناء « شطة » في شكواهم . ان مدير السجن عنصري الى درجة انه لا يمكن التعايش معه في نفس السجن " يضرب السجناء ويحتقرهم . يمنع دخول المحامين الى السجن . ويعلن دائما : يمكنكم تقديم شكوى الى المحكمة العليا · (هناك قانون اسرائيلي يعطي الناس حق اقامة دعوى على مؤسسات الدولة) · فهناك مبدئيا امكانية اقامة دعوى على ادارة السجن امام المحكمة العليا · اما موقف مدير السجن فهو تشجيع السجناء على اقامة الدعاوى . لان كلفتها هي ١٠٠ ليرة . سوف تستعمل اسرائيل نصفها من اجل شراء طائرات جديدة !·

لا اريد . ان اتابع وصف الحالة السيئة في السجون . اريد الان ان اتكلم عن النواحي الايجابية غير المعروفة عادة · رغم القمع ومحاولات اثارة النعرات بين المعتقلين . فالحياة السياسية داخل السجون الاسرائيلية لا تزال ناشطة · فالمعتقلون . يتابعون حياتهم التنظيمية والسياسية داخل السجن . حيث تجري مناقشات بين مختلف التيارات · وقد تمكن المعتقلون من تنظيم طريقة تعليم ذاتي . في ثلاثة سجون على الاقل ·

ففي سجن بئر السبع . حيث حوالي ٦٠٠ معتقل فلسطيني . تضم الباروكة الواحدة بين ٨٠ الى ٩٥ معتقلا · يبقون داخل الباروكات طوال النهار . ما عدا ساعة مخصصة يوميا للنزهة . داخل ملعب محاط بالاسلاك الشائكة · رغم الاكتظاظ . والطعام السيء · فقد استطاع المعتقلون تنظيم انفسهم بشكل جيد · يستيقظون باكرا في الصباح ويقومون بالرياضة البدنية داخل الزنزانة · ثم يقسمون الى مجموعات دراسية · الاساتذة هم من المعتقلون انفسهم · الذين يقومون بالاضافة الى ذلك بكتابة النصوص المدرسية . لانهم لا يستطيعوا طلبها من الخارج ·

يشكو المعتقلون في بئر السبع من وجود اشخاص اصيبوا بالجنون تحت التعذيب ·

يوسف اسماعيل عودة . بقي في التوقيف الاداري من عام ١٩٧١ حتى عام ١٩٧٥ . عمره ٢٥ سنة . وهو من منطقة الخليل · كان مطاردا من السلطات الاسرائيلية لفترة طويلة · اختبأ في المغاور والجبال . ثم اصيب بالجنون · عقدت عائلته اتفاقا مع الحكومة العسكرية يقضي بتسليمه شرط اطلاق سراحه بعد ذلك . باعتباره مصابا بالجنون · لكن . حكم عليه بالسجن مدة ٢٥ سنة · وضع مع باقي المعتقلين . الذين طالبوا بنقله الى المستشفى · نقل الى مستشفى سجن الرملة . حيث وضع في السجن الانفرادي . ساءت حالته · طالب المعتقلون باعادته الى الزنزانة . لانهم يعتنون به على الاقل ·

ان احد امثلة كثافة النضال السياسي في السجون . هي لائحة النضالات والاضرابات في سجن الرملة منذ عام ١٩٦٧ :

اب ١٩٧٥ . اضراب عن العمل . لان احد الحراس قام بضرب المعتقل مالك بسيسو · بعد يومين اضطرت ادارة السجن الى الاعتذار ·

اذار ١٩٧٦ . اضراب عن الطعام . بسبب ضرب وتعذيب احد المعتقلين ·

شباط ١٩٧٦ . ثلاثة اضرابات عن الطعام . تضامنا مع المطران كبوجي ·

الدولية والعربية التي رافقت كل مرحلة واثرت على استراتيجيتها العسكرية بصورة مباشرة وغير مباشرة ·

وفي تقديرنا ان الفكر والرأي العام العربيين في حاجة دائمة الى دراسة واعادة دراسة احداث وتطورات الجولة العربية ـ الاسرائيلية الاولى ، حتى يتعمق لديهما الوعي التاريخي اللازم بالصراع العربي ـ الاسرائيلي استراتيجيا وعسكريا وسياسيا ، ومن ثم يتعمق ادراكهما للجولات التالية ، وقدرة عقلية وعلمية اكثر على مواجهة المرحلة الراهنة ومستقبل هذا الصراع ، ذلك لانه بدون الوعي الحقيقي بالتاريخ يصبح العقل العربي ، ومن ثم الرأي العام المؤثر والفعال على اصحاب القرارات الاستراتيجية السياسية والعسكرية ،فريسة لاوهام ولا عقلانية المواقف الجزئية ·

ان تذكر حرب ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ ، التي تشكلت نتيجة لها دولة الكيان الصهيوني « اسرائيل » فوق الارض المحتلة في فلسطين ، ودراستها بتعمق ، وتعميم الخبرات السياسية والاستراتيجية المستفادة منها ، رغم ما تحمله عملية التذكر والدراسة من شعور عميق بالمرارة، انما تمثل ضرورة لا غنى عنها لتطوير الوعي القومي العربي ، خاصة بالنسبة للاجيال الحديثة التي لم تعاصر هذا الحدث المحوري في تاريخ امتنا ·

والكتاب يتضمن خمسة ابواب ، ينقسم كل منها الى فصلين او ثلاثة فصول · ويتناول الباب الاول ، وعنوانه « جذور القضية » ، خلفية الصراع في الفصل الاول منه ، مرجعا اياها الى قرار التقسيم الصادر عن الامم المتحدة في ٢٩ـ١١ـ١٩٤٧ باعتباره السبب المباشر لبدء الصراع المسلح بين العرب الذين رفضوا القرار الجائر واليهود الذين قبلوه كحد ادنى لمطالبهم الاصلية · موضحا ان نجاح الحركة الصهيونية في الحصول على هذا القرار يرجع الى نشاطها السياسي خلال فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها كي تكسب تأييد الولايات المتحدة الاميركية من خلال اقناعها بانها ستكون وكيلتها الاحتكارية وعميلتها الامبريالية في المنطقة ، وكذلك تحصل على دعم الاتحاد السوفييتي لها من خلال اقامة حزب شيوعي في فلسطين ليكون جسرا بين الحركة الصهيونية والدعوة الماركسية ومن ثم يبسط الاتحاد السوفييتي « نفوذه على المنطقة التي كانت حلم القياصرة لعدة قرون » ! ثم تناول مسألة المستعمرات والتوسع التدريجي الصهيوني في فلسطين و « الخطة د » التي وضعتها قيادة الهاجاناه للاستيلاء على المناطق الحيوية عشية دخول القوات النظامية العربية ، وموقف الدول العربية المختلفة من الصراع والتناقضات التي كانت قائمة بين بعضها البعض بهذا الصدد · وفي الفصل الثاني عرض المؤلف جغرافية فلسطين لتوضيح طبيعة مسرح العمليات الحربية وتأثيرها عليه ، وفي الفصل الثالث تناول مراحل الحرب بصورة موجزة والسمات العامة لها ، وقد قسمها الى فترة حرب غير معلنة تمتد من ١ـ١٢ـ٤٧ حتى ١٤ـ٥ـ٤٨ وفترة حرب معلنة تمتد من ١٥ـ٥ـ٤٨ حتى ١٣ـ٣ـ٤٩ وقسم كل فترة منهما الى مرحلتين ، وابرز ما في هذا الفصل هو التحديد الرقمي لمدد القتال الفعلي وفترات الهدنات .

وعرض آراء مختلف الكتاب العرب والاسرائيليين والاجانب بالنسبة لتحديد مراحل الحرب ، والعوامل التي اخذوا بها في تحديدها · وكذلك توضيحه للسمات الاستراتيجية العامة لكل مرحلة من مراحل الحرب ، وان كنا نرى ان تحديد هذه السمات في ذلك الفصل يستبق عرض

الاحداث ذاتها دون مناسبة منطقية تفرض ذلك على البحث ، وكان يجب ذكرها في ختام التحليل العام الذي يعقب عرض العمليات والمعارك وتطورات الحرب بمختلف مراحلها ، حتى لا يضيق القارىء بها ، ومنعا لبعض التكرار الذي اضطر اليه المؤلف بعد ذلك اثر عرضه لكل مرحلة ، وهذا يشكل ابرز العيوب المتعلقة بشكل ومنهج الكتاب ، كان يجدر تجنبه ٠

وفي الباب الثاني ، الذي يحمل عنوان « الاطراف المتصارعة » ، تناول المؤلف بالتحليل قوات واهداف الطرفين وميزان القوى بينهما ، وهو من اهم الابواب الوثائقية في الكتاب التي تسهل على الباحث في هذه الجولة عملية حصرقوات الطرفين وتقييم قدراتها القتالية من حيث التسليح والتدريب والخبرة والقيادة والتنظيم ٠ وتتأكد خلال هذا الباب الحقيقة التي طالما رددناها من قبل وهي ان العرب لم يحققوا من الناحية العلية اي تفوق كمي في حروبهم مع اسرائيل ، باستثناء المرحلة الاولى من حرب ١٩٧٣ ، اذ ان الارقام المفصلة توضح ان جيوش كل من مصر والاردن والعراق وسوريا ولبنان والسعودية والسودان واليمن ، التي دخلت فلسطين يوم ١٥ـ٥ـ١٩٤٨ ، كانت ١٤٩٢٦ رجلا موزعين على ١٤ كتيبة مشاة وبعض الوحدات القليلة المعاونة من المدفعية والدبابات الخفيفة ، على حين كان لدى « الهاجاناه » و « البالماخ » ١٠ الوية من المشاة بضم ٣٢ كتيبة ، بخلاف وحدات الدفاع الاقليمي الثابت عن المستعمرات ، وقدر اجمالي عدد المقاتلين بنحو ٦٧ الف ، اي نسبة التفوق البشري ٤ر٤ الى ١ لصالح اسرائيل ، وبالنسبة لعدد كتائب المشاة كانت نسبة التفوق ٢ر٣ الى ١ ٠ هذا مع ملاحظة ان ارقام القوات الاسرائيلية فيها كثير من الاضطراب وعدم الدقة بالنسبة لعدد الافراد ، اذ ان رقم ٦٧ الف ينتمي في الواقع الى تقدير الاستخبارات البريطانية في تموز (يوليو) ١٩٤٦ ، على حين اورد المؤلف رقما آخر بالنسبة لعامي ٤٧ ـ ٤٨ نحو ١٠٦ الف مقاتل ، ولكنه عاد واخذ بتقدير ٦٧ الف مقاتل فقط في جدول ميزان القوى ٠ والمسألة في حاجة الى تدقيق اكبر ٠ وعلى اي حال فان ذلك لا يغير من حقيقة التفوق الكمي الاسرائيلي وانما يزيد من نسبتها فقط ٠ ورغم تزايد قوة الجيوش العربية بعد ذلك ، وبالذات الجيش المصري والعراقي ، بحيث بلغت في بداية المرحلة الرابعة ، من الحرب يوم ٩ـ٧ـ٤٨ نحو ٣١ الف رجل موزعين على ٢٤ كتيبة مشاة، فقد قدرت القوات الاسرائيلية بنحو ١٠٦ الف رجل موزعين على ١٣ لواء تضم ٤٢ كتيبة ، اي ان نسبة التفوق البشري اصبحت ٣ر٤ الى ١ ونسبة تفوق عدد التشكيلات بلغت ١ر٧ الى ١ لصالح اسرائيل ٠

واذا ما اضفنا الى القوات العربية النظامية نحو ٧ آلاف من القوات شبه النظامية يبلغ اجمالي المقاتلين العرب في ١٥ـ٥ـ٤٨ نحو ٢١ الف رجل مقابل ٦٧ الف مقاتل اسرائيلي (وفقا للتقدير المتحفظ) ، وهذا يعني كما اوضح المؤلف ان يهود فلسطين البالغ عددهم وقتئذ نحو ٦٢٩ الف نسمة قد دفعوا الى القتال نسبة ١١٪ من رصيدهم البشري . على حين قدمت الدول العربية التي شاركت في القتال نسبة ٠ر٠٥٪ من اجمالي عدد سكانها البالغ حوالي ٤٠ مليون نسمة ! الامر الذي يكشف لنا مدى خطورة وهم الاستناد المطمئن الى التفوق البشري العربي كعنصر حاسم في الصراع المسلح ضد اسرائيل ، وهوالوهم الذي وظفه الاعلام الصهيوني لصالحه دائما لجذب عطف ودعم الرأي العام الدولي واظهار اسرائيل بمظهر الحمل الصغير في مواجهة الكثرة الهائلة من

الوحوش العربية !

ورغم ان المؤلف اورد فصلا صغيرا عن مقارنة اسلحة ومعدات الطرفين ، الا انه في الواقع لم يورد تفاصيل نوعية او كمية هذه الاسلحة لدى كل طرف كي يتكامل تقدير ميزان القوى ، واكتفى بتوضيح تخلف مستوى تدريب وقيادة وتنظيم القوات العربية بصفة عامة ، مع الاشارة لارتفاع القدرات الاسرائيلية المماثلة نتيجة للخبرة التي توفرت للواء اليهودي خلال الحرب العالمية الثانية الذي درىه البريطانيون ٠

ثم تناول المؤلف في الباب الثالث فترة الحرب غير المعلنة في فصلين عن مرحلتي هذه الفترة ، الاولى اخذ العرب فيها المبادرة والثانية انتقلت فيها المبادرة للجانب الاسرائيلي ، وعموما كان القرار السياسي والاستراتيجي الاسرائيلي هو الذي يحدد طبيعة كل مرحلة على ضوء اعتبارات تتعلق بالموقف الدولي والمحلي تجاه سلطات الانتداب البريطاني واقتصاد القوى لحين تبلور الموقف العربي الخ ٠٠ وكانت اهداف الهجمات العربية والعمليات الاسرائيلية يتركز اساسا حول طرق المواصلات التي تربط المدن والاحياء والمستعمرات الاسرائيلية بعضها ببعض وبمراكز امدادها ، ثم انتقلت في المرحلة التي سبقت جلاء القوات البريطانية ودخول الجيوش العربية الى عمليات اسرائيلية تهدف الى تهجير العرب من عديد من المناطق والاستيلاء على مدن ومواقع حيوية عدة ، خاصة على الشواطىء والموانىء ، بغض النظر عن تبعيتها للقسم اليهودي وفقا لقرار التقسيم ٠

وقد حققت القيادة الاسرائيلية في نهاية المرحلة الثانية من هذه الفترة اهداف الخطة « د » واصبحت تسيطر على خمس مساحة فلسطين بعد ان كانت تسيطر في بدايتها على مجرد [illegible] من المساحة ، ورغم هذا النجاح فكانت القيادات العربية خاصة السياسية منها ، تقلل الى حد كبير من قيمة القوات الاسرائيلية في بداية مرحلة الحرب المعلنة وتعتبر « ان العملية لا تعدو نزهة الى تل ابيب » كما يقول المؤلف !

وفي الباب الرابع عرض للمرحلة الثالثة من الحرب ، التي دخلت فيها الجيوش النظامية العربية لتحاول السيطرة على القسم المخصص للعرب في قرار التقسيم ، حيث تمت العمليات الهجومية الاولى بدون قيادة عربية واحدة او خطة موحدة بالمعنى الحقيقي ، واستمرت لمدة ٢٧ يوما خاضت فيها الجيوش العربية ١٩ معركة بدون تنسيق او تعاون استراتيجي ومن ثم ضعفت قدرتها على الاستفادة من ميزة العمل على الخطوط الخارجية ، التي يتيحها لها الواقع الجغرافي لفلسطين ، ورغم ذلك تحرج موقف القوات الاسرائيلية للغاية في نهاية هذه الفترة ، التي لم ينقذها منه سوى صدور قرار مجلس الامن بفرض الهدنة الاولى وقبول الدول العربية لها ، وامكن للجيوش العربية ان تحرر نحو الفي كلم مربع من ارض فلسطين عند سريان الهدنة الاولى ٠ والشيء الذي لم يوضحه المؤلف بخصوص هذه المرحلة ان الجيوش العربية دخلت الحرب بموافقة ضمنية من بريطانيا ، التي اتفقت مع الملك عبد الله على عدم تخطي قواته القسم العربي من فلسطين ، وعمل مندوبها في مجلس الامن على تأخير صدور قرار مجلس الامن بوقف اطلاق النار عدة ايام في مواجهة معارضة المندوب الاميركي بصدد السيطرة على فلسطين والشرق الاوسط عامة ، الذي بدأت ملامحه تتضح وتتزايد في اعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وفاقم منه انتقال ولاء الحركة الصهيونية في فلسطين والعالم الى الولايات المتحدة الاميركية بالكامل منذ مؤتمر « بلتيمور » عام

١٩٤٢ . ولذلك كانت الحرب العربية ضد الكيان الصهيوني المسمى اسرائيل تجري وفق « لعبة الامم » في حقيقة الامر ،وتؤثر فيها بصورة مباشرة وبطريقة غير عادية القرارات الدولية المختلفة ، وفاقم من تأثير ذلك التأثير الخارجي الكبير للغاية علىمجريات المسرح المحلي للصراع المسلح العربي ـ الاسرائيلي ، التبعية شبه الكاملة للنظم العربية السائدة ،والمشتركة في القتال ، لدول المعسكر الغربي الامبريالي ، الامر الذي جعل هذه الدول قادرة على التحكم في ميزان القوى العسكري المحلي ، والتأثير الفعال والمباشر على القرارات السياسية والاستراتيجية العربية المتعلقة بالحرب . وفي الوقت نفسه جعل الدول العربية ذات قدرة محدودة للغاية في المناورة السياسية والاستراتيجية العليا ، بحكم انها كانت تناور داخل الدائرة الضيقة للتناقض البريطاني ـ الاميركي ، وهي مسلمة مسبقا بانفراد الغرب الامبريالي ،والهيمنة والانفراد الكامل باوراق اللعبة الدولية في المنطقة العربية ، من خلال تأكيدها المستمر ، قولا وفعلا ، على «طهارتها» السياسية من « رجس »التعاون على اي نحو كان مع دول المعسكر الشرقي الاشتراكي ! في الوقت الذي كانت فيه اسرائيل تستفيد قدر الامكان،سياسيا وعسكريا وبشريا (من حيث هجرة اليهود في اوروبا الشرقية) من دول هذا المعسكر مستخدمة في ذلك كل رصيد الدعاية الصهيونية المتعلقة بالاضطهاد النازي لليهود كعنصر تأثير معنوي وايديولوجي له فاعليته لدى هذه الدول ، لدفعها على الاقل للوقوف على الحياد ، او لتقديم بعض المساعدات العسكرية في بعض الحالات التي كانت تنجح فيها العناصر الصهيونية الموجودة في اجهزة الدولة في تحقيق مثل هذه المساعدات (حالة تشيكوسلوفاكيا في المراحل الاولى من الحرب) ، وذلك حتى لا توصد بنفسها باب كل امكانية دولية تستطيع الاستفادة منها ولو جزئيا دون ما ضرورة تفرض عليها ذلك ، او من باب تصور وهمي يتعلق بالتزام « خلقي » تجاه دول الغرب الامبريالي ، كما كان يفعل قادة العرب الى حد انهم كانوا يعلنون براءة الولايات المتحدة من قرار انشاء اسرائيل التي اعتبروها اداة صنعها المعسكر الشرقي لنشر « الشيوعية » في البلاد العربية ، كما عبر ذلك بوضوح « النقراشي باشا » رئيس الوزارة المصرية في خطابه امام البرلمان المصري يوم ١١ـ٥ـ١٩٤٨ خلال الجلسة السرية التي عقد لبحث التدخل العسكري العربي الوشيك فيفلسطين حيث قال « ليست هناك مخالفة للامم المتحدة لاننا نعمل على قتل رأس الحية التي تمتد من هذه العصابة الصهيونية لنشر الاضطراب والشيوعية في البلاد العربية .

ويجب علينا الا نقف مكتوفي الايدي نتفرج ، اذ ليست هناك دولة يهودية ، فان مجلس الامن لم يقرر هذه الدولة ،كما ان الولايات المتحدة تخلت عن قرار التقسيم » (اورد المؤلف نص الخطاب في صفحة ٤٣) واوضح المؤلف في عديد من المواضيع تناقض المواقف والاهداف السياسية للدول العربيةالمشتركةفي الحرب، خاصة الاردن ومصر والعراق والسعودية، وتأثير ذلك على الاستراتيجيتين العليا والعسكرية العربيتين ، من حيث انعدام التنسيق وانفراد كل جبهة بعملياتها ومواقفها السياسية والاستراتيجية تجاه العدو ، خاصة في المرحلة الاخيرة من الحرب ، التي بدأت في ١٦ـ١٠ـ٤٨ على الجبهة المصرية وانتهت بحصار«الفالوجا» واحتلال « بئر السبع » وانسحاب القوات المصرية من « اسدود » و « المجدل »وعزل الجبهة المصرية عن الجبهة الاردنية ، واجبار جيش الانقاذ على الانسحاب من الجليل الاعلى .

وفي الباب الخامس والاخير بعنوان « قبض الريح » تناول المؤلف في فصلين، اولهما بعنوان « نقطة التحول » وثانيهما بعنوان « بداية النهاية والنهاية » ،تعرض المؤلف لتفاصيل معارك وعمليات واحداث المرحلة من ١٩ـ٧ـ٤٨ حتى ١٣ـ٣ـ١٩٤٩ بحيث اشتمل على تسجيل عام لتطورات المرحلة ولكنه يختلف عن تسجيل المراحل السابقة من حيث دقة الشرح في عديد من المواضيع ، كما كان يحدث بالنسبة لمعارك المراحل الاولى ، فضلا عن غموض موازين القوى في عديد من المعارك بالنسبة للقوة النارية الفعلية للطرفين ، واغفال الخسائر في عديد من العمليات والمعارك ، وبالذات بالنسبة للهجومين الاسرائيليين الكبيرين في منتصف تشرين الاول (اكتوبر) واواخر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٨ ، وحصار « الفالوجا » ، اذ ذكر حجم القوات التي خرجت من الحصار دون ان يذكر شيئا عن خسائرها او عن تفاصيل اوضاعها الدفاعية وتوزيع المهام القتالية المختلفةبين تشكيلات الحامية المحاصرة او تفاصيل بعض معاركها الهامة خاصة في « عراق المنشية » · ولم يذكر المؤلف شيئا تقريبا عن ما كان يجري في مصر وقتئذ من تعاقدات على الاسلحة بواسطة عملاء الملك فاروق وكبار ضباط الجيش ،والتي عرفت فيما بعد بقضية الاسلحة الفاسدة·

وتأثير ذلك على معنويات القوات المسلحة وقتئذ الا في عبارات قليلة وعامة ، مع اشارة وحيدة لانفجار سبطانة احد المدافع اثناء اطلاقه · وفي الوقت نفسه لم يذكر المؤلف شيئا مفصلا عن تزايد القوة النارية والبشرية الاسرائيلية عن هذه الفترة ، وافتقد التحليل الاستراتيجي لخطط وعمليات القوات الاسرائيلية لبعض القسمات الهامة له مثل تطبيق مبادىء نظرية «ليدل هارت» عن «الاقتراب غير المباشر» ومناورة « الخرشوفة » وتوضيح متكامل لنظرية القتال الخاصة بها ، واهمية العمليات الليلية بالنسبة لها الخ ·وكذلك كان تحليل العمليات من الجانب المصري ناقصا ولم يوضح مستوى التطور الذي وصلت اليه القدرات القتالية المصرية خلال الحرب من حيث التسليح والتدريب والقيادة والتنظيم ، وثبوت المقدرة الدفاعية اكثر من الهجومية والعوامل المؤثرة فيهما ، وآراء القادة الاسرائيليين انفسهم في الاشادة ببعض هذه القدرات الخ · ويبدو ان هذا القسم من الكتاب على اهميته قد كتب على عجالة نسبية ، او ان المؤلف شعر أن حجم الكتاب قد اتسع اكثر مما يجب · وعموما فان الكتاب كان في حاجة الى اعادة ترتيب وتنسيقواستخدام افضل لمادة المعلومات المتوفرة لديه ، مع ربط اوثق واكثر عمقا ودقة بالعوامل السياسية والاستراتيجية العامة ومتابعة اكثر دقة لموازين القوى بكافة جوانبها· ورغم ذلك كله يبقى للكتاب اهميته كمرجع هام في المكتبة العسكرية العربية ، ويعد أفضل الكتب التي ظهرت حتى الآن عن الجولة العربية ـ الاسرائيلية الاولى ·

محمود عزمي

سحر خليفة : الصبار

مطبوعات جاليليو ـ القدس ١٩٧٦

صدرت في الارض المحتلة (الضفة الغربية) رواية للكاتبة الفلسطينية سحر خليفة ، بعنوان (الصبار) ٠

ولعلها الرواية الاولى التي تصدر في الضفة الغربية بعد الاحتلال اذا اخذنا بعين الاعتبار معظم الشروط الفنية العامة والخاصة التي يجب ان تتوفر في عمل فني ما ٠٠

ان ادبا فلسطينيا جديدا وشابا قد ظهر في زمن الثورة ، وفي سياقها ما زال ينمو ويشكل رافدا لثقافتنا الوطنية ، وشاهدا على عصره وعلى تجربة الشعب الفلسطيني ٠

ومعظم هذا الانتاج قد ظهر في الاراضي المحتلة منذ عام ٤٨ ، وكذلك فيالتجمعات الفلسطينية خارج ارض الوطن (في المنفى) ٠

اما في الضفة الغربية ، فما اقل ما يصلنا من نتاج ثقافي ، خاصة بعد عام ٦٧ ٠ وقبل ذلك ، ومنذ مطلع الستينات ، كانت تصدر في القدس مجلة باسم (الافق الجديد) لعبت دورا بارزا في حياة الادب الفلسطيني والاردني ، وابرزت المحاولات الاولى لمعظم الكتاب الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون في الضفة الغربية انذاك ٠ ومنهم على سبيل المثال : محمود شقير ، خليل السواحري ، محمد القيسي نمر سرحان ، امين شنار ، عبد اللطيف عقل ، ماجد ابو شرار ، ومحمد خالد البطراوي ، وكاتب هذه السطور ٠

أما بعد عام ٦٧ فقد توقفت الحركة الثقافية في الضفة الغربية فترة من الزمن نتيجة لخروج او ابعاد معظم الفعاليات الادبية ٠

ومن الاسماء التي لم تتوقف عن الكتابة الكاتب والناقد التقدمي محمد البطراوي، والشاعر عبد اللطيف عقل ، وقد علمت انهما يسهمان هذه الايام في تحرير مجلة ثقافية جديدة (البيادر) ٠

من هنا ، تأتي اهمية العثور على عمل روائي ظهر وكتب في ظروف الاحتلال ، وحاول ان يكونشهادة على قسوته٠قبل ان اتعرض للرواية ، اود ان اشير الى انني سأقفز عن تلك المقدمة المليئة بالادعاءوالتي لا تخدم الرواية كثيرا والتي كتبتها معلمة او كاتبة في كلية بيرزيت وذكرت انها من دراسة قدمت للمؤتمر التاسع للخريجين العرب في امريكا ٠

تحكي الرواية ، بشكل عام ، عن هموم البرجوازية وعجزها عن انجاز مهمة التصدي للاحتلال ، وعن المثقفين الثوريين الذين ينسلخون عن هذه الطبقة ، وينخرطون في صفوف تنظيمات المقاومة المسلحة ٠ وفي اطار ذلك ، تتعرض الى قضية العمال العرب الذين يعملون في المصانع الاسرائيلية ، كما تحاول رسم صورة لواقع المعتقلين في سجون نابلس ٠

تبدأ الرواية بعودة اسامة الكرمي الى نابلس بتصريح (لم شمل) بعد غياب خمس سنوات قضاها في بلاد البترول ،

وعانى خلالها من جور وقسوة ورعب الانظمة العربية ، فقرر العودة الى نابلس ليمارس العمل الثوري ٠

ولا بد من الاشادة هنا بمدخل الرواية الذي تقدم به الكاتبة في الفصول الاولى تجربة التفتيش على الجسر ٠٠ التحقيق ، الرعب الخفي ، المزاوجة ما بين هموم اسامة الكرمي وهموم الاخرين، والتعاطف الحاد مع تلك الفتاة التي وجدوا شيفرة سرية تحت باروكة شعرها ٠

يعود اسامة الكرمي الى نابلس فيجد نفسه غريبا عنها ٠ (الناس لا تبدو عليهم شقاوة العيش ، يلبسون على الموضة ، يمشون بخطوات اسرع ، ويشترون بدون مساومة ، كثرت النقود٠٠ كثرت الاعمال ٠ استطالت السوالف وقصرت التنانير ٠ وامتلآت ارداف الخادمات ٠ الاحتلال ما زال احتلالا ، والكرامة المسحوقة ما زالت ملغاة ، لكن شيئا ما قد تغير ٠ فالخادمات ما عدن خادمات ، والسلم الطبقي مال) ٠

وعندما يلتقي اسامة الكرمي بأمه ويبكي على صدرها، يقول :

بكيت على الناس يا امي ٠٠ بكيت على البلد ٠

بعد ذلك نتعرف على اسرة الكرمي ٠٠ نتعرف على عمه الوجيه الذي تضررت مصالحه وخسر مزرعته الكبيرة بعد ان هجرها العمال وفضلوا العمل في المصانع الاسرائيلية ، وظل يحتفظ بتلك العنجهية التي يتمتع بها كبار الملاك والاثرياء في الوقت الذي تتفسخ فيه طبقتهم ويزداد عجزهم امام معضلات الاحتلال ٠

ونتعرف ايضا على ابن عمه عادل ، ذلك الشاب البرجماتي الذي لا يبحث الا عن مصالحه الشخصية، ولا يلتقي بقضية الوطن الا عن طريق الصدفة ٠

ثم ابنة عمه نوار التي يحلم بان تكون زوجة له ، والتي تمثل حالة انتقالية ضعيفة ، وتظل لفترة طويلة اسيرة لقوة الاشياء في محيطها البرجوازي المتداعي ٠

ومن خلال عادل الكرمي ، وشبكة علاقاته ، تقدم الكاتبة عددا اخر من الشخصيات اغلبها من العمال العرب الذين يعملون في المصانع الاسرائيلية ومن ابرز هؤلاء (ابو صابر) ابن البلد الطيب الذي تأكل الالة يده اثناء عمله في المصنع وتجعل منه عاطلا ، ولا يستطيع الحصول على تعويض لان الضمان الاجتماعي لا يشمل العمال العرب ، فيقعد في البيت عالة على الاصدقاء والجيران ، وعلى ما تحصل عليه زوجته (ام صابر) لقاء الخدمة في بيوت الاخرين ٠

تبقى اخيرا شخصية باسم الكرمي الفتي الذي ينتمي الى الجيل الجديد والذي ينسلخ عن طبقته في وقت مبكر ويلتحق بالخلايا السرية للمقاومة ، وشخصية (لينة) الطالبة الثورية التي تتعرض للاعتقال بسبب نشاطها الثوري ٠

ولعل الكاتبة رمزت في هاتين الشخصيتين الى الجيل الجديد الذي يشبه اشجار الصبار في صلابته وقوة احتماله وتنوع اساليب واشكال نضالة وتعدد اسلحته ٠

ان شخصية باسم بشكل خاص مرسومة بدقة ، وهي شخصية غنية،وتكاد تكون الشخصية الوحيدة التي يحس القارىء بحيويتها ، وهي متطورة اكثر من الشخصيات الاخرى التي يظهر بوضوح قلق حياتها الداخلية ، وضعف نموها ٠

لا اريد ان اخوض كثيرا فيالتفاصيل حول الشخصيات والمضمون والشكل

الفني ، وانما ساحاول تسجيل بعض الملاحظات :

اولا : هناك تفاوت كبير في المستوى بين فصل واخر ، ليس بالمضمون فحسب وانما في البنية الفنية وفي عملية القص وفي اللغة والمفردات ·

ففي بعض الفصول تحتفظ الكاتبة بمستوى عال من الحيوية الفنية والايقاع الجميل للغة ، وفي الحوار الغني ، كما في الفصول الاولى مثلا ·

وفي فصول اخرى يهبط مستوى السرد والقص ، ويظهر بشكل جلي بؤس اللغة ورداءة محتواها ، واقترابها من لغة الصحافة ·

ويمكن ذكر بعض الفقرات على سبيل المثال لا الحصر :

(لم يجبه زهدي بل استمر صامتا كمدفعية الحدود اللبنانية ص ١٥١)

(صحن شوربة فريكة احلى من افخاذ سعاد حسني ص ١٣٤) ·

(واخذ ينعف الملابس من الخزانة ·· ص ١٨٠)

(صوته يخرق طبلتي اذنيه بدون رحمة ص ١٩٥) ·

(وزعقت سيارات الاسعاف المدللة ص ١٢٢) ·

ثانيا : قدمت الكاتبة اسامة الكرمي كفدائي يائس · ورمزت احيانا للفعل الثوري باليأس ، عندما يطعن اسامة الكرمي ضابطا صهيونيا في احد شوارع نابلس (تشجيع الجريمة لا يدل على روح انسانية هذا صحيح ، ولكن ماذا بقي في هذا الصدد؟) ·

·· هل تعتبر الكاتبة ان طعن ضابط صهيوني عمل ارهابي وجريمة ارتكبت في حالة يأس ؟

اما الموقف الاخر الانتحاري الذي قدمت به اسامة الكرمي فهو الهجوم على قافلة العمال العرب الذين يتجهون الى اسرائيل للعمل حيث تنتهي حياته بالهجوم المضاد الذي تشنه القوات الاسرائيلية ·

ان اسامة الكرمي رمز سلبي تشير به الى العفوية في ممارسة الكفاح المسلح· الم تجد الكاتبة من نماذج ثورية وايجابية تعبر عن تلك المرحلة التي رافقت ولادة الكفاح المسلح في الضفة غير هذا النموذج ؟

ثالثا : اكتنف الغموض موقف الكاتبة من قضايا عدة ، ابرزها قضية العمال العرب في المصانع الاسرائيلية ·

لقد زعمت المقدمة ان الكاتبة من خلال طرح هذه القضية ساهمت في تسليط الاضواء على مفاهيم وطنية جديدة تختلف كليا عن المفاهيم الكلاسيكية المألوفة التي تعتمد على استثارة العواطف · اين هي تلك المفاهيم ؟ هل هي مع او ضد العمل في المصانع الاسرائيلية ؟

كذلك اكتنف الغموض موقفها من العلاقة بين المعتقلين داخل السجن ،انها علاقة يسودها الرعب والصرامة ، ورئيس المجموعة التي ترمز له بضمير الثورة (يدعي بانه ضمير الثورة ،لكنه بارد القلب يا عالم : ويا خوفي ان يصبح كبقية الحكام هو يأمر ونحن ننفذ ،ويعيد التاريخ نفسه متخذا اسماء حسنى براقة· ديمقراطية · اشتراكية · بروليتارية · ثم يرفع ستالين منجله ويحصد رقاب الملايين ·· الخ ص ١٤٨) ·

من هو ضمير الثورة هذا ، والى ماذا يرمز ، ولماذا هذا الجو الارهابي الذي

يسود داخل المعتقل والعلاقات غير الانسانية التي يمارسها الرفاق على بعضهم البعض (ابو سالم نفسه حوكم بتهمة اغتراف كمية اكبر من الحساء · عقدوا له مجلسا تأديبيا وطلبوا من الفدائي السوري ان يقوم بمعاقبته ،تردد الاخر ، فنال الاثنان علقة محترمة اثناء احتفال جنوني قرعت خلاله السطول وخشخشت طاولات الزهر ، حكومة داخل حكومة ص ١٤٨) ·

واكتنف الغموض ايضا قضية الطفلة الاسرائيلية التي يحملها عادل بين ذراعيه بعد مقتل والدها الضابط الصهيوني (ذكرى رأس الاسرائيلية الملقى على كتفه تفتح افاقا للعالم الضيق رغم كل الحدود ص ١٨٥) ماذا يعني ذلك ؟

ورغم هذه الملاحظات ، تبقى الرواية عملا جميلا وممتعا ، وتجربة تقترب من الاكتمال ، وشهادة حارة على قسوة الاحتلال ، وتبشيرا بالقوى الواعدة التي تمتلك الوعي الوطني والطبقي ·

يحيى خلف

المرأة الفلسطينية والثورة

تأليف
غازي الخليلي

٣٤٠ صفحة - الثمن ٨ ل.ل.

الدكتور محمد ربيع : مؤتمر جنيف واحتمالات السلام

· مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ، القاهرة ، ابريل (نيسان) ١٩٧٧ ·

لا تزال المكتبة العربية تعاني بصفة عامة من نقص شديد او فقر مدقع في « الكتاب السياسي » الذي يعالج ويحلل مشكلة او مسألة او ازمة سياسية مثارة او ساخنة عندما يطرح كتاب ما حولها · وعادة لا يجد القارىء العربي ما يشبع حاجته الى المعلومات حول هذه المشكلة الا من مقالات الصحف اليومية ، بكل خصائصها المعروفة من تبسيط يصل غالبا الى حد مبالغ فيه ، وبعض الابواب في الصحف الاسبوعية « الجامعة » التي تكتب في السينما الى جانب السياسة ، الى جانب الازياء ·

وغياب الكتاب السياسي ـ بالمعنى المقصود والمحدد هنا ـ له اسباب موضوعية في الحياة العربية السياسية والثقافية وهي تتلخص اساسا في سببين: الاول هو غياب الحرية السياسية ، وحرية الفكر ، فالكتاب السياسي لا يوجد ولا يذيع الا في أجواء تتيح تعدد الاراء ، وتعارضها ، واحتدام النقاش حولها ، وما يترتب على ذلك من اختلاف المواقف والسياسات تجاه كل قضية مثارة · والسبب الثاني هو قلة او ندرة المحللين السياسيين المتخصصين الذين يتابعون مثل هذه القضايا ، ويستطيعون ان يدلوا فيها برأي ، ويقدموا وجهة نظر تقبل النقاش ، والاخذ والرد ·

لذلك ، ولاسباب اخرى ، كان واجبا ان يرحب المثقفون السياسيون العرب باتجاه مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بمؤسسة الاهرام القاهرية الى اصدار سلسلة شبه منتظمة زمنيا تغطى وتلاحق بالتحليل والعرض المشاكل السياسية المثارة · وقد صدر من هذه السلسلة في الفترة الاخيرة مجموعة الكتيبات او الكتب التالية : « استراتيجية اسرائيل بعد حرب اكتوبر » للسواء مصطفى الجمل ، « الاتجاهات الجديدة في مجلس الشعب » اشراف السيد يسين، « الانتخابات الاميركية وازمة الشرق الاوسط » للدكتور سعد الدين ابراهيم ، « الصهيونية والعنصرية» لاحمد يوسف القرعي ، « قرارات الحرب في السياسة الاسرائيلية » للدكتور السيد عليوه ، و « التضامن العربي ـ الافريقي » لنبية الاصفهاني ، واخيرا وليس اخرا « مؤتمر جنيف واحتمالات السلام » للدكتور محمد ربيع ·

كل كتيب من هذه المجموعة صدر في مناسبة خاصة ، ليسد حاجة ونقصا عند القارىء ، ويقدم له وجهة نظر في المسألة المطروحة · وهو نفس ما فعله الدكتور ربيع في كتيبه المذكور ، والهام · وهو يكتسب اهميته من عدة اسباب : منها قلة ما كتب ـ وقدم الى القارىء العادي ـ بشكل تحليلي مناسب ومبسط ، ومنها اهمية الموضوع المثار والذي يسمعه المواطن العربي صباح ومساء كل يوم ، حتى تحولت كلمة جنيف عنده الى لغز ، غير مفهوم وغير واضح ، مما زاد كمية « الاسئلة الحائرة » عنده حول هذا

« الجنيف » الذي صور له منذ مدة على انه قاب قوسين او ادنى ، وان قطوفه دانية ، وثمراته كثيرة ، وخيره وفير · وما علينا الا الانتظار · وزادت الحيرة ، واصبح المواطن العربي ، خاصة في مصر يتلهف الى دليل يهديه الى جنيف ، ويجيب على الاسئلة التي تؤرقه كل يوم ، ويقول له : متى يهبط جنيف من عليائه ؟

وقد تميزت محاولة الدكتور محمد ربيع بقدر كبير من العمق ، والاستنارة ، والنظرة الشاملة · ولا يقلل من ذلك الاختلاف معه بدرجة او اخرى حول هذه النقطة او تلك ، وربما يكون هذا الاختلاف أهم واجدى من الاتفاق ·

منذ البداية ، وفي المقدمة حرص المؤلف على ان يكون واضحا امام القارىء ، فهو ينطلق من « افتراض اساسي يقول بحتمية المفاوضات » وبناء عليه يحاول « المساهمة في بلورة موقف عربي من تلك المفاوضات، يضمن تقليل الخسائر العربية التي ستترتب على نجاحها او فشلها الى ادنى حد ممكن · ولذلك ستحاول هذه الدراسة استكشاف افاق الحل الممكن ، وتحديد الاطار العام للموقف العربي من المفاوضات · وتقديم بعض الاقتراحات التي نعتقد بقدرتها على التأثير على كل من الموقف الامريكي والموقف الاسرائيلي اثناء المفاوضات وبعدها · وبناء على تقييم هذه الدراسة لاحتمالات الحل السلمي المقترح وموازين القوى الدولية في الشرق الاوسط سوف نحاول طرح بدائل عمل عربية للتعامل مع قضية النزاع العربي الاسرائيلي ·

« ومهما كانت الاسباب التي تدعو بعض القوى العربية للتفاوض مع اسرائيل ، فان ضمان نجاح الجهود العربية ، حربا او سلما ، آنيا ام مستقبلا ، تفرض عليهم تجنب الصدامات المسلحة والحروب الاعلامية · اذ ان تعميق الخلافات العربية من المؤكد ان يؤدي الى اضاعة الجهود ، وتبديد الموارد وابعاد العرب عن تحقيق هدفي الوحدة والتحرير ·

« وفي اعتقادنا يبقى الحلم الفلسطيني في اقامة الدولة الديمقراطية العلمانية على كامل التراب الفلسطيني هو الحل القادر على توفير امكانيات السلام الدائم في المنطقة · وهذا الحلم وان بدا فلسطينيا في المظهر ، فانه أمل عربي في الحقيقة والجوهر · وهو أمل لن يتحقق طالما فشل العرب في تحقيق دولة الوحدة او نواتها كقوة عربية قادرة على تحرير الاراضي العربية المحتلة وانهاء الوجود الصهيوني الذي يعمل على تكريس التجزئة وفرض التخلف على الامة العربية » ·

وقد تمكن المؤلف من بلورة وتوضيح بعض النقاط التي تحددها ، ولم يوفق الى ذلك بالشكل الملائم في نقاط اخرى ، فضلا عن ان بعض القضايا التي طرحها تملك درجة من « الوضوح الذاتي » لا تحتمل اي تردد في القطع والحسم برأي محدد فيها ، في ضوء المعطيات القائمة وفي ضوء السوابق التاريخية والاحتمالات المستقبلية ·

والعيب الاساسي هنا هو ان الدكتور ربيع لم يحسم في مسألة احتمالات السلام واحتمالات التسوية ولم نستطع ان نعرف ما اذا كان يرى ان مؤتمر جنيف سينجح ام سيفشل ، وما معيار النجاح اذا حدث وما معيار الفشل اذا وقع ؟ تلك قضية حاول أن يدور حولها ، ويلف ، دون ان يحددها بشكل مباشر ، وصريح · بينما هذه القضية هي جوهر الخلاف واساسه بين قوى « الرفض » وقوى « القبول » «العربي ، بين « المعتدلين » و «المتشددين» وبشكل أعم بين من يرون انه لا جدوى من جنيف ، من انتظاره ، والرهان عليه ، وعقده ، وحضوره ، وبين من يرون انه الطريق الوحيد المتاح امام العرب لتحقيق

الحل « الممكن » الوحيد في هذه المرحلة

وهذا العيب الاساسي في كتيب الذكتور ربيع يرجع ، في تقديري ، الى عيب اساسي في المنهج · انه ليس كتابا حول جنيف واحتمالات السلام ، ولكنه كتاب عن « الموقف الراهن واحتمالات السلام » ولما كانت « جنيف » ـ الوصول اليها والخروج منها ـ محورا اساسيا في الموقف الراهن ، فقد استهوت المؤلف الى وضعها في العنوان دون ان يجيب بشكل مباشر ، على كل الاسئلة المتعلقة بها ، بل انه يثير في ذهن القارىء العادي عندما ينتهي من قراءته اسئلة اكبر واخطر واكثر من تلك التي كان يحملها عند بدء القراءة ·

وتلك هي القيمة الحقيقية لكتيب الدكتور محمد ربيع · وهل الكتابة السياسية (وهي ليست الفكر السياسي او الفلسفة السياسية ولا النظرية السياسية) شيء اخر غير العرض والتحليل الذي يثير اسئلة جديدة لم تطرح من قبل في ذهن القارىء العادي ، مما يكسبه القدرة على فهم واقعه السياسي ، ويدفعه الى اتخاذ موقف محدد ازاء القضايا المطروحة والمثارة في هذا الواقع ·

ونصيب كتيب الدكتور ربيع من ذلك نصيب كبير ، خاصة حينما نقارنه بذلك السيل اليومي الذي تكتبه الصحف العربية اليومية عامة حول جنيف · وهو سيل لا وظيفة له الا ان يزيد المواطن جهلا بحقيقة مؤتمر جنيف هذا ، الذي كاد ان يتحول عند المواطن العربي العادي ـ وهو غالبا غير مسيس ـ الى طلسم ، او شيء خرافي ، او على الاقل « تابو » ·

ومع ذلك ، فان كثيرا من القضايا لم تبلور وتحدد بالشكل المطلوب ، ذلك ان القضايا المصيرية لا تعرف التردد ، ولا « امساك العصا من الوسط » ، ولا سبيل لمجابهتها الا بموقف فكري حاسم ، لا يعتمد الا الحقيقة رصيدا ، ولا يعتمد الا المصلحة العربية هدفا ·

يتصدى الكاتب للتيار السائد والقائل بأن جنيف ات ، وسينجح ، وسيحقق الحد الادنى من المطالب العربية ، المتمثل في استعادة كل الاراضي العربية المحتلة ، واقرار حقوق شعب فلسطين بما فيها حقه في دولة مستقلة · هنا ، يقول الدكتور : لا · يقولها صريحة احيانا ، ملتوية احيانا اخرى ، ولكنها واضحة ، مهما قالها بنعومة واستحياء · ويمكن ان نرتب النتائج التي يخلص اليها ، على النحو التالي :

● « ان الحل الممكن ضمن الظروف الحالية هو حل يقوم طرف ثالث بمحاولة فرضه على اطراف النزاع الرئيسيين ، او على الطرف الذي يتخذ موقفا يحول دون التوصل الى اتفاق ينهي النزاع · ولما كانت الولايات المتحدة تملك القدرة ـ ولو نظريا ـ على فرض الحل الذي تراه مناسبا على اسرائيل ، وان اسرائيل هي الطرف الذي يرفض تنفيذ قرارات الامم المتحدة التي حددت الاطار العام للحل المقترح ، فان اميركا تعتبر ـ وبشكل خاص ـ من وجهة النظر العربية ـ القوة الثالثة القادرة والمسؤولة عن فرض الحل المقترح على اسرائيل » (ص ٣٥) ·

● « ان ظروف الحل المقبول عربيا لا وجود لها في الوقت الحاضر ، وان العرب يملكون القدرة على خلقها ، فلا بد من توجه عربي كامل وجاد للعمل من أجل خلق الشروط الكافية والضرورية لتحقيق الحل المقبول عربيا ·· » (ص ٣٨) ·

● « ان حصول العرب على حل مرض ومقبول لقضية النزاع في الشرق الاوسط لا زال ضمن الممكن اذا توفرت الشروط الكافية والضرورية لتحقيقه· وفي اعتقادنا ، يملك العرب من الاسلحة

الاقتصادية والعسكرية والسياسية ما يكفي لخلق ظروف الحل المقترح لو احسن استخدامها توقيتا وتوجيها ٠٠ ان ثبات عدم فاعلية او محدودية اثر الاساليب التي اتبعها العرب في السابق يفرض عليهم اليوم ان يعيدوا ترتيب الاولويات وان يحسنوا استخدام ما لديهم من اسلحة على ضوء التجربة السابقة ٠ كما ان عليهم ان يعالجوا قضية النزاع في الشرق الاوسط على اساس اهميتها ومكانتها الدولية اخذين بعين الاعتبار مصالح القوى العظمى في المنطقة ، وما يمكن ان تجنيه تلك القوى من فوائد او تتجنبه من خسائر نتيجة لقيامها بدور معين في المفاوضات المقبلة » (ص ٣٥ ـ ٣٦) ٠

● « اذا كانت وحدة الموقف العربي ووضوحه هما الضمانة الوحيدة لتدعيم ذلك الموقف على المستوى الشعبي ، فان قدرته على كسب تأييد الاتحاد السوفييتي ووقوفه الى جانبه وممارسة ضغوط كافية على كل من اسرائيل وامريكا هما الضمانة الوحيدة لوصوله الى تحقيق هدفه ٠٠ على الموقف العربي ان يفاوض ويساوم ويناور من اجل حمل الاتحاد السوفييتي على اتخاذ الموقف المطلوب عربيا والالتزام به دوليا خدمة لمصالح الطرفين وتدعيما لمكانتهما الدولية » (ص ٤٠ ـ ٤١) ٠

● « ان تجربة العرب مع الولايات المتحدة تثبت ـ مع الاسف ـ ان تأييد امريكا ودعمها الكامل لاسرائيل هو العنصر الثابت في سياسة امريكا في الشرق الاوسط ، وما عدا ذلك فهو عابر متغير ٠ ومهما قيل عن رغبة امريكا وحاجتها الى تبني سياسة متوازنة في الشرق الاوسط ، فان تلك الرغبة تلاشت بعد تبلور ازمة الطاقة في السنوات الثلاث الماضية ٠ اذ اصبحت الحكومة الاميركية غير مبالة لتفهم وجهة النظر العربية والتجاوب مع مطالبها ٠٠ ولذلك من المتوقع ان تتجه السياسة الامريكية مستقبلا الى محاولة تعميق الخلافات العربية واثارة النزاعات الداخلية وحصر اهمية النفط العربي واضعاف نفوذ الدول العربية المصدرة له » (ص ٤١ ـ ٤٣) ٠

● « ان التخوف من امكانية سوء استخدام الامة العربية لامكانياتها في معركة المفاوضات المقبلة مع اسرائيل ينبع من دراسة تراث العرب وتجاوبهم مع الاعداء على مدى تاريخهم الطويل ٠ اذ بينما تميز تاريخ صراع العرب مع الاعداء بعدم القدرة على ربط العمل السياسي بالعمل العسكري، اتجه الى تبسيط الامور المعقدة والى الاستهانة بقدرات الاعداء وعدم اعطائها ما تستحق من اهمية ودراسة ٠ ولذلك كان من السهل على الاعداء خداع العرب وتفريق صفوفهم بالاشاعات واثارة النزاعات الداخلية وقتل امالهم وتطلعاتهم بالوعود الكاذبة (ص ٥١) ٠

● « ولما كنا نعتقد ونأمل ان يكون الموقف الامريكي مرفوضا من وجهة النظر العربية فان خلق ظروف تحقيق الحل المقترح ستتطلب جهودا عربية جبارة قد لا يكون بامكان العرب توفيرها في ظل الاوضاع الراهنة ٠ اذ ستحتاج عملية خلق الظروف الى رسم خطة عمل استراتيجية محكمة ، تتصف ببعد النظر وشمولية النظرة وتعي الابعاد المختلفة لتطورات النزاع العربي الاسرائيلي المحتملة على العلاقات الدولية ، وتحقق تعاون العرب في مختلف المجالات وعلى كافة الاصعدة » (ص ٨٠) ٠

● « ان فشل محاولات العرب للاقتراب من فلسطين تشير بوضوح الى انه سيكون من الصعب نجاح الجهود الحالية وذلك لان العرب لا زالوا يستخدمون نفس اساليب العمل السابقة التي اثبتت عدم قدرتها على تنفيذ المهام التي انيطت بها » (ص ٩٩) ٠

● « مفاوضات جنيف ·· تشير معظم الدلائل الى انهـــا ستصل الى طريـــق مسدود » (ص ٦٩) ·

● « ان قدرة الجيوش العربية على هزيمة اسرائيل لم تعد من الامور المشكوك فيها » (ص ٨٣) ·

● « ان الحل العسكري ممكن ، وانه في متناول يد العرب وان ردود الفعـــل عليه مهما كانت سلبية او عدائية مـــن المتوقع ان تخدم في المدى الطويل الاهداف العربية في تحرير الاراضي المحتلة واقامة الدولة الديمقراطية العلمانية على أرض فلسطين » (ص ٨٩) ·

● « ان العمل على الجبهة العسكرية ليس مطلبا لفرض الحل العسكري علـى اسرائيل فقط ، وانما مطلب لنجاح اي جهد عربي من اجل التوصل الى حـل سياسي او سلمي لمشكلة النزاع في الشرق الاوسط ، اذ ان تصعيـــد الاستعدادات العسكرية على طول خطوط المواجهة مـــع اسرائيل في كل من مصر والاردن وسوريا ولبنان ، واتجاه دول المواجهة الى تنسيق سياستها العسكريـــة مع سياسات دول المساندة من المؤكد ان يفرض على كل من اسرائيل وامريكا ضرورة التروي قبـــل اتخاذ قرارها النهائي برفض الحل السلمي الذي افترضته المجموعة الدولية » (ص ١٥٠) ·

هذا هو الاطار العـــام لافكار واراء الدكتور محمد ربيع في كتيبه عن « مؤتمر جنيف واحتمالات السلام » وارجو ان لا اكون قد اجتزأت هذه الافكار من سياقها العام ، وقدمت فيها واخرت لتبدو معبرة عن ارائي الشخصيـــة ، وليس عن رأي صاحبها ·

ومن هذا الاطار العام يتضح ان المؤلف قد اتبع اسلوبا وصفيا وتحليليا بالنسبة لازمة الشرق الأوسط في وضعها الراهن ، واستنبط من هذا الوصف « ما يجب » عمله عربيا ، حتى يحقق العرب « الحـل العربي » · وهو يرى امكانيـــة ذلك · والسؤال الهام هنا يدور حول عنصـــر الزمن ، متى يستجمع العرب قواهم مـــن أجل تحقيق هذا « الحل العربي » ، واذا كان جنيف بابا مسدودا نحـــو السلام ، فمتى يعرف العرب ذلك ، ومتى يتخذون عدتهم العسكرية للخطوة التالية ؟ هـــذا هو السؤال الاكثر الحاحا اليوم فـــي الساحة العربية ·

عبد العال الباقوري

صـــدر في بـــيروت:

الفـــلسطيـــني

بـــين التـــيه والـــدولـــة

تـــأليف:

شفـــيق الحوتـــ

المقاومة الفلسطينية

بعد فشل اللجنة الرباعية في انجاز مهمتها بايجاد صيغة متفق عليها لتطبيق نهائي لاتفاق القاهرة ، ساد جو من الجمود في العلاقات الفلسطينية ـ اللبنانية حاولت المقاومة ان تكسر جليده بنشاط مكثف قام به هاني الحسن الممثل الشخصي لياسر عرفات ، واتصل خلاله بالرئيس الياس سركيس وبالبطريرك بطرس خريش وبالسفير البابوي ·· برونيارا ، وبعدد آخر من القوى السياسية اللبنانية · وقام في نفس الوقت باتصالات بقيت سرية مع اطراف من « الجبهة اللبنانية » · وكان الهدف من هذا النشاط الفلسطيني مع القوى السياسية اللبنانية ، ابراز استعداد المقاومة لايجاد حل لقضية الجنوب وطرح اقتراحات محددة لوقف الاقتتال فيه ، بالاضافة الى خلق اجواء ملائمة لاتصالات وحوارات فلسطينية مع كافة الاوساط اللبنانية والمسيحية منها بشكل خاص ·

كانت المقاومة تدرك ان الجمود السياسي مع بقاء المشاكل معلقة يشكل خطرا عليها وعلى لبنان ، وكانت تريد من الاتصالات التي كلف بها هاني الحسن ان تتغلب على جو الجمود فحسب ، بانتظار ان يؤدي التحريك الاولي للحوار الى مناسبة يعود فيها الحوار الى سابق عهده ، فاتحا الطريق امام حلول فعلية لحل المشاكل المعلقة ·

وحين شارفت مهمة هاني الحسن على الانتهاء ، طورت المقاومة اتصالاتها السياسية ، اذ بدأ صلاح خلف (ابو اياد عضو اللجنة المركزية لحركة فتح ، باتصالات جديدة مع المسؤولين السوريين ومع الرئيس سركيس ، وبهدف الوصول الى اتفاق يحقق ما عجزت عنه اللجنة الرباعية ، وكان التركيز ان يتم انجاز الاتفاق الجديد من خلال سوريا ، وقبل بدء زيارة سايروس فانس وزير الخارجية الاميركي للدول العربية واسرائيل ·

وفي الوقت نفسه كان فؤاد بطرس وزير الخارجية اللبناني قد انجز زيارات عربية شملت دمشق والسعودية والكويت ثم دمشق مرة ثانية ، وكان واضحا من هذه الزيارات انها تريد استيعاب المواقف العربية المعنية مباشرة بالازمة اللبنانية استعدادا لحوار نهائي يجري مع دمشق ، ومع المقاومة الفلسطينية من خلال دمشق ، لبلورة اتفاق

جديد يحسم الخلافات القائمة في العلاقات اللبنانية الفلسطينية ٠

وقد اجرى ابو اياد اثناء جولة بطرس العربية عدة جولات من المباحثات مع الرئيس حافظ الاسد ، تم فيها الوصول الى اقتراح محدد للحل ، اتفق على ان تتولى سوريا عرض الحل على المسؤولين اللبنانيين ، وفي ١٥ـ٧ كان بطرس في دمشق يناقش الحل المقترح مع المسؤولين السوريين ، وكان ابو اياد يزور الرئيس سركيس ليطلعه على نتائج مباحثاته في دمشق ٠

اتفاق شتورا

انتهت زيارة بطرس الى دمشق في ١٦ـ٧ ، واعلن على اثرها « ان اجتماعاتي في دمشق لا بد ان تسفر عن تسهيل في تحريك الامور بحيث نتوصل الى الحلول المرجوة » ٠ وفي اليوم التالي كان ابو اياد وابو صالح يجتمعان في دمشق مع الرئيس الاسد ، ويصدر بعد الاجتماع بيان يقول ان « اجراءات عملية سيعلن عنها في وقت لاحق » ٠ وفي ١٨ـ٧ اعلنت كل وسائل الاعلام في البلدين ان محادثات دمشق اسفرت عن موافقة الجميع على المشروع السوري لحل الخلافات اللبنانية ـ الفلسطينية ، وقد احيطت نصوص الاتفاق بسرية بالغة ، ولم تنشر في الصحف سوى نتف بسيطة عن بعض نقاط الاتفاق ، ويمكن استنادا الى مصادر مطلعة تلخيص ابرز ما في الاتفاق بما يلي :

١ ـ تلتزم المقاومة الفلسطينية ان تنفذ اتفاق القاهرة في جنوب لبنان تنفيذا كاملا ، وهذا يعني بالنسبة لها : ان تتواجد في منطقة العرقوب بحرية كاملة من حيث العدد والسلاح ، ان تتواجد في القطاع الاوسط بنقاط ارتكاز (وليس بقواعد) مع ما يستتبع ذلك من تخفيض لعدد قواتها ٠ ان تواجد في القطاع الغربي (صور) داخل المخيمات فقط ، ويطبق على هذه المخيمات في المستقبل ما يطبق عليها في بيروت لجهة تواجد الكفاح المسلح والميليشيا وانواع الاسلحة ٠

وبالمقابل تقوم السلطة اللبنانية بارسال قوات الى منطقة الجنوب تحل محل القوات الفلسطينية في المواقع التي تنسحب منها ، وفق جدول زمني تتفق عليه لجنة تنسيق لبنانية ـ فلسطينية تجتمع بمشاركة سوريا ٠

٢ ـ بالنسبة لحماية المخيمات (وهي النقطة التي فشلت بسببها اللجنة العربية الرباعية) جرى الاتفاق على ان يكون لقوات الردع دور في تأمين الحماية لها ، على أن يتواجد الكفاح المسلح داخل المخيمات مسؤولا عن الامن اليومي فيها٠ اما الامن خارج المخيمات فتتولاه لجان ارتباط ثلاثية ٠

ولم ترد في هذا الجانب اي اشارة لموضوع الميليشيا ٠

٣ ـ يتم تجميع الاسلحة الثقيلة ، ويجري اخراج ما هو زائد (حسب نصوص الاتفاق) وتسليمه الى قوات الردع ، ويجمع السلاح الثقيل المسموح به في اماكن محددة داخل المخيمات ، ويكون لقوات الردع حق مداهمة مخازن الاسلحة غير الشرعية ٠

وقد قوبل هذا الاتفاق بارتياح وترحاب من قبل الكثير من الاوساط ،ففي ١٩ـ٧ اعلنت الحركة الوطنية اللبنانية ترحيبها به ، وذلك بعد ان استمعت الى تقرير من ابو اياد عن نتائج مباحثاته بدمشق ٠ واعلن التجمع الاسلامي موقفا مماثلا ، بينما بدأت بعض اوساط « الجبهة اللبنانية » حملة مضادة ، فقال دوري شمعون انه يعارض اي اجتماع

مع الفلسطينيين وانه لا يرى جدية في العمل لتطبيق اتفاق القاهرة ٠

وكان لا بد بعد الوصول الى الاتفاق عبر سوريا ، من الاجتماع رسميا في لبنان لوضع الصيغة التنفيذية للاتفاق، وهذا ما حصل يوم ٢١ـ٧ عندما اجتمعت اللجنة الثلاثية في شتورا (لبنان ـ سوريا ـ المقاومة) ، وتوصلت الى ما سمي باتفاق شتورا ٠

بدأت اجتماعات شتورا في جو احتفالي ، وباهتمام رسمي لبناني واضح ، وكان لمشاركة قائد الجيش اللبناني ورئيس الاركان السوري وقائد قوات الردع العربية بالاضافة الى وفد فلسطيني برئاسة ابو اياد ـ اثر في اعطاء اهمية خاصة للقاء وما قد يسفر عنه من اتفاقات عملية ، واضاف ابو اياد للقاء لمسة دراماتيكية حين اعلن قبل بدايته ان المقاومة الفلسطينية قررت ايقاف اطلاق النار في الجنوب من طرف واحد ٠

وتم بنتيجة الاجتماع اقرار خطة دمشق ، ووضع اسس للتنفيذ ، وتشكيل لجنة رئيسية تتولى ذلك ، وتشكيل لجنتين فرعيتين ، واحدة للجنوب وثانية للمخيمات ، تتوليان وضع النقاط التفصيلية ، على ان تكون هذه اللجان كلها لبنانية ـ فلسطينية ، وتعمل باشراف قوات الردع ٠

وفور اعلان ذلك ، عقدت منظمات المقاومة الفلسطينية اجتماعا موسعا ، واعلنت كلها مباركتها للاتفاق والاستعداد للمشاركة في عمل اللجان الفرعية ٠

في ٢٢ـ٧ اجتمعت اللجنتان الفرعيتان وكان الاتجاه الغالب في مناقشاتهما ان يبدأ تنفيذ الاتفاق في جنوب لبنان ، وان يلي ذلك التنفيذ في المخيمات داخل بيروت والمدن اللبنانية الاخرى ٠

لجنة الجنوب اتفقت على ان يتم التنفيذ هناك خلال مدة اقصاها ٢٨ يوما (١٤ يوما للعرقوب ، ٢١ يوما الاوسط، ٢٨ يوما صور) ، ويتم اثناء ذلك ، انسحاب قوات المقاومة الى المواقع المتفق عليها ، وسحب الاسلحة الفائضة ، على ان تتولى السلطة اللبنانية : فتح الطرق، وتأمين الحماية لها وحرية التنقل للمقاومة عليها ، ومنع اي طرف لبناني من التعامل مع اسرائيل عبر البوابات المفتوحة في الحدود ٠ والجدير بالذكر ان الجانب الفلسطيني في هذه اللجنة ابدى استعداده للبدء بالتنفيذ فورا ، ولكن الجانب اللبناني هو الذي طلب التريث بالتنفيذ ، لاسباب تتعلق بتحضير القوة اللبنانية التي ستتوجه الى الجنوب كما تتعلق بخلافات القوى السياسية اللبنانية ، وبالضغوط الاسرائيلية ضد الحل المقترح ٠

اما لجنة المخيمات ، فقد اقرت مبدأ تمركز قوات الردع على حدود المخيمات، ولكنها اختلفت حول حجم كل مخيم وحدوده ، واتفق على ان تقوم لجنة خاصة بدراسة الموضوع على الطبيعة وتم ذلك في الايام اللاحقة ٠

وبانتهاء اعمال هذه اللجان ، كان لا بد من عقد اجتماع آخر في شتورا للجنة الرئيسية يجري فيه اقرار صيغة الاتفاقات التنفيذية وتحديد موعد للبدء بها ٠

بدأ اجتماع شتورا الثاني في ٢٥ـ٧ ، وواقع على الخطط التنفيذية التي اقرتها اللجان ، ولكن الجانب اللبناني طلب تأجيل بدء التنفيذ في الجنوب ، والبدء بالتنفيذ في المخيمات ، ووضعت لذلك خطة تستمر ١٥ يوما وتبدأ في ٣٠ تموز٠ وكان لهذا التغيير في تنفيذ البرنامج اسبابه اللبنانية ، وهي اسباب اوضحها الدكتور

سليم الحص رئيس الحكومة اللبنانية بقوله ان « اجتماعات اللجنة الثلاثية هي لمعالجة جانب من جوانب مشكلة الجنوب فهذه المشكلة تعالج من ثلاثة جوانب : اتفاق القاهرة ، واعادة بناء الجيش ، والوفاق السياسي اللبناني ، الحل النهائي هو وجود الجيش ، وبناء الجيش لا يبلغ مرحلة الحسم الا بالوفاق السياسي » ٠

وقد جرت بعد اجتماع شتورا الثاني عدة لقاءات لتثبيت الاتفاق ، كان من بينها لقاء بين ابو اياد والاسد بدمشق، ولقاء آخر بين ابو اياد وسركيس في بيروت ، ولقاء ثالث بين ابو اياد والمقدم سامي الخطيب جرى فيه تعيين ضباط الارتباط الذين سيشرفون على التنفيذ، وافرجت دمشق ، كجزء من الاتفاق كما يبدو ، عن ٩٢ معتقلا فلسطينيا (٢٩ـ٧) ووعدت بالافراج عن ٥٠ آخرين ٠ ولم يعكر صفو هذا الجو سوى اعلان دوري شمعون انه لا يؤيد اجراء اي وفاق لبناني قبل تنفيذ اتفاق القاهرة في كل المناطق (بما فيها الجنوب) ، وطالب باستدعاء قوات دولية للجنوب ، واعلن ان استقدام هذه القوات يلغي مبرر اتفاق القاهرة ٠

وصباح ٣٠ـ٧ تم تنفيذ اتفاق شتورا بهدوء كامل ، وتمركزت ٨ حواجز جديدة لقوات الردع حول مخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة ، واعلن ان ذلك هو المرحلة الاولى من الخطة التفصيلية لتنفيذ اتفاق القاهرة ، وتوج هذا التنفيذ الناجح بزيارة ياسر عرفات للرئيس الياس سركيس في القصر الجمهوري (١ـ٨) ، حيث خرج من اللقاء ليعلن موقفا سياسيا ذا دلالة خاصة ، وذلك حين قال « لنفتح صفحة جديدة من العلاقات مع الشعب اللبناني بكل فئاته وطوائفه » كاسرا بذلك جو القطيعة الذي ساد طوال سنتين القتال بين المقاومة الفلسطينية واطراف « الجبهة اللبنانية »٠

وفي السادس من آب اعلن تنفيذ جزء من القسم الثاني من خطة اتفاق شتورا ، حيث تم جمع السلاح الزائد عن المقرر في المخيمات ، وفي ١٠ـ٨ ، اعلن ان هذا الجزء من الخطة قد نفذ باكمله ، وتم اغلاق ٧١ مكتبا للمقاومة في بيروت والمناطق ، وتم تركيز معظم مخافر قوى الامن اللبناني على تخوم المخيمات ،وبقي تنفيذ المرحلة الثالثة في الجنوب معلقا ٠

زيارة فانس :

بدأت جولة سايروس فانس وزير الخارجية الاميركي في المنطقة يوم ٣١ـ٧، ولكنها بدأت بالنسبة للمقاومة الفلسطينية قبل ذلك ، وبالتحديد بعد اجتماع الملك حسين والرئيس انور السادات ، وحديث الرئيس السادات عن ضرورة اقامة علاقة واضحة بين المقاومة والاردن٠ فعلى اثر ذلك قام عرفات بزيارة لدمشق والقاهرة وجدة (١٤ـ٧) ، وخطب بعد ذلك (١٥ـ٧) قائلا ان « الضفة الغربية هي للمقاتلين الاحرار الذين سيحررونها وليست للمساومين ٠ ٠ سمعنا قبل أيام بوضوح من يدعي انه يريد ضم الضفة الغربية اليه ٠٠ فزيدوا من قبضة اياديكم على البندقية » ٠

وزاد من خطورة هذا الوضع حديث الرئيس السادات (٢٤ـ٧) عن بدائل لمؤتمر جنيف « اذا تعقدت قضية تمثيل الفلسطينيين » ، وهي « بدائل » اشار اليها مناحيم بيغن في نفس اليوم ايضا في ختام زيارته الاولى لواشنطن واعلانه هناك عن مشروع لتسوية ازمة الشرق الاوسط عرضه على الرئيس الاميركي كارتر ٠ وتلا ذلك خطاب للرئيس السادات اعلن فيه امكانية اقامة علاقات كاملة مع اسرائيل خلال ٥ سنوات ،بينما

كان الرئيس حافظ الاسد يعلن بعد ايام، رفضه لمشروع بيغن ، وتحذيره من الاستجابة لطلب التبادل التجاري والسياحي مع اسرائيل ٠

وما ان بدأت زيارة فانس حتى اعلنت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير (١-٨) في بيان رسمي رفضها لمهمة فانس والمشاريع التي يحملها ، ونبهت الى « خطورة المحاولات الرامية الى تجزئة القضية العربية ، وفرض ما يسمى بالسلام الاسرائيلي على المنطقة » ، ودعت الى « اجتماع عربي على مستوى عال لتحديد موقف موحد » ، واعلنت ان المنظمة « لن تقف مكتوفة الايدي امام اية محاولات للالتفاف على قضية استقلالنا الكامل فوق ترابنا الوطني » ٠

وكان من الواضح ان مشروع فانس للتسوية بلغ حدا من الانحياز لاسرائيل بحيث ان الرئيس السادات لم يستطع قبوله ، وكان ذلك يعني مباشرة عدم التمكن من عقد مؤتمر جنيف في الموعد المقترح له يوم ١٠ تشرين الاول ،ويعني بالتالي اعلان فشل سياسة التوجه الى التسوية من خلال الولايات المتحدة الاميركية ٠ وخوفا من مواجهة هذه النتيجة ، اتفق السادات وفانس ، وكمحاولة لاستمرار عملية التفاوض ،على تشكيل « فريق عمل » من وزراء الخارجية العرب ووزير خارجية اسرائيل ، يجتمع في نيويورك تحت اشراف فانس للتحضير لمؤتمر جنيف مع ما يعنيه ذلك من استبعاد لمنظمة التحرير وقد تم اعلان هذا الاتفاق بينما كان الرئيس الاسد مجتمعا في دمشق مع عرفات ٠ وعلى الفور صدر عنهما بيان مشترك يطالب بـ « تصعيد اليقظة العربية ضد المخططات المعادية » (٢-٨) وعلى الفور ايضا قام عرفات بجولة عربية زار فيها السعودية (٣-٨) والقاهرة (٤-٨) حيث اجتمع الى اسماعيل فهمي وزير الخارجية المصري وطالب بتعديل ورقة العمل المصرية التي قدمت الى فانس واضافة بند يتعلق بعودة اللاجئين اليها ٠ وعاد عرفات من جولته الى بيروت يوم ٥-٨ ٠

في هذه الاثناء كان فانس قد زار بيروت ودمشق وعمان ، حيث اعلن الرئيس الاسد رفضه لاقتراح « فريق العمل » ، وحين رفضت الاقتراح عمان ايضا ، تراجع فرانس عن الاقتراح واعلن الاتفاق على اتصالات ثنائية تجري في نيويورك بينه وبين وزراء الخارجية ،وفي نطاق مشاورات الامم المتحدة ، وصدرت عند هذا الحد من المحادثات العربية مع فانس ثلاثة مواقف فلسطينية ٠

١ ـ حذر عرفات في اجتماع لقيادة المقاومة من مهمة فانس لانها « تستهدف تمزيق الامة العربية وتكريس الاحتلال الصهيوني وتصفية القضية الفلسطينية » ٠

٢ ـ اعلن ابو اياد في مقابلة مع « فلسطين الثورة » ان ما يحمله فانس هو مجرد طي للقضية الفلسطينية ، واننا « لا نقبل ان نكون محافظة ضمن المملكة الهاشمية » كما « لا نقبل اشتراطات الحدود المفتوحة » ٠

٣ ـ اعلن خالد الفاهوم رئيس المجلس الوطني ان « موقف اميركا منحاز لاسرائيل وما زال يتجاهل دور منظمة التحرير الفلسطينية » ، كما اعلن ان المجلس المركزي الفلسطيني (٥٥ عضوا) سيجتمع يوم ١٦ آب بدمشق لبحث التطورات (اجل الموعد الى ٢٥ آب) ٠

في هذه الاثناء كان فانس قد وصل الى السعودية ، وكانت مهمته قد احيطت بجو من الفشل الواضح ، لولا ان برز موقف مفاجيء وملفت للنظر مثيرا الكثير من الجدل واللغط ، وذلك حين اعلن كارتر « ان الفلسطينيين قد يقبلون تعديل القرار ٢٤٢ » ٠ وبعد

لحظات اعلن هودنغ كارتر المرافق لسايروس فانس في السعودية ان سعود الفيصل وزير الخارجية السعودي ابلغ فانس ان منظمة التحرير على استعداد لبحث تعديل القرار ٢٤٢ ، وانه يتوقع صدور بيان عنها بهذا الخصوص بعد اجتماع المجلس المركزي في دمشق (٨ـ٨) وصدرت تعقيبا على ذلك ثلاثة مواقف : بيان للجبهة الديمقراطية يحذر من خطة اميركية تطرح قضية التعديل لكسب تنازلات عربية جديدة ، ونفي من مكتب منظمة التحرير في عمان ، وتصريح ادلى به محمود اللبدي المكلف بالاتصال بالصحافيين الاجانب قال فيه « ان تعديل القرار ٢٤٢ لا يساوي القبول به٠٠ والمنظمة ستقبل تعديل القرار بحيث يعترف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني » ٠

وفي اليوم التالي (٩ـ٨) توالت التعليقات الفلسطينية ، فاعلن ابو اياد في الكويت بعد اجتماع مع وزير خارجيتها ان « المنظمة قد تفكر بالاعتراف بالقرار ٢٤٢ اذا تم تعديله ٠٠ وهذا يحتاج الى موافقة المجلس الوطني الفلسطيني » ٠ واعلنت وكالة الانباء الفلسطينية « وفا » ان المقاومة تطالب بتعديل جذري للقرار ٢٤٢ على اساس قرارات الامم المتحدة ، اي بقرار جديد لقاء كتابته على نمط قرار الجمعية العامة رقم ٣٢٣٦ ٠ واعلن بسام ابو شريف باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ان « الكلام عن تعديل القرار ٢٤٢ ليس الا جزءا من محاولة انتزاع اعتراف فلسطيني بالكيان الصهيوني »٠

واخيرا ٠٠ اعلن فاروق القدومي (ابو اللطف) ان ٠٠ لا تغيير في موقف المنظمة من القرار ٢٤٢ ، وسنرحب بقرار جديد يؤكد حقوق الشعب الفلسطيني الوطنية ، ولا اعتراف باسرائيل ٠

وقد توالت كل هذه التعليقات فيما كان فانس يجري محادثاته مع المسؤولين الاسرائيليين ، ويعلن بعد انتهاء هذه المحادثات ، ان بلاده « لن تشجع اي محاولة لتغيير القرار ٢٤٢ » ، مشيرابذلك مفاجأة لا تقل عن مفاجئة اعلان رئيسه كارتر عن استعداد الفلسطينيين لقبول التعديل ٠

ومرة اخرى قامت المقاومة بنشاط سياسي عربي ، اذ اجتمع عرفات مع الاسد في دمشق (١١ـ٨) لاستعراض نتائج جولة فانس ، وتوجه قدومي الى القاهرة لترؤس اجتماعات لجنة التنسيق المصرية ـ الفلسطينية ، وقال بعد اجتماعها الاول ان المقاومة ترفض تعديل القرار ٢٤٢ وتطالب بقرار جديد (١٢ـ٨) ثم يعلن في ١٤ـ٨ ان قرارا جديدا سيقدم الى مجلس الامن ، وان منظمة التحرير لن تعترف باسرائيل ٠٠ واخيرا اعلنت اللجنة التنفيذية للمنظمة في بيان رسمي ان موقفها من القرار ٢٤٢ لا زال متمسكا برفضه انسجاما مع قرارات المجلس الوطني الفلسطيني ، بسبب تجاهلهلقضية الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ،داعية الى ضرورة التمسك باليقظة والحذر ٠

وقد ترافقت هذه التطورات السياسية الفلسطينية ، مع ثلاثة احداث هامة :

اولا : سلسلة من العمليات الفدائية المؤثرة والنشطة داخل اسرائيل والاراضي المحتلة . رافقت زيارة فانس من بدايتها حتى انتهائها ٠

ثانيا : قرارات حكومة بيغن بانشاء مستوطنات جديدة ، والبدء بتطبيق التشريعات الاسرائيلية في الضفة الغربية وقطاع غزة ٠

ثالثا : مرور ذكرى سقوط مخيم تل الزعتر (١٢ـ٨) ، واحياء المقاومة لهذه

الذكرى بتواضـــــع حاول ان يراعـي حساسيات الوضع اللبناني ، وكان ابرز ما فيه افتتاح ياسر عرفات لمؤسسة تـل الزعتر ، وبيت اطفال الصمود الذي يضم ابناء شهداء المخيم ٠

بلال الحسن

المنـــاطق المحتـــلة

مع فوز حزب الليكود في الانتخابـات الاسرائيلية ، وتربعه على سدة الحكـم في اسرائيل ، دخلت المناطق العربيـة المحتلة مرحلة جديدة تحت الاحتـــلال وشهدت في بداية هذه المرحلة جملـــة موضوعات من بينها ، استمرار النضـال الوطني في المناطق المحتلة وفي الضفـة الغربية بالذات باشكال مختلفة ٠ وارتفاع وتيرة التوتر بين رؤساء البلديات العرب وجهاز الحكم العسكري ، مع ارتفـــاع ايقاع حركة الاستيطان سواء على صعيد التنفيذ او المشاريع ، وكذلك الانهماك في اعمال التنقيب عن البترول في الاراضـي المصرية المحتلة ، في غمرة الاسراف في الحديث عن احتمال التوصل الى تسوية للصراع العربي الاسرائيلي ٠

الملامح الاساسية لسياسة العهد الجديد:

بعد مضي عشر سنوات على الاحتـلال ، تظهر للمرة الاولى سياسة تجاه المناطـق العربية المحتلة تتسم بوضوح اكثر ، ففي عهد حكم المعـــــراخ كانت السياســة الاسرائيلية تجاه تلك المناطق اسيـــرة نظرات عدة بفضل تعدد وجهات النظـــر داخل حزب العمل ، والتباين الكبير فـي المنطلقات بين حليفيه في الحكم المفـــدال ومبام ٠ وقد تمحورت سياسة اسرائيـــل خلال تلك الفترة حول القواسم المشتركة بين تلك التيارات ، معتمدة على ثلاثـــة مبادىء :

١ ـ عدم العودة الى حدود الرابع من يونيو ١٩٦٧ ٠

٢ ـ اعتبار القدس العربية مدينـــــة محررة ٠

٣ ـ الاستيطان في جميع المناطـــق المحتلة ٠

واذا ما استثنينا المبدأ الثاني ، نجـد اختلافا واسعا في وجهات النظر بالنسبة للمبدأين الآخرين ، فقد اخذت نظرة فريق تجاه مبدأ عدم العودة الى حدود الرابع من حزيران ، ترى انه من الضروري بقاء السيطرة الاسرائيلية « الى الابد » فوق مرتفعات الجولان واجزاء كبيرة من الضفة الغربية وقطاع غزة وشمال سيناء وشرم الشيخ ، بينما رأى الفريق الثاني فيهذا المبدأ امكانيـــــة حدوث انسحابـــات اسرائيلية « واسعة » ٠ وبالنسبة للاعمال الاستيطانية ، اعتبرها الفريق الاول حقائق

قائمة لا تراجع عنها ، بينما رأى فيها الفريق الثاني ورقة ضغط على الطرف العربي لاحداث تنازلات · وبسبب هذا التباين في الرؤيا لازم الغموض موقف حزب العمل تجاه مصير المناطق العربية المحتلة ·

وبمجيء الليكود اصبحت السياسة الاسرائيلية تجاه المناطق العربية تعتمد على مرتكزين : الاول ، اعتبار الاراضي الفلسطينية المحتلة في عام ١٩٦٧ ، الضفة الغربية وقطاع غزة ، اراضي محررة ، وجزءا لا يتجزأ من « ارض اسرائيل » والاراضي المصرية والسورية ، وسيناء وهضبة الجولان ، اراضي محتفظ بها يمكن التنازل عن اجزاء كبيرة منها في حال التوصل الى تسوية سلمية مع كل من مصر وسوريا · اي ان الليكود اخذ عن حزب العمل مبدأي الاستيطان في الاراضي العربية المحتلة ، وعدم العودة الى حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧ ، الا انه فصل بشكل واضح مسألة مصير المناطق الفلسطينية ، عن مصير المناطق السورية والمصرية ، وفي هذه النقطة بالذات يكمن الاختلاف الاساسي بين الخطوط السياسية العامة التي سار على منوالها حكم التجمع العمالي ، وبين سياسة الليكود الاخذة بالتبلور · ولا شك بان عملية الفصل هذه تنطوي على خطورة كبيرة، بيد انها تبقى رهن عاملين، مدى شهوة التوسع الاسرائيلي في الاراضي غير الفلسطينية ، ومدى قوة ووهن حركة التحرر العربي ·

ركز الليكود منذ ظهور نتائج الانتخابات على عملية الفصل هذه ، حين توجه بعض قادة العهد الجديد الى مستوطنة « الون موريه » في الضفة الغربية التي اقامها جوش ايمونيم بالقرب من قرية كفر قدوم ، بمناسبة الاحتفال بـ « ادخال التوراة » الى كنيس المستوطنة · وكشف مناحيم بيجن في كلمة له هناك عن سياسة حكومته تجاه الضفة الغربية بقوله : « ان جميع الخيارات مفتوحة امام سكان يهودا والسامرة ، واذا ما ارادوا فبامكانهم ان يصبحوا مواطنين في دولة اسرائيل » ·

واضاف بحماس « في شهر ايار من هذا العام تغير اسم المناطق من مناطق محتلة الى مناطق محررة ، هذه هي ارض اسرائيل المحررة ، ونحن ندعو المتطوعين الشباب في البلاد وفي الشتات للمجيء للاستيطان هنا » واكمل اريك شارون الذي اصبح فيما بعد وزيرا للزراعة ومسؤولا عن الاستيطان في المناطق المحتلة صورة السياسة الاسرائيلية بقوله : «انني اؤمن باننا سنتصرف تجاه العرب بتعقل ولكن مع الشدة . بحيث يصبح بامكان اليهودي الذهاب الى نابلس دونما خوف، وبوسع الجنود التجول في القصبة دونما خوف او حاجة للقيام بعملية عسكرية مدروسة من اجل ذلك » واضاف : « من هنا ادعو للبدء باستيطان واسع وسريع في السامرة ، بحيث تصبح فيها مستوطنات زراعية ومدنية وصناعية ·اننا نستطيع تحويل هذه المنطقة الى اكبر منطقة مأهولة بالسكان في اسرائيل ، واذا اردنا فقط فالنجاح حليفنا ، وستبقى اسرائيل الى الابد » · ولم يفت زبولون هامر (المفدال) القول بان العهد الجديد « سيبنى ويطور يهودا والسامرة كما اردنا وحلمنا » (انظر يديعوت احرونوت ٢٠-٥-٧٧) ·

ومن الجدير بالذكر ان مناحيم بيجن لا يرى في اصرار اسرائيل على عدم الانسحاب من الضفة الغربية ، مناقضا لقرار مجلس الامن ٢٤٢ ، واشار الى ذلك امام اللجنة التنفيذية الصهيونية بقوله ان « قرار مجلس الامن ٢٤٢ لا يتناقض مع عدم استعدادنا للانسحاب

من يهودا والسامرة » (عل همشمار ٢٤ـ٦ـ٧٧) ٠

ولا يختلف وزير خارجيته موشيه ديان عنه كثيراً ، فهو يرى ضرورة الفصل بين مصير الضفة الغربية وقطاع غزة ، والمناطق السورية والمصرية المحتلة ،ولكن يتسم موقفه بغموض اكثر ٠ فبالنسبة للضفة الغربية يرى ان « اتفاق السلام بين اسرائيل والدول العربية ، لن يتمبواسطة تقسيم اقليمي للضفة الغربية ، بل بواسطة خلق شكل من الحياة المشتركة في الضفة ، دون تطبيق السيادة الاسرائيلية من ناحية ، ودون ضم اي جزء منها او من قطاع غزة الى الاردن او اية دولة عربية من ناحية اخرى » (عل همشمار ٢٣ـ٦ـ٧٧) ٠

واوضح في مناسبة اخرى ما اسماه بالمصالح الاسرائيلية الثابتة في الضفة الغربية ، وحددها بثلاث :

١ ـ حق اليهود في شراء الاراضي وبناء مستوطنات ومدن دون التعرض للعرب او طردهم ، بل العيش الى جانبهم٠

٢ ـ اقامة شبكة من القواعد الامنية في الضفة ٠

٣ ـ عدم السماح بخلق وضع يضطر فيه اليهودي عند زيارته للخليل للحصول على تأشيرة دخول (انظر هارتس ٨ـ٦ـ٧٧) ٠

ويمكن القول ، كتلخيص لما سبق ، بان سياسة العهد الجديد تعتمد على توجه جدي نحو فصل مصير المناطق الفلسطينية المحتلة منذ ١٩٦٧ ، عن مصير المناطق المصرية والسورية ٠ وهنالك اجماع على السيطرة على الارض من خلال الاستيطان والتهويد ، دون وجود خطة واضحة متفق عليها بالنسبة لمصير السكان الفلسطينيين ٠

النشاط الاستيطاني : مع تربع الليكود على مقاليد الحكم في اسرائيل حدث تطوران اساسيان في النشاط الاستيطاني ، الاول يتمثل في توقف جوش ايمونيم عن اقامة المستوطنات بدون اذن من الحكومة ، والاخر ، دخول الاستيطان في سياق جديد ناجم بالاساس عن النظرة الجديدة ، والتي تتسم بوضوح اكثر تجاه مصير المناطق المحتلة ٠

فيما يتعلق بنشاط جوش ايمونيم الذي تبلور كحركة استيطانية غير رسمية في عام ١٩٧٤ ، واخذ يقيم مستوطنات في ارجاء مختلفة من المناطق العربية المحتلة، لاعتقاده بان الحكومة تتلكأ في اقامة المستوطنات ، واصطدم مرات عديدة مع السلطات، فقد اصبح الآن خاضعا لقرارات الحكومة وسياستها ، اعتقادا من زعمائه بتطابق وجهة نظرهم مع وجهة نظر الليكود تجاه القضية الاساسية التي كرس جوش ايمونيم نفسه من اجلها ٠ ولذا فقد اتخذ جوش ايمونيم في مؤتمر عقده بعد فور الليكود في الانتخابات قرارا ينص على ضرورة « توسيع وتيرة الاستيطان ، ولكن هذه المرة ، بالتعاون بدون حدود مع الحكومة الجديدة برئاسة الليكود ،والبدء بالعمل في مجالات اخرى ، مثل ، على سبيل المثال ، اقامة نوى استيطانية في قرى التطوير والاستيطان بها ٠٠ » وقال زعماء التنظيم « لن تقام بعد الآن مستوطنات بدون موافقة الحكومة وبدون تنسيق كامل معها ٠ لن ننشط ضدالحكومة بل معها ، ولن تتكرر صورة جنود وهم يقومون باخلاء المستوطنين » (يديعوت احرونوت ١٠ـ٦ـ٧٧) ٠

اعطى هذا التعاون اولى ثماره،وكرس الوحدة بين جوش ايمونيم والليكود ، عندما اقدمت الحكومة الاسرائيلية في اواخر شهر تموز الماضي ، وعقب انتهاء زيارة مناحيم بيجن لواشنطن ، بالاعلان عن اعترافها بـ « شرعية »ثلاث مستوطنات ، كان جوش ايمونيم اقامها

ابان حكم التجمع العمالي الذي اعتبرها « غير شرعية » دون التعرض لها !٠ومن الجدير بالذكر ان اريك شارون المسؤول عن النشاط الاستيطاني في المناطق المحتلة في حكومة الليكود ، كان في السابق قد احتج ضد كلمة « غير شرعية » ، واعاد الى الاذهان ان المشروع الصهيوني برمته هو شبيه بهذه المستوطنات « غير الشرعية » ٠

والمستوطنات الثلاث هي ، معاليه ادوميم وعفرة بالقرب من رام الله والون موريه بالقرب من كفر قدوم ٠ وبذلك وضع الليكود حدا للصراع بين ما يسمى بالاستيطان الشرعي وغير الشرعي ، باعترافه بتلك المستوطنات واحتضانه واحتوائه لجوش ايمونيم ٠

كشفت المصادر الاسرائيلية عن وجود خطط ومشاريع استيطانية تستهدف تكريس الاحتلال والانتقال الى التهويد الفعلي للضفة الغربية ٠ ومن ابرز تلك الخطط واخطرها ، وقد تطرقت اليها جميع الصحف الاسرائيلية (انظر معاريف ٣-٧-٧٧) خطة تحمل اسم « خطة الاستيطان الديني والقروي في أرض اسرائيل » اعدها طاقم من الليكود قبل نصف عام برئاسة عضو الكنيست يجال كوهين ، واعتبرها الليكود في حينه من صلب برنامجه الانتخابي ٠ وقد عادت هذه الخطة وقدمت الى وزير الزراعة اريك شارون ٠ وستقام بموجبها في الضفة الغربية خلال الاربع سنوات القادمة ، ست مدن جديدة ، ثلاث مدن في المنطقة الشمالية من الضفة ، في منطقة مسحه ، وبيت صيرا ، وفي المنطقة الواقعة شرقي الطيبة ما بين قلقيلية وطولكرم ٠ ويبلغ عدد سكان كل منها ٣٠ الف نسمة ٠ وستقام الى جانبها ثلاث مستوطنات مدنية عدد سكان كل منها ثلاثة الاف نسمة وفي المنطقة الجنوبية من الضفة ، ستقام ثلاث مدن ، في جبعون وتكوع ومعاليه ادوميم ، عدد سكان كل منها ١٥ الف نسمة ، وستقام الى جانبها ثلاث مستوطنات مدنية عدد سكان كل واحدة ثلاثة الاف نسمة ، وهي ! عفرة ، والون شبوت ومعاليه ادوميم ٠ اما كريات اربع، الواقعة على مقربة من الخليل ، فستصبح وفق الخطة قادرة على استيعاب ستة الاف نسمة ٠ وبذلك تطمح الخطة الى بناء خمسين الف وحدة سكنية ، تستوعب ١٥٠ الف مستوطن ، في الضفة الغربية ، خلال الاعوام الاربعة القادمة ٠

ولم تغفل الخطة بناء طرق جديدة تربط الضفة الغربية باسرائيل ، فقد اوصت باقامة خمس طرق رئيسية سريعة تخترق ارجاء الضفة وتربطها بالمدن الرئيسية في اسرائيل ٠

ليست هذه الخطة وحيدة ، فهنالك خطط اخرى ، يتركز الجهد الاستيطاني فيها على الضفة الغربية ، من بينها خطة لجوش ايمونيم ، وقدمت الى رئيس الحكومة مناحيم بيجن تعتمد على « اقامة ١٦ نقطة استيطانية في يهودا والسامرة، بما في ذلك النقاط الاستيطانية الاربع التي تحتاج الى دعم آخر : معاليه ادوميم ، عفرة ، الون موريه ، مسحه » (هآرتس ٣-٧-٧٧) ٠

وهنالك خطة اخرى تعتمد على اقامة ٢٩ مستوطنة خلال العام القادم « وستقام بموجب الخطة التي تبلورت في قسم الاستيطان عشر مستوطنات دائمة ،وعشر مستوطنات اخرى للقوة الطلائعية للنواة المستوطنية ، اما بالنسبة للمستوطنات التسع الباقية فسيجري العمل لتمهيد الاراضي استعدادا لاقامة المزارع ومنازل المستوطنين » اما نصيب المناطق المحتلة من هذه المستوطنات فهو ١٦ مستوطنة ،في مشارف رفح وهضبة الجولان وغورالاردن والمنطقة الواقعة بين ايلات وشرم الشيخ (انظر عل همشمار ٢٦-٦-٧) ٠

الى جانب ذلك ، هنالك « توصية » استيطانية من يسرائيل جليلي الرئيس السابق للجنة الوزارية لشؤون الاستيطان ، وجهها الى المسؤولين عن الاستيطان فيحكومة الليكود وكأنهم بحاجة الى توصية يدعوهم كما ذكرت عل همشمار (٢٠ـ٦ـ٧٧) الى اقامة مستوطنة مدنية في معاليه ادوميم تضم خمسة الاف وحدة سكنية ، ولم يفته بعد تقديم التوصية التطرق الى النشاط الاستيطاني خلال فترة الثلاث سنوات من حكم رابين ، فقال « خلال هذه الفترة اقيمت ٥٢ مستوطنة ، من بينها ٣٣ خارج الخط الاخضر : ٩ في هضبة الجولان ، ٩ في غور الاردن ، ٣ في غوش عتسيون، ٩ في منطقة رفح و ٣ مستوطناتمدينية في اماكن اخرى » ٠

ومن الملاحظ في هذه الخطط ، تعددها وتركيزها على اقامة مدن ، وتطرق اريك شارون حول اهمية اقامة المدن بقوله كما ورد في معاريف (١٩ـ٦ـ٧٧) ان «الذي سيحدد بمقدار لا بأس به مصيرنا يتمثل في مدى معرفتنا في برمجة وتنفيذ خطة استيطانية واسعة النطاق ، لا تضم مستوطنات فقط ، بل مدن ايضا ٠ فالمدينة التي تضم خمسين الف مواطن ، لا يمكن زحزحتها » ٠

وكتمهيد لتثبيت التوجه الجديد في السياسة الاسرائيلية الهادف الى فصل مصير المناطق الفلسطينية عن مصير المناطق العربية الاخرى المحتلة كتب ديان مقالا حول الاستيطان ، ركز فيه على استيطان الضفة الغربية ، جاء فيه (يديعوت احرونوت ١٠ـ٦ـ٧٧) « ٠٠٠ انني اعتبر يهودا والسامرة وطننا القديم، واود ، بقدر ما يتعلق الامر بنا، ان لا نعتبر غرباء هناك ٠ يجب على اليهود امتلاك قطع من الاراضي في هذه البلاد ، واقامة منازل ومستوطنات فيها (بتخطيط وتوجيه من جانب الحكومة) انني لا اسعى لارث سكان البلاد بيد انني ارغب في العثور ، بكل ما املك من قوى ، على حل للصراع القائم بيننا وبين الفلسطينيين ، يمكننا من العيش معهم وبالقرب منهم ،ولا نحكم على انفسنا ، بايدينا ، بالاغتراب عن وطننا » ٠

ومن ناحية اخرى ، ووسط الاعلان عن اضفاء صفة الشرعية على ثلاث مستوطنات في الضفة الغربية ، تم الاحتفال في السابع والعشرين من تموز بوضع حجر الاساس لمستوطنة جديدة تحمل اسم «ثلمي يوسف » في مشارف رفح واشارت معاريف (٢٨ـ٧ـ٧٧) الى عدم حضور رسميين اسرائيليين الاحتفال ، واضافت ان وزير الزراعة اريك شارون ، الذي كان قد اعلن انه سيحضر الاحتفال ،اكتفى بارسال تهنئة الى المستوطنين ٠ وحضر حفل وضع حجر الاساس رئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية رعنان فايس الذي دعيت المستوطنة على اسم ابيه ، وقال في هذه المناسبة ان « ثلمي يوسف » تعتبر المستوطنة الاولى في نطاق « المشروع الجنوبي » الذي يهدف الى اقامة ١٢٠ مستوطنة زراعية في النقب حتى نهاية هذا القرن ٠

ويبدو ان المسؤولين الاسرائيليين ارادوا بتغييبهم عن الاحتفال ، تخفيف وقع ذلك على المسؤولين الاميركيين ، الذين استقبلوا الاعلان عن اضفاء الصفة الشرعية على المستوطنات بعدم الرضى ، خاصة وان الاعلان جاء عشية زيارة وزير الخارجية الاميركية للمنطقة ٠

حظر الصلاة في مسجد ، وعودة الاشباح الى دير ابو مشعل : ـ من يتتبع النشاط الاستيطاني في المناطق العربية المحتلة ، تستوقفه حادثتان ، الاولى حظر الصلاة في مسجد في القدس، والاخرى اطلاق النار من قبل عناصر

مجهولة ! في قرية دير ابو مشعل بهدف استيطانها · وهاتان الحادثتان تنمان قبل كل شيء عن مدى الهوس الاستيطاني السائد في اسرائيل ، ففي القدس صدر حكم يحظر الصلاة في مسجد تم بناؤه بدون رخصة في حي رأس العمود في القدس العربية ، يحمل اسم مسجد بلال· وكان من المقرر الاحتفال بتدشينه يوم الاسراء والمعراج · ونقلت هآرتس (١-٧-٧٧) عن اوساط بلدية القدس ان المبنى الذي اشيد بسرعة من حجارة مطعمة بالرخام ليس قانونيا ، واضافت ان رجال الشرطة قاموا بزيارة المبنى «ومنعوا المصلين العرب من اداء الصلاة داخله »·

اما حادثة قرية دير ابو مشعل ، فتتلخص في عودة المجموعة الاسرائيلية التي تصفها وسائل الاعلام الاسرائيلية بالمجهولة (تحدثنا عنها في العدد السابق من شؤون فلسطينية) الى زيارة القرية تحت جنح الظلام ، بعد غياب استمر اكثر من شهر ، واخذت تقوم بتحطيم زجاج النوافذ ، وتهدد السكان من خلال مكبرات الصوت ، وتطالبهم بالتخلي عن اراضيهم وترك قريتهم · وقد استخدم افراد المجموعة هذه المرة الاسلحة النارية وسط القرية ، الامر الذي دفع السكان للتوجه ثانية الى الحاكم العسكري وطرح قضيتهم امامه ! وافادت علىمشمار (٢٢-٦-٧٧) ان التحقيق الذي اجراه الحاكم العسكري اظهر انه « حدث بالفعل اطلاق النار في القرية ، الا ان قوات الامن لم تنجح بعد في اعتقال المشتبه بهم » !

ردود الفعل في الضفة الغربية على نجاح الليكود : تناقلت وسائل الاعلام الاسرائيلية ردود الفعل في الضفةالغربية من خلال تعقيب رؤساء البلديات وبعض « الوجهاء » على نجاح الليكود في الانتخابات الاسرائيلية ، وانعكاسه على الصراع العربي الاسرائيلي ·

من ابرز ردود الفعل التي ركزت على التمسك بمنظمة التحرير الفلسطينية واهدافها هي تلك التي صدرت عن مدينتي نابلس ورام الله اللتين تعتبران مركزا للانتفاضة الوطنية ضد الاحتلال · فقد علق رئيس بلدية نابلس بسام الشكعةعلى انتصار الليكود بقوله : « نحن لا نملك الا التمسك بحقوقنا الشرعية العادلة وبوحدة شعبنا ضمن اطار م·ت·ف، مؤمنين بان الرأي العام العالمي يقف معنا في قضيتنا العادلة » · وبنفس الروح قال رئيس بلدية رام الله كريم خلف « نحن اصحاب حق في هذه المنطقة ، ودعاة سلام واسترجاع حقوقنا الضائعة بقيادة م·ت·ف·ونتيجة هذه الانتخابات تعتبر دليلا قاطعا على ان اسرائيل ليس لديها اية نية في اقامة السلام العادل في المنطقة » (الاتحاد ٢٠-٥-٧٧) ·

وحول احتمالات التغيير الناجمة عن نجاح الليكود ، انقسمت الاراء ،فهنالك فريق يرى انه لن يتأتى عن ذلك تغييرات جوهرية ، مثل رئيس بلدية طولكرم حلمي حنون لاعتقاده بان الليكود ليس اخطر من التجمع العمالي ، وآخر يعتقد بحدوث مثل هذه التغيرات ، وينقسم الى قسمين ، الاول يتصور حدوث ضغوطات اميركية ودولية على الحكم الجديد في اسرائيل ، مثل فهد قواسمه رئيس بلدية الخليل الذي يعتقد « بحدوث وضع معقد اكثر ، فهنالك دول كثيرة في غرب اوروبا قد تريد ظهرها لاسرائيل ، اذا ما تبنت سياسة مناحيم بيجن ، وفي الوقت نفسه ستتعاظم مقاومة سياسة الليكود داخل اسرائيل نفسها · واعتقد شخصيا ان رئيس الولايات المتحدة لن يدع مناحيم بيجن يتصرف كما يخطر في باله في الضفة الغربية · ويبدو لي انه شخصيا ، ليس موافقا على الاحتلال الاسرائيلي ، ويريد وضع حد له سواء بضغط عربي او بدونه»

معربا عن اعتقاده بان اسرائيل لا تستطيع الصمود امام الضغوطات الاميركية ٠

والثاني يعتقد بحدوث تغييرات ، ولا يستبعد ان تكون هذه التغييرات هي اندلاع الحرب ، مثل بسام الشكعه رئيس بلدية نابلس الذي « لا يستبعد ان يؤدي نجاح الليكود الى حرب في الشرق الاوسط » ومثل كريم خلف رئيس بلدية رام الله الذي يرى « فيما يخص المستقبل اتوقع اياما عصيبة ٠ انني اشتم رائحة غبار الحريق٠ لن يكون هنالك مفر من الحرب ، ويحتمل ان لا تؤدي الى نتائج مأمولة ، الا ان استئناف المواجهة بين اسرائيل والدول العربية سيشحذ القضية الفلسطينية ، ويزيد من التأييد العالمي للفلسطينيين ، لا ارى طريقا آخر » ٠

اما الشيخ محمد الجعبري رئيس بلدية الخليل سابقا ، والذي يكيف نفسه مع اي عهد ، فله وجهة نظر تختلف عن وجهات نظر الجميع ، اذ يقول « لا يجب التسرع باستنتاجات حول بيجن وسياسته ،وينبغي الانتظار حتى يؤسس حكمه ، ويبلور خطا واضحا في شؤون الخارجية والامن » ! (انظر معاريف ١٩ـ٥ـ٧٧) ٠

توتر العلاقات بين الحكم العسكري والبلديات : اتسمت العلاقات بين معظم رؤساء البلديات ، وخاصة اولئك الذين يجاهرون بتأييد م٠ت٠ف٠ وبين جهاز الحكم العسكري بالتوتر ٠ ومرد ذلك ان الحكم العسكري بات يخشى تنامي التأييد لمنظمة التحرير الفلسطينية وسط رئاسة البلديات في الضفة الغربية ، على حساب التأييد لاسرائيل ولاطراف اخرى يرتاح لها ٠ ومن مؤشرات توتر العلاقات :

١ ـ الامر الذي اصدره الحاكم العسكري لمدينة نابلس في الجزء الاخير من شهر نيسان باحضار رئيس البلدية بسام الشكعة الى مقره بالقوة بواسطة سيارة تابعة للجيش الاسرائيلي ، متهما اياه بمساعدة « المحرضين » على الاضرابات والتظاهرات اثناء زيارة الحاخام كهانا لنابلس للاحتفال بتدشين المستوطنة التي يعتزم اقامتها في ضواحي المدينة ٠

٢ ـ تصدي الحكم العسكري لطلب بعض رؤساء البلديات بفصل مدنهم عن شركة الكهرباء الاسرائيلية ، والاعتماد على مولدات كهربائية خاصة بدلا عنها ٠ وقد اشارت الصحف الاسرائيلية ان جهاز الحكم العسكري لن يمكن رئيسي بلديتي الخليل ونابلس من فصل مدينتيهما عن شركة الكهرباء الاسرائيلية ٠

٣ـ منع رؤساء البلديات من دخول بلدة قباطيا ، فقد توجه رؤساء بلديات نابلس والخليل وطولكرم والبيرة واريحا وحلحول ودورا وجنين الى قرية قباطيا بغرض المصالحة بين عائلتين متخاصمتين هناك ٠ وصادف قدوم هؤلاء الى البلدة ، يوم ذكرى الاربعين لاستشهاد شاب وامرأة من البلدة على يد قوات الاحتلال ٠ ورأى جهاز الحكم العسكري في ذلك ذريعة لمنع رؤساء المدن من دخول البلدة ، معتبرا ان اللقاء في قباطيا وفق ما ذكرت هآرتس (١٦ـ٦ـ٧٧) « حمل طابعا سياسيا وحسب القانون يجب الحصول على تصديق خاص من جانب السلطات لمؤتمرات كهذه » ٠

٤ ـ افتعال ضجة حول التبرعات العربية حيث اخذ الحكم العسكري يشيع عن احتمال وقوف م٠ت٠ف٠ وراء التبرعات التي يحصل عليها بعض رؤساء البلديات من امارات الخليج العربي وبعض الدول العربية الاخرى ، بهدف ارغام من يحصلون على التبرعات توظيفها في مشاريع يريدها الطرف الذي يدفع او الذي يقف وراءه ٠

كما ودرج في الوقت نفسه على السماح لبعض الرؤساء بالتوجه الى الدول العربية، وفرض قيود على رؤساء آخرين ، في محاولة منه لارغامهم على التقرب منه ٠

٥ ـ زيارة عيزر فايتسمان للخليل ونابلس ٠ عند اواخر شهر حزيران قام عيزر فايتسمان وزير الدفاع بزيارة للخليل ونابلس ٠ وافصحت هذه الزيارة عن التآزم القائم بين جهاز الحكم العسكري ورؤساء البلديات ، وانعكس ذلك في امرين : (١) عدم قيام الوزير بالاجتماع برئيس البلدية في مقره في البلدية ، بل فضل عقد الاجتماع في مقر الحاكم العسكري للمدينة خلافا للعادة التي سار عليها وزراء الدفاع السابقون (٢) عدم اقتصار الاجتماع على رئيس البلدية والاعضاء ، بل توجيه الدعوة الى «وجهاء» اخرين للجلوس جنبا الى جنب مع رئيس المدينة ، كما حدث في الخليل ونابلس ٠ واعتبر الكاتب الاسرائيلي تسفي برئيل (دافار ٢٤ـ٧ـ٧٧) ذلك بمثابة « اتجاه جديد للحكم العسكري يستهدف تقليص صلاحيات رؤساء البلديات في الضفة » واوضح ان الانطباع السائد هو ان الحكم العسكري يعمل على تشجيع وتنمية زعامة جديدة منافسة لرؤساء البلديات ، تتشكل من عناصر من رؤساء الغرف التجارية وبعض الوجهاء والمسؤولين في جهاز التعليم ، وذلك « بفرض بناء شبكة جديدة من مراكز القوى تستهدف بشكل او بآخر قضم مكانة رؤساء المدن » ٠

معاناة المعتقلين الفلسطينيين :

لا تزال اوضاع وظروف المعتقلين الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية تسير من سيء الى اسوأ ، وتسبب اضرابات هنا وهناك ، ترافقها ردود فعل اسرائيلية ، مبتكرة ومشينة ، كتعرية المعتقلين من ملابسهم في الساحة العامة امام مقر الحاكم العسكري، بغرض اذلالهم واشباع شهوة جلاديهم الذين يعيدون الى الاذهان صورة السجانين النازيين الالمان وهم يستمرئون تعذيب معتقليهم ٠

فقد حدثت مؤخرا سلسلة من الاضرابات في المعتقلات الاسرائيلية ، ففي معتقل رام الله ، وبسبب الاوضاع المزرية في السجن ، حيث الاكتظاظ في الغرف وسوء التغذية والمعاملة ، اعلن المعتقلون الاضراب عن العمل والطعام في اواخر شهر حزيران ، وردت ادارة السجن على ذلك باعمال مشينة ، حين استدعت جنود حرس الحدود الذين دخلوا السجن وهم « مدججين بالهراوات والخوذ الفولاذية ، وقاموا برش السجناء بالغاز الخانق ، ثم اخرجوهم الى ساحة السجن، حيث اعتدوا عليهم بالضرب المبرح مما ادى الى جرح عدد منهم ، ولم يكتفوا بهذا ،بل قاموا بتعرية السجناء من ملابسهم تماما ، واخرجوهم الى ساحة عمارة الحاكم العسكري ليهينوا كرامتهم باضحاك المجندات عليهم ، واعطائهم اوامر مهينة مثل ارفع رجلك وازحف واركض » كما جاء في الاتحاد (١ـ٧ـ٧٧)

وحدث اضراب آخر في سجن نفيه ترتسا في الرملة الخاص بالمعتقلات الفلسطينيات اللواتي قمن باضراب استمر ١٥ يوما ، احتجاجا على الاوضاع الصعبة في المعتقل ، كما واعلن اكثر من ١٥٠ معتقلا من سجن الخليل الاضراب ، وامتنعوا عن مقابلة اقاربهم ، احتجاجا على سوء التغذية والنقص في البطانيات كما ذكرت هآرتس (٤ـ٧ـ٧٧) ٠ ومن الجدير بالذكر ان الحاكم العسكري لمدينة الخليل رفض طلبا تقدمت به بلدية الخليل ، ابدت فيه استعدادها لتزويد المعتقلين بالبطانيات وما يحتاجونه من مساعدات للتخفيف عنهم ٠

ومن ناحية اخرى نشطت الهيئات

النسائية ، وقريبات المعتقلين بالقيام بتظاهرات ضد ظروف واوضاع المعتقلين. ففي مدينة نابلس ، اعتصم العشرات من نساء وامهات المعتقلين ، كما ذكرت الاتحاد (١٠-٦-٧٧) في مبنى بلدية المدينة احتجاجا على استمرار الاعتقالات الادارية بدون توجيه اي تهمة للمعتقلين او تقديمهم الى المحكمة ، وطالبت المعتصمات باطلاق سراح جميع المعتقلين الاداريين او تقديمهم الى المحكمة ·

اما في رام الله فقد ادت الاعمال المشينة التي ارتكبتها سلطات الاحتلال ضد المعتقلين في السجن الى تظاهرة نسائية في المدينة طالبن فيها بـ « وقف المعاملة الوحشية ، وتخفيف الاكتظاظ واطلاق سراح المعتقلين الاداريين، وتحسين الطعام ، والاهتمام بصحة السجناء المرضى وادخال الكتب الى السجن » ·

وقد اتسعت دائرة النضال وشملت جميع سكان الضفة الغربية ، فقد حددت العناصر الوطنية في الضفةالغربية يوم الثاني من تموز « يوم السجين » ودعت الاهالي من خلال مناشير وزعتها في جميع ارجاء الضفة للوقوف دقيقة صمت احتجاجا على اوضاع المعتقلين ، وتعاطفا مع مطالبهم · واعترفت هآرتس (٣-٧-٧٧) باستجابة سكان الضفة لهذا النداء ·

عبد الحفيظ محارب

اسرائيليات

الموقف من العرب

اعلنت حكومة ليكود الاسرائيلية عند تأسيسها ، في خطوطها الاساسية انها :

● « تضع رغبتها في السلام في مقدمة همومها ، وتسعى بشكل فعال ، للوصول الى سلام دائم في المنطقة ·

● « تعلن عن استعدادها للاشتراك في مؤتمر جنيف عند دعوتها من قبل الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، على اساس القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ الصادرين عن الامم المتحدة ·

● « تدعو جارات اسرائيل ، كلها وكل واحدة منها على انفراد ، مباشرة ، او بواسطة دولة صديقة ، لاجراء مفاوضات من اجل توقيع معاهدة سلام بينها ، دون شروط مسبقة من اي طرف كان ، ودون صيغة حل تعد من الخارج · وكل طرف من الاطراف له الحق في عرض اي اقتراح مرفقا لرؤيته ، وسيكون كل موضوع قابلا للتفاوض ·

● « استعدادا لمؤتمر جنيف ، ولمفاوضات مباشرة ، تعلن الحكومة عن استعداد اسرائيل لان تجري مفاوضات للوصول الى سلام حقيقي ، معقول وفعلي

يؤدي الى حياة طبيعية في المنطقة ٠

● « في غياب معاهدة سلام ، تلزم الاتفاقات التي وقعتها الحكومة السابقة جميع الاطراف » ٠

ولو دققنا في هذه الخطوط لحكومة ليكود ، لوجدنا ان ثمة شبها كبيرا بين تقنية صياغتها ، وبين التقنية التي استعملتها الحكومات المعراخية السابقة ، بكل ما يتعلق بموقفها من العرب ، ومن قضية السلام والحلول المطروحة للنزاع العربي الاسرائيلي ، وهي تقنية الغموض والمجاز في طرحها ٠

والاختلاف الوحيد الذي يميز هذه الاخيرة عن سابقاتها ، هو عدم الاختلاف في الرأي بين المشاركين الائتلافيين بالنسبة « للتنازلات » الاقليمية من أجل السلام ، سواء كان ذلك في سيناء والجولان ، أو في الضفة الغربية وقطاع غزة وان كان « بالتالي » كما صرح شمعون بيرس « لا يوجد فرق بين المعراخ والليكود » (هعولام هزيه ٢٠-٧-٧٧) ٠ ولهذا فان معظم رجال العمل ايضا سيؤيدون بيغن وحكومته ، وبحماس شديد في تنفيذ سياسة ارض اسرائيل الكاملة ، والضم والاستيطان على الاقل ، حتى الان ادى ذلك الى حروب لا نهاية لها « اذ ان الفرق بين الليكود والمعراخ ليس قضية تناقض ، بل هو قضية حجم » (هعولام هزيه ٢٠-٧-٧٧) ، ولكنهما من « حيث المبدأ » كما صرح بيغن اثر فوزه في الانتخابات « فثمة اجماع قومي » (المصدر نفسه) ٠

فرجال ليكود لم يكونوا بالنسبة للسياسة الاسرائيلية الخارجية وموقفهم من العرب بشكل عام ، سوى معراخيين اكثر تطرفا ، ورجال المعراخ لم يكونوا سوى ليكوديين معتدلين ٠ وكل الجدل السياسي الذي كان قائما ولا يزال بين المعراخ والليكود ، حين كانت هذه الاخيرة في المعارضة وهي الان في الحكم ، ابتداء من مشروع روجرز، مرورا بمهمة كيسنجر والحلول الجزئية واتفاقي سيناء الاول والثاني ، وانتهاء « بمشروع السلام » الذي حمله بيغن الى كارتر ، انما يتعلق بالمحافظة على السلام مع امريكا ، وليس باحلال السلام بين اسرائيل والعالم العربي ٠

فحكومات المعراخ هي التي اصرت على احتلال سيناء والجولان وقطاع غزة والضفة الغربية ، وهي التي رفضت « تخطيط الخرائط » ، والتقدم بخطة سلام تشكل قاعدة للمفاوضات من أجل السلام ، وهي التي كانت تصر دائما على « عدم الانسحاب الى الحدود السابقة » ٠ و « تفضيل شرم الشيخ بدون سلام على سلام بدون شرم الشيخ » على حد تعبير ديان ، وعلى ان هضبة الجولان جزء لا يتجزأ من اسرائيل » (معاريف ٢٧-٩-٧٤) على حد تعبير اسحق رابين ، وان اسرائيل « لن تتخلى عن هضبة الجولان حتى في اطار سلام بينها وبين سوريا » (المصدر نفسه) ٠ هذا ناهيك عن موقفها المعروف من الضفة الغربية وقطاع غزة ٠

فمناحيم بيغن وموشيه ديان ، عضوا حكومة « التجمع الوطني » بعد عام ١٩٦٧ ، لا يختلفان في مواقفهما اطلاقا ، عن مناحيم بيغن وموشيه ديان رئيس الحكومة الليكودية الجديدة ووزير خارجيتها ، الا بقدر اختلاف الظروف ، وتفردهما في تسيير زمام الامور والمبادرة٠ والادعاء الوحيد ضدها من المعراخ ورجاله في المعارضة كما لمسنا حتى الان، يتعلق بخطر المواجهة الاسرائيلية ـ الامريكية ، وتقويض السلام القائم بينهما نتيجة للتكتيك الذي ستتبعه الحكومة الجديدة ٠

ولهذا فان « معظم رجال المعراخ سيؤيدون بيغن وحكومته ، وبحماس شديد

في تنفيذ سياسة ارض اسرائيل الكاملة ، والضم ، والاستيطان ، على الاقل ، حتى وان ادى الامر الى حروب لا نهاية لها » (هعولام هزيه ٢٠ـ٧ـ٧٧) ٠

الموقف من العرب :

المفاوضات المباشرة ـ ومعاهدة السلام ٠

في مقال له في صحيفة معاريف في ١٦ـ٨ـ٧٤ ، كتب مناحيم بيغن في زاويته الاسبوعية ، معلقا على التسوية الجزئية ، متهما حكومة اسحق رابين باجراء التنازلات امام المطالب المصرية، في المفاوضات الجارية بواسطة كيسنجر ومطالبا الحكومة بوقف هذه المفاوضات والعودة الى « البديل الوحيد » ، وهو المطالبة الايجابية المقبولة بمفاوضات مباشرة لابرام معاهدة سلام » ٠ وتساءل لماذا لا تعود حكومة اسرئيل الى « هذا البديل ، بدل انسحاب دون سلام» وفقا للمبادىء الاساسية التي عملت بموجبها حكومة التجمع الوطني حتى آب عام ١٩٧٠ ، والتي ترتكز على :

« ١ ـ المطالبة باحلال سلام حقيقي بين اسرائيل والدول العربية ٠

٢ ـ التعبير عن سلام كهذا بواسطة محادثات مباشرة ٠

٣ ـ الحدود بين اسرائيل وجيرانها العرب تثبت في معاهدة سلام ٠

٤ ـ في غياب معاهدة سلام يستمر الوضع كما كان عليه عند وقف اطلاق النار » ٠

وذلك لان « المفاوضات الثلاثين التي جرت بين القدس وواشنطن والقاهرة ،لم تكن مفاوضات حرة منذ بدايتها ومن اساسها ، بل جرت تحت ضغط دائم » (المصدر نفسه) ٠

وكان بيغن ، قد اكد على اهمية المحادثات المباشرة مع العرب ، وابرام معاهدة سلام دون شروط مسبقة ، في مؤتمر حركة حيروت عام ١٩٧٤ ، مؤكدا على التمسك بمبدأين اساسيين وهما ان « تنتهي حالة الحرب بمعاهدة سلام فقط » ، وانه « بدون سلام لا يمكن ان يكون هناك انسحاب ابدا » او التخلي عن هذين المبدأين و « الدخول في ترتيبات مؤقتة تعني انسحابات اسرائيلية بلا سلام » واضاف ان سياسة حزبه البديلة هي « معاهدة سلام ومفاوضات مباشرة لتوقيع معاهدة سلام كما هي القاعدة بين الشعوب » (معاريف يديعوت احرونوت ١٣ـ١ـ٧٤) ٠

وفي مؤتمر حيروت الذي عقدته الحركة في مستوطنة قريات اربع في الضفة الغربية في ١٢ـ١ـ١٩٧٥ قال بيغن « ماذا تعني تلك التسويات المؤقتة ؟ ان الانسحابات بلا سلام هي خراب اي فرصة للسلام » واضاف مقترحا على الحكومة الاسرائيلية ان « تتوجه الى الدول العربية باقتراح للموافقة على هدنة تامة لمدة ثلاثسنوات، تبذل الجهود خلالها لاحلال السلام بين الشعبين بواسطة التوقيع على معاهدة سلام وتحديد الحدود » (معاريف ١٣ـ١ـ٧٥) ، و « قد تبنى المؤتمر هذه المقترحات وعرضها على الحكومة » (المصدر نفسه) ٠

وفسر بيغن اقتراحه هذا مرة اخرى، في مقالة له في صحيفة معاريف ٣١ـ٨ـ٧٥ بقوله : « لقد اقترحت في مؤتمر حيروت ، ان المفاوضات على معاهدة سلام مع الدول العربية المجاورة من خلال اعتراف متبادل باستقلال وسيادة جميع الدول التي تكون طرفا في هذه المفاوضات ، اي ان تقترح الحكومة على العرب هدنة كاملة لفترة اولية ،

واعتراف متبادل بالاستقلال والسيادة السياسية ، ومفاوضات مباشرة دون شروط مسبقة لانهاء حالة الحرب بمعاهدة سلام نهائية » (معاريف ٣١ـ١ـ٧٥) ٠

٠٠ وان تعقد المفاوضات في القدس وعواصم الدول العربية المجاورة او في مكان آخر محايد ، مثل جنيف او لوزان او سان ريمو » (معاريف ٣١ـ٨ـ٧٥)٠

وفي مؤتمر حيروت لعام ١٩٧٧ ، قال بيغن « ان حكومة ليكود ستأخذالمبادرات نحو السلام ، وستقوم بذلك ليس من خلال الجمعية العمومية للامم المتحدة ، حيث تعادينا الاكثرية ، ولكننا سنتوجه الى دولة صديقة لديها علاقاتدبلوماسية طبيعية مع اسرائيل وجيرانها ، وسنقدم اقتراحاتنا لهم (للعرب) لبدءمفاوضات من اجل توقيع معاهدة سلام ، ويجب ان تكون هذه المفاوضات مباشرة ، بلا شروط مسبقة ، **وحرة من اي معادلات اجنبية للتسوية** » (معاريف ١٣ـ١ـ٧٧) ٠

وفسر بيغن معنى ـ بلا شروط مسبقة ، بأنه « كما اننا لا نطلب من العرب ان يقبلوا اقتراحاتنا قبل بدء المفاوضات ، فانهم لن يطلبوا منا ان نقبل اقتراحاتهم قبل حضور مؤتمر سلام ، وهذا المؤتمر سيلتئم في عواصم دولنا بالتتابع او في مكان محايد مثل جنيف » ٠ (المصدر نفسه)

وهذه المقترحات ، هي نفسها التي تضمنتها الخطوط الاساسية لحكومة ليكود الراهنة ، والتي تضمنها خطاب بيغن امام الكنيست بعد توليه رئاسة الحكومة في ٢٠ـ٦ـ٧٧ حيث ناشد الحكام العرب ان يجتمعوا به « سواء كان ذلك في عواصمنا ، او على اي ارض محايدة ٠٠ كي نبحث في احلال سلام حقيقي بينهم وبين اسرائيل » ٠ (هآرتس معاريف ٢١ـ٦ـ٧٧) ٠

وان كان بيغن يعمد الى استبعاد الولايات المتحدة عن هذه المفاوضات وممارسة ضغطها على اسرائيل بالتلميح، فان وزير خارجيته موشيه ديان ، الذي تطرق الى ذلك في الكثير من تصريحاته، يقول ذلك بوضوح اكثر ٠ ففي رده على سؤال موجه اليه في مقابلة له مع طلاب مدرسة الضباط للفرق المقاتلة عام ١٩٧٢ ، اذا ما كانت زيارة نيكسون ومساعديه الى الاتحاد السوفييتي

والصين الشعبية ستؤدي الى ممارسة ضغط امريكي على اسرائيل للانسحاب من الاراضي المحتلة ، اجاب ديان بانه لا يدري اذا ما اتفقوا او وصلوا الى استنتاج ما من خلال عدم اتفاقهم ـ **والامر يتعلق في الاساس بالولايات المتحدة ـ ان لا يفرضوا الحل علينا** ، وان لا يفعلوا ما فعلوه عام ١٩٥٧ ، بعد معركة سيناء ، عندما اتفقت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي على انسحابنا من سيناء » واضاف انه « اذا لم يكن هذه المرة اتفاق كهذا ، فهذا لصالحنا ، حتى وان كانوا قد اعتمدوا على وثيقة سياسية مشتركة لقرار مجلس الامن ٢٤٢ ، **وغير المرغوب فيه بالنسبة لنا** » ٠ واضاف « ولهذا فان كان في اساس النتائج لمؤتمر القمة ، عدم التدخل وعدم فرض حل علينا ، واستمرار وقف اطلاق النار ، واستئناف المفاوضات بالسبل الدبلوماسية بيننا وبين جيراننا، عندها تكون الحصيلة في رأيي ايجابية بالنسبة لنا » ، (بمحانيه ٧ـ٦ـ٧٢) ٠

وفي رده على سؤال آخر عن توقعاته بالنسبة للمستقبل « في حالة الضغط على اسرائيل من الولايات المتحدة ؟ » أجاب ديان وبكل وضوح انه « اذا ارادت الولايات المتحدة ان تضغط علينا بكل ثقلها ، يتوجب علينا ان ننصاع لمطالبها » (المصدر نفسه) ، ولو كان علينا ان

نختار بين الوضع الذي تعطينا فيه الولايات المتحدة ، وتساعدنا ، وتبيعنا، سواء كان ذلك في الحقل الاقتصادي او العسكري او السياسي ، ونتيجة لذلك أكون مكبلا جدا جدا بالاستجابة لمطالبها ، وبين وضع نكون فيه احرارا جدا جدا ، ولكن نتيجة لذلك لا تعطينا الولايات المتحدة شيئا ، لا مساعدات اقتصادية ، ولا معدات عسكرية ، ولا مساندة سياسية ، لكنت افضل **استعبادنا** الذي هو في الحقيقة يعطينا حرية اكثرية من **الحرية** هذه ، التي تكسرنا في النهاية وتخلق لدينا وضعنا **مستعبدا**

(المصدر نفسه) ٠

ومن هنا نرى ان الاساس الذي تقوم عليه سياسة بيغن وديان ، هو انه وقبل كل شيء ، لا بد وان تبادر لانتزاع المبادرة لخطوات « السلام » ، بينما كل شيء مفتوح للمفاوضات المباشرة ، ونقل هذه المفاوضات من طاولة المحادثات بين اسرائيل والولايات المتحدة ، الى طاولة المباحثات بين اسرائيل والعرب ، وبهذا تمنع خطر الصدام مع الولايات المتحدة ، ما دامت اسرائيل لا تصل الى تفاهم مع العرب ، هذه الطريقة تساعد الولايات المتحدة على التحرر من وعودها التي قطعتها على نفسها بالنسبة للعرب بما فيها عقد مؤتمر جنيف في تشرين الاول من هذا العام ، بينما تحافظ على دور الوسيط الذي يعطي النصائح للطرفين ، دون ان تضطر الى ممارسة الضغط على اسرائيل من أجل تنازلات سياسية واقليمية ، تضطر معها اسرائيل **للانصياع** بالتالي الى مطالبها ٠

وهذا هو التغيير الاساسي الذي تسعى الحكومة الليكودية الجديدة اليه في تعاملها مع اية مفاوضات مقبلة مع العرب وليس كما كان في المفاوضات السابقا ابان حكم جولدا مئير واسحق رابين ٠ حين كانت جميع المفاوضات تتم عبر الولايات المتحدة ٠

اما بالنسبة « لمعاهدة السلام » ، وهذا هو التعريف السياسي المتداول والمتفق عليه ، ولا يمكن استبداله بتعريفات اخرى ، كـ « حل شامل » او « اتفاق نهائي » ، حتى ولا « اتفاقية سلام » وهذا هو التعريف الذي استعمله الرئيس كارتر ٠ وبهذا يعرف مناحيم بيغن ، وهو رجل القانون ، انه من الصعب عليه محاورة الرئيس كارتر في هذا التعريف، وخاصة انه لم ينفك عن استعماله هو نفسه منذ عام ١٩٦٧ ، حين كان في حكومة « التجمع الوطني » وفي المعارضة، ولهذا قرر بيغن انه من الافضل له **الاستمرار في تبنيه ، ما دام الرئيس كارتر قد استعمله بنفسه وقبل نجاح الليكود في الانتخابات وهذا ، ما لم يكن** يتوقعه بيغن ، ولكن بيغن يعرف جيدا أيضا ، انه لكي يتم التوصل الى معاهدة سلام من الناحية الاستراتيجية ، لا بد من الايمان بفرص هذا الهدف لتحقيقه، اي لا بد من الايمان بأن العرب سيكونون مستعدين لقبول **طلبات الحد الادنى الاسرائيلي** ، والعكس بالعكس ، اي قبول اسرائيل لطلبات الحد الادنى العربية ، فمن الصعب علينا اذن ان نعتقد ان مناحيم بيغن وطاقمه الوزاري الذي اعد معه « مشروع السلام » ، قد تبنوا هذا الايمان ، اذ انهم يعرفون جيدا ان العرب لا يزالون بعيدين عن المفهوم الاسرائيلي لماهية السلام ، كما هو معروف لديهم جيدا كم هي بعيدة اسرائيل من الناحية الاقليمية ، عما قد يعتبره العرب **اساسا** لاتفاقية سلام ، وقد عبر عن ذلك ديان بكل وضوح حين قال : « خطة للسلام ، نقترح ، قاعدة للتفاوض ، نقترح ، ولكنها غير مقبولة من العرب ، ولا اعتقد ان العرب مستعدون لابرام معاهدة سلام معنا على اساس هذه الخطة » (بمحانيه

٧ـ٦ـ١٩٧٢) واضاف ديان « اما خطة تكون مقبولة من العرب كي يصلوا على اساسها الى سلام معنا ـ ولا ادخل في تفاصيل اي سلام سيكون ـ فانها خطة غير مقبولة من اسرائيل » (المصدر نفسه)

واضاف موضحا : « **واذا كنا نريد ان نعرف وبشكل واضح ما نريده ، فقد قالت اسرائيل انها لن تنزل من هضبة الجولان ، وانها تعتبر نهر الاردن حدا امينا ، وانها لن تعود الى الاوضاع السابقة ، وانها باقية في شرم الشيخ . اما ان نعرض خطة يقبلها العرب ، فهذه خطة استسلام وليست خطة سلام** » (المصدر نفسه) .

وفي رده على سؤال « لماذا لا نستطيع الوصول الآن الى حل سلمي ؟ » اجاب ديان « لانه لا يمكن ان نصل الى حل سلمي ، او اتفاقية سلام (وليس معاهدة سلام) دون الاتفاق على الحدود ، وانا انتمي لاولئك الذين يعتقدون باننا لا يتوجب علينا ان نعود الى الحدود القديمة لا للحدود السورية ، ولا للحدود المصرية ولا الاردنية ، ولهذا لا يوجد حل سلمي » (بمحانيه ٢٤ـ٨ـ١٩٧١) .

ثم يضيف ديان « ولهذا بالذات يمكن الوصول الى حل جزئي ، ولا ادري اذا ما كان هذا الحل سيعقد مع مصر أم لا، ولكنه مبدئيا ، ممكن » (المصدر نفسه).

هذا عام ١٩٧١ ، فماذا عن « مشروع السلام » الذي حمله بيغن الى كارتر ، ثم حمله كارتر الى فانس لينقله الى الدول العربية ، والذي يقوم على اساس الاجماع القومي في اسرائيل على عدم العودة الى حدود عام ١٩٦٧ وعدم الانسحاب من الضفة الغربية » ؟ الفرص « لمعاهدة السلام » التي ينشدها بيغن لم تتبدل ، وشروط الحد الادنى الاسرائيلية لم تتغير .

اذن ما الذي يريده بيغن ، من اصراره على المطالبة « بمعاهدة سلام حقيقي ودائم » ؟ ثم لماذا المفاوضات المباشرة مع كل دولة عربية من دول المواجهة بمفردها ؟ وما هو البديل ؟

ان بيغن يعرف جيدا وكذلك ديان ، انهما لا بد وان يصلا الى النتيجة الحتمية ، وهي **حلول وسط** اضافية ،حيث تكون الاولى في سلم الاولويات هي مصر .

فمن الناحية المدنية يبدو ، اذن ، ان بيغن يوافق ديان ، على ان لا بديل الآن سوى الحلول الوسط ، ما دامت اسرائيل لا تستطيع الوصول الى معاهدة سلام مع العرب ضمن شروطها ، ولكنه قرر ان يتبع تكتيكا مغايرا ، فلماذا عليه هو ان يخالف الرئيس كارتر ويصرح بأن معاهدة سلام هي غير عملية ؟ اذ ان قولا كهذا سيفسر من قبل الولايات المتحدة على انه تهرب ، وهو احوج ما يكون الى كسر الصورة المتطرفة لحكومته لدى الحكم والرأي العام الاميركي .

ولذلك عليه ان « يخلق وضعا يجعل الامريكيين يقولون ذلك بانفسهم ، كما ويجعلهم هم يقترحون الحلول الوسط، كبديل في هذه الحالة » (هآرتس ١٥ـ٧ـ٧٧) . وما على اسرائيل عندها ، الا ان تتنازل لطلبات الولايات المتحدة ،وتوافق على السير في هذا الطريق الذي رسمته هي بنفسها .

وهكذا يظل الهدف الاساسي ، حلا وسطا ، ومع مصر بالذات اولا ، الا ان الطريق اليه تغيرت ، واصبحت اكثر انسجاما مع الولايات المتحدة .

المسألة الاقليمية :

في خطاب له امام اللجنة التنفيذية الصهيونية في « مبنى الامة » في ٢٣ـ٦ـ٧٧ صرح بيغن ان « ثمة اجماعا

قوميا كاملا لدى الشعب اليهودي ضد الانسحاب الى حدود ١٩٦٧ ، واقامةدولة فلسطينية » · واضاف « اننا لن نعود الى حدود ما قبل الرابع من حزيران ١٩٦٧ ، ولا نستطيع باي شكل من الاشكال العودة الى هذه الحدود ولن نفعل ذلك ، ولن نسمح تحت اي ظرفمن الظروف ان تقوم في الضفة الغربية وقطاع غزة دولة تدعى فلسطينية » · وقال ان « القرار ٢٤٢ ينص وفقا للقانون الدولي على ان الاطراف نفسها تحدد الحدود الآمنة والمعترف بها ، بواسطة مفاوضات بينها، دون شروط مسبقة ، ودون اي طلب انذاري ودون اي صيغة حل من الخارج » ·

ولو استعرضنا كل مقالات بيغن السياسية التي نشرها في زاويته نصف الشهرية في صحيفة معاريف ، وخاصة تلك التي تبحث في الاوضاع السياسية ونقده للمباحثات التي كانت جارية بواسطة وزير الخارجية الاميركية د· هنري كيسنجر والتسويات الجزئية بعد اتفاقية سيناء الاولى اثر حرب تشرين ١٩٧٣ ، لوجدنا انها جميعها كانت تتركز حول رفضه للمفاوضات عبر الولايات المتحدة ، والانسحابات الجزئية دون معاهدة سلام نهائية وان «الانسحابات المؤقتة هي خراب اي فرصة للسلام » (معاريف يديعوت احرونوت ١٣ـ١ـ٧٥) الا انه لم يعرض في اي منها اي تصور لنوعية هذا الانسحاب الذي تكون اسرائيل مستعدة له ، في حالة توقيع معاهدة السلام التي يريدها ، كما خلت جميع الخطوط الاساسية لحركة حيروت لانتخابات الكنيست الاسرائيلي من ذلك ، اللهم من رفض الحركة للعودة الى خطوط ما قبل الرابع من حزيران ١٩٦٧ وعدم الانسحاب كلية من الضفة الغربية وقطاع غزة والتمسك بمبدأ ارض اسرائيل الكاملة ·

اذ ان بيغن يؤمن ان « المؤسسة السياسية لا ينبغي ان تكون دكان بضائع قديمة » ، فيما يتعلق بالمفاوضات القائمة على التنازلات المتبادلة الى ان « يتوصل الاطراف الى تسوية اساسها التنازل » لان « هذه الطريقة تقود الى نتائج سلبية وخطيرة » · (معاريف ٢٩ـ٨ـ٧٥) كما ويؤمن بانه لا ينبغي على الحكومة ان تطرح شروطا معينة ثم تتنازل عنها ، فاذا ما قالت « هذه الحكومة لا معينه » فلا بد لها ان تتوقف عندها وتتمسك بها · وان « لا تضعف مقاومتها اذا ما مورس عليها ضغط معين » (المصدر نفسه) لان « مسألة المصداقية بالنسبة للحكومة في المفاوضات مسألة مهمة جدا » (المصدر نفسه) ·

وحتى في الخطوط الاساسية لحزب الليكود الذي فاز على اساسها بالانتخابات للكنيست التاسع ، وتسلمه زمام الحكم في اسرائيل ، بل والخطوط الاساسية التي اعدها مع الاحزاب الائتلافية المشاركة لعرضها على الكنيست والتي نشرت في صيغتها الاولى في صحيفة معاريف ويديعوت احرونوت في ١٩ـ٦ـ٧٧ ، لم تأت ، ولو بالاشارة على استعداد الحكومة لتنازلات اقليمية مقابل السلام اللهم الا عبارة « كل شيء قابل للتفاوض بدون شروط مسبقة » · ولم يكن هناك من تغيير بارز في الخطوط الاساسية هذه الا في اللحظة الاخيرة وقبل عرضها على الكنيست لمنحها الثقة· فقد جاء في البند السادس لهذه الخطوط حسب النص السابق ان « الحكومة تعلن عن استعدادها للاشتراك في مؤتمر جنيف اذا ما دعيت من قبل الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي » الا ان الحكومة عادت واضافت جملة « على اساس القرارين ٢٤٢ ، ٣٣٨ » · ولكن لم يكن في هذا التعديل من جديد ايضا كما قال بيجال يادين لانه « لا يتضمن اي اعلان

عن قبول مضمون هذين القرارين لمجلس الامن ، وانما موافقة على الذهاب الى مؤتمر جنيف اذا ما دعيت على اساس هذين القرارين » (معاريف ٢٠-٦-٧٦)

وان كان بيغن وديان قد اكثرا من الحديث ، قبل سفر الاول الى الولايات المتحدة عن « خطة السلام » التي يحملها معه ، والتي تبلورت في اجتماع الطاقم الوزاري بيغن ديان ووايزمن ، والتي سربتها الصحف عشية اجتماع بيغن بكارتر ، حيث تضمنت ما يختص بمصر وسوريا بالبندين « انسحاب كبير من سيناء وانسحاب محدود من الجولان » فلم يكن ذلك الا لتجميل الصورة المتطرفة لحكومة ليكود لدى الحكم والرأي العام الاميركي ٠

ولان بيغن لم يضع اي تصور لهذا « الانسحاب الكبير والمحدود » بل وتبدو هذه العبارة جديدة في القاموس البيغيني ، فلا بد وان يكون قداستعارها من القاموس الدياني ، المليء بها منذ عام ١٩٦٧ ٠

اذ ان « وزارة الخارجية قامت باعداد مقترحات لرئيس الحكومة مناحيم بيغن بمناسبة سفره الى الولايات المتحدة ٠٠ ومن بين هذه المقترحات افكار مختلفة وقديمة لموشيه ديان » (ر١٠١٠ ٣-٧-٧٧) وقد اكد ذلك موشيه ديان نفسه **في مقابلة** له مع صحيفة « التايمز » اللندنية **بان** لديه « افكار جديدة عن امكانية العمل من اجل التقدم بعملية السلام » ٠ **واضاف** « ولو لم يكن لي افكار كهذه لما كنت اقبل اقتراح السيد بيغن ان اشغل منصب وزير الخارجية في حكومته » (يديعوت احرونوت معاريف ١٠-٦-٧٧) وفي موضوع العلاقات مع مصر قال « علينا ان نعمل ما في وسعنا لاضعاف الحوافز الحربية في القاهرة ، وخلق حياة طبيعية في المنطقة » ٠ فاذا ما كان هنالك مليونا مصري يعيشون في مدن القناة ، فهذا يشكل بالنسبة لنا حدا امنا في مواجهة الحرب ، اكثر مما كان يشكله خط بارليف» (المصدر نفسه) ٠

ولكن ما الذي « تعنيه الحياة الطبيعية في المنطقة » بالنسبة لمفاهيم ديان ، انها تعطي نفس المفهوم لما كان يردده دائما بأن الحل يجب ان يكون هكذا : « ان يستطيع الطرفان العيش سوية في ظله » (بمحانيه ٢٤-٨-١٩٧١) ، وحين سئل « ماذا يعني هذا بالنسبة لاسرائيل ومصر وماذا يعني بالنسبة لاسرائيل والاردن » (المصدر نفسه) اجاب : « في رأيي ان مصر تستطيع العيش ونحن نجلس في شرم الشيخ ، فشرم الشيخ لا يشكل ممرا لاي مكان حيوي بالنسبة لمصر ٠ فعندما تكون هناك سيادة اسرائيلية على **شرم الشيخ** ، فان مصر تستطيع العيش معنا في ظل هذه الحقيقة، « انا شخصيا لا اعتقد ان مصر تستطيع العيش في نفس الدرجة مع وجودنا على ضفة القنال ، هذا هو مثل فقط » واضاف « ولهذا فانني اعتقد ان **الحد الدائم** الذي نكون مستعدين له ، **ليس** بالضرورة **ان يمر في قناة السويس** ، والحدود الدائمة التي على مصر ان تكون مستعدة لها ، يجب ان تضم **شرم الشيخ تحت سيادتنا** » (المصدر نفسه) ٠

واضاف « ولكنهم عندما تبدأ المفاوضات من جديد ، فانهم سيقترحون علينا الحيل التي قدموها لنا في السابق، مثل مناطق مجردة من السلاح ، وقوات دولية في شرم الشيخ ٠٠ اننا لا نستطيع العيش على ضمانات دول كبرى اجنبية، انها عملية مزيفة ، ولذلك علينا ان نوضح للجميع ٠ انه لحماية دولة اسرائيل ، ثمة قوات لنا ، تملك المدرعات والطائرات **وكل المعدات اللازمة لذلك** » ٠ واضاف « ولقد اثبتنا جدية توجهنا

لمشاكل الامن السياسية للدولة ، فعندما كان الحديث عن شرم الشيخ ، شقينا الطريق اليه قبل كل شيء ، وهكذا فعلنا في كل مكان آخر · لقد جلبنا المياه وبنينا المستوطنات ، وعملنا على تحويل مناطق كاملة لمناطق يهودية اضافية تابعة لدولة اسرائيل » ·

اما بالنسبة لهضبة الجولان فاضاف انه يجب ان يكون واضحا للجميع بانه « لن يكون جولان سوري » « معاريف ١٠ـ٩ـ١٩٧٣) ·

وهكذا فاننا نرى ديان يعمل ويصرح دائما بادراك كامل وهادف ، لتثبيت حقائق من شأنها ، ان تمكنه في النهاية من تجسيد خارطة الحدود الامنة ، وقد بدا عمله في هذا الاتجاه جليا فبعد المباحثات الوزارية بعد مرور ٦ سنوات على الاحتلال « لوضع خطة عمل للاربع سنوات المقبلة » عشية حرب تشرين عام ١٩٧٣ ، اذ قال ديان : « لقد مرت ٦ سنوات منذ حرب الايام الستة ، ونحن نتكلم الآن عن الاربع سنوات القادمة ، هذه هي فترة زمنية كاملة والسؤال المهم ، ما الذي سنفعله في هذه السنوات الاربع القادمة » ؟ واضاف « صحيح اننا لا نحارب طيلة الوقت ، ولكننا تعودنا ان نخوض حرب ٦ ايام كل ١٠ سنوات» (معاريف ١٠ـ٩ـ٧٣) ثم تساءل ديان « ما الذي يريده العرب منا بالضبط ؟ »واجاب على السؤال الذي طرحه بنفسه « انهم يريدون منا ان ننسحب للحدود السابقة » اما بالنسبة لحدودنا الآمنة ، فانهم يقترحون نصوصا مختلفة ، ولكن تجربتنا ترتكز على مبدأين مهمين :

١ ـ الاساس الامني ·

٢ ـ أساس العمل والخلق » (معاريف ١٠ـ٩ـ٧٣) ·

واذا ما نظرنا الى سلسلة المستوطنات التي اقامتها اسرائيل في سيناء وجولان، و « المشروع الهيكلي » الذي وضعته للاستيطان ، والذي عرض على وزير الزراعة في الحكومة الليكودية الجديدة ارئيل شارون ، فقال عنه انه « يجب ان يكون هدفا قوميا اساسيا » (يديعوت احرونوت ٢٤ـ٦ـ٧٧) والذي يبحث في اقامة « سلسلة مستوطنات فردية ومدينية وصناعية من الجولان وحتى شرم الشيخ بحيث يشكل خطا دفاعيا لليوني مستوطن » (المصدر نفسه) ·

واذا ما اعتبرنا ان تمسك اسرائيل بسيطرتها على مصادر المياه ـ بل واطماعها في مصادر اضافية ـ والتي ضمها شارون الى ضمن « المشاكل الامنية » اذ ان « الاستهلاك السنوي للمياه في اسرائيل يبلغ مليارد ونصف م٣ وان ثلثي هذه الكمية اي مليارد م٣ ، هي مياه مصدرها من خارج الخط الاخضر في الجولان والضفة الغربية ·» (المصدر نفسه) · ولهذا « فلا بد وان تكون احدى العناصر الهامة في ادعاءات حكومة ليكود خلال المباحثات على الخطوط والحدود » (المصدر نفسه) ·

نتوصل الى ان حكومة ليكود ستفسر هذه الانسحابات الكبيرة في سيناء والانسحابات المحدودة في الجولان للتوقيع على « حدودها » السياسية والامنية ، اي خطوط خارطة السلام بالنسبة لاسرائيل والتي يسميها ديان « حدود دولة اليهود » (معاريف ٢٤ـ٨ـ٧٣) ·

١ ـ في الجولان ـ الشريط الاستيطاني ما هو قائم وما هو ضمن مشروع فاخمان بالاضافة الى مصادر المياه ·

٢ ـ سيناء ـ مشارف رفح وشرم الشيخ وسيطرة في وسط سيناء كي يمنح اسرائيل ما يسميه ديان « سيطرة

رادارية » ، اي منطقة انذارية لمنع احتمال حرب جوية وبرية تشنها مصر ضد مراكز السكان ·

هذا بالاضافة الى :

٣ ـ من الشرق ـ نهر الاردن والاودية مع امتداد نهر اليرموك ·

وبهذا نستطيع اختصار « حدود دولة اليهود » هذه بانها تمر من جبل الشيخ الى شرم الشيخ ·

·· ومن الفلسطينيين

جاء في الخطوط الاساسية لحكومة ليكود ، فيما يتعلق بالموقف من الشعب الفلسطيني والاراضي الفلسطينية المحتلة انه :

● « للشعب اليهودي حق تاريخي وابدي في « ارض اسرائيل » ، وغير قابل للنقض ·

● « الحكومة تخطط وتقيم وتدعم الاستيطان المديني والفردي على ارض الوطن وفقا لاهداف الدولة الصهيونية ومتطلبات امنها ·

● « تضع الحكومة ، حركة الهجرة اليهودية الى اسرائيل على رأس قضايا الامة ·

● « يخول الكنيست الحكومة بتطبيق قانون الدولة وحكمها وادارتها على كل منطقة تابعة « لارض اسرائيل » · هذه الصلاحية البرلمانية تكون خاضعة لاعتبارات الحكومة الدائمة ، ولن تنفذها ما دام ثمة مفاوضات تجري على معاهدة سلام بين اسرائيل وجاراتها ، ويكون الامر مرتبطا باختيار الوقت الملائم وبالاعتبار السياسي للحكومة ، وببحث خاص في الكنيست وبموافقته ·

● « المساواة في الحقوق لكل المواطنين والسكان ، دون فرق في الدين او العرق او القومية او الجنس او الطائفة » ·

وبعكس ما رأينا في حديثنا عن موقف حكومة الليكود الاسرائيلية الجديدة من العرب بشكل عام ، وعن سياستها المستقبلية من الناحية السياسية والاقليمية والتي تتسم بالغموض والثورية الى حد ما ، وباللعب على الوسائل والحيل الدبلوماسية ، بين ما هو مرغوب فيه وما هو ممكن ، مما يترك المجال لاحتمالات الصواب والخطأ ، فان موقف الحكومة الحالية وسياستها المستقبلية فيما يتعلق بالشعب الفلسطيني ومستقبل الاراضي الفلسطينية المحتلة واضح وصريح ، ولا مجال للاحتمالات فيه ، لكونه ينبثق من « الاجماع القومي لدى الشعب اليهودي وجميع الاحزاب في اسرائيل ـ عدا الحزب الشيوعي راكاح ـ ، على عدم الانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة، واعتبارهما ارضا محررة من الاحتلال الاجنبي ، وجزءا لا يتجزأ من اسرائيل، وعدم قيام كيان فلسطيني عليها » على حد تعبير بيغن وديان وشارون ووايزمن بل ووفقا لتصريحات رؤساء الحكومات المعراخية السابقة ، جولدا مئير ورابين وبيرس منذ حرب ١٩٦٧ وعلى طول صفحات الصحف الاسرائيلية وعرضها ، وفي مختلف المواقف ، اذ لا خلاف بالتالي بين المعراخ والليكود ، او سائر الاحزاب الاسرائيلية الاخرى ـ سوى ـ راكاح ـ على حد تعبير مناحيم بيغن، على هذه « المسألة الوطنية » ·

ولهذا ، فان هذا الموقف ، هو موقف ثابت من حيث الجوهر ، ولا يتحول ،وأي تفسير وتحليل له غير ما يعنيه بحرفيته، وكما هو مطروح علنا ، هو تفسير خاطيء من اساسه ·

اسرائيل لن تتراجع · لن تتنازل · لن تنسحب من أي شبر من الاراضي

الفلسطينية المحتلة ، ولن تعترف حتى بمجرد وجود شعب فلسطيني · ولن تسمح باقامة دولة فلسطينية حتى في الضفة الشرقية للاردن والتي لا تزال تعتبرها هي الاخرى « جزءا لا يتجزأ من ارض اسرائيل » وان كان الانجليز قد « انتزعوها لكي يقيموا عليها المملكة الاردنية الهاشمية » ، الا مكرهة ، ولن يكرهها على ذلك الا العرب ، ولا طريق الى اكراههما الا القوة ·· القوة العربية وبكل اشكالها مجتمعة وفي آن واحد ·

اما بالنسبة لاسرائيل ، فهي ليست في حاجة الا لبعض الوقت فقط ، لازدراد الاراضي التي احتلتها ، جيدا ، الى ان تصبح جزءا عضويا من جلدها ولحمها وخلاياها · بمنح « سكانها » العرب « حقوقا » متساوية مع « المواطنين » اليهود ـ ، ثم تطبيق القانون الاسرائيلي عليهم ، ومن ثم استكمال استيطانها ، وبالتالي تهويدها، ولا حاجة لاصدار قرار حكومي بضمها ، اذ « هي جزء لا يتجزأ من اسرائيل » على حد تعبير بيغن وحكومته ، ولكي تبقى حدود اسرائيل المغير كاملة ، مجرد خطوط وقف اطلاق نار مع شرقي الاردن ، وهو « الجزء الذي اقتطع من ارض اسرائيل الكاملة » وفقا للنظرية الصهيونية وخاصة الجابوتينسكية والبيغنية منها ·· ولم يحن الوقت بعد لوضع الحدود النهائية « للدولة اليهودية » ·

ولسنا في حاجة لاستعراض كل الادعاءات البيغنية والصهيونية التوراتية ، التي لم ننفك عن سماعها منذ المؤتمر الصهيوني الاول عام ١٨٩٧ في بازل ، وانتهاء في « المؤتمر الصهيوني البيغني الكارتري » في البيت الابيض في ١٩ ـ ٢٠ ـ ٧ ـ ١٩٧٧ عن « الحق التاريخي لليهود على ارض اسرائيل » في فلسطين ، والذي تضمنه حصر الارث الالهي لهم · اذ يبدو ان مناحيم بيغن نفسه ، اصبح لا يرى ـ وقد يكون بالاتفاق مع كارتر الذي يقرأ التوراة ، ويقرأ القانون الدولي ايضا ـ في هذه الادعاءات الارثية ، ما يمنحه الوقت الكافي لاتمام عمله ، وخاصة أن القوانين الدولية المتعامل بها داخل الامم المتحدة ـ هي قوانين « لاسامية » ولا تعترف بقوانين حصر الارث التي يتعامل بها اله اسرائيل ـ وخاصة في قراراتها التي تتعلق بالقضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني منذ عام ١٩٤٨ والصادرة عنها ·

ولهذا ، فقد عمد مناحيم بيغن الى طرح النظريات الجيو ـ سياسية التي تتبناها حركة « ارض اسرائيل الكاملة »، الى جانب النظريات « الجيو ـ توراتية »، بالاضافة الى القوانين الدولية ، بعد ان اكتشف انها تورث الشعب اليهودي فلسطين كلها ، وفقا « لحصر الارث » للدولة العثمانية الميتة · وان كانت هذه القوانين تهضم الشعب اليهودي حقه ، بايجاد شريك له ، غير معترف ببنوته ، ومنحه نصف « الارث الالهي » ، للمملكة الهاشمية ، في شرق الاردن ·

وقد انتدب بيغن لهذه المهمة ، بعد توليه زمام الحكم مباشرة ، احد زملائه السابقين في قيادة « اتسل » ، واحد مؤسسي حركة « ارض اسرائيل الكاملة» ومنظرها الاول ، الارهابي المعروف شموئيل كاتس ، لوضع خطة اعلامية واسعة ، لشرح هذه النظريات والقوانين، على اوسع نطاق ، تمهيدا لتنفيذ سياسته المستقبلية تجاه الفلسطينيين شعبا وكيانا وارضا ·

اما نظريات شموئيل كاتس الجيو ـ سياسية التي يتبناها ، والتي كان ينشرها في مقالاته بعد تأسيس حركة « ارض اسرائيل الكاملة » ، لتدعيم مواقفه ، ومن ثم في كتابه « ارض الصراع » ، فتعتمد على الفلسفة

الجيو ـ سياسية ، للالماني كارل هاوسهوفر ، القائلة بان « الجغرافية هي التي توجه حركة التاريخ ، وليس الاقتصاد » حيث يصبح الاشخاص ادوات لمعطيات جغرافية ، من خلال الفصل بين نوعين من الشعوب : شعوب « ثابتة » وهي التي توصلت الى اشباع ، وشعوب « متحركة » ، وهي التي تحتاج الى « مناطق عيش » ٠

ومن بين ادعاءات شموئيل كاتس التي يصر عليها ويكررها باستمرار كما لخصتها مجلة « هعولام هزيه » (٢٢ـ٦ـ ٧٧) بعد ترشيحه لمنصب المستشار السياسي لرئيس الحكومة مناحيم بيغن، هي انه « لا يوجد ثمة شعب اسمه شعب فلسطين ، ولا شيء اسمه لاجئون فلسطينيون » ، وانما « رعاع همج ملونون من مجموعة اسماء نكرة، وعديمة الشكل ، بعضها ينتمي لاناس حقيقيين احياء ، وبعضها منتحل من اساسه ، او تنتمي لاناس ماتوا منذ امد بعيد ، وشرذمة منها تنتمي لاناس لا مأوى لهم بعد خروجهم او خروج ابائهم من ارض اسرائيل عام ١٩٤٨ ، واكثرية هذه الشرذمة ، تنتمي لاناس هم اليوم سوليس مهما ما اصلهم ـ يعيشون ويعملون كمواطنين غير مدرجين ، يتلقون غذاء وعناية طبية على حساب دافعي الضرائب في العالم ، وكلهم يمشون في « صرة » واحدة ، في لوائح الامم المتحدة الرسمية تحت اسم لاجئين عرب ، ويوصفون زيادة على ذلك ـ مما يثير الغضب ، ضحايا العدوان اليهودي » ٠ (هعولام هزيه ٢٢ـ٦ـ٧٧) ٠

وليدعم شموئيل كاتس نظريته هذه ، فانه يذهب الى نفي وجود امة اسمها عربية اذ « لا يوجد ثمة امة اسمها امة عربية ، واذا ما وجدت امة كهذه فهي من خلق خيال لورنس رجل العرب ، الذي الصق ، اعتباطا ، كيان قومية تابعة للبدو الرحل ، على خليط من الفلاحين ، واختلق الكيان العربي ، اثناء الحملة البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي في اتجاه دمشق في الحرب العالمية الاولى » ٠ (المصدر نفسه)

وبعد ان « يثبت » مستشار بيغن السياسي ، الهوية اليهودية لفلسطين ، يخلص الى نتيجة بالنسبة لسكانها العرب والشعب العربي الفلسطيني بأنه: « لم تكن امة كهذه ، فالادعاء بروابط تاريخية ، وبحقوق تاريخية ، وبملكية ما يسمى « الشعب العربي » ، او ما يسمى الكيان الفلسطيني ، هي كذبة اختلقت في ايامنا » ٠

ولا تتوقف نظريات شموئيل كاتس عند هذا الحد بل ويدعي ان «ارض اسرائيل» ويعني فلسطين وشرق الاردن ، « كانت خالية من السكان في انتظار اهلها اليهود المشتتين » بينما يسمي العرب « الغزاة من الصحراء » ، وانه لا توجد « اية دلالة ثابتة في كتب التاريخ كلها ، لاية علاقة تاريخية للعرب في ارض اسرائيل هذه ، او اية اشارة الى انه كان ذات مرة ثمة قومية اسمها « عربية فلسطينية »، او انه كان للشعب العربي عامة عبر التاريخ بلاد اسمها فلسطين » (المصدر نفسه) ٠

بل ويتوصل مستشار رئيس الحكومة الاسرائيلية ، شموئيل كاتس ، في كتابه ارض « الصراع » ، الى ان « ارض اسرائيل لم تكن في يوم من الايام حتى مقدسة للمسلمين » وانما يمكن ان نسميها « مقدسة للديانتين اليهودية والنصرانية فقط ، وقطعا ليست مقدسة للاسلام » وان « ارض اسرائيل ليس لها اي معنى في دين المسلمين ، وما البراق، الا شهادة للعالم ، على اعتراف الاسلام

بالهوية اليهودية لهذا المكـان المقدس » (المصدر نفسه) ٠

ويبقي أن نعرف ان شموئيل كاتس هذا ، هو واحد من الطاقم الاسرائيلي ، الذي يرسم السياسة الاسـرائيلية الجديدة ـ القديمة ، واحد مرافقي مناحيم بيغـن في لقائه مع الرئيس كارتر بل وقد تأخر الاجتماع مع الرئيس كارتر ومستشاريه اكثر من ساعتين عن الوقت المحدد له، لان الحاضرين كانوا يستمعون الـى محاضرة عن الفلسطينيين لمستشار رئيس الحكومة شموئيل كاتس (معاريف ٢٠ـ٧ ـ٧٧) رغم ان الرئيس كارتر « يقـرأ التوراة ، ويعرف ان ارض اسرائيـل تابعة للشعب اليهودي » (ر٠١٠ ٢٣ـ٥ـ ٧٧) على حد تعبير مناحيم بيغن ، وان الاسم « فلسطين » ما هو الا ترجمـة اجنبية لارض اسرائيل (بيغـن ر٠١٠ ٢٣ـ٦ـ٧٧) ٠

اما مناحيم بيغن ، فقد تولى بدوره، وبوصفه رجل قانون سابق ، الناحيـة القانونية لاثبات حق الشعب اليهـودي القانوني ، وملكيته المطلقة في فلسطين، وفقا للقوانين الدولية ٠ اذ كان « قـد عكف منذ تولي الرئيس كارتر للسلطة ، على قراءة جميع المواد السياسيـة السابقة المتعلقة في هذا الموضـوع » (معاريف ٢٤ـ٦ـ٧٧) ٠ اذ « يبدو ان مناحيم بيغن مستعد في اسوأ الحـالات للموافقة على المفهوم الذي يعتمد علـى القانون الدولي ، والذي فسره **يوجيـن روستوف** ، رجل القانون الذي شغـل منصبا كبيرا في حكم الرئيس الأميركي جونسون » (المصدر نفسه) ٠

ويعتمد تفسير روستـوف على ان « الاردن واسرائيل همـا الدولتـان **الوريثتان للامبراطورية العثمانية ،داخل** المنطقة الاصلية للانتـداب **الانجليزي** » (المصدر نفسه) اي ان المشكلـة الفلسطينية ليست هي لب المشكلة ، كما « يفترض كارتر وبيتجزنسكي ، وبـول وآخرون » ، لان « الاصطلاح فلسطين ، يتعلق بمنطقة الانتداب الانجليزي كمـا عرف في الاصل ، من الناحية القانونيـة والتاريخية » (المصدر نفسه) ٠

ولهذا فان « قرار مجلس الامن رقـم ٢٤٢ ، يلزم الاردن واسرائيل ، ولا احد غيرهما ، بأن تحددا بينهما حدودا آمنـة ومعترفا بها ، وعلى هذا الاساس فقـط تتوصلان الى سـلام بينهما » (معاريف ٢٤ـ٦ـ٧٧) ٠

ولهذا ايضا فان « الاردن ، وبعـد ان خلق الامر الواقع ، وصفا جديدا في هذه المنطقة ، حيث يوجد في كل ضفـة للاردن دولة ذات سيادة ، فـان الاردن والذي يشكل الفلسطينيون غالبيةسكانه، لا يستطيع ، وليس له الحق ، فـي ان يطالب لنفسه بأية مناطق في الضفـة الغربية » (المصدر نفسه) ٠

ويبدو ان رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن ومستشاره شموئيل كاتس، استطاعا فعلا اقناع الرئيس الاميركـي كارتر ومستشاريه بذلك ، الى الحد الذي اعلن فيه وزير الخارجية الاميركيـة سايروس فانس ، في رده على سـؤال صحفي قبل بدئه جولته الشرق اوسطية، عمن هو « صاحب الحق في الضفـة الغربية » ، أجاب فانس ان « هذا سؤال مفتوح ٠ اعني السؤال عن صاحـب الحق في الضفة الغربيـة » (ر٠١٠ ٣٠ـ٧ـ٧٧) ٠

وفي رده على سؤال آخر اجاب انه «من الجائز ان لا يوجد طرف من الاطراف له حق في الضفة الغربية في هذه المرحلة » (المصدر نفسـه) ٠

وهذا الجواب « يدعم من الناحيـة القانونية ادعاء رئيس الحكومة بيغن ،

بان مصطلح « اراض محتلة » لا ينطبق على اسرائيل بالنسبة لليهودية والسامرة (الضفة الغربية)(المصدر نفسه) على حد زعم المعلق السياسي للاذاعة الاسرائيلية يتسحاق ايتان ، وقد اضاف ايتان « فاذا كانت مسالة السيادة على هذه المنطقة غير واضحة ، واذا كان هذا السؤال مفتوحا ، وان كل شيء مطروح للتفاوض ، فان موقف اسرائيل من سيادتها على الضفة الغربية ، لا يختلف عن موقف المملكة الاردنية الهاشمية من سيادتها على الضفة الغربية التي استمرت حتى حزيران ١٩٦٧ » (المصدر نفسه) . فالشعب اليهودي « حرر ارض اسرائيل من السلطة الاجنبية الانجليزية والاحتلال الهاشمي ، ولم يغتصبها من احد » على حد تعبير مناحيم بيغن في مطار نيويورك (معاريف ١٩ـ٧ـ٧٧) .

اما الفلسطينيون فليس لهم اية علاقة في هذا الجدل القانوني طبعا ، ولا حق لهم اطلاقا في فلسطين ، بل وحتى مسالة حق الاقامة ، في فلسطين هي مسالة مطروحة لاعتبارات وحسن اخلاق الدولة الصهيونية ، اذ انه « من الناحية القانونية ، وفقا للقانون الدولي ، ليس للفلسطينيين او الاردنيين ، أية مكانة خاصة في منطقتي اليهودية والسامرة (الضفة الغربية) والتي هي جزء لا يتجزأ من ارض اسرائيل المحررة من الاحتلال البريطاني والغزاة الهاشميين » (بيغن في معاريف ٢٦ـ١٢ـ٧٥) .

وبناء على ذلك فقد « اكد بيغن للرئيس كارتر ، ان اسرائيل لا تستطيع ان تهب حتى ولا موطىء قدم فلسطيني من اي نوع ، سواء سمي ذلك « وطن » او سمي « كيان » (معاريف ١٩ـ٧ـ٧٧) ، بل ويجب ان نخرج هؤلاء الفلسطينيين « خارج المجتمع الانساني » (ر١٠١٠ ١٠ـ٨ـ٧٧) على حد تعبير مناحيم بيغن وامام وزير خارجية الرئيس كارتر سايروس فانس .

واضح جدا .

لا شعب فلسطيني

لا وطن فلسطيني

لا دولة فلسطينية .

وهي نفس لاءات موشيه ديان التي قالها لسيروس فانس ، خلال جولته الشرق اوسطية .

هذا هو الاتجاه الرسمي لحكومة اسرائيل ، في اي مفاوضات سواء كانت تلك مع العرب او مع امريكا ، فيما يتعلق بالشعب الفلسطيني وكيانه وارضه، وسواء كان ذلك في اروقة جنيف او خارجها .

والحبل على الجرار .

فربما وجد العرب انفسهم ايضا،مضطرين لحمل القرآن والعهد الجديد ، وكتب التاريخ والقوانين الدولية معهم ، لاثبات كونهم « شعبا عربيا » اولا ، وانهم ليسوا مجرد « غزاة صحراويين » ، وليس لهم اية روابط او حقوق تاريخية وقانونية في الارض العربية ثانيا ، وثالثا فانهم قد يجدون انفسهم ايضا خارج « حصر الارث » الاسرائيلي ـ الاميركي، وفقا للقوانين الدولية ، بعد موت الامبراطورية العثمانية ، والانتداب الفرنسي ايضا .

توفيق فياض

جدول بالعمليات العسكرية

الرقم	تاريخ العملية		موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل
	اليوم	الساعة			
١	٢٩-٥-٧٧	٢١ر٠	الطريق العسكري الواصل ما بين الناصرة ومناطق الخليل	تفجير	الغام مضادة للاليات
٢	٣١-٥-٧٧	٢٢ر٣٠	هي « محانية دافيد » مدينة حيفا معسكر تجميع وصيانة الاليات المدرعا	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة
٣	١٢-٦-٧٧	١ر١٥ صباحا	احد المحلات التجارية شارع دافيد - تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة
٤	١٢-٦-٧٧	١٧ر١٥	القدس - احد الحواجز الصهيونية المقامة بين وادي الجوز والشيخ جراح.	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة
٥	١٢-٦-٧٧	٢٣ر١٥	عكا - بناية سكنية اقامها العدو في شارع بن عامي	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة
٦	٤ -٦-٧٧	٨ر٥ صباحا	القدس - محطة الباصات المركزية التابعة لشركة أيجد .	تفجير	عبوات ناسفة وموقوتة
٧	٢٦-٦-٧٧	١٠ر٠٠ صباحا	القدس - سوق محني يهودا	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة
٨	٢٦-٦-٧٧	٢٢ر٤٥	طريق حزما - بيت حنانيا	هجوم	اسلحة رشاشة
٩	٢١-٦-٧٧	٢٠ر٢٥	بنك لؤمي ساحة الساعة - نابلس	القاء قنبلة حارقة	قنبلة حارقة
١٠	٦ -٧-٧٧	١٠ر٢٥ صباحا	بناح تكفا - السوق المركزي شرقي تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة
١١	١١-٧-٧٧	٢٣ر٣٠	جبعتايم - شمال مدينة تل ابيب المطابق الارضي لاحد البنايات .	تفجير	عبوات ناسفة حارقة موقوتة
١٢	١٥-٧-٧٧	٢٠ر١٠	القدس - ميدان جيش العدو القريب من باب يافا .	تفجير	شحنات ناسفة مشركة موقوتة مؤلفة من قذيفة مورتر وت.ن.ت.
١٣	١٩-٧-٧٧	١٦ر٢٥	الطريق الرئيسية المؤدية الى مستوطنة رفديم القريبة من مدينة العريش .	زرع الغام	الغام مضادة للاليات

لقوات الثـورة الفـلسطينيـة ١-٦-٧٧ / ٢٨-٧-٧٧

خسائر العدو البشرية		خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة			المصدر ـ البلاغ العسكري	
قتيل	جريح		شهيد	جريح	مفقود	رقم	تاريخ
١		١ ـ تدمير الشاحنة ٢ ـ اتلاف جميع حمولتها ٣ ـ قتل سائقها الصهيوني				٧٧ـ٥٦	١ـ٥ـ٧٧
غير محدد	غير محدد	١ ـ احراق وتدمير ورشة عسكريـة تدميرا كاملا ٠ ٢ ـ اصابة عدد غير محدد من جنـود العدو العاملين بالورشة ٠				٧٧ـ٥٧	٢ـ٦ـ٧٧
		ـ تدمير المحل التجاري تدميرا تاما٠٠ واتلاف جميع محتوياته ٠ ـ اصابة المحلات التجارية باضرار ـ تحطيم زجاج جميع الابنية المجاورة٠				٧٧ـ٥٨	١٣ـ٦ـ٧٧
		اكتشفت العبوات قبيل الموعد المحـدد لانفجارها				٧٧ـ٥٩	١٣ـ٦ـ٧٧
غير محدد	غير محدد	١ ـ اضرار مادية بالغة داخل البناية ٢ ـ تساقط معظم زجاجها ٠				٧٧ـ٦٠	١٣ـ٦ـ٧٧
١	غير محدد	ـ مقتل خبير المتفجرات الصهيوني ـ اصابة عدد من رجال حرس الحدود المتواجدين بالقرب من الباص ٠ ـ تدمير جزء كبير من الباص				٧٧ـ٦١	٥ـ٦ـ٧٧
٣	٧	ـ تحطم واجهة احد المحلات التجارية				٧٧ـ٦٢	٢٨ـ٦ـ٧٧
		ـ اصابة السيارة الصهيونية				٧٧ـ٦٣	٢٨ـ٦ـ٧٧
		ـ اندلاع النيران داخل البلو ـ احداث اضرار مادية كبيرة بداخله				٧٧ـ٦٤	٢٨ـ٦ـ٧٧
	٣٣	ـ اصابة ٣٣ مستوطنا بينهم ٧اصاباتهم خطرة ٠ ـ تدمير المحل التجاري واتلاف محتوياته ـ اصابة المحلات المجاورة ببعض الخسائر ـ تدمير ثلاثة محلات تجارية في الطابق الارضي ٠				٧٧ـ٦٥	٧ـ٧ـ٧٧
غير محدد	غير محدد	ـ تدمير واحراق الطوابق الثلاثة فـي المبنى ٠ ـ تحطيم معظم زجاج الابنية المجاورة ـ اصابة عدد غير محدد من العدو بين قتيل وجريح ٠				٧٧ـ٦٦	١٣ـ٧ـ٧٧
غير محدد	غير محدد	١ ـ اصابة السيارة باضرار بالغة ٢ ـ قتل وجرح جميع افراد العـــدو المتواجدين بداخلها ٠				٧٧ـ٦٧	١٧ـ٧ـ٧٧
غير محدد	غير محدد	ـ تدمير السيارة تدميرا تاما ٠ ـ قتل وجرح جميع من فيها وعددهـــم (٦) افراد ٠				٧٧ـ٦٨	٢٠ـ٧ـ٧٧

الرقم	تاريخ العملية		موقعهـــا	نـوع العملية	السلاح المستعمل
	اليوم	الساعة			
١٤	٢٠ـ٧ـ٧٧	٢٤ر٥٠	احد المقاهي في مركز اورن التجاري ـ بئر السبع ٠	هجوم	قنابل يدوية
١٥	١٩ـ٧ـ٧٧	١٧ر٠٠	الطريق الرئيسي المؤدي الى مستوطنة كفار يوفال ـ شمال قلسطين ٠	زرع لغم ارضي	لغم ارضي
١٦	٢٠ـ٧ـ٧٧	١٤ر٢٠	« السوبر ماركت » الواقع في الشارع الرئيسي بمدينة نهاريا ٠	تفجيـــر	عبوات ناسفة موقوتة
١٧	٢٠ـ٧ـ٧٧	١٢ر٣٥ صباحا	القدس ـ حديقة الحيوانات الواقعـــة في حي موشيرم ٠	تفجيـــر	شحنة ناسفة موقوتة مؤلفة من قنبلة مزلقية مورتر ومادة ت٠ن٠ت٠
١٨	٢١ـ٧ـ٧٧	١١ر٣٠ ظهرا	الباص رقم (٩) التابع لشركة ايجد والعامل على خطوط القدس ـ شارع الملك جـورج ٠	تفجيـــر	عبوات ناسفة موقوتة
١٩	٢٧ـ٧ـ٧٧	٩ر٥٥ صباحا	تل ابيب ـ سوق الكرمل ـ مقهـــى شتيرن ومحل لبيع الملبوسات ٠	تفجيـــر	عبوات ناسفة موقوتة
٢٠	٢٧ـ٧ـ٧٧	٢٠ر٢٠	القدس ـ شارع شمالي ـ سينما اوريون	تفجيـــر	عبوات ناسفة موقوتة
٢١	٢٨ـ٧ـ٧٧	١٠ر٥٠ صباحا	بئر السبع ـ السوق المركزي	تفجيـــر	عبوات ناسفة موقوتة
٢٢	٢٨ـ٧ـ٧٧	١٠ر٥٠ صباحا	بئر السبع ـ السوق المركزي	تفجيـــر	٤٠٠ غرام من مادة ت٠ن٠ت٠ ومواد متفجرة وساعة توقيت

(١٠) اعترف العدو في نشرة اخبـار الساعة السابعة من يوم الخميس ٧ـ٧ـ ١٩٧٧ بوقوع انفجار في سوق الخضار في مدينة بيتاح تكفا لكنه أعلن عن وفاة امرأة واحدة ٠

(رصد اذاعة اسرائيل ، الخميـــس ٧ـ٧ـ١٩٧٧ العدد رقم (١٢٣٨)

(١١) اعترف العدو بان انفجارا ضخما وقع وتسبب في نسف الشقة الواقعـــة في منزل سكني في شارع فايتسمان فـي جفعتايم ٠ وادعت اذاعة العـــدو ان العملية نفذت على صعيد تصفيةالحسابات مع اصحاب محلات « بوتيك » للالبسة في نفس المبنى ٠ وقالت الاذاعة ان الانفجار قد دمر ثلاثة حوانيت تدميرا كاملا ،كما ادى جهاز التفجير الذي كان يحتويعلى مواد حارقة الى نشوب حريق هائل ـ (الساعة السابعة ٠٠ر٧) رصد اذاعة اسرائيل الثلاثاء ١٢ـ٧ـ١٩٧٧ ـ العدد رقم ١٢٤٢) ٠

(١٤) اعترف العدو باصابة خمســـة اشخاص من جراء قنبلة انفجرت في بئر السبع كما تسبب الانفجار باضرار بالغة لثمانية حوانيت ، وقد ادعى العدو بان الانفجار مسالة صراع مجرمين فيالعالم السفلي ٠

(رصد اذاعة اسرائيل ٢٠ـ٧ـ١٩٧٧،

خسائر العدو البشرية		خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة			المصدر ـ البلاغ العسكري	
قتيل	جريح		شهيد	جريح	مفقود	رقم	تاريخ
قتل وجرح ما يزيد عن ١٠من افراد العدو		ـ قتل وجرح ما يزيد عن (١٠) من افراد العدو ٠ ـ اصابة المقهى الصهيوني باضرار بالغة ـ تحطم واجهات بعض المحلات التجارية المجاورة				٧٧ـ٦٩	٢٠ـ٧ـ٧٧
٢		ـ تدمير الجرافة تدميرا تاما ٠ ـ مقتل سائقها ومساعدة ٠				٧٧ـ٧٠	٢١ـ٧ـ٧٧
غير محدد	غير محدد	ـ اصابة عدد غير محدد من افراد العدو بين قتيل وجريح ٠ ـ اصابة المتجر باضرار بالغة وتحطم جزء من محتوياته ـ تحطم زجاج بعض المحلات والابنية المجاورة ٠				٧٧ـ٧١	٢١ـ٧ـ٧٧
		ـ اصابة اثنين من المستوطنين الصهاينة احدهم جراحه خطرة				٧٧ـ٧٢	٢١ـ٧ـ٧٧
		ـ احداث اضرار مادية كبيرة داخل الباص ـ اصابة ما يزيد عن عشرة من افراد العدو بين قتيل وجريح				٧٧ـ٧٣	٢١ـ٧ـ٧٧
غير محدد	غير محدد	ـ تحطم زجاج معظم المحلات المجاورة ـ احراق محل للملبوسات ٠ ١ ـ اصابة عدد غير محدد من افراد العدو بين قتيل وجريح				٧٧ـ٧٤	٢٧ـ٧ـ٧٧
غير محدد	غير محدد	٢ ـ اتلاف محتويات احد المحلات المجاورة ٣ ـ احراق عدد من السيارات واصابة عدد اخر ٠				٧٧ـ٧٥	٢٨ـ٧ـ٧٧
غير محدد	غير محدد	تفيد المعلومات الاولية ان خسائر العدو البشرية كبيرة جدا ٠				١ـ٧٧ـ٧٦	٢٨ـ٧ـ٧٧
غير محدد	غير محدد	ـ اصابة اعداد كبيرة من افراد العدو المتواجدين داخل السوق بين قتيل وجريح ـ تدمير المطعم الصهيوني واتلاف جميع محتوياته ٠ ـ اصابة المحلات المجاورة باضرار ٠				٢ـ٧٧ـ٧٦	٢٩ـ٧ـ٧٧

(رصد اذاعة اسرائيل ، الساعة ٢٠ر٠٠ السبت ٣٠ـ٧ـ١٩٧٧) العدد رقم (١٢٥٨) ٠

(٢١ ، ٢٢) اعترف العدو في نشرته العبرية بان عبوة ناسفة انفجرت في مكان لبيع الفلافل في سوق بئر السبع جرح من جراء ذلك ٢٩ شخصا ، اصابة احدهم خطيرة ، واصابة ثلاثة متوسطة ، وقد وقع الانفجار في الساعة العاسرة والدقيقة الخامسة والخمسين صباحا ٠

(رصد اذاعة اسرائيل) الساعة ١٣ر٠٠ ـ الجمعة ٢٩ـ٧ـ١٩٧٧) العدد ١٢٥٧) ٠

العدد رقم (١٢٤٩) الساعة ٧ر٠٠) ٠

(٧، ١٠، ١٩، ٢٠) اعترف العدو بانه قبض على الخلية التي قام اعضاؤها بحادث التفجير في سوق الكرمل تل ابيب، كما ادعى بانه قبض على خلية ثانية كانت مسؤولة عن حادث الانفجار في سوق الخضر في بيتاح تكفا قبل وقت قصير واعترف ايضا بان الخليتين قامتا بوضع عبوات ناسفة في ثلاثة اوتوبيسات وكذلك في شارع « محني يهودا » وفي شارع « شمالي » وفي « ساحة تساهل» وتتألف الخليتان من ثمانية اعضاء من الجبهة الديمقراطية ٠

من منشورات

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

خلال عامي ١٩٧٦ و ١٩٧٧

- **حظر تصدير النفط : «دراسة قانونية - سياسية»**
  د. ابراهيم شحاته، ٤ ل.ل. بالعربية، ٨ ل.ل. بالانكليزية
- **وايزمن وشيطس : «دراسة في التعاون الصهيوني - الجنوب افريقي»**
  ريتشارد ستيفنز، ٨ ل.ل. بالانكليزية والافرنسية
- **الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٧٣،**
  جمع واختيار جورج نصر الله، ٦٠ ل.ل. بالعربية
- **الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٧٤،**
  جمع واختيار جورج نصر الله، ٦٠ ل.ل. بالعربية
- **الوثائق الدولية عن فلسطين - ١٩٧٢،**
  رئيس التحرير يان نلسن، ٥٠ ل.ل. بالانكليزية
- **الوثائق الدولية عن فلسطين - ١٩٧٣،**
  رئيس التحرير يان نلسن، ٧٠ ل.ل. بالانكليزية
- **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٢،**
  رئيس التحرير برهان الدجاني، ٦٠ ل.ل. بالعربية
- **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٣،**
  رئيس التحرير د. كميل منصور، ٦٠ ل.ل. بالعربية
- **قرارات الأمم المتحدة عن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي - ١٩٤٧-١٩٧٤،**
  مراجعة وتحقيق د. جورج طعمه، ١٣٠ ل.ل. بالعربية والانكليزية، ٤٠ ل.ل. بالافرنسية
- **الصحافة العربية في فلسطين ١٨٧٦-١٩٤٨،**
  اعداد يوسف خوري، ١٢ ل.ل. بالعربية
- **العرب تحت الاحتلال الإسرائيلي - ١٩٧٤،** ٤ ل.ل. بالانكليزية
- **من هو صاحبكم بيغن ؟** ٤ ل.ل. بالانكليزية

تطلب من المكتبات الرئيسية أو مؤسسة الدراسات الفلسطينية

شارع انيس النصولي - متفرع من شارع فردان، تلفون: ٣١٩٦٢٧، ص.ب: ٧١٦٤-١١، بيروت - لبنان

قرطاسية الخليج

GULF STATIONERY

مبيع بالجملة لجميع انواع الورق والقرطاسية

Wholesale for all kinds of Paper & Stationery

موريس قبطي

MAURICE KOBTI

Telex : 5955 - KOBTI

P. O. Box 4240

Tel. 26408

DUBAI - U.A.E.

تلكس : ٥٩٥٥ قبطي

ص.ب : ٤٢٤٠

تليفون : ٢٦٤٠٨

دبي - الامارات العربية المتحدة

شركة المنصور والعبدلي للتجارة والمقاولات ذ.م.م.

دولة الكويت ص. ب ١٢٠٧ الصفاة ـ برقياً : الزامل ـ تلكس : ماك ٢١٩٩

* أسسها عبد الرحمن المنصور الزامل وصالح العبد الرحمن العبدلي سنة « ١٩٥٩ ».
* رأسمالها (ـ/١٠٠٠٠٠٠ د.ك) مليون دينار كويتي مدفوع بالكامل .
* تتعاطى أعمال المقاولات العامة وخاصة أعمال الطرق والمجاري والحفريات .
* اول شركة كويتية تصنف وتؤهل في الفئة الاولى لمشاريع الطرق الكبرى .
* تملك وتشغل اسطولاً حديثاً من المعامل والمعدات ووسائل النقل يزيد عددها على « ٦٠٠ » قطعه بين خفيفة ومتوسطة وثقيلة .
* يتولى ادارتها جهاز متكامل من الاداريين والفنيين ذوي الخبرات الطويلة والمؤهلات العالية .
* نفذت بما يزيد عن (ـ/٣٠٠٠٠٠٠٠) ثلاثون مليون دينار كويتي من المشاريع الكبرى .

ALMANSOOR & ALABDALY TRDG. & CONT. CO. (W.L.L.)

P. O. Box 1207 - State of Kuwait - Cable :ALZAMIL - Telex : MAC 2199

* Established in 1959 by Abdulrahman M. Alzamil, Salih A. Alabdaly
* Registered paid up capital (KD. 1,000,000/-) One Million Kuwaiti Dinars
* Actively engaged in General Contracting particularly Roads, Sewers, Drainage and Earth Works.
* The First Kuwaiti Company to be qualified in Category (I) for major Road Projects.
* Owns and operates a modern fleet of Plants, Equipment and Vehicles numbering more than 600 items of light, medium and heavy.
* Staffed by a highly qualified and experienced administrative and technical personnel.
* Executed major projects valued at more than KD. 30,000,000 /- (Thirty Million Kuwaiti Dinars.)

منشأة النهضة الليبيّة

الوكلاء الوحيدون لسيّارات مرسيدس

للاستعلام والحجز: شارع النصر - طرابلس - ليبيا

قـــوّة
و
متانـــة

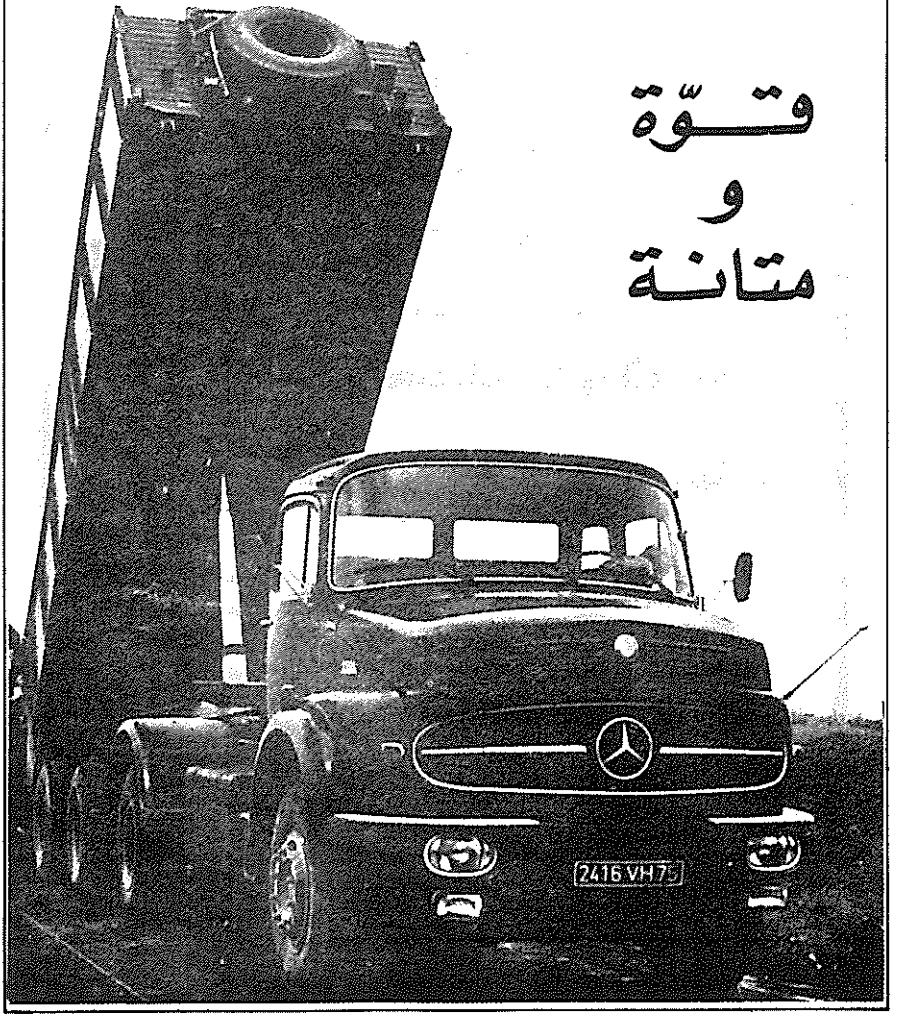

جُمعَة الماجِدْ

اسم لمع في حقل خدمة
المواطن العربي

يجدون لدى مؤسسة جمعة الماجد :

- جميع منتجات جنرال الكتريك
- إطارات يوكوهاما
- ساعات سيتيزن
- أفخم أنواع السجاد الشرقي والاوروبي .

وأشياء وأشياء .. يعجز عن وصفها ..

مؤسسة
جمعه الماجد
رمز الخدمة والجودة
دبي - الشارقة - أبوظبي
رأس الخيمة - الفجيرة

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Mahmoud Darwish; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 60. other Arab countries L L 75 or equivalent, Europe L L 100 elsewhere L L 125: *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 65. *Address:* P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351261: Cables: MARABHATH.

السعـــر: ٥ ل.ل. في لبـــنان
٦ ل.س. في سوريـا
٦٥٠ فلسـاً في الكويت والعـراق
١٠ دراهم في دولـة الامارات العَربية
٦ في سـائر الاقطـار العَربيـة
٨٥٠ درهـماً في ج.ع.ل.